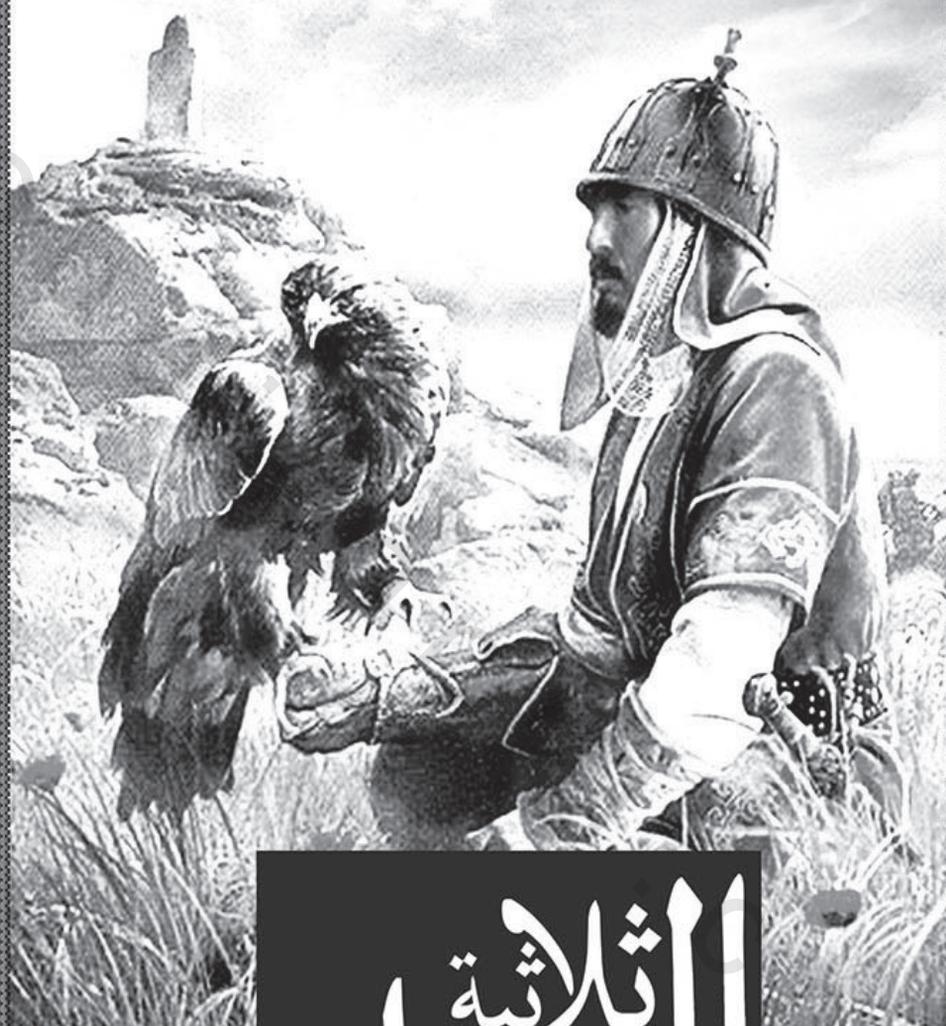


إلياس يسينبيرلين



الثلثية الرحل

الجزء الثالث
خان كيني

ترجمة
د/محمد رياض

Илияс Есенберлин

**«Көшпенділер»
трилогиясының араб тіліндегі
басылымы**

**БІРІНШІ КІТАП
«Алмас қылыш»**

Қазақ жазушысы Илияс
Есенберлиннің «Көшпенділер»
трилогиясының араб тіліне
аудармасы мен басылымы
Қазақстан Республикасының
Мысыр Араб Республикасындағы
Төтенше және Өкілетті Елшісі
Берік Арынның бастамасымен
және Қазақстан Сыртқы істер
министрлігінің көмегімен жүзеге
асырылды.

تم ترجمة وإصدار ثلاثية الأديب الكازاخي الشهير
«الرحل» بمبادرة من سعادة سفير جمهورية
كازاخستان في جمهورية مصر العربية
«أرمان ایساغالییف» و بدعم من وزارة الخارجية
بجمهورية كازاخستان .

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير
دار النشر
د. حسين الشافعي

المراسلات
114 ش جوزيف تيتو- النزهة- مصر الجديدة
القاهرة- جمهورية مصر العربية
Tel. : (+202) 219 27 157 & 219 27 158
Fax : (+202) 219 27 150
E-mail: support@a-rfcs.org

ترجمة
د . محمد رياض

الإخراج الفني
أحمد عثمان

تصميم الغلاف
مي مجدي

التصحيح والمراجعة
أسامة جاد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: (+202) 448 72 716

الطبعة الأولى 2017
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو صوتياً
دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
30162/2017

الرحل الثالثة

الجزء الثالث

خان كيني

إلياس يسينبيرلين



مقدمة

ولد مؤلف ثلاثية الرُحل والتي نقدم ترجمة الجزء الثاني منها تحت عنوان: "اليأس" الكاتب الكازاخي الشهير "إلياس يسينيرلين" عام 1915م في مدينة "أتباسار" بمحافظة "كمولينسكايا"، وتزامنت طفولته وصباه مع أحداث مؤسسة للغاية عانى منها الشعب بأكمله من تحولات اجتماعية ومجاعات وفقر مدقع، والتي جرت في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، وقد تضاعف شعور إلياس بهذه الأزمات بعد أن صار يتيماً وهو في الخامسة من عمره، فتم إيداعه في دار للأطفال، وبعد أن أنهى مدرسته الابتدائية سافر إلى كيزيل-أوردا وأكمل تعليمه بها. وفيما بعد التحق بوظيفة في مدينة "كارساكباي"، وتقدم بطلب للالتحاق بالدورات الخاصة للإعداد لمعهد التعدين والمعادن في أماتا وصار طالباً في معهد التعدين.

في عام 1940م أنهى إلياس دراسته في معهد التعدين والمعادن الكازاخي وأرسل للعمل في "جيزكازغان"، إلا أنه تم إستدعاؤه من قبل الجيش الأحمر في الخريف من نفس العام وقد أكمل دراسته في مدرسة تريجا العسكرية السياسية وخرج إلى الجبهة، وفي عام 1942م أصيب بجروح خطيرة في ساقه، وقضى عاماً في المستشفى العسكري، وفي عام 1943م عجز عن العمل وعاد إلى كازاخستان، وتم منحه ميدالياتان - الأولى «للخدمات القتالية» والثانية «للدفاع عن ليننجراد»، عمل إلياس كمعلم في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في كازاخستان، وفي نهاية الحرب تزوج إلياس من ابنة مفوض الشعب الحقوقي حمزة جوسوبيكوف الذي كان قد حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص عام 1937م. قبض على إلياس عام 1949م، وحُكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات، وأمضى نصف مدة عقوبته كمهندس تعدين، وعندما فك أسره عمل في وزارة الجيولوجيا بكازاخستان. وبعد ذلك عمل كمدير إدارة في مناجم بيرسوجير. قبل إلقاء القبض عليه كان إلياس قد كتب مجموعة من الأشعار من ضمنها قصيدة «عائشة» و«سلطان» عام 1945م ومجموعة «أغانى الشرف» عام 1949م وانتقل فيما بعد للكتابة السردية، ومن ضمن أعماله

«رواية عن الإنسان» عام 1957، «على ضفة النهر» عام 1960. منذ عام 1958م عمل كمحرر في هيئة التحرير وكاتب سيناريو للاستديو السينمائي «كازاخفيلم»،



ومنذ عام 1962 م - عمل كمحرر بدار نشر كازاخستان الحكومية الأدبية ثم عمل كسكرتير اتحاد الكتاب بـكازاخستان (1971 - 1975) ، ومنذ عام 1975 م تفرغ للعمل الإبداعي والذي كان ثمرته 15 رواية خلال 16 عام بمعدل رواية كل عام .

مسيرة الإبداع في حياة يسينبرلين :

بدأ يسينبرلين في عام 1945 م نشر مجموعات من القصائد والأشعار ، واختبر نفسه في الدراما وكتب مسرحية «الصراع في الجبال» ، وتم تقديم هذه المسرحية على مسرح الدولة للشباب ، ولاقت إقبالا مبهرا ، وصارت منذ ذلك الحين مكونا مهما في الموروث الثقافي الكازاخي .

كما كتب إلياس عدداً من الروايات الاجتماعية الواقعية ومن ضمنها «المعركة» عام 1966 م - عن المهندسين الكازاخين (وحصل على جائزة الدولة بجمهورية كازاخستان السوفيتية الاشتراكية عن هذه الرواية عام 1968 م) ، « العبور المحفوف بالمخاطر» عام 1967 م - عن إقامة السلطة السوفيتية في كازاخستان ، و« العشاق » عام 1968 م .

اتجه الكاتب فيما بعد إلى الأعمال التاريخية مثل : الثلاثية الملحمية الزحل : «خان كينى» عام 1969 م ، «السيف المسجور» عام 1971 م و« اليأس » عام 1973 م ، وقد شكلت هذه الروايات الثلاثية الشهيرة «الزحل» والتي تتضمن الأحداث في البرية الكازاخية منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتناول مكونات الشعب الكازاخي والعلاقات المتبادلة المتشابكة مع جونغاريا والصين وخوارزم وبخارى والإمبراطورية الروسية.

إلى جانب ذلك ... كانت هناك روايات أخرى فيما بعد من بينها : «الدروع» عام 1947 ، «الجياد الذهبية تغفو» عام 1976 م ، « جبهة مانجستاو» و« الوصية» وصدرت عام «1978» و«الجزر النائية» عام 1983 ، و« عيد الحب» و« غبطة الإوز الأبيض» وصدر كلاهما عام 1984 م . وكتاب يتكون من ثلاث روايات تحت مسمى « الزورق العابر للمحيط» ، والتي يحكي فيها عن أخلاق المفكرين الكازاخين ، ولم يتم نشر هذا الكتاب لمدة طويلة ، إلا أنه تم نشره ومجموعة أخرى من الأعمال بعد وفاة الكاتب .

منذ عام 1979 حتى عام 1983 م نشر الكاتب ثلاثية : «القبيلة الذهبية» ، والتي تتكون من روايات : «رأس أيداخار السادس» ، «ست عقول لأيداخار» ، «أيداخار والتنين الكازاخي» و« هلاك أيداخار» والتي يحكى فيها عن أصول الشعب الكازاخي .

ترجمت أعمال الكاتب إلى لغات عدة، وتم إصدار الملايين من النسخ منها (ما يزيد عن 8 ملايين نسخة)، وتعد الروايات التاريخية لإلياس من الأعمال العظيمة في ثقافة كازاخستان .



ثلاثية « الرُّحْل »

لا يوجد فعلياً في الأدب الكازاخي قبل إلياس يسينبرلين من كتب عن تاريخ الشعب الكازاخي مثلما كتب هو، وقد وصفت ثنائية مختار أوازوف «طريق أباي» حياة المجتمع الكازاخي في القرن التاسع عشر، أما ثلاثية الرُّحْل فقد وصفت البرية العظمية قبل العصر المنغولي وعصر جنكيزخان والقبيلة الذهبية، وسردت تاريخ تكوين الخانية الكازاخية في القرن الخامس والسادس عشر، ونضالها لعدة سنوات مع جونغاريا، وعن فترة ضم البراري الكازاخية إلى روسيا.

يحكى لنا إلياس يسينبرلين في ثلاثيته قصة الدولة الكازاخية وقبيلتها الذهبية في سرد روائي أدبي فريد، وهو تاريخ نظام الدولة في كازاخستان الذي يعود إلى نحو ثلاثة آلاف سنة. أما الدولة بمفهومها الحديث فقد جُسدت بإنشاء أول مملكة كازاخية منذ 550 عام. كان السلطان كيرى والسلطان جانبيك أول حاكمين للكازاخ كما برسم معالم الدولة الكازاخية في منتصف القرن الخامس عشر، وذلك بعد أن انفصلا عن الخان أبو الخير الحاكم لأقوى دولة في العصور الوسطى، وهما القبيلة الذهبية. كان الشعب الكازاخي دوماً جزءاً مهماً من هذه القبيلة الذهبية.

الشعب الكازاخي بطبعه شعب محب للحرية، رسم له معالم هذه الحرية شخصيات بارزة على امتداد تاريخه منها: خان حكنزار، خان تاوكي وخان أبيلاي، وخان أبو الخير، وغيرهم. وساهمت هذه الشخصيات في بلورة معالم الدولة، وتكوين ثقافة وتقاليد الشعب الكازاخي. شهدت الخانية الكازاخية مداً وجزراً على مر العصور، وتفككت إلى خانات صغيرة نتيجة صراعات داخلية وهجمات عدوانية فظيعة لعل أكثرها دموية ما تعرضت له في ثلاثينات القرن الثامن عشر.

وهكذا... كانت نهاية الخانية الكازاخية كدولة مستقلة موحدة في منتصف القرن الثامن عشر، حيث بدأت علاقات اندماج لتاريخ كازاخستان مع الامبراطورية الروسية.

يتناول الكاتب - في حوار له حول هذه الثلاثية - ملابسات ميلاد هذا العمل فيقول: «فكرت طويلاً في ثلاثية الرُّحْل» في عام 1945 م، وفي عام 1960 م إتجهت للعمل على ثلاث روايات هي ثلاثيتنا التي نحن بصدها. ويرجع السبب في طول فترة الأعداد لهذه الثلاثية ببساطة إلى أن المادة التاريخية تتطلب المثابرة والدقة المتناهية من المؤلف.

في عام 1969 م صدر الجزء الأول من الرواية تحت عنوان «قاهر» «خان كيني» مترجمة إلى الروسية عن الخان الكازاخي الأخير خان كينيسار، وبعد عامين صدر الجزء الثاني



ويضم: «الماس كيليش» و«السيف المسحور»، وبعد عامين آخرين - صدر الجزء الثالث «سكرة الموت»، «الياس». وقد شكلت هذه الأجزاء الثلاثة سوياً الثلاثية التاريخية الشهيرة «الزحل» التي تصدر طبعها العربية - لأول مرة - بجهد دؤوب، عمل الدكتور محمد رياض على إنجاز الجزء الأول والثاني من هذه الملحة بترجمتها للغة العربية، راجعت الجزء الأول منها الأستاذة نورا عبده والجزء الثاني الأستاذ خالد بيومي، وراجع الأستاذ أسامة جاد الجزء الثالث من هذه الثلاثية.. فلهم الشكر الجزيل والتقدير العميق لجهدهم.

تقدمت الثلاثية لنيل جائزة الدولة باتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية عام 1980 م، إلا أن مجموعة من اتحاد كتاب كازاخستان قاموا بكتابة خطاب تنبيه عن الكاتب للجنة وتم تحييه الكتاب جانباً.

صدرت رواية «الزحل» في البداية كثلاثية عام 1976 م، وصدرت فيما بعد باللغة الروسية 12 مرة بإجمالى عدد من النسخ وصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسخة، وصدرت مترجمة إلى 30 لغة من لغات العالم لـ 50 مرة بإجمالى عدد نسخ وصل حوالى خمسة ملايين نسخة (طبقاً لإحصائيات عام 2010 م).

هذا وقد قال رئيس دولة كازاخستان نور سلطان نازارباييف معقّباً على الرواية «احتلت ثلاثية «الزحل» الشهيرة مكانة خاصة في إبداع الياس يسينبيرلين، وتتميز بالأبعاد الملحمية وديناميكية الأحداث، والنماذج الحية والفريدة للشخصيات البارزة في تاريخ كازاخستان، وأيضاً بلغتها الدقيقة والمعبرة».

في عام 2005 م تم إنتاج الفيلم التاريخي «الزحل».

الجزء الأول من الثلاثية: «السيف المسحور» بين أيديكم يحكى قصة وتاريخ شعب عظيم...متفرد... يستدعي إلى الذاكرة العراقة... والأصول... والموروثات الثقافية لهذا الشعب، والآن بين أيديكم الجزء الثاني من ثلاثية الرحل «الياس» إستكمالاً لهذا العمل الموسوعي، فهيا إليه...

أما الجزء الثانى من ثلاثية الرحل و يحمل عنوان (الياس) فقد صدرت ترجمته فى 2016 ليحكى معاناة زحل كازاخستان والحروب التى دارت بينهم و صراعات الأمراء فى السيطرة على أراضيهم، على أنقاض مخيمات الزحل، ورغم كل ذلك لم يستطيع الأعداء الأقوياء أن يبيدوهم على مدى قرون من الزمان، لأنه فى أعماق السهوب، دائماً ماكان سلاح فرسان القبيلة على أهبة الاستعداد ليتحرك لأنقاذ الغانية الكازاخية الموحدة.



الجزء الثالث من ثلاثية الزحل و يحمل عنوان (خان كيني) للمبدع الياس يسينبيرلين الأديب الكازاخستاني الشهير فقد عكس روح النضال و الرغبة في الوحدة، و جمع شتات وطن، ارتفعت فيه أصوات الغناء من السهوب إلى عنان السماء!

اختفت عن الأعين جنبات الوطن ...

يا وطني لقد خنقتنا العبرات .

لماذا يارب ، شعبنا دائما بائس

و من كل حدب و صوب يظلم و يبعد في كل مرة

البؤس و الشقاء يخنقنا منذ سنوات الطفولة .

و ينتظر الجميع مصير الحزين كوركوت.

يا شعبي ! ليس لك مكان تحت الشمس ...

و نشهد في هذا الجزء نهاية الخانية الكازاخية التي كانت آنذاك دولة مستقلة موحدة في منتصف القرن الثاني عشر لتبدأ معها مرحلة جديدة في تاريخ كازاخستان تشهد اندماجها في الامبراطورية الروسية .

تصدر ثلاثية الزحل في أجزاءها الثلاثة (السييف المسحور) و (اليأس) و (خان كيني) كأول عمل موسوعي تاريخي متكامل لوصف حياة الكازاخ و تاريخ تكوين الخانية الكازاخية في القرنين الخامس و السادس عشر، و نضالها، في نظم أدبي روائي فريد يسرد تاريخ كازاخستان الذي يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام و هو الشعب الذي أثبت على امتداد تاريخه تمسكه بحريته و استقلاله و وحدته ، و قد دفع حياة الآلاف من شعبه ثمناً لذلك ... و أثق أنه لن يتنازل عن هذه الحرية و الاستقلال و الوحدة مهما كانت الظروف .

لدي (ص)

الثلثية الرحل

الجزء الثالث

خان كيني

للكاتب الكازاخي

إلياس يسينبيرلين

ترجمة د. محمد رياض

مراجعة وتقديم د. حسين الشافعي





الجزء الأول

I

كانت السهوب الشاحبة تحت ضوء القمر تنتظر الصباح. وساد هدوء ما قبل الفجر الذي لا يعرف له اسم محدد. وحدها الأذن الحساسة للغاية، المعتادة على هذا الصمت، تستطيع أن تسمع الحفيف المتواصل القادم من السهوب طوال الليل. عندما جلجل شيء ما، فجأة.

انكسر أول شعاع أبيض للفجر بسبب الغيوم البعيدة، وتلاشى القمر تمامًا، وأظلمت الأرض. ثم ظهرت إحدى القوافل. كانت الإبل تسير واحدًا تلو الآخر على عشب أخضر غرض يبلغ صدورها، يتخلله نبات الديس اليافع. وكانت قطعان الخيول على اليمين وعلى اليسار تسير ككتلة ثقيلة تدوس المرج، وتنغمر بالعشب تارة، ومن فوقها يظهر الفرسان تارة أخرى. ومن وقت لآخر كانت العربات العالية ذات العجلتين التي تسير على العشب، والمتصلة ببعضها بحبل طويل من الصوف، تقطع سلسلة الإبل. ثم تواصل الإبل سيرها مرة أخرى.

انقشعت السحابة البعيدة، وأضاءت الشمس جميع الأرجاء. تالأت السهوب مثل الأحجار الكريمة في كافة الاتجاهات في مدى الأفق. إنه النصف الثاني من فصل الصيف، ولقد ولى بالفعل ذلك الوقت الذي كانت فيه السهوب تشبه العروس في ثوب الزفاف. بقيت فقط خضرة نبات الديس الزمرديتية، والجزر الصفراء، والحمراء من الزهور الناضجة الشائكة، لكن في وسط الغابة الكثيفة من الحميض المتأخر كانت عيون العليق الحمراء تحترق. وتزينت السهوب بخيول شبعى عالية الجوانب قد أتخت خلال فصل الصيف.

ما إن أشرفت الشمس حتى حدثت جلبة قوية مكتومة الصوت، وسمع شخير وصهيل الخيول، وهدير الإبل الكئيب، وصرير العجلات الخشبية العالية، وأصوات بشرية. ورفرف سمان تحت الشجيرات بصوت عال، وبوم أعمى أخذه الإعصار الجليدي المتحرك على حين غرة. فقد أذاب الضوء الصمت، واستدعى كل أولئك إلى الحياة.



كان واضحًا من الوهلة الأولى أنها ليست مجرد هجرة موسمية لواحدة من القرى العديدة المنتشرة في السهوب الكازاخية الواسعة. فلم يكن الفرسان الشباب يهرعون كما جرت العادة على جانبي القافلة، ويتبادلون الضحكات مع الفتيات، وإنما ساروا صامتين بالقرب من الإبل. وكانت النساء على الإبل في شالات بيضاء تسمى كيمييشكي، صامتات أيضا. حتى الأطفال الصغار لم يكونوا يبكون، بل كانت عيونهم السوداء المستديرة تحمق من السروج غير الثابتة على جانبي حدبات الإبل.

في الأمام تالأت بحيرة كبيرة محاطة بأهداب نبات الديس البنية الكثيفة، ومن الشمال فقط، من حيث جاءت القافلة، تعرت السهوب بسبب التربة الطينية الحمراء. وعندما بدأت القافلة في الخروج من عشب السهوب العالي أصبح واضحًا أنها قافلة كبيرة. على رأسها كما هي العادة، في السهوب، رجل مسن يرتدي معطفا رمادياً من صوف الإبل، ويعتمر قبعة بدون أذنين، مزدانة بشريط نحيل من الفرو، يقود بمهارة جملاً ذهبي اللون داكنا ذا سنم واحد، مغطى بسجادة حريرية حمراء وبيضاء. وخرج معه في نفس الوقت من العشب مائة فارس يسيرون على جانبي القافلة، ينم مظهرهم عن قسوة ومنعة. تغطي ركبهم أطراف معاطفهم، المصنوعة من الخيوط الخشنة. وفي الجانب الأيمن علقت هرواتهم المصنوعة من شجرة البتولا الصلبة، المكسوة بالحديد أحيانا. والخيول، من تحتهم، تصدر شخيرا وتآكل اللجام.

من بين هؤلاء الفرسان طوال القامة برز واحد بشكل خاص بمظهره البطولي. يجلس بلا حراك على حصان رمادي ذي بدة منسدلة للأسفل. كان يعلو الآخرين برأسه، ويذا وجهه بعيونه السوداء التي تنفذ إلى الروح، وشواربه السوداء المدلاة أسفل ذقنه كأنه منحوت من صخر حرقة الشمس. وتحت ركبته دس الهراوة الثقيلة "تشوكبار" الخاصة بالأبطال، والمصنوعة من البلوط، والمكسوة كاملة بالحديد والمسامير. إنه البطل الشهير سيتين، ابن أزاباي، من بايان أوول كارجاس. لقد كان يقود هذه القافلة لينضم إلى يسينجليدي وسارجان، ابني قاسم، من النسل "التوري" العريق، كما يطلقون في السهوب على جميع الجنكيزيين.

قبل ثلاث سنوات أخرجوا من السهوب أربعين ألف أسرة من عشائر التين، وتوك، وأويك إلى السهول الفيضية لنهر سير داريا التابعة لخان كوكاند. ولكن كان هدف سيتين القريب هو الذهاب إلى ضفاف بحيرة بلخاش، حيث يستطيع الناس والحيوانات أخذ قسط من الراحة، واستعادة القوى من أجل الرحلة المقبلة.

ومن بين حراس القافلة، برز رجل آخر، وهو أوجار، ابن كوبيت، الشهير في السهوب. كان هذا الرجل القصير قوي البنية عريض المنكبين، الذي يشبه جذع شجرة صنوبر



معمرة، ويعلم وجهه العريض الأصفر الداكن حاجبان رهيبان كثيفا الشعر، يسير بهيئة من ارتكب جريمة قتل لتوه. ويحمل في جانبه سيفاً معقوفاً في غمد مذهب.

لقد تصادق أوجار مع سيتين منذ مدة طويلة، وشارك معه في العديد من الحملات، والمدهامات، لكنه خلال السنوات الأربع الماضية كان من بين الحاشية المقربة للسلطان الأكبر لمقاطعة أكمولا، كونور كولدجا، ابن كودايمي. وقد عاد مؤخراً إلى وطنه، وهو الآن يرحل عنه مع سيتين.

أثارت القافلة المقترية الذعر بالقرب من البحيرة. جفلت الغزلان في الأدغال، واندفعت بتهور إلى جانبي الأرض القاحلة، بعيداً عن الجيران الخطيرين. وفرك حيوان الهامستر، وهو جالس على رجليه الخلفيتين مثل ملاً يؤدي صلاة الصبح، خديه السمينين عدة مرات بأرجله الأمامية، وأصاخ السمع، وانطلق بسرعة في أحراش تشي. ورفرت الطيور بأجنحتها في الماء من الخوف، ولم ينزع الناس الأحمال حتى عن الإبل. تناولوا طعاماً جافاً، ثم أخذوا قسطاً من الراحة، وتحركوا مرة أخرى إلى الأمام بعد أن داروا حول البحيرة.

مرة أخرى لحق أوجار الذي تأخر لسبب ما، سريعاً، بالبطل سيتين. وبعد أن كبح جماح جواده الرمادي الداكن استأنف الحديث الذي لم يكتمل فقال متفكراً:

- هل كان قاسم توري على حق عندما غادر أرض الأجداد...؟ وهل نسي المثل القائل: "أن تكون قدماً في جسدك خير من أن تكون رأساً في جسد آخر". من يدري ماذا ينتظره في الأراضي الكوكاندية؟.

قال سيتين وهو ينظر إلى أوجار باستياء واضح:

- حيثما يحل قاسم توري فهو سلطان شرعي. ثم أردف: "أوليس الملك الأبيض نفسه هو من بدأ كل هذا الصراع الداخلي عن طريق إرسال ميثاقه!"

وجذب عنان جواده بغضب.

كان الحديث عن الميثاق الملكي الشهير، وهو "مجموعة قوانين قيصر عموم روسيا الخاصة بحكم الكسيك (الكازاخ، والقرغيز في سيبيريا) والتي نشرت في عام 1822م، أوفي عام الحصان بالتقويم الكازاخي. لقد كان لكلمة "ميثاق" وقع مخيف على أسماع أهل السهوب. فإذا ترجمت هذه الكلمة، حرفياً، فإنها تماثل عبارة "الضغط بالمخالب" في اللغة الكازاخية. وكان هدفه الحقيقي ينحصر بالفعل في هذا. فقد امتزجت في هذا الميثاق، بشكل وثيق، مصالح الحكومة القيصرية مع مصالح الإقطاعيين المحليين المنحازة إليها. فوفقاً لهذا الميثاق تم تقسيم أحد الاتحادات القبلية الكازاخية الثلاث، وهو الجزء الأوسط، إلى ثماني مقاطعات. وتتكون المقاطعة بدورها من خمس عشرة



إلى عشرين بلدة، وتمثل كل بلدة منها عشيرة منفصلة. وتضم بلدة العشيرة عادة من عشرة إلى اثنتي عشرة قرية، وفي كل قرية حوالي مائة يورت⁽¹⁾ ويحكم القرية أحد كبارها والذي يتم اختياره لمدة ثلاث سنوات. أما البلدة فيحكمها السلاطين التوريين (الجنكيزيين). ويحكم المقاطعة السلطان الأكبر سنا، والذي يتم اختياره بناء على توصية من الحكومة القيصريّة من قبل نفس هؤلاء السلاطين. ولكي يحكموا وثاقه ويجعلوه تابعاً لهم كانوا يمنحونه رتبة ضابط. وقد قال أهل السهوب: "هذا من أجل أن نخدش جراحنا المتقيحة بأظافرنا".

ووفقاً لهذا المبدأ تم تنظيم النظام القضائي الذي كان ذا أهمية كبيرة في حياة الرّحل.

وقد قسم النظام القضائي إلى درجتين. في الدرجة الأولى يتم النظر في المسائل الخاصة بالميراث العادي، والنزاعات القروية الصغيرة، والخلافات الصغيرة الأخرى. وكان يتولى هذا الأمر كبار السن، والبكوات، وهم القضاة القرويون الخواص. لكن القتل، وسرقة الماشية عنوة (باريتما)، وعدم طاعة السلطات، وغيرها من الجرائم الخطيرة كان يتم النظر فيها في الدرجة الثانية من قبل إدارات المقاطعات. وتضم إدارة المقاطعة اثنين من الموظفين القيصريين، واثنين من القضاة الكازاخ، الذين يتم انتخابهم لمدة عامين تحت رئاسة السلطان الأكبر، أو الأغا سلطان، كما يسميه الكازاخ. وكان يتم التصديق على قراراتهم من قبل محكمة المقاطعة التي لم يكن بها أحد من الكازاخ، ولا يصل إليها بأي حال من الأحوال سوى الغني والشخص المقرب من السلطات.

قال أوجار:

- إنه لشيء حسن أن الميثاق يحرم التعميد القسري، وأن يتم التعميد فقط على أساس طوعي⁽²⁾.

التفت سيتين نحوه بحدة، وقال:

- وكيف تثني لك معرفة ذلك؟

- كما لو أنه هكذا. الناس يقولون ذلك.

1. اليورت هو منزل قابل للتنقل، تقليدي الهيكل، مُحاط بإطار من الخشب المقوس، كان يتم استخدامه من جانب تركمانيين قبائل البدو الرّحل في سهوب آسيا الوسطى. المترجم.
2. المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية وأحد السرّين المقدسين في الكنائس البروتستانتية. الشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يمثل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. المترجم.



قال سيتين بتجهم:

- لقد جاء فيه أن الكازاخ غير ملتزمين بدرجة كافية بتعاليم النبي - وما عليهم سوى إرسال قساوسة مسيحيين حتى يتخلى الكازاخ بسهولة عن الإسلام. ولكن لب الموضوع ليس في هذا. فلم يكن قاسم توري ساذجا مثلنا. لقد فهم قبلنا لماذا تقام ثماني أحياء في أرض ساري أركا - السهوب الكازاخية الكبيرة. ولقد بقينا هاهنا، والآن حاول أن تحرك ساكنا. حتى أطفال شقيقك لن يعيدوهم إليك..

اكتفي أوجار بالنظر إليه. فقد كان يعرف عم يتحدث سيتين؛ لقد كان هناك نقص في عدد النساء لدى المستوطنين. وقد عهدت الحكومة القيصريّة، التي لم تكن تظهر العطف حتى نحو فلاحها من أقنان الأرض، إلى الحاكم العام لسيبيريا، والحاكم العسكري لأورينبورج باستخدام كافة الوسائل المتاحة للحصول على فتيات صغيرات من الشعوب الرحالة بالقرب من حدود سيبيريا وأورينبورج، عن طريق الشراء أو التبادل، وتعميد الفتيات اللاتي تم شراؤهن بالعقيدة الأرثوذكسية، وتوزيعهن على العائلات التي لديها نقص في الفتيات. مع تزويدهن بالخبز والمنح المالية حتى سن الخامسة عشرة. وللحقيقة فإن الفتيات وفقا لهذا المرسوم على النقيض من الأقنان منحن الحرية الكاملة في اختيار الزوج. ولكن من سيتثبت بعد ذلك من تنفيذ هذه التعليمات؛ فأولئك الذين حصلوا على الفتيات من الزحل منحوا مكافأة مالية. وأتيحت لجميع الراغبين أفضل الفرص لكسب المال السهل. وكان عدد أولئك على الجانبين من القوزاق غير قليل.

كانت ألتينشاش ذات السبعة أعوام من عمرها ابنة تايجان شقيق سيتين من أولى ضحايا هذا المرسوم. فقبل خمس سنوات حكمت محكمة أومسك على تايجان بالإعدام لقيامه بتنظيم ثورة ضد ابتزاز المسؤولين وضد القمع. وتم إبعاد أبنائه الثلاثة البالغين إلى مدينة تورينسك الواقعة في سيبيريا. ركضت ألتينشاش خلف إخوتها فترة طويلة وهي تسكب أنهارا من الدموع. قبض عليها الضابط رئيس القافلة، وأخذها معه، وباعها لأحد التجار في أومسك. ثم أصبحت خادمة لرئيس أركان فيلق سيبيريا الجنرال فوندرسون. وعندما علم سيتين بعد بضع سنوات بمكانها جاء من أجلها إلى أومسك. لكنهم لم يسمحوا له حتى برؤية الفتاة، فلم يكن هناك أي خيار لدى سيتين سوى سرقتها. لكن البطل مني بالفشل، وتمكن بالكاد من الاختباء في السهوب. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف البطل عن التفكير في مصير ألتينشاش. وحينما يمس أحد جرحه يصبح كالصخر بسبب الغضب.

الآن يسافر في صمت ناظرا أمامه مباشرة. صمت أوجار أيضا، ولم يستأنف الحديث. وفجأة من جديد للمرة الثانية في ذلك الصباح التفت إلى أوجار بشكل حاد وقال:



- لقد تحدثت بالأمس عن الختم الملكي على جلد العجل.

- نعم سمعت.

ومرة أخرى لم يلتفت أوجار إلى سيتين. ألم يكن حديث الأمس عما يقوله الناس الآن في السهوب.

نعم هذا ما تحدثت كل السهوب عنه. لقد سافر آغا، سلطان مدينة أكمولا، العقيد كنور كولدجا، ابن السلطان كودايمندي، وحفيد الخان ساميكي، إلى سان بطرسبرج في الربيع قبل عامين؛ ربما ليعبر للحكومة القيصريّة عن مخاوف الكازاخ. فقد انتشرت شائعات قويّة مفادها أن الملك ينوي أن يجند أبناءهم للخدمة في الجيش لمدة خمسة وعشرين عاماً. حينذاك وضع صاحب الجلالة الإمبراطور خاتماً بيده على جلد العجل، حيث كتب عليه أنهم لن يقوموا بتجنيد الرجال الكازاخ مطلقاً. بعد ذلك وتحديداً زادت في السهوب شهرة آغا سلطان كونور كولدجا، الرجل الذي يعرف الطريق إلى الملك نفسه. وقال الذين رأوا مرسوم الملك إنه لم يكتب على جلد العجل كما كان متبعاً في العصور القديمة، بل كتب على ورق سميك. لكنهم لم يريدوا أن يصدقوا ذلك. فكم من المراسيم والقوانين كتبت منذ عهد الملكة إليزابيتا بخصوص القرغيز الكاسياك على الورق، ولكنها جميعها جلبت المتاعب عند تنفيذها. وبموجب الميثاق الحالي كان على كل كازاخي أن يقدم للخزانة رأساً واحداً سنوياً عن كل مائة رأس من الماشية. ولكن من يلتزم بهذا القانون؟ وإذا حصد الجوت⁽³⁾ ماشية آغا سلطان يدفع له بالإضافة إلى ماقرره الميثاق من (الضريبة القديمة - الزكاة) من أجل التعويض. وإذا احترق بيت ضابط شرطة، أو شرطي، أو كاتب، فلا بد أن يدفعوا المال اللازم بطريقة سرية. وبالطبع لا بد من تقديم هدايا أعياد الميلاد. وبهذا تكون القوانين الإقطاعية القديمة متوافقة مع القوانين الإمبراطورية، وتشابك معها، وتلقي بثقل مضاعف على عامة الشعب. وحظي المسؤولون القيصريون الداعمون للاستبداد في السهوب، والمتمثلون في أغوات السلاطين، وأحفاد ساميكي وبوكي خان، والخان والي، وحكام المقاطعات، والقضاة بامتيازات خاصة مشروعة، وغير مشروعة. فلم يكونوا يدفعون أي ضرائب على ماشيتهم الضخمة. وبقي المبلغ الإجمالي للضريبة على السهوب دون تغيير، يتعين على الناس دفعها. كان الأغا سلطان نفسه، كونور كولدجا، الذي يملك عشرين ألفاً من الخيول يدفع الضرائب عن ماشية الخدم والحراس الشخصيين الذين يطلق عليهم التولونجوت، فقط. ولقدرته على إيجاد لغة مشتركة مع الحكومة القيصريّة فقد جعل عشيرة أرجين كبيرة العدد تنصاع له انصياعاً تاماً. وهذا هو السبب في أن الشعب لم يكن يثق بالأوراق.

3. الموت الجماعي - المترجم.



قال سيتين متحدثاً عن كونور كولدجا، الذي استفاد من سياسة الحكومة القيصريّة الرامية إلى تقسيم القبائل الكازاخية منذ فترة طويلة:

- من الممكن أن نفهم غيرة الفحل الذي يحمي قطيعه.

- لقد أحنى الملك الأبيض أذنه إليه. ولكن إذا كان، كما يقولون، عادلاً فلماذا لم يكلف نفسه عناء قراءة التماس قاسم توري؟

لم يجب أوجار. لقد أرسل قاسم توري، نجل الخان أبلاي، التماساً إلى الملك قبل عشر سنوات. وقد اقترح فيه إلغاء إنشاء إدارات على الأراضي الكازاخية، ووقف بناء القلاع. ولكن أنشئت الإدارات، والمقاطعات، وبنيت القلاع. حينئذ قرر قاسم توري، الذي كان يرغب في حكم السهوب منفرداً، الترحال إلى المجرى الأسفل لنهر سير داريا الواقع تحت سيطرة خانية كوكاند. وقرر، معولاً على دعم خانات آسيا الوسطى، توحيد الكازاخ تحت راية أبلاي مستغلاً السخط الشعبي من جراء القمع الذي يمارسه ضدهم المسؤولون القيصريون، والسلاطين الملتحقين بالخدمة القيصريّة.

وفي عام 1824م، أو في عام القرد أنشئت إدارة كوكشيتاو. وهذا يعني أن الملك الأبيض تجاهل حقوق ورثة الخان أبلاي. فبدأ السلطان سارجان نجل قاسم توري في جمع جيش لمحاربة التعزيزات العسكرية الملكية. وكانت المأساة الشعبية على وشك الحدوث.

منذ ذلك الحين كانت تحدث في كل عام مناوشات ومعارك بين كتائب سارجان المتجولة، وبين أحفاد الخانين بوكي ووالي، المدعومين بالقوات القيصريّة، وزيلجار آغا سلطان مقاطعة كوكشيتاو. وفي نهاية المطاف اضطر سارجان إلى الرحيل إلى خانية كوكاند، حيث عقد في عام 1834م، أو في عام الحصان تحالفاً مع كوش بيجي "مامد عليهم"، حاكم طشقند، الذي يمثل القوة الرئيسيّة لهذه الخانية⁽⁴⁾ ودخل الجيش الموحد المكون من ستة آلاف جندي حدود أوليتاو، وهناك بنيت قلعة كورجان. ودعا سارجان أفراد القرى القريبة والشيوخ والسلاطين إلى الانضمام إليه، وبدأ مرة أخرى شن غارات جديدة على قرى أرجين الخاضعة لكونور كولدجا. فأرسل الحاكم العام لسيبيريا فور علمه بذلك ألف جندي إلى أوليتاو مع ستة مدافع ميدان تحت قيادة الجنرال برونيفسكي.

وعندما علم كوش بيجي - حاكم طشقند - باقتراب القوات الملكية ترك فرقة صغيرة من المقاتلين الأشداء في كورجان، وغادر إلى السهوب الجائعة. وسرعان ما استسلمت القلعة للجنرال برونيفسكي، وسارع كوش بيجي مامد عليهم بوقف القتال بعد أن اقتنع أنه من الصعب فصل الأراضي الكازاخية عن روسيا؛ فقرر أبناء قاسم توري الغاضبون من

4 الخانية تعني الإمارة - المترجم.



خيانة حليفهم توحيد كازاخ سرداريا، والخروج من تبعية خانية كوكاند.

تظاهر كوش بيجي الطشقندي بأنه لم يلاحظ هذا، وبعث إلى قاسم توري رسولا يطلب منه إرسال أبنائه إلى المجلس العسكري لتنسيق العمليات ضد الملك الأبيض. بعث قاسم توري ابنه يسينجيلدي وسارجان إلى طشقند. وذهب معهما الشاب يرجان نجل سارجان، والباير (5) أجيبي من شوبيرتبالا يرافقهم عشرون فارسا.

قال أوجار، كما لو كان يجيب على أفكار سيتين:

- من غير المعروف حتى الآن ما إذا كانوا سيعودون بسلام من عند السلطان كوش بيجي.

التفت إليه سيتين للمرة الثالثة. لكن أوجار لم ينظر إليه في عينيه أيضا هذه المرة. فقد كانت أمامها السهوب الشاسعة التي لا حدود لها.

لم يستطع سيتين أن يفهم ماهو الشيء الذي يزعجه. وفجأة تذكر حلم الأمس على الجبل والصحوة الصارخة. كان من الواضح أن البرد قد تسلسل مرة أخرى عبر صدره. لقد كان ذلك في الليلة الماضية. سارت القافلة أسبوعا كاملا، ولم يترجل سيتين تقريبا عن جواده. لذلك عندما وصلوا إلى سفح الجبل الأخضر كاراميندي أراد أن ينام في الأعلى حيث يمكن من هناك رؤية كل شيء في جميع الاتجاهات. استيقظ بسبب هذا البرد القاتل في صدره. فتح سيتين عينيه ببطء، لكن كانت فوقه سماء سوداء. نام الجميع في الأسفل إلا أن النسيم البارد كان وحده يهز العشب بالقرب من عينيه. لكن ما الذي أيقظه؟ لقد كان يرقد بلا حراك. حينئذ بدأ شيء ما يتحرك عند سويداء قلبه، وتدفق تيار بارد كريحه إلى الحلق. كان من غير الممكن التحرك بأي حال من الأحوال، إذ أن سم الثعابين في هذه المناطق الجبلية مميت. زحف الثعبان مدة طويلة. وكان من عادة سيتين أن ينام واضعا قبضته على صدره. وببما كان نائما افترقت أصابعه قليلا، وفي هذه الفجوة بين الأصابع أصبح مسموعا بالكاد مرور الرأس الكبيرة الزلقة. لقد واجه البطل سيتين الموت مرات كثيرة، وتنتشر في سائر جسده ندوب عديدة، لكن الرعب هنا قيد رجليه. تجمد القلب، وداهم ذراعيه ورجليه صقيع مميت. شعر كما لو أن رأس سمك البربوط في يده. كان هذا الوغد يبحث عن المكان الأكثر ضعفا وهو الرقبة ليلتف حولها، ويضغط في حلقة جليدية زلقة. مرت حياته كلها أمامه في لحظة، وضم قبضته الحديدية.

5. الباتير تعني البطل أو الفارس المغوار - المترجم.



أدرك مدى الخطورة فقط عندما بدأ الثعبان ذو السمك الخرافي يلتف حول ذراعه. ولكن عضلات البطل كانت قادرة على تحطيم حتى تلك السلاسل الجبلية. لقد عصر الثعبان مرتين أو ثلاث مرات، ثم طرحه بعيداً كأنه سجع كرية الرائحة.

نظر سيتين إلى أوجار من طرف خفى. كان أوجار قويا وسمينا، لكن سيتين يمكنه كسر رقبته بضربة واحدة من قبضته. فكر البطل سيتين في نفسه "مابال هذه الأفكار السوداء تتبادر إلى ذهني اليوم"، وقرر أن الثعبان القذر قد أصابه بدء عدم الثقة في أصدقائه. شعر بالخجل، ولم يستطع طوال اليوم وحتى المساء أن ينظر ناحية أوجار.

سقطت أشعة الشمس سريعا جداً حتى لامست الأفق، كأنها أضمرت النار في السهوب فقد اشتعل البرسيم البري ذو الأوراق العادة المنكمشة من الحرارة، واحمرت الكتل الكثيفة الصفراء من نبات الكارجانيك، والجزر النادرة من نبات اللون الوردى. وفي الأمام تحول جدار من العشب غير المعروف في شكل كتلة صلبة إلى اللون الوردى. هنا تنتهي مراعي عشيرة كارجاس أكثر المراعي بعداً. وبعد ذلك تبدأ منطقة بلخاش. من هناك سيتوجهون إلى السهوب الجائعة، ويتحركون على امتداد السهول الفيضية لنهر ساريسو حتى يصلوا إلى مراعي سرداريا الخضراء.

تركوا وراءهم مسقط رأسهم. وقد سبحت ظلال ساري أركا الزرقاء الداكنة في دخان ما قبل الغروب. وتوقفت الإبل في لحظة واحدة. ونظر النساء، والأطفال، وكبار السن من الرجال خلفهم في صمت عميق. وكلما نظروا مدة أطول كان ألم الانفصال عن الوطن يزيد حدة كما لو أن القلب تمزقه المخالب. وغطى الضباب الدافئ والمريير عيونهم. ماذا ينتظرهم في المستقبل؟ حزن جديد؟ ولكن هل يمكن مقارنته بحزن الفراق.

فجأة دوى في الهواء المسائي البارد لحن كئيب يستحوذ على الروح. لقد غنت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وهي تركب مهزاً على مسافة غير بعيدة من القافلة. ناحت على إيقاع الأغنية كغزاة وقعت في كارثة. كانت يلهم أي هي أغنية الحزن الشعبي.

لم يجروا أحد على أن يقطع ترنيمة الحزن هذه. كان صدر سيتين يرتفع بصعوبة، ولم يستطع أن يلوح بيده ليقفها عن الغناء. وفي الصمت المؤلم سمع الناس بكاء الفتاة واضحة، وعالياً. وقد ارتفع من السهوب إلى عنان السماء، التي كانت مشرقة لا تزال:

اختفت عن الأعين جنبات الوطن.

يا وطني! لقد خنقتنا العبرات.

لماذا يارب، لماذا شعبنا دائماً بانس؟



وكل من هب ودب يظلمه ويبعده في كل مرة؟

لقد غادرنا أماكننا المحبوبة مع حلم خفي

ومع رئيس حزين لا نعلم إلى أين ذهبنا

وهل سيجد شعبنا الفقير في أرض غريبة

أعزم من أقارب الأرض التي غادرناها؟

البؤس والشقاء يخنقنا منذ سنوات الطفولة

والساق تفقد لونها قبل أن تفتح الزهرة.

وينتظر الجميع مصير الحزين كوركوت⁽⁶⁾

يا شعبي! ليس لك مكان تحت الشمس.

اهتز كل شيء في صدر البطل سيتين. جلس على جواده، وركس رأسه، وبدأ له أن هذه الأغنية لو استمرت لبضع لحظات أخرى فإن الدم سوف ينساب من عينيه، وسيتمزق قلبه من الحزن. رفع يده في غضب ليقف هذا العذاب الهائل فتوقفت الأغنية على الفور.

تحركت القافلة، ودخلت إلى أرض غريبة. كانت أمامها نفس السهوب المستوية، لكن الجميع صمتوا وتجمعوا، وأسرعوا في المضي قدماً. وفجأة عندما وصلوا إلى غابة كثيفة من خيزران بلخاش كبح البطل المنزعج من شيء ما جماع جواده بشكل حاد. لقد رأى عيون شخص ما في الغابة المظلمة. من هذا؟ إنسان أم وحش؟ لم يمكن لسيتين أن يتبين ذلك من مسافة بعيدة. من غير المعقول أن يوجد إنسان في هذه الأماكن البرية. لكن لماذا تباعدت قمم نبات الدّيس؟ وأي نوع من الحيوانات ذلك الذي ينظر من قامة تماثل قامات البشر؟

ذهب أوجار إليه على الفور، وأخذ يحقق جنباً إلى جنب مع الباتير في الليل الدايم.

قال أوجار:

- يبدو أننا قد روينا ذئباً يا سيتيكي⁽⁷⁾ علينا أن نجمع الناس كلهم. فإن مين أرا ل دائماً مليئة بالمخاطر، ومعنا نساء وأطفال. ويقال أنهم شاهدوا هنا خنازير برية ونمورا.

6 كوركوت - بطل ملحني. أينما توجه، ينتظره في كل مكان قبر أعد له.

7. اسم التحبب من سيتين - المترجم.



قال سيتين مفكراً:

- ربما يكون شخصاً غريباً.

لوح أوجار بيده بازدرء، وقال:

- لا لقد رأيت ظهره الأصفر الرمادي. ربما قفز وراء شخص ما. وعندما رأنا اختبأ. لا يمكن أن يوجد إنسان هنا!

تنفس سيتين الصعداء وقال:

- حسناً إذا كنت قد رأيت هذا بشكل جيد، فليدك عيون شابة أفضل مما لدي!

الآن تتحرك القافلة إلى الأمام بشكل أكثر حذراً. ويسوق أفضل الفرسان المسلحون بالحراب والهراوات سائر الماشية في قطار جاعلين إياها على مقربة من بعضها، ويحيطون بالقافلة من جميع الجوانب. وبحلول منتصف الليل وصلوا باسكول وهي احدى من البحيرات العديدة بالقرب من بلخاش.

قال أوجار بعد أن خرج من مرج محاط بغابة كثيفة من نبات الديس:

- هذا مكان جيد لقضاء هذه الليلة.

قال سيتين وهو ينظر حوالبه بحذر:

- يجب أن نمضي قدماً داخل أحراش الديس لا يزال الصبح بعيداً. وبحلول الفجر نتوقف.

احتج أوجار وهو ينظر بطرف عينه إلى الدليل سامين، الرجل النحيل الصغير ذي الوجه الشاحب، وقال:

- لقد أصاب التعب النساء والأطفال.

قال سامين بحماس:

- نعم، إن المكان المناسب المقبل بعيد جداً عن هنا. ولن يتحمل الناس مثل هذا السفر

السريع. سوف يتعبون، وأماننا صحراء جرداء. السهوب الجائعة. كما أنه يوجد هنا عشب جيد للخيل.

كان سامين وحده يعرف هذه الأماكن جيداً، ومن ثم وافق سيتين. فإذا كان أوجار الحديدي، والدليل سامين يتحدثان عن التعب فلا شك أن التعب قد بلغ مداه عند الآخرين.



- حسنا فليكن ما تريدون.

ترجل سيتين عن جواده قبل الجميع، ثم بدأ في توزيع الحراس. وكان على أربعة أشخاص بقيادة رجل محنك حماية المعسكر في الفترات الفاصلة بين حلب الأفراس. أما الآخرون فيمكنهم أخذ قسط جيد من الراحة حتى الفجر. وقد قرر أن لا ينام في النوبة الأولى.

قال أوجار:

- سيكون دوري بعدكم.

قال سيتين:

- اذهب للنوم فسوف أقضي الليلة بطريقة أو بأخرى.

ما إن لامس الناس الأرض حتى غطوا في نوم عميق. لكن المحاربين ناموا بالطريقة المعهودة أثناء السفر؛ واضعين الهروات الثقيلة (تشوكبار) تحت رؤوسهم، ورباطين نهايات أعنة الخيول في أحزمتهم.

خيم الصمت مرة أخرى على السهوب، وكان الصمت ملموسا وغير محدود حتى أن الصوت يمكن سماعه من عدة أميال. في بعض الأحيان يهب نسيم حريري خفيف فيهتز نبات الديس للحظة، ثم يعود إلى السكون. أو تأتي صرخة خافتة لطائر المستنقعات الواق الأوراسي من جهة البحيرة، ومرة أخرى يلف الصمت كل شيء.

أصاخ الرجال الذين تولوا حراسة المعسكر السمع في تلك الليلة. وإنحت رؤوسهم نحو الأرض. لكن ترى من سيفكر في هذه الصحراء غير المأهولة الواقعة بين الأنهار السبعة وساري أركا، الخالية من الحراس في مهاجمة هؤلاء اللاجئيين البؤساء؟ غير أن تلك السهوب قد شهدت العديد من المفاجآت الدامية. وبعد أن تغلب الرجال على النوم أصاخوا السمع بأذانهم الخبيرة لكل أصوات الليل، وحفيف الشجر.

عندما لاحت تباشير الفجر، وتلاشى القمر، وضعف بريق النجوم اقترب من البطل الواقف وحده على التل ظل سميك معروف، وقال:

- لقد اقترب الفجريا سيتيكى. فإخذوا إلى النوم بعض الوقت.

شعر قلب البطل سيتين بالدفء. فقد كان يحب الاهتمام البالغ من جانب صديقه. وتذكر شكوك الأمس المبهمة، وطرحها الآن باشمئزاز كأفعى ميتة. نعم لقد كان في أمس الحاجة إلى بعض النوم قبل مواصلة الطريق. لكن على الرجال توخي الحذر،



وأن ينظروا بكلتا العينين. فنبات الديس هناك مازال معتماً، ويصدر حفيفاً غير ودود. أم هو الثعبان اللعين يصيبه بالخوف من جديد؟ أورياً كل هذا بسبب الإرهاق. على الأرجح أنه لن يخلد إلى النوم، ولكن سيرخي الحزام قليلاً حتى يستطيع أن يتنفس بحرية. ويجب على الرجال الموجودين معه أن يفعلوا نفس الشيء. وعندما يكون معك مثل هؤلاء الأصدقاء يمكنك النوم لفترة قصيرة. إنه لشيء جيد أن يكون أوجار معه. تنحى سيتين جانبا دون أن ينبس ببنت شفة، وتمدد بكامل قامته الهائلة على الأرض، بينما قام أوجار ورجاله بما فيهم الدليل "سامين" بجولة أخرى ساعين الأيتخلف أحد منهم عن الآخر.

"إنه لشيء جيد أن يكون أوجار معنا. لقد جاء إلينا من عند ابن أوى، كونور كولدجا، في الوقت المناسب." سبح القمرفوق سيتين مهدئاً من روع قلبه المضطرب. ستة أيام لم تعرف روحه الراحة، فقد كان يخشى من الفخاخ المنصوبة في السهوب لأولئك الذين وثقوا به. ستة أيام لم يترجل عن جواده.

توقف أوجار، وسامين بالقرب من جدار نبات الديس المظلم. وفي مكان ما قريب غرد طائر الليل مرتين.

- أين أنتم؟

همسوا من أحرش الديس:

- نحن مستعدون يا أوجار.

قال أوجار بغضب:

- كما يقولون من لا يعرف كيف ينصب فخاً يقع فيه. من خرج بالأمس من أحرش

الديس أمام أعين الشيطان العجوز؟. هل الحبل معكم؟

- معنا.

- تبتد ظلال أشخاص، الأول، الثاني، الثالث خرجوا من أحرش الديس، وانزلقوا ناحية

المعسكر.

قال لهم أوجار فجأة:

- عندما نصيح بكلمة "أنان" لا تتشاءبوا.

استمروا في تفقد القافلة النائمة. وفي أماكن مختلفة خرجت الظلال من أحرش

الديس، وانحنت، ثم تسللت بهدوء بين الأشخاص النائمين.



قال لهم أوجار يا يجاز:

- والآن اذهبوا إليه.

- وإذا لم يكن نائماً؟

لقد كان الخوف في صوت سامين الشاحب شديداً، حتى أن أوجار ورجاله توقفوا لا إرديا كما لو أن شبح البطل الواقف على قدميه قد أومض أمامهم.

قال أوجار بثقة:

- إنه نائم. فليختبئ ساكيب وجاكوب خلف الإبل من جهة الساقين. أما أنتم فأمسكوه من اليدين. ولكن افعلوا هذا دون ضجيج.

كان سيتين عادة ما ينام نوماً خفيفاً. وكان يستقيظ حتى عندما يطير فوقه طائر في السماء على مسافة مرتفعة. وعندما سمع الحفيف وثب من مكانه، وأراد أن يقف على قدميه، لكن كان هناك ثقل كبير على يديه ورجليه لم يمكنه من النهوض. ووضع أحد الأشخاص على حنجرته قبضة عنيدة كأنها كماشة حديدية. تذكر الثعبان ورأس أوجار التي تشبه السمكة.

لم يستطع حتى أن يصرخ. فقد كتم فمه بقطعة قماش من الصوف، وقيدت يديه بحبل من الشعر المتين. وكأنه حصان بري فقد وضعوا جوالاً على عينيه، وحرموه من ضوء النجوم. وخاف الجميع أن يتركوه، وأمسك خمسة منهم جسده الذي كان ينتفض في غضب لا حدود له. وفجأة أصبح هادئاً.

سُمع صوت خفيض:

- لقد ألبسوه الكفن. سوف يبقى سامين معه. أما أنتم فأسرعوا إلى هؤلاء. اقطعوا أعنة الجياد، واكسروا ركاب السروج.

”يا الله! صوت من هذا؟ إن قلبي صادق فلماذا لم أستمع إليه.“ جذب البطل سيتين حبل الشعر بكل ما أوتي من قوة، لكن ذلك الحبل توغل في جسده، ونزع اللحم عن العظم. ثم أصاخ السمع، واعتقد أنه أصبح وحيداً. ولكن عندما حاول أن ينقلب من جانب إلى آخر ضغط على رجل صغيرة لأحد الأشخاص. سمع صرخة الدليل سامين الرفيعة الخائفة فضغط بكل سرور على الرجل المرتعشة بكامل وزنه دون أن يدعها.

لم يحقق المهاجمون هدفهم بشكل كامل. فلقد تمكنوا فقط من قطع أعنة الخيول المربوطة في أحزمة أكثر من نصف الفرسان، وحلوا ركاب السروج، لكن في هذه اللحظة إستيقظ أحد الفرسان. وما إن رأى ظلالاً غريبة داخل المعسكر حتى صرخ بصوت عال:



- أتان. لقد هجم العدو. الحذر، أين أنتم يا سيتين أغان! أتان! أتان!

زلزل صوته الشاب الخائف جميع أرجاء السهوب. وفي برهة واحدة وقف أولئك الذين اعتادوا على الغارات الليلية على أقدامهم. وهنا دوى وابل من نيران البنادق. ثم خرج من الأدغال حوالي أربعين جندياً أرسلوا للاستيلاء على قافلة المتمردين. بكى الأطفال، وصرخت النساء. انطلقت الخيول التي أصابها الجنون في جميع أنحاء المعسكر تدوس الناس، وتسحقهم، وعوت الكلاب كذلك، وتحول المعسكر الآمن الذي كان يغط منذ لحظات قليلة في نوم عميق إلى جحيم حقيقي. ثم رعدت الطلقات من جديد. وفجأة دوى أمر حازم:

- إلى الأمام أيها الرجال.

أصدر ذلك الأمر أوجار، الذي كان يمتطي سهوة جواد سيتين الرمادي الداكن الضخم. كانت رأسه ملفوفة بمنديل، وأكمام قميصه مرفوعة إلى المرفقين. ظهر فوق التل، وأومض السيف الذهبي المعوج في ضوء القمر حول رأسه. ولحت عيناه كما تلمع عينا الذئب.

- أوجار، قدنا يا أوجار.

توافد إليه من جميع الجهات كل الرجال الذين تمكنوا من القفز على ظهور الخيل. صاح بصوت مدوي:

- إن متنا فسنكون في الجنة، وإن قتلنا العدو فسنكون هناك على أي حال. اتبعوني. أتان!

رفع الرجال السيوف والهروات، ومع صيحات "الله معنا"، و"أرواح"، وأيدابول، وكارجاس انقضوا على العدو. لكن قبل أن يتمكن أوجار من الوصول إلى الجنود سقط فجأة في سرجه، وبدأ في الوقوع على الأرض ممسكاً بناصية الحصان. ارتبك الفرسان الذين لم يعتادوا على دوي المدافع، وفقدوا قادتهم في بداية المعركة. وقد اختلط الحابل بالنابل، وارتدوا للخلف كموجة تضرب ساحلاً صخرياً. اندفع اثنان من الرماة الغرباء الذين كانوا يطلقون النار مع الجنود شاهرين السيوف إلى أوجار المستلقي على الأرض.

قال لهما هامسا:

- ترجلا عن الخيل، يا أولاد الكلب، وقيداني.

قفزا من على خيولهما، وبدأ في تقييده على استحياء.

- قيداني بغضب. واضرباني، واركلاني، أتسمعاني. والآن جراني إلى حيث يرقد سيتين، واتركاني معه. وأطلقا سراحي عندما أقول لكما.



قيد الرماة أوجار، وجراه عبر الحشد الصاخب إلى سيتين.

- يا ويلنا. اثنان من أفضل رجالنا وقعا في الأسر.
سمع أوجار ذلك، وأغمض عينيه. لم يستطع حتى أن ينظر في عيون أولئك المخدوعين.

جمع النقيب ليبيديف الذي أرسلت فرقته بناء على معلومات سرية للحاق بالقافلة جميع اللاجئين في منطقة مفتوحة في الغابة. وقال لجنكيز، نجل الأغا سلطان كونور كولدجا، بعد أن رفع شورا به الصهباء للأعلى:

- سل هذا الرجل العجوز لماذا أرادوا الهرب وإلى أين؟ الأيعرفون مرسوم الإمبراطور والعقاب الذي يحل بمن ينتهكه؟

نظر الشيخ العجوز الذي كان على رأس القافلة طويلا إلى جنكيز، وقال بصوت أجوف:

- لسنا مذنبين. إن الفحول المخصصة للشابة لا تحتاج إلى قطيع الأب. وبالطبع فالأمر لديها سيان. وحيثما يجري النهر تتبعه القطرات.

لم يظهر جنكيز أنه قد أحس بالغضب، وأردف قائلا:

- أنتم أيضا تريدون أن تصبحوا خونة مثل مثيري الشغب، الذين ذهبوا خلف العجوز قاسم ولصوصه. وهل كانت الدماء التي سالت في السهوب بذنب أبنائه قليلة؟ منذ أن رفع سارجان راية العصيان لم يترجل الناس عن خيولهم. ألم يحن الوقت للتعقل والإذعان.

تنهد الرجل العجوز بعمق، ونظر إلى مكان ما في السهوب النابضة بالحياة:

- ربما تعرف أنت لماذا غادرت سهوبنا عشائر ألتين، وألتاي، وتوكا أويك؟

- إذا كانت لديك شكاوى للملك الأبيض، أو للأغوات السلاطين، فيجب أن ترفعها إليهم في الشكل المعتاد من خلال الأشخاص المعينيين خصيصا من أجل ذلك.

- وأي ورقة يمكن أن تساعد الناس في هذه الأوقات العصيبة، عندما لا تعرف أين ينتظرك القبر؟ نحن نعرف فقط أن الثعبان نفسه يزحف خارجا من الحفرة عندما يسمع كلمة طيبة، أما بالصرخة الغاضبة فمن الممكن أن تقتل عند الشخص إيمانه بالله نفسه. نحن شعب مسالم. والطلقات النارية تخيف أطفالنا.



- أنتم أنفسكم من تجبروننا على إطلاق نار هذه البنادق.

- وهل تريدون منا أن نصمت كالأغنام عندما تذبحوننا.

- إذا لم تستطيعوا أن تكونوا شيئاً آخر غير الأغنام، أليس من الأفضل لكم أن تصمتوا؟

- وهل يمكن أن نبقى صامتين؟ عندما يحفر الذئب مخابئه قرب قطيع الأغنام هل

يمكن للأغنام أن تنعم بالهدوء؟ أو ليست تلك القلاع التي ترى خلفها الحراب إلا مخابئ

للذئاب؟ بالطبع يشعر بعض الناس بالراحة خلف جدرانها.

نظر الشيخ بثبات إلى نجل الأغا سلطان. خفض هذا عينيه، وقال:

- لو لم تسرقوا ما كان أحد قد تعرض لكم.

قال العجوز بغضب دون أن يحول ناظره:

- ومن سرقناه آنذاك؟ أنت تعرف جيداً أنه ليس بيننا لصوص. وهل سمعت في أي وقت

مضى أن أحداً من الكازاخ البسطاء تشاجر مع أحد الفلاحين الروس؟ إنه يذهب إليه،

ويقايضه بكل سرور على القمح بالصوف واللحم. وهل منعوا الصيادين الروس من

صيد الأسماك في مكان ما في أنهارنا وبحيراتنا؟ إن لدينا من بينهم أصدقاء كما لنا من

بين قومنا. والأرض والمياه تسعنا جميعاً. لكن عندما يأتون إلينا بذهب على الأكتاف،

وبسيوف مسلولة، ويرفعون السوط علينا، ويسلبوننا أطفالنا فمن لا يرفع يده من أجل

الحماية. سل هذا الرجل ذي الشوراب الصهباء لماذا يهرب منهم الفلاحون الروس إلى سهوبنا.

هناك الآلاف منهم بالفعل بيننا. وهم لا يلقون بالا إلى أين يفرون، لكن المهم عندهم أن

يكونوا بعيدين عنهم. وهذا هو ما فعله الآن.

- وهل قررت أن تحارب الملك الأبيض. أم أن الدماء التي سالت اليوم قليلة؟! -

- إنه لشرف عظيم أن أموت في معركة مفتوحة.

لم يتم الرجل العجوز فكرته، وفجأة، كأنه يراه لأول مرة، شرع في النظر إلى نجل

الأغا سلطان من أخمص قدميه حتى رأسه وقال: إذا حكمتنا من خلال مظهرك النبيل فإنك

على الأرجح من عائلة بوكي أو والي. حسناً إن قطع الرأس أسهل من قطع اللسان. من فضلك

لاتغضب، ولكن منذ فترة طويلة وددت أن أسأل أحداً منكم عن شيء ما.

رفع جنكيز كتيفيه، وقال:

- سل..



- منذ فترة طويلة أعطى الملك الأبيض أجدادك بوكي خان، ووالي خان ثلاث هدايا مع الإقرار لهما باللقب الخاني. لقد أهدى كل واحد منهما معطفاً من السمور، وزياً رسمياً بكتافات ذهبية، وسيفاً من الفولاذ بمقبض ذهبي. وفي حكاياتنا دائماً ما نفسر معنى الهدية، وإليك ما اعتقدته. لقد فهمت أن معطف السمور كي يستدفئ كل واحد منهما به، ويتذكر من أين تأتي الحرارة. وفهمت أن الزي الرسمي ليجعلهما متحمسين، وأكفاء مثل ضباط الشرطة. أما السيف فلماذا؟ لقطع رأس من؟

- رؤوس أولئك الذين يعصون إرادة صاحب الجلالة الإمبراطور.

شحب لون جنكينز، وضافت عيناه. لقد ذكره العجوز بأعمال القتل التي مارسها جده، وفهم الواقفون من الناس حوله ذلك.

- نعم لديكم الآن من تختبئون وراء اسمه. وهذا لأشخاص مثلك مصدر ارتياح كبير. هناك شخص تخدمونه. والعبد يكون أكثر فظاعة من سيده مائة مرة.

التفت نجل الأغا سلطان إلى الضابط، وشفته ترتجفان، ثم قال باللغة الروسية:

- سيدي النقيب، إن هذا المتمرّد العجوز يسب الملك، صاحب الجلالة الإمبراطور.

انتفض الضابط الذي كان يقف قبل هذا بعدم اكتراث. ارتجفت شواربه، وانتصبت، وابتضت عيناه الزرقاوان الصافيتان، وخرجتا عن مدارهما.

ثم صرخ فجأة بصوت رفيع:

- ماهذا؟ أتجرؤ على التمرد على صاحب الجلالة الإمبراطور، الحاكم المطلق. يا لك من كلب عجوز..

هو السوط المجدول بشكل سريع، لدرجة أن أحداً لم ير الضربة. وطارت القبعة من على رأس العجوز كأنها طارت من تلقاء نفسها، وظهرت ندبة دائمة على رأسه الأشيب الحليق.

تأوهت إحدى السيدات، وسرى بين جموع الرجال أنين مكتوم. لكن العجوز كان لا يزال يقف معتدلاً ناظراً إلى الضابط بنفس الشموخ الأبى الذي تمنحاه فقط الحكمة والحق.

كان ذلك العمل الشرير غير المسبوق أشد وقعاً على الناس من هجوم مفاجئ، أو وابل من طلقات البنادق. لم يحدث أبداً من قبل في السهوب أن رفعوا أيديهم على رجل عجوز.



وابتعد الناس في خوف، وشرعوا في الفرار على غير هدى إلى إتجاهات مختلفة. غير أن وابلا تحذيريا من طلقات البنادق أجبرهم على العودة. نظر الجنود إلى ضابطهم بكآبة ساعين الا تتلاقى أعينهم مع أعين الناس.

قال الرجل العجوز بهدوء:

- لا يهمني أن هذا الشخص المنفلت والمتوحش قد ضربني. لكن يؤلمني أن شابا كازاخيا يرتدي زيا عسكريا بأزرار نحاسية يساهم في هذا العار.

ودون أن ينظر إلى أحد، كأن كل هؤلاء الناس لم يكونوا حوله، ذهب الرجل العجوز إلى جملة. حتى الضابط على ما يبدو قد أدرك أنه من المستحيل أن يوقفه.

فكر أوجار الذي كان لا يزال في قيوده بتجهم: "كان من الأفضل أن يضربهم هذا الأحمق بالسوط بدلا من أن يرفع يده على رجل عجوز. ليس من السهل الآن قمع غضب أولئك الذين رأوا ذلك بأم أعينهم. اليوم قبضوا على سيتين، وغدا سيظهر آخر. ولا يبقيه في اللجام سوى زعماء العشائر، والاحترام لكبار السن. علاوة على ذلك لا يخضع فيهم زعيم قبلي لآخر. من الضروري مساندة كل ذلك إذا أردت أن يكون هناك نظام. وماذا لو ظهر في السهوب شخص قادر على توحيد كل هذه العشائر؟ إن الكازاخ مثل الخيول البرية. من يقدر على ترويضهم يطيعونه طاعة عمياء. وهذا الإعصار الثلجي سيسحق أي عدو بمجرد أن يظهر لديهم قائد. وسيتبعونه بسهولة حتى إلى الهاوية."

مرت بجوار سيتين وأوجار المقيدان الآن بحبل واحد بقايا القافلة المحطمة التي يرجعونها إلى الشمال من حيث أتت. قال أحد كبار السن من الوجهاء "إثنان من حماة عشيرتنا الأقوياء وقعا في الأسر. لكننا سوف نتذكرهما" إمتلأ صدر أوجار بالبهجة. لقد جعلوه على قدم المساواة مع سيتين البطل ذي النسب العريق!

فكر أوجار: "وماذا لو عرفوا الحقيقة بشكل مفاجئ. ثم تسلسل خوف لزوج لم يعرفه من قبل تحت قميصه، ولس قلبه. لم يعرف حتى الآن أن هذا الخوف سوف يكون معه دائما حتى الموت، وسوف يزداد مع كل يوم حارما إياه من النوم والراحة. وكل ما سيأكله من الآن فصاعدا سيكون له طعم مختلف تماما. لكن أوجار ما زال لا يعرف هذا، وفكر في شيء آخر: "لقد حالفتي الحظ أنني مقيد معه الآن. وعلي أن أتحدى بالصبر بضعة أيام."

نقلوا سيتين، وأوجار تحت حراسة مشددة بعيدا عن القافلة الذاهبة الى أومسك.



بعد ثلاثة أيام وصلوا إلى بلدة توركولت حيث تنتهي منطقة بايان أوول، وتبدأ سيبيريا. وفي قرية كبيرة على شاطئ البحيرة توقفوا لقضاء الليل. كان يحكم هذه القرية تايماس نجل بيكتاس. كان تايماس طويل القامة، عريض المنكبين، أشقر الشارب يعد بمثابة ابن أخ لعائلة كارجاس. فزعت القرية من ظهور الجنود مع أشخاص مصفدين بالقيود. ونظروا بفرح إلى البنادق الطويلة ذات الحراب المثبتة بها. ومع ذلك وجدوا في أنفسهم الشجاعة للاقترب، وتحية الأسرى على الأقل.

بدأ سيتين في حالة سيئة للغاية. لم يكن الأمر في التعب البشري الذي لم ينعكس البتة على مظهر البطل الخارجي. كان في عينيه حزن شديد لأنه لم يكن قادراً على حماية من وثقوا به من الناس. ولاحظ من قدم عليه هذه العيون التي لا حدود لحزنها أولاً، ثم بعد ذلك رأوا فقط جلطات الدم على قميصه الممزق إلى أشلاء. لقد ضربوا البطل بعد إلقاء القبض عليه، ولعب جنكيز نجل آغا سلطان أكمولا دوراً هاماً في هذا.

انزعج تايماس، وحزن أكثر من أي أحد آخر. لقد فكر في نفسه "فيم أذنب البطل سيتين أو أوجار-ألا يحاول حتى الوحش، أو الطائر حماية عرينه، أو عشه؟ فكيف لا يدافع الإنسان عن أرض آبائه؟ وفي هذه الحالة بسبب أنه أراد فقط أن يبتعد عن القمع والظلم؟"

كلما حاول تايماس التحدث مع سيتين على انفراد لم يتمكن من ذلك. فلم يسمح الجنود لأحد بناءً على أوامر الضابط بالاقتراب من المعتقلين. وشغلت القيادة العسكرية منزل تايماس نفسه، وسمحوا له، بعد مطالبات عديدة، بأن ينام في الفناء بالقرب من منزله.

كانت ليلة خانقة وحالكة الظلام، كما لو أنهم قد غطوا العالم كله ببطانية مصمته من صوف الإبل. وبدأت القرية كأنها ميتة بعد المعاناة النهارية. كانت خيول الجنود المقيدة تصدر شخيراً في مكان ما قريب، ومن حين لآخر ينادي الحراس على بعضهم بعضاً. وغمرت رأس تايماس أفكار ثقيلة كأنها رصاص منصهر. وأصابه القلق من المنظر البائس لسيتين وأوجار، وتقلب من جانب إلى آخر غير قادر على غلق عينيه.

فجأة سمع تايماس صوتاً حزينا، مليئاً بالألم. وبعد أن أصغى السمع أدرك أنه صوت سيتين. كان البطل يغني بصوت خفيض لا يكاد يسمع على لحن "يليم - أي":

حيث كنا نتجول بحرية مثل طيور الكركي،

وداعاً يا وطني!

وداعاً يا أجمل بقاع الأرض،

حيث كنا نريد أن نكون أسرة واحدة،

ولكنك جذبت الكثير من الكفوف المفترسة والمناقير.



كانت أغنية البطل مثل البكاء. وقد قطعها أوجار بصوت خفيض قائلاً:

- لماذا تعذب نفسك هكذا يا سيتيكى؟

كان هناك شيء غير عادي في هذا الصوت، نوع من الغبطة السريية التي بسببها سرت قشعريرة في ظهر تايماس ، وأحس سيتين بذلك أيضاً، وفجأة تذكر بوضوح الصوت الذي كان يدوي في هذه الليلة عندما أسروه غدرًا. لم يعد هناك شك في أن ذلك الصوت كان نفس صوت أوجار العميق الأجلس. ولكن لماذا يسوقونه مقيداً معه؟
- يا أوجار، إنها إساءة لا يمكن التعبير عنها بالكلام مثل قرون إسكندر. أتذكر؛ لقد نمت لديه أطرافها إلى الداخل، وحرمته الراحة طوال الوقت.

- حسناً، الآن هو الوقت المناسب لتتكلم بصراحة.

- ليس لدي شيء أحكي عنه. إنني لا أفكر في نفسي، يا أوجار، وأنت تعرف ذلك. ورغم أن شعبنا صغير كطائر القبرة، لكن كان يمكنه أن يرتفع أعلى مما هو عليه الآن. ومصير شعبنا هو جرحي الأبدي. وقد ضحى شقيقي الوحيد تايجان بنفسه من أجل ذلك. لقد كنت حينذاك معه، ومنذ ذلك الحين ظل في قلبي.

صمت أوجار، ولم يتكلم. ربما تذكر تلك الأيام عندما كان فارساً شجاعاً يجوب السهوب ليحمي الشعب من الظلم ، ووجد في كل منزل الاحترام والمأوى. أو ربما كان حينذاك يفكر إلى أي مدى قد وصل. كان سيتين بحاجة إلى معرفة كل شيء.

- هل تذكر كيف أنقذتم قرية كومبيل ممن أرادوا توقيع العقاب عليها. لقد الجأكم الجنود مع أتباع الأغوات السلاطين إلى غور بين تلال كارادجال. وبقيت أنت هناك مع المائة رجل التابعين لك، وقد استطعت لمدة يومين أن تعوق مسيرة الجلادين. كان جبل بايان في ذلك الشتاء مغطى بالجليد الزلق، وبينما كنا نقاتل جمعت النساء سجاجيد الشعر، ووضعنها على قمة الجبل. وبذلك نجت مائتي عائلتي من أيدي العدو. إن هذا العمل البطولي جعلك شخصاً مشهوراً بين الناس. ولكن لسوء الحظ سقط أخي تايجان حينئذ في فخ، وحكم عليه بالإعدام. وكانوا يريدون القبض عليك أيضاً، ولكنني أنقذتك. وأثناء ذلك قضى خمسون رجلاً نحبهم. لكننا أنقذناك كونك أمل عشيرتنا. فالمستقبل للقادة الشباب.

لماذا يصمت أوجار؟

سأله البطل سيتين:

- لماذا تصمت يا أوجار؟ لقد كنت حينذاك شاباً صغيراً. وكما يسيل الذهب من



المادة الخام يسيل النبل من قلوب الشباب. لم تستطع عشيرة كارجاس بأكملها أن تقرر في خمسين يوماً ما قررتة أنت في ليلة واحدة. لقد كنت دائماً فصيحا وقويا. أين ذهب كل هذا؟ لقد أصبحت مثل العجل الذي وضعوا كمامة على فمه. إنني شخص له الحق في كل شيء. إن قتلوني سأدخل الجنة، وإذا قتلت فهذا يعني أنها إرادة الخالق. ذلك لأنني لم أسفك قطرة دم واحدة لشخص بريء، وضميري طاهر أمام هذه الأرض. لماذا لا تتحدث؟

كان في الإمكان رؤية أوجار في ضوء القمر وهو يقفز، ويجلس على الوسادة، ثم قال:

- إن الشخص الغافل لا يرى شيئا أمامه حتى الجمل. ولماذا تأخذ على عاتقك مسؤولية التحدث عن الجميع؟ أنت قد ثرت ضد الملك، ولكن ألم يكن هناك كثير من قومنا قد قبلوه بالخبز والملح. وهل هُزم أولئك الذين يرتدون الزي العسكري المطرز بالذهب؟

أصبح تايماس، الذي كان يستمع خلف الحائط إلى حديثهما، غير قادر على التنفس.

”يالير أي! عماذا يتحدث هذا الرجل؟ على ما يبدو أن قلبه يدق بطريقة مختلفة.“

قال سيتين، بعد فترة صمت قصيرة:

- ترى إلى أين قادتك سرعة تفكيرك؟

- وهل من المفترض أن يعيش الجميع بعقلك فقط.

- وجدت الشماتة المقموعة لفترة طويلة طريقاً لها في صوت أوجار، ثم أردف قائلاً:

- ألا ترى إلى أي شيء قادتك هذا. هل تريد أن تسحب الجميع خلفك؟

قال سيتين بصوت هادئ:

- لقد أحس قلبي بشيء غير طيب. إذن فأنا لم أخطئ.

صمتا لفترة طويلة، واعتقد تايماس أن الحديث قد وصل إلى نهايته. أراد أن يدفن رأسه في وسادته، لكنه سمع مجددا صوت أوجار يقول:

- الآن هو الوقت المناسب للإنزواء داخل النفس، وحماية الرأس على الكتفين. لمن عنده رأس بالطبع. الآن لن يمكنك جمع الكازاخ في أمة واحدة. لقد تبعثروا في السهوب مثل حمير وحشية، وكل قائد يغار على قطيعه من القادة الآخرين. وربما



يكون الوقت مناسباً عندما تضعف سلطتهم.

- نعم هذا هو الفرق بيننا. أنت تعد شعبنا حميراً، أما أنا فأعدهم نسوراً سهيية. كل حسب ما يجب. إن الغراب يدعو صغيره بمودة قائلاً "يا طفلي الأبيض"، والقنفذ يدعو صغيره "يا طفلي الناعم".

- وأنت ألم تفكر لماذا ينجح الملك الأبيض في كل شيء؟

- أتريد أن تتعلم الحكمة عند خدام الملك؟

- نعم، إذا كانت هناك فائدة من ذلك. وهناك سوف نرى.

- وأول شيء أوحى لك به هذه الحكمة هو خيانة قومك. لا، يا أوجار، كما أنك لا تختار أبويك فإنك لا تختار شعبك؟ سمه ما شئت وحشياً، عاجزاً، متخلفاً، ولكن اسمه قد كتب على جبيننا. إنني أحبه كما هو، لذلك لا أخاف الموت. وإن من يقطع للشعب أجنته هو عدو لي أبد الأبدين حتى ولو كان ابني.

- أنت تخور بحنان كبقرة رأت جلد ولدها الميت.

- لا داعي، يا أوجار، لأن تتظاهر بأنك تفعل ذلك للمصلحة العامة، وبأن لديك بعض الخطط العليا والمكورة. لقد قمت بخيانتنا، والخيانة لا تؤدي أبداً إلى خير. إنها مثل العدوى إن لم تأت الآن بشار مرة، فإنها تأتي بها حتى في الجيل السابع. وحيث ترتكب الخيانة لا ينمو شيء غير الأعشاب السامة.

- وهل سيتذكرون قبرك فترة طويلة؟

- نعم، سيتذكرون.

مرة أخرى صمتا فترة طويلة. ومرة أخرى استأنف أوجار الحديث. وظهرت في ثنايا حديثه فرحة شريرة فاستطرد قائلاً:

- في غضون أيام قليلة لن تصبح على قيد الحياة، مثلما قضى تايجان وآخرون نحبهم. أما أنا فسأعيش، وأفعل كل ما أريد. وسوف يطير حديثنا في هذه السماء الفارغة، ولن يعرف أحد عنه شيئاً على الإطلاق.

أصيب تايماس بالتوتر، وتوقع انفجاراً غاضباً من جانب سيتين. وفجأة سمعه يضحك.

قال الباتير سيتين ولم يكن هناك أي تظاهر في صوته:

- إنني أشعر بالأسف حيالك يا أوجيكي⁽⁸⁾ هل تعتقد أن ثقل الخيانة للخائن يعتمد على ما إذا كان الناس يعرفون بها؟ على العكس من ذلك إذا كانوا يعرفون

8. اسم التحب من أوجار - المترجم.



فإن ذلك أحياناً يخفف عن النفس. من المؤسف فقط أنك ستجلب الكثير من البؤس لشعبنا. ومن يمضي في هذا الطريق لا يتوقف.

ذهب تايماس بعيداً في السهوب. وكان بطبيعته إنساناً حذراً، ورأي أنه من غير الممكن الانتقام الآن من أوجار. بالإضافة إلى أنه كان من الصعب الاقتراب من الأسرى بسبب الجنود، كما أن غضب أفراد الحملة العقابية يمكن أن يصيب القرية البريئة. لكنه أقسم على الانتقام.

في الصباح عندما قيد الجنود سيتين مع أوجار لوح تايماس الذي يعرف الآن سبب ذلك إليهما معاً بيده.



II

كانت حياة الكازاخ كلها عبارة عن ترحال. والآن استقرت على ضفاف نهر إيليك الضيق، الذي يمتاز رغم ذلك بالسرعة والطيش، عدة قوافل. وفي الروافد العليا بالقرب من كانداجاتش توقفت الهجرة الكبيرة لعشيرة تابين بقيادة البطل جولبان ابن تلينشي. وبالقرب منهم استقرت قرى عشائر الجالبايليين، وألشين، وشيكتي. وقد جاءوا جميعاً من نهر جايك في إثر عشيرة تابين قاصدين الروافد العليا عبر نهر إيليك.

يختلف الرحل المحليون عن رُحل "بايان أوول". فقد كانت قافلة جولبان تضم، بالإضافة إلى منازل اليورت الكازاخية العادية، الكثير من الخيام المغطاة بسجاجيد الشعر، والمدخنة التي تشبه أكوام التبغ، أو ببساطة الخيام البيضاء. وكانت أعداد الأغنام والإبل هنا أكثر بطريقة ملحوظة، لكن أعداد الخيول أقل. ومع ذلك كان يوجد في القطعان بالقرب من الفحول والأفراس من السلالة المحلية العادية ذات القدرة العالية على التحمل خيول أخالتيكين الأصلية، أو خيول سلالة تيكي جاومي رقيقة الأرجل ذات الصدر العالي والعنق المقوس مثل عنق البجعة. إلا أن الإبل كانت تعد الفخر الرئيس لعمليات الترحال. كانت ذكور بور ذات السنمين، بصوفها الأشعث الذي يتدلى إلى الأرض، طويلة القامة، وطويلة الأرجل، قادرة بسهولة على حمل ثماني منازل يورت مجنحة، وناري عربية أي جمال بيضاء ذات سنم واحد أروان من سلالة ليك. ولم تكن الأغنام والماعز سيئة. وكانت يقود القطيع جداء ملتحية ذات شعر ناعم وقرن كبيرة على شكل سيوف، وأغنام ذات صوف ناعم، وتصل ضروع الماعز حتى العشب، ويتقافز صغارها ذوي الزغب الناعم هنا وهناك.

يختلف الناس هنا في ملابسهم عن سكان ساري أركا. هنا يعتمر الرجال قبعات كبيرة ذات رسومات مطرزة من صوف الجمل الفاتح مع حواف منحنية للأعلى. والقبعات أيضاً ذات طراز خاص مصنوعة من القطيفة المزخرفة بالفراء، ومبطنة من الداخل باللباد. وقمة هذه القبعات عالية جداً مثل الكم المنتصب، وعليها ستة شرائط مذهبة مخططة من الأسفل إلى الأعلى. ويرتدون معاطف لينة ملونة بلون العرعر على الحواف السفلية، ومطرزة عند الياقات أيضاً برسومات، ومزينة بالجدائل. ويرتدون تحتها تشيكمين⁽⁹⁾

9. لباس رجالي خارجي مابين المعطف والقفطان المترجم.



مصنوعا من الصوف، وسراويل واسعة من جلد المهر، ويلبسون في أرجلهم أحذية بقرقة عالية، ويكعوب عالية.

لا تختلف الملابس النسائية كثيرا عن ملابس سيدات ساري أركا. فالسترات والمعاطف أيضا مطرزة بالذهب والفضة، والقبعات مزينة بالسمور المجلوب من سيبيريا. وهي نفس قبعات ساوكيل⁽¹⁰⁾ وهي قبعات عالية، ومخروطية الشكل، ومزينة بالعملات مع ريش بومة رائع على القمة. والفساتين الطويلة المصنوعة من القطن المطبوع ومن القطيفة ذات الأهداب المزروجة أيضا مردانة بعملات فضية. وفوق الفساتين سترات أو بشميت (معطف) من الصوف الرقيق أو القطيفة المشدود عند الخصر. ولدى النساء الأكثر ثراء خواتم ذهبية، وقلائد من اللؤلؤ، والذهب الثقيل، وأساور من الفضة على المعاصم وأقراط قديمة في الأذان ورثتها عن الجدات. وخلافا لنساء الجزء الأوسط ترتدي بعض نساء الجزء الأصغر الكونجيك وهو غطاء للرأس فريد من نوعه مزين بالحرير بدلا من الكيميشيك (غطاء نسائي للرأس) القطني الأبيض، ومزين أيضا بريش البومة، أما الفتيات فيرتدين أحزمة فضية مشدودة بإحكام، وطواقي مزدانة بالريش.

كان من الواضح أن الزحل وصلوا هنا منذ فترة قريبة، وأن منازل اليورت والخيام وضعت على عجل كي يستريحوا يومين أو ثلاثة أيام وليس أكثر. وبالجوار رعت الخيول في الشيخ الحار والناعم لتستعيد قوتها للرحلة القادمة. لكن الناس في هذا الجانب من السهوب الكبيرة لم يبدوا سعداء. فقد طردوا كما في ساري أركا من مناطق ترحالهم، حيث كان أجدادهم وأسلافهم يرعون ماشيتهم. وقد حلت بالسهوب مصيبة عامة كتتمت مؤقتا صوت كل المطالبات الصغيرة، والخلافات العشائرية، والقبلية. وهنا لم ينزع الرجال السروج عن خيولهم المحاربة، ولم يفارقوا أسلحتهم حتى بالليل. وانتهاز المحاربون من ذوي الخبرة فترة التوقف لشحذ سيوفهم المعقوفة. وسكن الأطفال الذين انتابتهم حالة من الخوف العام. فلم يركضوا كالعادة في جميع أرجاء المخيم، وإنما جلسوا بهدوء بجوار الأمهات يشاهدون الكبار. ولم تتجاوز الفتيات حدود المخيم. وسمع بوضوح في السماء الواسعة الصوت الكئيب للإوز الطائر.

على التل في منتصف المخيم جلس شيوخ القبيلة والباثير جولمان نجل السلطان تليشي الرجل الأغنى والأكثر تأثيرا بين عشيرة تايبان. كان رجلا ضخما ذا الحياة سوداء في منتصف العمر وذا نظرة ثاقبة. وكان يعتمر خوذة مجدولة، ويلبس درعا من الحديد. كانت أكمام الدرع لا تصل إلا إلى المرفقين، ومن تحته كانت ترى سترة مخملية. كانت حواف السترة، مثلها مثل السراويل الزرقاء الداكنة المخملية، مطرزة بأشكال

10. ساوكيل - غطاء رأس نسائي ترتديه العروس عند الكازاخ - المترجم.



جميلة. وازدانت قمة حذائه العالي بشريط فضي سميك، وأغلق أسفل الدرع بحزام فضي عريض، ولع الذهب والفضة على مقبض خنجر كبير. وفوق الدرع كان يرتدي قفطانا مخمليا أزرق واسعا مطرزا بسخاء بالذهب، ومزيننا بالجدائل. كان جولمان ينظر مثلما ينظر الشيوخ بقلق نحو الغرب. يشعر بالقلق، والآن لم يحاول حتى أن يخفي ذلك.

فجأة انحنى الباتير جولمان للحظة إلى الأمام، كما لو أن نسر السهوب شاهد ثعلبا، ثم تجمد في الوضع السابق إلا أن عينيه المحتقتين بالدم ضاقتا أكثر. التفت الجميع في القرية، ونظروا في نفس الاتجاه. لقد اخترق سهم رمادي رقيق التل القرمزي الأزرق عند الأفق. وقد اختفى، ثم عاد للظهور على التل القريب، وها قد أصبح الفارس القادم بسرعة كبيرة في مرمى رؤيتهم.

كانت الشمس على وشك الغروب. والنساء يضرمن النار في الخشب المتعفن بالحجر الصوان تحت القدور. وارتفع الدخان الأزرق الرمادي في سماء القرى المجاورة أيضا. ولكن ما إن رأوا الفارس حتى أوقفوا استعداداتهم لتناول العشاء والمبيت.

- يا الله فليكن هذا خبرا سارا.

- أكسارibas... أكسارibas. قرباننا لك من أجل السعادة!

- إنه يسرع جدا. هل جاء العدو خلفه؟

- لا، إنه يشبه رسول السعادة، أكثر.

- فليعرف لسانك دائما مذاق العسل!

تزايد الأمل في نفوسهم وهو أي - الأمل - الرفيق الوحيد الطيب للمطاردين. وابتهل الكثيرون إلى الله أن يكون الخبر القادم سعيدا، ويكون من الممكن العودة إلى أرض الأجداد. اقترب الراكب من سفح التل الكبير حيث كان الشيوخ ينتظرون. قاموا بحل وثاقه، فقفز من فوق الحصان المبلل من العرق، وركض للأعلى. كانت فتحتا أنف الحصان تتهدجان بأنفاس سريعة، وتنتفخان، ويهبط الجانبان بصعوبة. كي يقوم الفارس الشاب بهذه السفارة المحمومة ربط نفسه بإحكام بحبل من الشعر من أخمص قدميه حتى رأسه تاركا يديه وحدها غير مقيدتين. وقد تشقت شفتاه، وخرج منها الدم، وغطت وجهه طبقة سميكة من الغبار المالح، لكن عينيه السوداوين كانتا متقدتان بنار لا تنطفئ.

سأله جولمان:

- هل جئت إلينا بخبر حسن أم سيء أيها الشاب؟



قال الفارس بصعوبة:

- خبر سيء، سيء جداً. لقد خرج جنود من أورينبورج لمطاردتنا.

- أنقذنا يا الله.

- ماذا يريدون منا؟

- وهل الجنود بعيدون عنا؟

انتشر هذا الخبر مثل الريح في لحظة واحدة في مخيمات الزحل المجاورة. بكت النساء، وبدأن في الركض.

صمت جولمان وهو ينظر إلى السهوب ثم قال:

- هل سمعت شيئاً عن رسالتنا؟

- لم أسمع شيئاً.

- هذا يعني أنهم لا يرغبون حتى في سماعنا.

الآن ينظر الباتير جولمان إلى الأرض، أما الناس فكانوا ينتظرون. ثم نظر مرة أخرى إلى الفارس الشاب. كان الفارس الرشيق كالرمح والقوي كمفصل خروف جبلي غمر بالرصاص يقف بلا حراك في انتظار الأوامر. اشتعلت نار رهيبية للحظة في عيني جولمان. أدار رأسه، ونظر إلى مخيمات الزحل الآمنة وكبار السن من الرجال والنساء والأطفال، وانطفأت النار.

- حسنا انفض عنك الغبار واغتسل. ثم احك لي بالتفصيل عن كل شيء.

التفت جولمان إلى الشيوخ قائلاً: لا تبلغوا الناس الآن بالخبر السيء. إنه يتطلب مناقشة هادئة وتفصيلية!

قال أكبر الشيوخ سناً:

- نعم، هناك حيث يتقرر أمر الحياة أو الموت يجب أن يكون العقل حاداً، وبارذاً مثل الفأس.

- كلمات صائبة.

- معطف الفراء المقصوص معاً لا يكون قصيراً أبداً.

قال جولمان:

- أبلغوا الشيوخ المجاورين موخميدالي، وتايمان، وجوسوبجالي. سنجتمع هنا عندما

تكون اللصوص السبعة (اللصوص السبعة - الدب الأكبر) الدلو في السماء.



ركض شابان يشبهان بعضهما بعضا كما الحملان التوأم من التل في اتجاهات مختلفة. وأصدر جولمان بالفعل أوامر لمساعديه قائلا:

- ليذهب الجميع الآن إلى الفراش. فسوف نغادر في الفجر، عندما تنطفئ نجوم أوركر (الثريا أو الشقيقات السبع).

- حسنا.

- وأنتم أيضا اشربوا الشاي، وعودوا فورًا. وترفقوا بكبار السن، وسكنوا من روع النساء والأطفال.

كان الفارس الشاب الذي جلب الخبر السيء لا يزال يتنفس بصعوبة.

- اذهب يا بيتابين وإنحن أمام أمك، ثم عد. سوف أنتظرك.

بقي جولمان وحده على التل. وبهت الشريط اللامع من الشمس الغاربة وراء الأفق. وأظلمت السماء، وبدأ فيها قرص القمر الأرجواني الداكن في شرائط دموية. وفجأة بدأ القلب يتألم في الصدر، وبداله أن ذلك بسبب القمر. ومن جديد تنظر إليهم المصيبة حمراء العينين. فكيف يتقون شرها؟

أنعشت عاصفة من الريح وجهه الساخن. نعم لا مهرب من هذه المصيبة، يجب أن تحول وجهك نحوها عندما لا يكون هناك خيار آخر. في مثل هذه الحالات كان أسلافه دائما ما يذهبون إلى أعماق السهوب، ويهاجمون العدو من هناك ليلا ونهارا شتاء وصيفا حتى يرحل ضعيفا، ومنهك القوى تاركا لهم حرية العيش وفق قوانينهم الخاصة. وإنه البطل ذو الأصل العريق جولمان سوف يخرج سيفه الدمشقي من غمده، ولن يرجعه مكانه مرة أخرى حتى تنغلق هذه العين الدامية فوق السهوب. إنه البطل جولمان ابنها ومالكها.

هناك، في مكان ما، خرج جنود الملك الأبيض البعيد من أورينبورج. ولقد اضطر إلى مواجهتهم أكثر من مرة. نظر الباتير جولمان نجل السلطان تيلينشي البيك الشرعي وزعيم عشيرة تابين من التل إلى السهوب السوداء.

كانت عشيرة تابين عريقة وذات نفوذ واسع. ومنذ العصور القديمة بدءًا من العهد المنغولي ارتحلت من مصب نهر إيليك حيث يصب النهر في نهر جايك حتى رمال نارين. وكانت السهوب الغنية بالعشب الأخضر الواقعة على ضفاف نهر جايك حتى وفقا للمرسوم السامي لملك عموم روسيا تنتمي للقرغيز الكاسياك. ولكن هذا القانون ألغي فقط



في عام 1810م عندما تزايدت الطموحات الاستعمارية القيصريّة. وقد تطلب الإستخراج الصناعي للملح نهر إيليك تشييد طريق بين نوفو إيليك وأورينبورج. وتم بناء تسعة وعشرين حصنا على امتداد هذا الطريق. وظهرت حصون، ونقاط ارتكاز، وبلدات للقوزاق من حولهم، وعلى طول شواطئ نهر جايك الشفاف. وتدرجيا انتقلت أفضل الأراضي إلى حوزة القوزاق الأغنياء من عليّة القوم المهاجرين. وقد أثمر ذلك على المصالح الحيويّة لعشيرة تابين، ومن ثم اعتلى نجل السلطان تليشي الشاب أنذاك "جولمان" صهوة جواده المحارب.

في البداية حاول حل جميع المنازعات بالوسائل السلمية. وفي عام 1822م، أي في عام الحصان أرسل جولمان رسالة إلى الحاكم العسكري لمدينة أورينبورج، إسبن، يطالبه بإعادة أراضي أسلافه. لم يتلق أي رد، ولكن أرسلت إلى ضفاف إيليك حملة عقابية بقيادة الكابتن بادوروف. قامت عشيرة تابين بأسر المفرزة الصغيرة وقائدها الكابتن، أما جولمان الذي كان يرى سبب كل الإساءات، والاضطهاد في تعسف السلطات المحليّة فقد أرسل رسله - السلطان أرينجازي وابن أرينجازي وجوساب ابن الباتير سريم إلى الملك الكسندر الأول في سانت بطرسبرج. ولكن في سانت بطرسبرج لم يستقبلوهم، ولم يسمحوا لهم بالعودة إلى السهوب.

انتظر جولمان مدة عام، ثم كتب مرة أخرى رسالة إلى إسبن يعرض عليه إطلاق سراح الكابتن بادوروف وجنوده إذا سمحوا لأل أرينجازي، وجوساب بمغادرة بطرسبرج، وإطلاق سراح التابيني توليباي، ابن كوندات من سجن أورينبورج، الذي تم سجنه فيه بسبب الشغب. وأصر مرة أخرى على إجراء محادثات حول أراضي عشيرته التي تم الاستيلاء عليها بطريقة غير شرعية. لكن إسبن لم يرد عليه مرة أخرى. بعث جولمان رسالةً ثالثة، زهده المرة رد عليه الحاكم العسكري. لقد بعث إلى جولمان 327 روبلا مقابل إقامة الكابتن وجنوده بين عشيرة تابين، واقترح إجراء المفاوضات المستقبلية من خلال الخان سيرجاسي المعترف به من قبل الحكومة القيصريّة. ولم يرد في الرسالة أي حديث عن عودة المراعي. حينها امتطى جولمان صهوة حصانه.

هاجم جولمان المدن والحصون التي بنيت على جانبي نهر إيليك ثلاث سنوات متتالية. وأرسلت السلطات القيصريّة إليه كتيبة تلو كتيبة. لكن لم يستطع جنوده التصدي للقوات النظامية المسلحة بالأسلحة النارية، فمّنوا بعدة هزائم. ولكن الباتير كان ينجح دائما، مستغلا بمهارة خصائص السهوب المألوفة له في خداع العدو والهروب من الهزيمة الكاملة.

لقد كانت حربا غير متكافئة ومحسومة تاريخيا. على الشاطئ الشرقي لنهر جايك شقت طرق جديدة، وبنى التجار ورجال الصناعة مستودعات لتخزين البضائع،



وسكنت الأراضي الساحلية بشكل محموم. لم تفكر الحكومة القيصريّة مطلقاً بمصالح الرجل الذين كانوا يفقدون أفضل مراعيهم. وبعد أن اشترت الحكومة القيصريّة عن طريق الرشاوى والسماح بالحكم المنفلة طبقة السلاطين من أحفاد بوكي، ووالي، وساميكي تجاهلت تماماً عموم الرجل، وكذلك العشائر الكازاخية الكثيرة الأخرى، ولم تأخذ في الاعتبار العلاقات التي تشكلت في السهوب منذ قرون عديدة. واتضح أنه لم يهن فقط الفقراء الذين كان عليهم تحمل الذل على نحو مضاعف، ولكن أيضاً الأغنياء، وقادة العشائر الكثيرة من ذوي النفوذ مثل الباتير جولمان. فهم من قادوا أحياناً الحركة ضد النظام القيصري، واعتبرهم الناس بشكل طبيعي من حين لآخر قاداتهم.

وقد كان أكثر من تضرر في المراحل المبكرة من الغزوات الاستعمارية عشائر أرجين وكيبشاك، وألشين، وجاجالبالي، وكيري، ونايمان التي كانت تتجول بين نهر جايك الشفاف ونهر كارا أوتكل. وعلاوة على أنهم قد انتزعت أفضل أراضيهم فقد كان عليهم أن يدفعوا مبالغ ضخمة للمسؤولين القيصريين من أجل الحصول على حق رعي الماشية على ما تبقى من المروج الساحلية. وبعد أن وجدوا أنفسهم في طريق مسدود فإنهم، على غرار عشيرة تابين، كثيراً ما كانوا يثورون، ويهاجمون الحصون العسكرية، وإدرات المراكز، وقرى الأغوات السلاطين. لكنها كانت عمليات عفوية، ومتقطعة قمعت بسهولة من قبل القوات النظامية، وحراس الأغوات السلاطين. لكن في عام 1835م، وهو عام الخروف، قمعت على نفس المنوال انتفاضة كبرى للعديد من عشائر الجزء الأوسط والجزء الأصغر، الذين كانوا يتجولون على طول الساحل الشرقي لنهر جايك. وانتهت دون نتيجة. لكن الأبطال الذين كانوا يقودونها أدركوا أنهم لن يمكنهم هزيمة العدو، والدفاع عن حقوقهم بقوات مبعثرة.

لكن من في مقدوره أن يأخذ في يديه مقاليد حكم الأجزاء الثلاثة الكازاخية التي تنتشر مضارب رحلها من بحر قزوين إلى الحدود الصينية؟ وكل عشيرة تحاول الحفاظ على استقلالها، وكل سلطان أو باتير يريد أن يحكم عشيرته. والعجل الخاص أفضل من الثور المشترك، ولا يمكن عمل شيء حيال ذلك. وهنا ترد على خاطر المظالم القديمة من تلقاء نفسها، الحقيقية منها والوهمية، وكل ما حدث في السهوب عبر تاريخها الطويل.

بطبيعة الحال هناك، في كل عشيرة وقبيلة، رجال شجعان يقودون المحاربين وراءهم بشجاعة، وهناك قادة أذكىء وفصحاء لا مرأى في شهرتهم، لكن داخل عشيرتهم أو قبيلتهم فقط. وبالنسبة للآخرين هم غرباء، يعرفونهم عن طريق الشائعات. وداخل العشيرة أيضاً لا يخضعون كلهم لباتير واحد. ففي أغلب الأحيان هناك العديد منهم، ويقسم الصراع



الخفي أو الواضح فيما بينهم حتى أقرب الجيران. في مثل هذا الموقف كان الكثيرون يوجهون أنظارهم عن غير قصد نحو خلفاء الخان أبلاي حاكم الجزء الأوسط الذكي والماكر الذي استغل بمهارة الخلافات بين روسيا القيصرية والإمبراطورية الصينية، واستطاع بفضل ذلك الحفاظ على استقلال نسبي خلال فترة طويلة. تذكروا أنه في عام المحنة الكبرى المعروف لدى الشعب باسم أكتابان شوبيريندي تمكن أبلاي من قيادة المقاومة ضد الغزاة الكالميك، وفي عام 1777م رفعه سادة القوم وفق التقليد القديم على السجادة البيضاء، ونصبوه خاناً على جميع الأراضي الكازاخية. ومع ذلك أقرته كاترين الثانية بمرسوم في 24 مايو 1778م خاناً للجزء الأوسط فقط.

وقد ورد السبب في عدم تلبية طلب الخان أبلاي في الرسالة المرفقة من مجلس الشيوخ إلى الحاكم العسكري لمدينة أورينبورج بتاريخ سبتمبر 1778م. وقد جاء فيها تحذير واضح من خطر توحيد الكازاخ تحت سلطة خان واحد، وألزمت الحاكم بتسليم أبلاي المرسوم الملكي الخاص بتعيينه، وكذلك معطف السمور، وقبعة الثعلب، وسيف فضي بعد أدائه اليمين بالولاء لصاحبة الجلالة الإمبراطورة في أحد الحصون التابعة لهم. تجنب أبلاي ذلك حينئذ بذكاء، مرسلًا شقيقه الأكبر جولباريس للاطلاع على المرسوم، وظل خاناً للأجزاء الثلاثة.

بعد وفاة الخان أبلاي في عام 1782م انتخب ابنه البكر والي الذي اعترف على الفور بسلطة القيصر الروسي. ولكن لم يوافق على هذا، كما يحدث دائما في مثل هذه الحالات، الأبناء الآخرون للخان العجوز، وفي المقام الأول قاسم توري ابن أبلاي من زوجته الكالميكية. وبدأ جنبا إلى جنب مع أبنائه يسينجيلدي وسارجان حربا طويلة مرهقة ودموية تحت راية والده وجده المشهورين. كان هذا صراعا متكررا بين الإقطاعيين في التاريخ من أجل السلطة والنفوذ والذي تزامن هذه المرة مع النضال من أجل التحرر الوطني للشعب ضد النظام القيصري والذي استخدمه لأغراضه الخاصة، وتمكن بفضل من الإستمرار لسنوات عديدة. في المقابل استخدمت الحكومة القيصرية بذكاء هذه النزاعات الإقطاعية. وقد مر انضمام السهوب في تضافر معقد ومتناقض لمصائر البشر كونه ظاهرة تقدمية بشكل موضوعي وتاريخي.

كيف تأتي لرحال بسيط معرفة كل هذا؟ من خلال ضباب السنين تلاشت في الذاكرة الشعبية إساءات وظلم الخان أبلاي الرهيب. لقد كان حفيدا مباشرا لجوجي خان ابن جنكيز خان الذي أعطاه الفاتح القاسي، و"مزلزل الكون" هذه الأرض وهذا الشعب. ورأوا في أحفاده ورثة شرعيين لجوجي خان الرهيب. ومما يثير العجب أن راية أبلاي أصبحت تجذب السهوب. كان لا بد أن تمضي سنوات عديدة، وتسال أنهار من الدماء كي يدرك



الشعب إلى أي شيء قادته تلك الراهية.

لم يكن الشعب البسيط وحده، بل كثير من الأبطال، وزعماء العشائر أيضا يعتقدون بصدق أنهم يستطيعون هكذا فقط أن يدافعوا عن استقلالهم. وكان من بين هؤلاء الباتير جولمان زعيم عشيرة تابين.

الآن يقف على التل، وينظر إلى السهوب السوداء. أين ذلك الرجل الذي يستطيع أن يوحد السهوب؟ إذا اندمجت آلاف الأنهار الصغيرة في نهر واحد لن تستطيع أي سدود أن تقف أمامه. حتى الآن ما زالت العشائر والقبائل تقاوم بشكل منفصل، ولكن إذا كان هناك زعيم معترف به من الجميع تتحول هذه المقاومة إلى قوة رهيبية لا تقهر. أبناء قاسم توري الآن بعيدون، كما أن الحظ لا يحالفهم. خاصة عندما يجدون لغة مشتركة مع كوكاند، وهذا حليف ربما من الأفضل أن تعده عدوا لدودا. ومن يضمن أن الخيانة التي إرتكبها الطشقندي كوش بيغي في كورجان الصيف الماضي لن تتكرر. لا أستطيع أن أصدق كلمات بائع متجول مستعد في أي لحظة لأن يضحي بالأراضي الكازاخية من أجل مصالحه الخاصة. ولا أحد يعرف حتى الآن من هو العدو الأكثر خطرا، هل هو الملك الأبيض أم الكوكانديين إخواننا في الدين؟

ولكن ما العمل إذا كان الموقف سيئا جدا لدرجة أنه يتحتم عليك الفرار سزا من وطنك، وتنتظر كل ليلة طلقات الجنود من الظلام. أسوأ شيء هو أن تشعر أنك أرنب مطارد، وعلاوة على ذلك تحلق فوقك النسور - السلاطين. هل تندفع نحوهم وتموت؟ سيكون هذا أسهل شيء. ولكن ماذا عن النساء والأطفال ومستقبل العشيرة؟ لا، إنه هو المسؤول عن الشعب أمام المقابر القديمة والتماثيل الحجرية الغامضة التي وضعها الأجداد هنا. الهاوية بالجوار فلا يجب أن نتعثر.

نعم يجب أن يكون البحر واحدا. لقد رأى في أماكن استخراج الملح أن جزء الماء الذي يضرب حوله سيأج في البحر يجف فيه الماء بسرعة، ويبقى في القاع فقط المسحوق المنتفخ الأبيض. وهكذا تكون العشائر المنعزلة. لقد ذهبت فقط قرى عشائر ألتاي، وألتين، وتوكا، وياك خلف يسينجلدي، وسارجان، وأبناء قاسم توري. ولعديد من السنوات قاتلوا حاكم سيبيريا، ومساعديه السلاطين كونور كولدجا، وزيلجار دون جدوى.

ومن يتبعه غير عشيرة تابين؟ إن الجميع مستأؤون، والسهوب كلها أصابها القلق. هل هذا يعني أنه ليس هناك حتى من بين أحفاد أبلاي شخص قوي. إذا ظهر مثل هذا الشخص، فإنه الباتير جولمان. سوف يكسر العمود الفقري لكبريائه، وحبه للسلطة، وسوف يطيعه في كل شيء، وسيعاقب أي شخص من عشيرة تابين يجرؤ على التذكير بالخلافات القديمة.



وماذا ينبغي على هذا الشخص أن يكون؟ إن الأبطال كثيرون وشجعان. لكن الشجاعة وحدها لا تكفي: يجب عليه أن يتحلى بالذكاء والحكمة والدهاء والبلاغة وضبط النفس والحسم وأشياء أخرى كثيرة. فهل لم يولد على الأرض الكارزائية إنسان يملك مثل هذه الصفات اللازمة للزعيم.. جال بخاطره عشرات الأبطال المشهورين والسلطين والبكوات، وأومض أسرع من الجميع وجه كينساري نجل قاسم توري الأوسط العظمي المائل للسمره. لقد أصبح مشهورا بالفعل، وانتصر في عدة معارك، ولكن كثير من أبطال السهوب لا يقلون عنه في المآثر الجليلة. وعلاوة على ذلك لا يزال والده وإخوته الأكبر سنا على قيد الحياة والذين لهم الحق قبله وفقا لقوانين السهوب القديم في المجد والسلطة.

بدأ العشب تحته يصدر حفيفا. وحدد الباتير جولمان بعد أن أحد النظر في الظلام الرمادي ملامح جسد رشيق. لقد كانت خطوة بايتابين ابن أخته جيدة، وخفيفة. وكان محاربا متفانيا في عمله. فبعد رحلة مرهقة عبر السهوب لم يمنح نفسه دقيقة واحدة من الراحة، ولبي فقط طلب خاله بزيارة امرأة مسنة. وأدرك أن جولمان يريد أن يتحدث معه على انفراد.

لقد كان الابن الوحيد لشقيقة الباتير جولمان الكبرى والتي زوجها في عشيرة سيسينتييمير التي تنتمي للجزء الأصغر. وعندما ترعرع بايتابين أصبح شجاعا بشكل متهور، وحاذقا وواسع الحيلة. وعلى الرغم من أن الباتير جولمان لم يظهر هذا على الملأ، لكنه كان يحب ابن أخته أكثر من الجميع. وكان قلبه لا يستقر في مكانه عندما يرسل بايتابين في إحدى المهام الخطيرة.

- لقد بدا لي أن بندقية شخص ما تسهد في عندما كنت غائبا.

أفلتت هذه الكلمات عن غير قصد من البطل وهو يمس بشفتيه جهة بايتابين الباردة. أصابه الخجل من مودة خاله، وأدرك أن البطل مازال يعده صبيا عديم الخبرة. على ما يبدو أدرك الخال حالة ابن شقيقته لأنه اعتدل فجأة، وسأله بصوت عادي خشن:

- هل عدد هؤلاء الجنود كثير؟

- كتيبتان. ويسير خلفنا أكثر من مائة شخص. إنهم يسرون للأعلى على طول الضفة اليمنى لنهر إيليك، ويحمل كل واحد منهم بندقية على كتفه. ويقودهم كارا بورا ذي الحدأة بنفسه.

كارا بورا ذي الحدأة هو الملازم كاربوف المعروف في جميع أنحاء السهوب. إنه رجل فارح الطول، ويغطي الشعر الأسود الكثيف كل صدره وذراعيه. وبالإضافة إلى ذلك فإن طبعه حاد لذلك لم يكن مصادفة أنهم يطلقون عليه الجمل البري الأسود، بل وأيضا ذو الحدأة والتي توافق رتبته العسكرية. وبهذا الوصف دخل الأساطير السهبية.



مائة بندقيّة. يلزم الكثير من الوقت لتعميرها، لكن لم يكن لدى مقاتلي جولمان واحدة مثلها. ولن نأخذ في الاعتبار بعض البنادق الخوارزمية طويلة المسورة التي تشكل خطراً على مطلق النار أكثر من الشخص المستهدف بإطلاق النار. كان الفرسان مسلحين بسيوف طويلة، وبهروات، وأقواس. كان الأمل معقوداً فقط على الأقواس. فليس من قبيل العيب أن الفتيان منذ مرحلة الطفولة المبكرة يهرعون عبر السهوب، ويصيبون من مائة خطوة رأس سنجاب خارج من جحره بلا حذر. وكانت كنانن الأسهم المصنوعة من لباد سميكة والمطرزة بشكل جميل معلقة لدى الفرسان على أقواس السروج، ويرى الريش القاسي للسهم في خط مستقيم. ووسم البعض منهم بالريش الأصفر أو الأحمر، مما يعني سم أفعى أو لعاب سقط من بقرة مصابة بالحمى القلاعية. وكان يحذر مس هذه الأسهم باليد من النهاية الحادة، وقليل هم من نجوا ممن أصيبوا بها. ومن زمن سحيق كان أهل السهوب يستخدمون في الأوقات الصعبة هذا السلاح الرهيب، وأجبروا الغزاة أكثر من مرة على الرحيل. وقد كانوا يعلمون أنهم لن يستطيعوا في بعض الأحيان حماية أنفسهم من الطاعون الذي كان يغزو السهوب بسبب سهامهم لكن الحرية كانت دائماً أحب إليهم من الحياة ذاتها.

كل هذا كان يعلمه الباتير جولمان، ونظرت عيناه إلى الليل. ولمس أثناء تفكيره العميق سيفه الخراساني.

- وهل لديهم مدافع؟

- لا، لم نرمعهم أي مدافع.

- إذن سيكون الأمر أسهل.

- يقولون أن لديهم الكثير من البارود والكبريت. إنني لم أزدك بنفسي، ولكن من رأوا يقولون أن أكبر برميل بارود يوجد في العربة الأخيرة في أمتعتهم. ويجر هذه العربة زوج من الخيول الكستنائية اللون، أما البرميل فقد لف في سجادة سوداء.

قال جولمان كأنه تذكر شيئاً ما، وحول رأسه بعدة إلى باتابين:

- يجب أن نولي هذا الأمر عناية كافية ونأخذه في الاعتبار... وهل رأيتم بينهم جبريل

ذا العين البيضاء أو أليكسالدي الأحنف؟

لقد سأل الباتير جولمان عن أخطر رجلين بينهم. كان كلاهما يحمل رتبة رقيب في حصون إيليستك، ويدعى الأول جبريل والثاني ألكسندر ويعيشان هنا في المنطقة الحدودية. لقد كانا يعرفان السهوب ولغة الكازاخ وعاداتهم بشكل جيد. ولكن على عكس البسطاء الروس الذين تعايشوا مع سكان السهوب، وأصبحوا كذويهم استخدم



هذان الاثنان معرفتهما في الشر. وقد حصل كل منهما كما جرت العادة بين الكازاخ على أسماء مستعارة تناسبهما. كان جبريل أثناء الاستجواب يدير بياض عينيه بطريقة مخيفة، أما ألكسندر يشخر بطريقة مفرزة تنهك الروح. وكانت قسوتها غير عادية حتى بالنسبة للعادات السائدة في الحصون الحدودية. وكانت النساء في السهوب تخيف أطفالهن باسميهما. وإذا كانا يصاحبان المفرزة فإن الأمر يصبح صعبا. وكان جبريل وألكسندر في شبابهما لصوص خيول، ولن تجدي معهما الحيل السهبية المعتادة التي يمكن استخدامها ضد أفراد حملة كاربوف البسطاء والبلهاء. ويعلمان بشكل رائع المنطقة الواقعة على ضفاف نهر إيليك إذ أنهما قد شاركا في كل الحملات التأديبية.

كان جميع الكازاخ يعرفون كل شخص يعيش في الحصون، ويعرفون عاداته، وشخصيته، ونقاط قوته، وضعفه. كانوا يحترمون البعض، ودائما ما يكون منزل ساكن السهوب مفتوحا لمثل هذا الشخص، ويكرهون البعض الآخر لكن كان هذا وذاك يستحقان ذلك بالفعل.

قال بايتابين:

- كلاهما في كتيبة أخرى تابعة للخان سيرجاسي. - وهي تتكون أيضا من حوالي مائة شخص. لكن البنادق الجديدة لديهم أقل. ونصفهم من حرس الخان المزودين بالحرب. ويزمعون الهجوم عند انسحابنا إلى ملتقى البحيرات الثلاث. هكذا أبلغنا رجلنا من كتيبتهم.

- هل يريدون أن يجهزوا علينا من كلا الجانبين مثل الخيول البرية؟

- نعم، على الأرجح يريدون ذلك.

- حسنا، نحن أيضا نصطاد الخيول البرية. ابتسم الباتير جولمان بشكل غامض، والتفت

فجأة إلى بايتابين، وسأله مباشرة: هل تمكنت من رؤية أكبوكين؟

كان بايتابين يتوقع هذا السؤال،، وانخفض كتفاه العريضين بعجز، وقال:

- لا.

أكبوكين ابنة أحد الرجال المسلمين من عشيرة تابين. وحسب العرف القديم كان الباتير جولمان بصفته خال بايتابين قد اتفق مع والد الفتاة على خطبتهما عندما خطا بايتابين أول خطواته على الأرض، وكانت لا تزال هي في المهد. بدأ ذلك غريبا، لكن مثل



هذه الخطبات كان يكتب لها النجاح في كثير من الأحيان. ومن الواضح أنها نجحت أيضا في هذه المرة. ترعرت الفتاة، وأصبحت فائقة الجمال، وذات مرة أثناء احتفال البايجا رآها الخان سيرجازي. حينذاك أحرز المركز الأول في السباقات حصان أخالتيكين الشهير الذي تملكه عشيرة تابين. وقد أعجب الحاضرون حتى من مسافة بعيدة برأس الحصان الفخور، وخطوته القوية الواسعة. لكن الخان العجوز لم ينظر إلى الحصان. لم تفارق عيناه الجسد الصغير الرشيق الذي يبدو كأنه انغرس في ظهر الحيوان القوي الناعم. كانت أكبوكين حينذاك تبلغ ثمانيئة أعوام.

كان الخان سيرجازي معروفا في السهوب كخبير في الجمال الأنثوي، وكانت عيناه لا تخطئان أبدا. مرت عدة سنوات، ولم يكن في السهوب فتاة أجمل من أكبوكين. لم ينتظر الخان نهاية الاحتفالات، وأمر جانتيمير والد الفتاة بالقدوم إليه في المقر الخاني، ثم جعله حارسا له. في حقيقة الأمر كان لا يحق للتولنجوت (الحارس) وفقا للعرف المتعارف عليه أن يتزوج هو أو يزوج ابنته دون إذن من الخان التابع له. بعد فترة من الوقت كان على جانتيمير أن يعيد إلى شقيقة الباتير جولمان ماتلقاه مقدا كجزء من مهر ابنته وهو عدد قليل من الماشية.

بكت "العروس" الصغيرة، وسارعت بالعودة عندما أخذوها من قريتها. فماذا كان هذا: حبا، تعاطفا خاصا، أم عادة؟ فهي منذ أن بدأت تعي كانت تعرف أنها مخطوبة للصبي الطويل أسود العينين؟ لم تفهم شيئا، ولكنها شعرت أن هناك شيء ما رهيب يحدث لا يمكن إصلاحه. وبقي الصبي للأبد في أحلام الطفولة.

لم يكن الأمر في المشاعر الطفولية. كان فسخ الخطبة، وعودة المهر بمثابة إهانة. ولم يكن الشخص الذي لحقت به الإهانة شخصا عاديا، بل زعيم عشيرة تابين العريقة الباتير الشهير جولمان الذي عقد هذه الخطبة. كان من الصعب حينذاك اتهام الخان بشيء ما مباشرة والذي كان له حق غير مكتوب باتخاذ أي شخص حارسا له ولكن كان واضحا للجميع إلى أي شيء يمضي ذلك الأمر. لم يستطع أحد أن يعترض طريق الباتير، ويمر الأمر بسلام حتى لو كان خانا ثلاث مرات أو سلطانا. لكن البطل جولمان لم يكن يريد البدء في الشجار في هذه الأوقات الصعبة. تحركت الغيوم إلى السهوب، وكان من غير المعروف أي موقف سيأخذه الناس. حتى أن شرف الباتير لم يمثل شيئا أمام القضية المشتركة. والآن عندما يجمع حراس الخان سيرجازي مع الجلادين القرى المتمردة يصبح كل شيء واضحا. قبل خمسة أيام استدعى الباتير جولمان ابن أخته وقال أمام جميع البكوات، والشيوخ:

- يتردد أن حملة عقابية غادرت أورينبورج للحاق بنا. وأنا أعلم أن هذا الأمر في هذه المرة بتدبير من سيرجازي. اذهب إلى قراهم، واستعلم عن حقيقة الأمر بالتفصيل. ولحسن الحظ



أنه على الرغم من أن هذا الكلب العجوز المربوط في سلسلة غريبة يرغم قومه على ما يريد إلا أن الكثيرين منهم يساعدوننا.

لقد كان ذلك قطيعة سافرة مع الخان سيرجزي. وعندما بقي هو وبايتابين وحدهما وضع يده الكبيرة على كتفه وقال:

- يا قريبي لقد كنت شابا مثلك، وأفهم كل شيء. السعادة أوزة بريئة يصطادها الرجال الحقيقيون بالقوة أو بالشبكة. خذ أفضل اثنين من خيولي الرمادية، واذهب إلى قرية الخان، وافعل كل ما تتطلبه القضية العامة. وبعد ذلك إذا وافقت أكبوكين على الرحيل، فأت بها إلى هنا في الليل. وإذا لم تقدر على ذلك، فاعلم متى سيحتفل الكلب العجوز بزفافه. لن أبخل بأي شيء، ولسوف أقذف بكل قطعاني في الهواء كي أفسد عليه احتفاله..

لقد عبر الباتير جولمان عن كل ما تقوله السهوب. لقد أراد الخان سيرجزي أن يتخذ أكبوكين زوجة له. ولم يكن من المستغرب أن الخان لديه عدة زوجات، بل ما أثار الدهشة هذه المرة أن الإساءة لحقت بالعشيرة كلها. عندما سمع بايتابين قبل أسبوعين عن ذلك الأمر ذهب إلى السهوب، ولم يعرف أحد بذلك، لكنه التقى أكبوكين أربع مرات في هذه السنة. لقد تقابلا في الأدغال البعيدة حيث تتقاطع طرق العديد من قبائل الجزء الأصغر. لم يحدث شيء بينهما، لكن كل مرة كانا فقط يقفان معا في السهوب طوال الليل. حتى أنهما لم يقلوا شيئا لبعضها بعضا.

لكن من يدري كم كانت معاناة البطل جولمان كبيرة عندما سمع هذا الخبر. لقد أضيفت إلى معاناته من أجل ابن أخته الذي يحبه أكثر من نفسه معاناته بسبب الشرف الباتيري المهان. وقد أعمى الغضب عينيه.

سأبقت خيول الباتير جولمان الرمادية المعروفة في جميع أنحاء السهوب الريح، وكانت تلتقط بأسنانها وهي تجري الطيور ذات الأجنحة السريعة. هكذا كانوا يتحدثون عنها في السهوب، وكان ذلك صحيحا. لم يأخذ معه أي فارس حتى لا يجذب الانتباه، وبعد يوم ونصف من السفر ألقى بايتابين بنفسه على العشب على مشارف قرية الخان. وبعد أن التقط أنفاسه، وربط أقدام الخيول تسلل إلى القرية. لقد علم من أشخاص أوفياء عن خروج مفرزتين عقابيتين من أورينبورج لهزيمة عشيرة تابين، واخضاع زعيمها الباتير جولمان. وقد علم أيضا أن زفاف الخان العجوز وأكبوكين سيتم في القريب العاجل. لكن للأسف لم يكن لديه وقت.

سأل الباتير ابن أخته دون أن ينظر إليه:

- ربما كان من الممكن أن تراها؟



أجاب بايتابين بهدوء:

- هذه شوكة انغرس في روحي أنا فقط.. مع كل ساعة يقترب منا الجنود.

- إنك تتحدث كما يليق ببطل في قادم العمر. أما فيما يخص أكبوكين فتحلى أيضا بالشجاعة. فليست هناك أمراض مستعصية.

قال الفارس الشاب بحزم:

- هذا مرض غير قابل للشفاء.

تنهد الباتير ثم أردف قائلا:

- ربما كنت على حق. - إذن فهذا أمر يهملك. ولكن تجلد. فإن لم نمت في هذه المعركة فسوف نحول عصاة الخان بأكملها إلى تراب..

تبدت في السماء السوداء سبعة نجوم ساطعة واحدة تلو الأخرى مكونة الدلو بشكل واضح. وحالما بدأت الأخيرة منهم في السطوع، شرع الشيوخ في صعود التل من جميع الجهات. اقتربوا بهدوء، وأخذوا مقاعدهم بصمت حول الباتير جولمان. وعندما اجتمع الجميع، توجه إليهم الباتير جولمان بكلمة قصيرة. لقد قال لهم كل ما كان يعرفه عن الجنود، والغان سيرجازي، وطلب النصيحة من كبار السن. تحدث كل واحد من الشيوخ بإيجاز، وتطابقت آراؤهم. لم يبق لعشيرة تابين شيء سوى خوض المعركة. لذلك تقرر نقل معسكرهم إلى جبال مود جدار. ولكي يبلغوها كان عليهم أن يسافروا مدة يوم أو أكثر قليلا، وهناك في أدغال تماريسك الكثيفة يمكنهم إخفاء النساء والأطفال. ويقوم النصف من مجمل الألف محارب بالدفاع عن الزحل، أما النصف الآخر فسيواجه الجلادين. ووفقا لحسابات الباتير جولمان، فإنهم سوف يصلون في الفجر، وإذا غيروا الخيول فسيصلون مساء هذه الليلة. لذلك سيبقى هنا اثنا عشر فارسا، وسوف يواصلون إشعال النار كما لو أن الزحل لم يغادورا أماكنهم.

ذهب الشيوخ مع قوافلهم، وشرع الباتير جولمان جنبا إلى جنب مع بايتابين في توزيع المحاربين. وفي ضوء النيران الساطعة مروا أمامهما حاملين الأقواس، والرماح والفؤوس، والهرارات. وتلائت الدوائر الفضية الصغيرة للدروع وراء ظهورهم بشكل خافت. كان كل ذلك تحت السيطرة الكاملة للباتير. وكانت الإشارة من يده اليسرى تعني أن يسير المحارب خلف الراحلين، أما الإشارة باليد اليمنى فتعني أن يبقى الجنود معه للقاء العدو. في أقل من الوقت الذي يستغرقه حلب اثنين من إناث الخيول انطلقت القافلة الضخمة لعشيرة



تابين في الطريق محاطة بالفرسان. وانطلق أولئك الذين اعتادوا على حياة الترحال الرهيبة بلا تدمير أو صخب إلى طريق جديد غير معروف. لقد سمع فقط أثناء الليل بكاء الأطفال الذين استيقظوا في وقت غير ملائم وهدير مكتوم مستاء لجمال منزعجة. وقد خفتت بالتدريج هذه الأصوات. وواصلت القافلة سيرها إلى المكان المنشود.

وبدا للباقيين في أماكنهم مع الباتير أن القرى لا تزال في أماكنها. وقد أشعلت نيران كثيرة فبددت نصف العتمة البيضاء للقمر البادئ في الظهور. ومن وقت لآخر كانت الخيول تصدر شخيراً، وسمعت أصواتاً منخفضة، ونباح الكلاب. وإذا اقترب أحد من هذا المكان من أي جانب سيبدو له أن قافلة قد توقفت هنا، وأن الناس يطهون لأنفسهم الطعام، ويستعدون للنوم.

قسم الباتير جولان الفرقة التي بقيت معه إلى مجموعتين. ثم أخفي إحدهما في أدغال واد صغير، وقاد الأخرى إلى الجانب الآخر من التل. ولكن قبل أن يصل المحاربون إلى المواقع المخصصة لهم سمعوا وقع حوافر خيول قادمة بسرعة. انكشمت قلوب الناس خوفاً، لكن الإشارة المتفق عليها سابقاً وهي صرخة طائر طمئنتهم أن هؤلاء الناس معهم. ذهب مجموعته من الفرسان إلى المنحدر الجانبي الجنوبي من التل. وأمسكوا بحراهم بشكل مائل للأمام الأمر الذي يفعله أهل عشيرة تابين وحدهم.

اتضح أن أفراد الاستطلاع أرسلوا في مهمة خاصة قبل أيام قليلة إلى أعالي نهر جايك. ولكن من كان معهم؟ كان بينهم ثلاثة أشخاص غرباء. أحدهم صغير الحجم، أبيض الوجه يلف نفسه في قفطان. ويرتدي الاثنان الأخران أيضاً ملابس غير ما يلبس أهل عشيرة تابين فقد كانوا يعتصمون قبعات منخفضة حددت حوافها بالفراء الأبيض، ويرتدون معاطف سوداء منسوجة يدويا، مثل ما يرتدي المهاجرون الروس. أما الأحذية فذات قمم ضيقة غريبة. كانت خيولهم تلحق بالكاد خيول عشيرة تابين، وعندما توقفت باعدت ما بين أرجلها الأربعة. كان من الواضح أن رحلتهم كانت طويلة. اقترب كبيرهم من الباتير جولان المنتظر بصمت ليبلغه بكل شيء. وقبل أن يتمكن من فتح فمه جفل بايتابين الواقف بجوار الباتير وقال:

- يا بيري- أو.

- ما خطبك..؟

نظر الباتير جولان بدهشة إلى ابن أخته متتبعا نظرتة. ترجل جسد صغير من على ظهر الحصان، وتفحص الحاضرين، وقال:



- هل أنت بايتابين..؟

اتضح أنها فتاة، ولها صوت أكبوكين. وفجأة بعد أن تداركت الأمر انحنى للحاضرين وقالت:

- أمان سيزدار أجالارا!.. السلام عليكم أيها المحترمون..

نعم لقد كانت بالفعل أكبوكين، وكان أمرا لا يحتمل الخطأ. أضاء نور القمر وجهها الأبيض المستطيل قليلا، وكبحيرات السهوب أثناء الليل كانت عينها السوداوين الواسعتين كعيون الجمل تنظر بعمق وبهدوء. وقد ألقى فراء سمور ألتاي الداكن على قبعتها المتوجة بريش طويل ظلالة على وجهها الجميل. واتخذت سترتها المخملية لون الفضة على الصدر العالي، والخصر النحيل بعد أن ألقى عنها معطف السفر المصنوع من الفراء. وعندما خلعت الفتاة قبعتها تسمر الجميع في أماكنهم. فلم تكن الفتاة قد جدلت شعرها أثناء الطريق، أما الحبل السميك الذي كان تربطه بالحزام فقد انحل، والآن انسدل شعرها حتى الأرض. وبدت كما لو أن ضوءاً مائجا أسوداً قد غمرها بالكامل.

سألها الباتير جولان بصوت مصطنع نوعاً ما، وقد شعر رغماً عنه بالارتباك عند رؤيتها مثل هذا الجمال:

- إلى أين تذهبين يا ابنة أخي؟

- أيها الباتير الشهير جولان. - قالت ذلك ثم شرعت فجأة في البكاء بطريقة طفولية. - احمني يا عمي من النسرة الأسود..

قال الباتير:

- يا رجال ساعدوا الفتاة لتترجل عن الحصان.

اقترب بايتابين، ووضع وفقاً للعرف الكازاخي القديم إحدى يديه على خصرها، ثم أمسك فخدها بيده الأخرى، ورفعها من السرج، وأنزلها على الأرض ببراعة. وسرعان ما لفت الفتاة الشعر حول خصرها كي لا يعوقها عن المشي.

لقد حدث معها ما كان يحدث في كثير من الأحيان في القرى الخائنية. وأنه لشرف عظيم لحارس بسيط مثل جانتيمير أن قرر الخان أن يتخذ من ابنته زوجة له. وقد تم الاتفاق على كل شيء مسبقاً، وتحديدًا في تلك الليلة عندما اختبأ بايتابين في العشب على مشارف قرية الخان، وأدخلت إحدى عمات أكبوكين البعيدات العريس



المبجل إلى منزل العروس. وقد طبق الخان العجوز العادة القديمة والتي وفقا لها يسلمون العروس إلى العريس سرا من يد إلى يد، ويحصلون على مكافأة محددة، ثم يبتعدون، ويتركونهما معا وحدهما طوال الليل. وقد اخترعوا هذه العادة في وقت ما لجمع العشاق المساكين معا الذين ترفض عوائلهم تزويجهم. وقد قرر الخان سيرجازي الاستفادة من هذه العادة مدركا بشكل جيد أن الكثير من الناس يريدون إفشال خططه.

كان الخان يشبه كلبا عجوزا نحिला قد أنهكته الديدان، أما وجهه فقد كان أبيضاً مثل وجه الميت. وعندما أصبحا وحدهما أدرك أنه من غير المرجح أن يستطع بهيئته تلك أن يجعل الفتاة تحبه فحاول أن يمزح معها فقال:

- لقد جف دمي كله. ألا يوجد عندك هنا رشفة لبن مخمر لشاب مثلي؟

لقد أوحى إليها بنفسه بطريقة التخلص منه. خرجت أكبوكين بسرعة، وجلبت من اليورتا المجاورة كأساً من اللبن المخمر. كانت أسنانها تؤلمها في الأونة الأخيرة، وكان في جيب فستانها بذور كوشال البيش⁽¹¹⁾ التي تشبه الأزرار والتي تستطيع جرعات صغيرة منها تخفيف الألم. كما أنه يساعد أيضا على النوم بشكل جيد، ووضعت الفتاة كل ما كان معها في اللبن المخمر. لكن خشيت أكبوكين من أن ينام الخان العجوز إلى الأبد. لقد تخيلت كثيراً جداً تلك الليلة الأولى معه.

شرب الخان المتحمس كأس اللبن المخمر الضخم دفعة واحدة، وبدأ على الفور في خلع ملابسه. لكن فجأة بدأت يديه تتحرك بشكل أبطأ، وبدأ فمه يرتعش، وهوى على الأرض. ولم يسمح لأحد خلافا للعادة الملزمة للأخريين أن يرى أو يسمع حتى من بعيد ما يحدث في أول ليلة للخان مع عروسه. وبناءً على أوامر سرية طرد الحراس الجميع مسبقاً من منزل يورت جانتيمير، وقد ابتعدوا هم أيضاً تاركين فرداً واحداً للحراسة. لذلك لم يسمع أحد كيف تقيأ الخان سيرجازي، وأخرج ما بداخله حاصلاً على ما يستحقه من متعة في ليلة زفافه الأولى، أما أكبوكين فقد تسللت بهدوء للخارج.

كان المرافقان لها اثنان من الباشكريين الهاربين وهما أشرف، ودافليتشي. لقد كانا يختبان منذ شهر في قرى الحراس التابعة للخان سيرجازي، وكان الجميع يشفق عليهما ويساعدهما. وفجأة قبض الحراس القادمين مع الخان على الغريبيين، وقيدوهما في عربة الثور الواقفة بجوار خيمة جانتيمير بحبال من الشعر لإرسالهما في صباح اليوم التالي تحت حراسة إلى أورينبورج. وكان هذا انتهاكاً صارخاً لقوانين الضيافة السهبية، وقانون اللجوء

11. البيش؛ نبات عشبي من الفصيلة الشقبيية تُستخرج منه مادة مُخدِّرة - المترجم.



القديم لذلك حاول الشباب الكازاخي الإفراج عنهما حتى أثناء النهار. لكن القوى كانت غير متكافئة.

طلبت أكبوكين من حارس السجناء مساعدة الخان الذي أصابه المرض بشكل فجائي، وفي أثناء ذلك قطعت الجبل الذي ربط به أيدي وأقدام الأسرى، واختبأت معهم في أقرب واد. وهناك وجدوا خيولا ترعى فأمسكوا ثلاثة منهم، وانطلقوا إلى الجنوب حيث يجب أن يكون الآن وفقا لحسابات أكبوكين معسكر عشيرة تابين. ولفترة طويلة سمعوا خلفهم ضجيجا وفوضى كما لو كان صادرا من عش دبايير هانجة.

لقد تخيرت ابنة هذه السهوب الاتجاه الصحيح. وفي اليوم الثاني تقابلت مع أفراد الاستطلاع العائدين من بحث روتيني. لقد حكت كل هذا للباتير جولمان بسرعة ودون توقف. لقد رأت، وسمعت الكثير في قرية الخان، وأخذ الباتير يستجوبها بالتفصيل.

قالت أكبوكين وهي تنهي قصتها:

- للأسف لم يكن معي كثير من الكوشال (المخدر) - عندما كنت أهم بالخروج رأيتة يفتح عينيه.

نظر الباتير جولمان إليها بدهشة. فقد كان لدى الفتاة قوة وغل يوازي ما لدى عشرة أبطال. وهذه علامة جيدة إذا ما بدأت النساء تكره على هذا النحو.

سألها:

- ألم تخش أن ينتقم سيرجاري من أبيك؟

فتحت عينيه بدهشة، واشتعلت الجمرات السوداء في مكان ما في الأعماق وقالت:

- إنه لم يرتكب أي ذنب.. فكل ما أمر به الخان قد نفذه. أنني أنا التي لم أرغب في ذلك.

تنهد الباتير جولمان بصعوبة. نعم إن والديها لم يذنب. ولكن قد أدركنا الزمان الذي يعاقب فيه البريء في المقام الأول. الجميع يشعر بالذنب، ويرتجف وهو جالس في منزله، ولا يجروا أحد على إبداء رأيه. لقد كان يعرف جيدا السياسة الخانية الموروثة والمنتقله من قرن إلى قرن. فمن سيضحي برأسه في السهوب من أجل الشرف والحرية؟ إذا كان يعرف يقينا أن والده العجوز سوف يربط في ذبول أربعة خيول، ويمزقونه إربا، وأن شقيقاته الصغيرات سيبعن في خوارزم، وأن جميع أبناء العمومة والأقارب من الدرجة الثالثة سوف يذبحون فإنه سيفكر سبع مرات قبل أن يقدم على أي خطوة متهوره. إن الباتير كان يفهم الحكمة المعينة لهذه السياسة، لكن الشباب لا يريد أن يرضخ لها. لا يمكن عمل شيء فالحياة تسير على هذا النحو. وفيما أذنبنا نحن على سبيل المثال ليرسلوا خلفنا كتيبة عقابية،



ويساق النساء والأطفال إلى الجبال الجرداء؟

التفت الباتير جولمان إلى الباشكيريين السمان ثم قال:

- إلى أين تنويان الذهاب الآن؟

قال أشرف ذو الشعر الأحمر الذي يجيد التحدث باللغة الكازاخية:

- نريد أن نبقى عندكم أيها الباتير. إذا كنتم تقبلون بوجودنا معكم.

- إن طريقنا صعب. ولكي تكون محاربًا يجب أن تكون قادرًا على ألا تترجل من

على الحصان ثلاثة أيام، وتصيب من القوس كل ما تراه عينك من مسافة مائة خطوة.

- الباشكيريون يستطيعون فعل ذلك. وما زالوا يتذكرون ابن وطنهم سالافات الذي

تغلب مع الروسي بوجاتش على جنرالات الملكة.

أحد الباتير جولمان عينيه وهو ينظر إليهما ثم قال:

- لقد سمعت عن هذا. ولكن هل تستطيعان فعل شيء آخر؟ إن العمل الذي بدأناه

سيأخذ وقتًا طويلاً.

قال ذو الوجه الأسمر دافليتشى الواقف في الجانب مقطبًا حواجبه الكثة:

- نحن قادرون على سبك المدافع إذا كانت هناك مادة خام جيدة. ويمكننا أيضًا أن

نذيب الرصاص، ونصنع منه الطلقات.

أضاء وجه الباتير من الفرح وقال:

- هل تقول الحقيقة؟

- كان أبأؤنا من رجال سالافات. وقد أرسلوهما إلى مصانع ديميدوف بعد الانتفاضة.

وعملنا هناك منذ الطفولة. وقد فررنا من هناك.

- حسنا، اتبعنا الآن قافلة رحلنا، وسوف نتحدث فيما بعد عن كل شيء. التفت الباتير

جولمان إلى أحد الفرسان وقال له: - رافقهم يابني حتى قافلتنا. وخذ خيولنا كفايتها من

الراحة لأن خيولهما قد أصابها التعب.

ثم نظر إلى أكبوكين التي كانت في كل مرة تلقي نظرة خاطفة على بايتابين

الذي كان واقفاً، ويلتزم الصمت:

- يمكنك البقاء أيضًا في منزلنا يا ابنتي. اذهبي معهم.

وافقت أكبوكين بسهولة وقالت:



- حسنا يا عماء.

وبينما كانوا يستعدون للذهاب جاء بايتابين بهدوء إلى الباتير من الخلف وقال:

- كوكي، هل يمكنني أن أرافقهم إلى القافلة؟ فإنها لم تذهب بعيداً.

- اذهب ولكن عد على الفور.

أوماً الباتير بصمت. ورافقه الباتير جولمان بعينيه.. كوكي.. هكذا دعاه ابن أخته لأول مرة.

قاد الباتير الجزء الباقي من المحاربين إلى التلة المجاورة، ووزعهم بحيث تكون المداخل إليه من جميع الجوانب محمية. ومن الخلف أوقدت النيران التي تعد الفخ الأول للمهاجمين. وعندما يستطيعون أن يحلوا اللغز بعد تكبدهم أضراراً كبيرة سيكون في انتظارهم الفخ الثاني الأكثر تعقيداً. وهناك العديد من المفاجآت التي أعدها لهم.

كان هناك مائتي محارب على التل وخيولهم في متناول أيديهم. لقد أخفوها تحت الجبل في الغور. والغور لا يرى من مسافة عشرين خطوة. لقد حفره النهر الربيعي الهائج في طين السهوب، ولكن الآن قاع الغور جاف ومرصع بحصى أبيض كبير والذي بقي تحت طبقات السهوب من البحر القديم. وتغلق شجيرات تشي الغور بشكل كامل، وينتهي بتجويف صغير حيث يختبئ المائتا محارب. ومن الممكن السقوط هناك مع الحصان قبل أن تلاحظ هذه الحفرة في السهوب المستوية لأنها اكتست بكثافة بشجرة الأثل، وشجرة البازل، والتوجاي الأصفر والرماذي. ويخرج منها العديد من الفروع والأخاديد في اتجاهات مختلفة، ويمكن إرسال الفرسان إلى أي منها لاعتراض العدو.

ينبغي على كتيبة الخان سيرجازي أن تأتي أولاً من الغرب. وقد سبق أن ذكر هذا أفراد الاستطلاع. وفي هذه المفترزة يوجد جبريل وأليكسلدي الأخنف لذلك سيفهمان على الفور أن النيران قد أشعلت من أجل الخداع. ولكي يتأكدا من ذلك فإنهم سيقرران البقاء على التل بعض الوقت. وهنا ينتظرهم في أقرب مسافة الكمين الذي أعد لهم. ولن يستطيعوا المضى قدماً أو التخلص منه. وعندما يضعف الحراس والجنود ينقض عليهم أسرع من الرياح مباشرة من تحت الأرض مائتا فارس في كامل قوتهم. ولدى هؤلاء أفضل سلاح، وسوف يقودهم بايتابين على الرغم من صغر سنه. وجميع من في كتيبته أيضاً من



صغار السن أما هو فزعيمهم السري. كان الباتير المحنك يعرف ذلك منذ فترة طويلة. ومن الأفضل دائما حين يتقبل الجميع الزعيم.

سيبقى الباتير جولمان على التل، أما الاتصال بين الكتائب سيقوم به كالعادة كإيرات، وكانات أسرع وأمهر شابان. إنهما توأم لذا من الصعب تمييزهما عن بعضهما البعض.

وقف المحاربون في الجزء السفلي وهم من يتعين عليهم أن يتلقوا أول وأشد ضربة. ظهر الشريط المضيء في الشرق، وبدأت السماء تتحول للون الرمادي. جثا الباتير جولمان على ركبة واحدة، وتوجه إلى الناس قائلاً:

- يا صقوري لقد حان الوقت الذي لا يمكن معه التراجع أبداً. وإننا هنا على هذا التل لنحمي قلب عشيرة تابين. وإن الجرح البسيط في القلب مميت. - والآن تحدث كما لو كان يتحدث مع نفسه. - إن لدي ثروة كبيرة، ويمكنني إذا شئت أن أستلقي على جانبي، وأدع كل شيء يفتكك: البلاد والقبيلة وعشيرة تابين. ولتزلزل أيضا المقابر التي بناها الأجداد. لا، بالنسبة لي سيكون من الأفضل أن أموت. لأنني أعرف أن كل واحد منكم سوف يضحى بحياته بكل سرور من أجل عشيرته. وفي هذا تكمن قوتنا، وضعف الخان. بالأمس فقط تزلف الكلب الضال سيرجازي لخان خوارزم، وحصل على لقبه بين يديه. واليوم مثل ثعلب لولبي على ثلوج جديدة يتزلف عند قدمي الملك الأبيض. وعندما ينتهون من تنفيذ خدماتهم كالكلاب فإنهم يتعرضون للإهانة عن قصد. أما نحن فسوف نمضي في طريق آخر.

- هيا بنا نذهب.

هز المحاربون أسلحتهم ثلاث مرات فوق رؤوسهم. وقام الباتير من جلسته، ثم أردد قائلاً:

- إن صوت الطلقة الواحدة من البندقية عال، لكنها لا تصيب سوى شخص واحد. ويلزم وقت طويل لإعادة تعميمها، أما السهام فخفيفة وهادئة، ويمكن لفرد واحد أن يطلق عشرين سهماً خلال ذلك الوقت. كما أنه ليس لديهم مدافع.

- إننا لسنا خائفين من طلقات البنادق.

- نحن ننتظر المعركة يا باتير.

أخرج الباتير جولمان من ثنية السترة منديل أبيض صغير وقال:



- انظروا أيها المحاربون إلى هذا المنديل. عندما يرفع هذا المنديل على الحرية يجلس الجميع على خيولهم. ولكن هذا لن يكون قريبا. يجب أن ننتظر أولا حتى تسخن بنادقهم، وتتورم أيديهم، وتنزف جروحهم.

- سوف نتحلى بالصبر.

باعد الباتير مابين يديه وقال:

- إذن ليلزم الجميع أماكنهم، وارقدوا في صف واحد على مسافة ثلاث خطوات من بعضكم البعض. وليكن الله معنا، وليحفظ كل واحد منا في هذه المعركة.
- آمين..

- انهم اناس مثلنا من لحم وأوردة وعظام.

- أعدك يا الله أن أضحي من أجلك بكبش أبيض برأس ذهبي .. أبيض وثقيل.

- ونحن سوف نفعل ذلك يا باتير.

غادر الباتير جولان قمة التل، وساد الصمت المعتاد في السهوب. ولم يسمع سوى طقطقة النيران. وبعد ذلك عندما تهادى ضباب ما قبل الفجر سمعت الهمهمات المكتومة والمتزايدة بشكل سريع من الشمال ومن الغرب وكحجارة لم يسبق لها مثيل تدرجوا عبر السهوب. ولكن أفراد الاستطلاع الحذرين على التل كانوا على دراية بكل شيء.

لم تصل كتائب الملازم كاربوف والخان سيرجازي إلى المكان في نفس الوقت. كان أفراد استطلاع "كارا بورا" على ثقة أن قافلة عشيرة تابين توجد الآن أمامهم، وتغط في نوم عميق. ولم ينتابهم الشك في ذلك لدرجة أنهم أبلغوهم تفصيلا كيف تسللوا إلى قرية عشيرة تابين، وأنهم قد شربوا أيضا هناك حليب الفرس مع الأصدقاء. لذلك قرر كاربوف أن يهاجم دونما أي إعداد بينما لاتزال القرية نائمة. أعطوا الناس والخيول استراحة نصف ساعة، ثم نشروا الجنود، وصفوا الخيول ليهاجموا القرية النائمة حسبا يعتقدون.

تبدد الضباب بسرعة، وكشف عن الأرض التي أصيبت بالبرودة أثناء الليل. وهز سرب من الرزوروز نفسه، وطار للأعلى حيث الغيوم المتوهجة. وطار طيور السمان الكبيرة والثقيلة من فوق العشب المبلل بالندى بعد أن شقت لها طريقا خلالها. وزقزقت الطيور المغردة، وصرت الجنادب في انتظار طلوع الشمس. ووحدهما السنقر الأبيض، والنسر الأسود (الرخمة المصرية) كانا يحلقان بصمت في السماء الساطعة. ولم يعيرا الغنيمة



المتمثلة في الطيور الصغيرة أي اهتمام كما لو أنهما كانا يعلمان أنه ينتظرهما اليوم طعام شهى لائق.

قال لهم الباتير جولمان بصوت خفيض:

- اجلِعوا أقواسكم على أهبة الاستعداد أيها الرجال. لكن دعوهم يقتربون منا أكثر.

اقتربت فرقة كارا بورا منهم. لم ينظروا إلى جانب التل فقد كانت عيون الجنود، وحراس الخان تحملق فقط في النيران التي كانت لا تزال مشتعلة. استل الملازم كاربوف سيفه الضخم. وكان يركب حصاناً كستنائي اللون حليق الشعر، وكان جسده الأسود المنحني يذكرك بقوة بملاحم جمل سهبي بري عندما يكون هائجا ومكشكشا صوفه السميك وهو يقترب من الأنثى. لقد كان الباتير يعمل حسابا خاصا لهذا الرجل القاسي عديم الرحمة. وبهذا السيف عريض الشفرة الذي استله الآن قطع كارا بورا في إحدى المعارك السابقة الذراع الأيمن للباتير جولمان. وقد التئم الجرح منذ فترة قريبة، والآن حان الوقت للانتقام.

- أطلقوا السهام على الجميع ما عدا كارا بورا ..

لم يعتد الباتير جولمان مثله في ذلك مثل الأبطال الكازاخ الآخرين أن يطلق النار من البندقية أو يقاتل بالسيف. كان ذلك يبدو له أمرا تافها. فما الداعي للدخول في قتال متلاحم إذا كانت السهوب هكذا شاسعة جدا، وتسمح بالمانورة. وإذا دعت الحاجة إلى ذلك فهل هناك سلاح أنجع من هراوة الباتير؟ لكن لا يزال القوس أفضل سلاح للمحارب السهبي. وقد صنع قوس الباتير جولمان من شجرة بتولا جبلية ذات نتوءات حادة، أما أوتار القوس فقد صنعت من تسعة شرائح من جلد الإبل غير المدبوغ. وكان يطلق عليه "الموت البتولي"، أما السهم الأطول ذو النصل المسمم والذي سحبه من جعبته الباتير جولمان فقد كان يحمل اسم "اخترق الجبل". وكما كان منذ ألفي سنة في هذه السهوب وضع الباتير جولمان يده اليسرى على تقاطع السهم مع القوس، وجذب الوتر بيده اليمنى.

وقف الجنود على مسافة قريبة جدا لدرجة أنه كان من الممكن رؤية وجوههم المترقبة والقلقة. وكانت الخيول التي هدأت بعد المسيرة الليلية تهز رؤوسها بسعادة، أما مقابض السيوف فقد توجهت بلون فضي خافت. وقد جعل حراس الخان الذين كانوا يسرون في تشكيل غير مستو حرابهم على أهبة الاستعداد. وفيجأة بعدما شعر حصان الجندي الأقرب إلى الملازم بشيء ما يرتجف إلى الأمام وقف على عقبه. ولم يعلم أحد ما حدث في حينه، أما الجندي فقد سقط في السرج، وخرج من صدره سهم أسود مرتجف. ولقد أنقذ القدر كارا بورا في هذه المرة.



في نفس اللحظة رعدت البنادق القديمة، واجتاح البرق الأبيض للسهام جموع الجنود، وصرخ الناس، وصهلت الخيول الجريحة في ذعر. وأطاحت رصاصة بنصف رأس أحد الجنود غير أنه لم يترك الزمام، وحمل ميتا على حصان أصابه الجنون فنثر دمائه على الجميع.

اندفع حراس الخان في حالة من الفوضى إلى اتجاهات مختلفة كأنهم طاروا من جدار غير مرئي. لكن الجنود الذين أصابهم الذهول في البداية بسبب الهجوم المفاجئ وفقدان حوالي عشرة أشخاص ابتعدوا بناء على أوامر كارا بورا من المنطقة التي تصلها السهام، وترجلوا عن الخيول. لقد كانت قوات نظامية منضبطة، ولم يكن الأمر سهلا على فرسان السهوب البسطاء محاربتهم. وهم الآن يزحفون في سلسلة واحدة للأمام تحت ستار من الأدغال الكثيفة مطلقين النار أثناء التحرك. ولم تعد السهام تجدي نفعا معهم. وصار الجنود يطلقون النار بشكل أكثر دقة فخرج الكثير من محاربي الباتير جولمان عن التشكيل غير أنهم اعتادوا على رعد البنادق، وثبتوا بحزم في انتظار القتال المتلاحم. وكان من بين الجنود العديد من الذين أصيبوا بالسهم خلال الهجوم المفاجئ، والآن عندما تحركوا إلى الأمام فقدوا قوتهم، وتورمت جروحهم، واحترقت من السموم السهبية التي نعتت فيها نصال السهام.

- أوي باي، مصيبة..

التفت الباتير جولمان بحدة، ورأى مفرزة جديدة من الجنود ومن حراس الخان تقترب من جهة الشمال. لقد كانت قوات الخان سير جازي. وشاهدت عيون الباتير الحادة على الفور بين الجنود جبريل أبيض العين مرتديا قبعة بلفافة عالية، وأليكسالدي أحمر الشعر ممثلي الجسم. حسنا، لقد أنجزنا الكثير فلم يذهب العدو المخدوع في أعقاب القافلة ضعيفة الحماية، واضطر إلى قتالنا. وقد تكبد أيضا الكثير من الخسائر. وسيكون من الجيد الآن تثبيط همته في ملاحقة عشيرة تايين، وهكذا يكون الهدف قد تحقق.

- اركبوا الخيول.

رفرف المنديل الأبيض على الرمح فوق التل. لقد كانت هذه إشارة بايتايين، وفي نفس اللحظة كأنه قد طار من تحت الأرض مائتا فارس كانوا مختبئين في الحفرة مرددين:

- تايين..

- تليينشي..

اعتلى جنود جولمان خيولهم، وانطلقوا إلى العدو. اضطر الجنود أن يطلقوا النار في كلا الجانبين. وقد تكبدت المفرزتان مجددا أثناء محاولتهما تحت وابل من السهام إعادة التشكيل والاتحاد خسائر فادحة. واندفع فرسان بايتايين خلال صفوفهم، لكن في



الطريق انزلق أيضا عدد قليل من الناس من فوق جيادهم. والآن تواجهت قوات الشوار الموحدة والجلادون. واعتمدت نتيجة المعركة على التفوق في القوة، وكان هذا التفوق في جانب الجنود.

لولم يكن بينهم جبريل أبيض العين، وأليكسالدي كان من الممكن فعل شيء ما. لكن هذان الاثنان كانا يعلمان تكتيك الشوار، ووزعا الجنود المسلحين بالبنادق بطريقة تجعل كتلة الفرسان المهاجمة تقع في مرمى النيران من جميع الاتجاهات. ولم يستطع الشوار أن يقوموا بفعل شيء آخر. كانت الهروات هي السلاح الرئيسي ضد العدو المترجل أو الزاحف، لكنها لاتجدي كثيرا في التشكيل المتناثر. وانه لأمر آخر حين يندفع الانهيار الثلجي الصلب، ويسحق صفوف العدو، وينساب منه فقط مطر الضربات الساحقة على كلا الجانبين. لكن العقيدان القوزاقيان ذوي الخبرة لم يقوموا باعداد أي تشكيل. وقاد الباتير جولمان محاربيه لشن عدة هجمات. وانطلقت حمم الخيل، واشتدت من الجانبين، ومن الخلف، وفي كل مرة كان يبقى على الأرض العديد من الفرسان صرعى. ولم ترسل أيضا أي فرق مطاردة في أعقاب الفرسان الهاريين. كان جولمان يعول كثيرا على ذلك الأمر. فلو أن العدو انشغل بالمطاردة فإنه سيتناثر على الجانبين، ومن ثم تكون السهام مفيدة من جديد..

ازداد الوضع سوءًا. والآن اعتلى جزء من الجنود ظهور خيولهم، وغير الباتير جولمان التكتيك. لقد أرهق الجلادين بمجموعات صغيرة من الفرسان من كافة الجوانب مشتتا انتباههم. ثم تذكر برميل البارود في العربة. وقال إذا نجحنا في تفجيرها فسنقضي على العدو. وربما تكون هذه العربة خلف هذا التل.

دعا ابن أخته قائلاً:

- يا بايتابين إننا نحتاج إلى ذلك البرميل المليء بالبارود في العربة. - فاعرف أين هو.

وقاد الباتير جولمان رجاله إلى هجوم جديد من أجل صرف انتباه العدو عن بايتابين. لقد سحق جنود كارا بورا المترجلين عن خيولهم، لكنه عندما أعطى الإشارة بالتراجع سمع صرحة استغاثة:

- كوكي. كوكي.

عندما نظر خلفه رأي بايتابين محاطًا بالأعداء. لقد خمن جبريل وألييسكالدي مناورة الشوار فلم يدفعا بكل جنودهما لمواجهة الباتير جولمان، ولكن أبقيا جزءاً منهم في طريق فرسان بايتابين الذين انطلقوا إلى مؤخرة جيشهم. ضغط جبريل بنفسه على الزعيم الشاب المتحمس المنطلق للأمام، والآن يضغط عليه عشرون من الجنود وحراس الخان من



جميع الجهات في محاولة لإسقاطه من السرج.

من جديد جاءت إلى الباتير صرخة مخنوقة:

- واداعا..

لم يلحظ الباتير جولمان نفسه كيف حول فرسه وقال:

- أرواح..

من جديد شق حصانه القوي طريقه خلال حشد الأعداء مسقطا وملقيا الرجال والخيول. وجعلت الصرخة المدوية محاريبه يحولون خيولهم بأقصى سرعة، وينطلقون خلف الباتير مرددين:

- أرواح..

- تلينشي. تلينشي..

- جولمان..

لم يتمكن الجنود الذين لم يتوقعوا هجوما ثانيا من إعادة تعمير بنادقهم. ارتجفت فرقة الخان سيرجزي، وتفرقت. وكان هناك مكان منخفض في الإمام، ولبعض الوقت لم يلمح الباتير جولمان ابن أخته الشارد. وعندما صعد إلى مكان مرتفع رأى كيف يسحبونه من السرج. كانت رأسه بالكامل غارقة في الدماء، وتطيش يدها على الأجناب بلا حول ولا قوة. وكان حصانه الكستنائي اللون ذو الخمس سنوات يلف دائريا متلقيا بنفسه الضربات. لكن كان هناك أحد حراس الخان يقف في الجانب ويجهز حبله.

وصلته أول ضربة من هرواة الباتير. وطار ثلاثة أو أربعة من السروج مع كسر في الجمجمة.

صاح الباتير جولمان بطريقة وحشية:

- زيدوا من سرعة الحصان.. - أرواح، باياتين..

وربما فهم كستنائي اللون نداء الباتير فارتفع إلى الأعلى كالطائر ثم طار من خلال الأعداء المحيطين به. وفي لحظة واحدة أصبح في محازاة حصان الباتير جولمان، وسقطت رأس ابن الأخت على فخذ خاله. وما إن رفع الجنود بسرعة بنادقهم المحشوة حتى اختفى الفرسان مرة أخرى، كأنهم سقطوا تحت الأرض في غابة من الأثل.



إذا ضربت الحديد بالحديد مدة طويلة فإن الشقوق سوف تظهر عليه. أخذ الباتير جولمان ينظر على نحو متزايد إلى صفوفه محاربيه المتهالكه والذين لم يتركوا أرض المعركة منذ الصباح. وكان الكثيرون منهم قد أصيبوا بجروح بالغة. وعلى الرغم من أن جروح بايتابين لم تكن عميقة إلا أنه فقد الكثير من الدماء وكثيرا ما كان يفقد الوعي. وقد تعبت الخيول التي لم تسترح منذ الليل، ولم تحصل على أي طعام. لقد حملوا المحاربين منذ الصباح بالكاد، ولم يقدرُوا أن يقفوا فوق الأخاديد السهبية العادية من الوضع الهجومي. لذلك كان شن هجوم جديد بمثابة انتحار. كان تفكير الباتير جولمان يميل منذ فترة طويلة إلى التراجع. فقد اقتربت القافلة من موجدجار، ولن يلحقها الجنود المتعبين من المعركة. وعلى كل حال فهو يتذكر الحكمة السهبية: "عندما يهرب الجندي فإن المرأة تبدو له كأنها باتير (بطل فارس)" ولكن هل يمكن أن تتحطم الروح المعنوية لعشيرة تابين في السهوب إذا ولوا الآن ظهورهم للجنود؟..

ما زال الجلادون عازمون على التحول إلى الهجوم. هذا مارأه الباتير جولمان ذات مرة في مدينة أورينبورج أثناء العرض العسكري. اصطف الجنود في ثلاثة صفوف متساوية، وجعلوا البنادق على أهبة الاستعداد، ثم تحركوا ببطء وبعزيمة إلى الأمام. واعتلى بعضهم ظهور الخيول، لكن أيضا في تشكيل مستو ومتقارب. حتى العقيدان القوزاقان قد نجحا في جعل حراس الخان يسرون في تشكيل معين. لقد ساروا بهدوء، وبعظمة فأصابوا خيال أهل السهوب البسطاء بالذهول. وتحرك بطريقة مرعبة الصف المنضبط للحراب المسبوكة بطبقة زرقاء، ولعت في الشمس السيوف العريضة المضمومة إلى الأكتاف. رأى الباتير كيف تصلبت ظهور محاربيه، وارتعش بعضهم، وسحبوا رؤوسهم إلى أكتافهم. لكن لا يمكن التراجع الآن. إن الأرنب عادة ما يموت فقط بسبب جنبه. من الأفضل الموت بشرف في ساحة المعركة. ومهما اتسعت العيون من الخوف، لكن يجب خوض المعركة.

كان الباتير جولمان محارب محنك، ويعرف أن القوة الآن في جانب القوات النظامية المدربة تدريباً جيداً. بالإضافة إلى ذلك فإن لديهم بندق، وهذا ما سوف يجعل كثير من المحاربين ينامون نومتهم الأبدية في سهوب الوطن قبل أن يتلاقوا معهم في قتال متلاحم. ومع ذلك أمر رجاله بالتجمع لخوض المعركة الأخيرة. بقي معه أقل من أربعمائة محارب على ظهور الخيل، وجمعهم الباتير في كتلة واحدة. وكل ما كان يصبوا إليه أن يصلوا إلى قتال متلاحم، وحينئذ سوف نرى.

كان الجنود يقتربون أكثر فأكثر من التل الصغير الذي من الممكن أن نطلق منه عليهم السهام. وبعد ذلك يوجد شريط نادر من عشب شيا حيث يمكن لكلا الجانبين أن يتلاقيا بشكل ملتحم. لكن قبل ذلك رعد وابل من رصاص الجنود. وبإشارة من الباتير



تحركت ببطء إلى الأمام كتلة الفرسان الواحدة. ثم انطلقوا بسرعة نحو الصف الذي لا يمكن اجتنابه من الحراب الفولاذية. ورأي المحاربون أربع كامات سوداء تغطي أفواه البنادق.

وفجأة صاح أحدهم:

كارا كيبشاك! دولات!

وبدت هذه الصيحة كرعد شتوي غير متوقع. تأرجحت، وتكسرت سلاسل الجلادين. وانقضت عليهم حمم قوية من خيالة مجهولة من السهوب المفتوحة. وقابلهم الجنود بإطلاق عشوائي للنادون انتظار للأوامر. وبدأ حراس الخان تحويل وجهة خيولهم على وجه السرعة. ومن بين الفيالق التي تقدمت للأمام برز اثنان من تلك الحمم. أحدهما رجل ضخم يركب حصانا ذا أرجل بيضاء، ويلبس دروعا حديديه تتلألأ في ضوء الشمس. وكما للعبة كان يلف فوق رأسه الهراوة الثقيلة المصقولة بالحديد.

صاح الباتير جولمان:

- إنه الباتير الكيبشاكى إيمان. - وحصانه أبيض الأرجل.

- نعم إنه الوحيد الذي يركب الحصان هكذا.

- ومن خلفه؟

- وهذا الباتير كودايمانتي من عشيرة بجانالي..

- وكيف جاءوا إلى هنا؟

وهاهو التل الصغير. وقف الباتير جولمان في السرج، والتفت إلى محاربيه من عشيرة تابين قائلاً:

- أرا، واح، تابين..

- أرواح..

انقضت الخيول جميعها تقريباً في نفس الوقت على الجنود المرتبكين. وقد لاذوا بالفرار على الرغم من الشتائم والضربات بالسيف العريض الذين حاول بهما الملازم والعريفان إيقافهم. وتمكن نصفهم من الوصول إلى خيولهم. وبقي على الأرض ما لا يقل عن مائة جندي ومثلهم من حراس الخان. ولم يكن بينهم أي جرحى. فبعد الضرب بالهراوة لايعيشون طويلاً.



وهكذا انتهت هذه المعركة التي تعد واحدة من العديد من المعارك التي حدثت في هذا العام في جميع أنحاء السهوب من بحر قزوين إلى سهوب سييريا.

حمل المحاربون جثث الجلادين إلى مكان واحد، ودفنهم تحت منحدر في الرمال المتحركة. وحملوا موتاهم على دعائم من شجر البتولا المربوطة بالعرض كي تدفنهم العشيرة كلها في جبال موجود جار. وهنا كان الآباء والإخوة والأزواج والأبناء من القافلة المغادرة. لقد ضحوا بحياتهم من أجلها.

تجمع الأبطال على التلة الكبيرة، وجلسوا في حلقة واحدة. وكان يرى من بعيد صف مبعثر من الجنود وحراس الخان الفارين بسرعة إلى الشمال. ذهبوا إلى ديارهم، ولم يرسلوا أحدا مطاردتهم. والآن لن تظهر هنا قريبا أي فرقة عقابية جديدة.

حكى الباتير الكيبشاكى إيمان دولات أولي بالتفصيل عن الثورة التي حدثت في العام الماضي من قبل عشائر أرجين وكيبشاك وألشين وجاجليلي وجاباس المهاجرة من مكان لأخر مابين أوريك وأوليتاي. حينذاك لم يحرز الجلادون أيضا أي نجاح يذكر. ولكن في هذا العام أرسلوا إلى شواطئ تورجاي قوات نظامية عديدة مزودة بالمدافع، واضطر الباتير إيمان مع المحاربين الأوفياء إلى الاختباء أيضا في جبال موجود جار. وأبلغهم رجال الاستطلاع عن المعركة الوشيكة فوصلوا في الوقت المناسب.

قال الباتير إيمان:

- إن الشعب يغلي على نحو متزايد في أراضي ساري أركا. ولقد ثار مؤخرا أبناء أزانباي من بايان أوول. لقد عارضا بناء حصون في بلدانهم الأصلية، ولكنهما وقعا معا في أيدي الجلادين، لقد وقع تايجان أولا، ثم وقع سيتين. لقد أخذوا سيتين إلى منطقة بلخاش على الطريق إلى سيرداريا، وقد رحل بكل قريته إلى أبناء قاسم توري.

لم يشارك الباتير كودايمندي أسمر الوجه ضخم الشارب في الحديث. لقد كان واحداً من أولئك الرجال الأشداء الذين عادة ما يتحدث عنهم الآخرون. تتبع الباتير إيمان نظرة الباتير جولمان، ثم قال بهدوء:

- لقد انتزع منه البيك الغني إيردين أحد أفراد عشيرته عروسه بالقوة. وخوفا من الهجوم المفاجئ طرد كل أفراد قرية الباتير من وادي كارا كينجير. وقد هربوا إلى ساريسو، وانضموا إلينا.

قال الباتير جولمان بحماس وحاجبيه الكثرين يتحركان:



- مساعدتكم اليوم أنقذت حياتنا، وانتزعت النصر من الجلادين. ليت هذا يحدث دائما. عندما يتكاتف الشعب لن يستطيع أحد أن يخترق تلك الصخرة الواحدة. وهذا ما تأكد اليوم. لقد اتحد فقط ثلاثة أبطال، ولكن ماذا سيحدث عندما ينسى جميع أبطال السهوب خلافاتهم.

بدأوا يفكرون، وتنهّد كل واحد منهم بعمق. كان ثلاثتهم يعرفون النزاعات القديمة منها والجديدة التي مزقت السهوب إلى أجزاء. والآن هل يمكن في يوم من الأيام أن يجتمع البيك إيردين مع الباتير كودايمندي على الرغم من أنهما من نفس العشيرة. هتف الباتير إيمان:

- دعونا نتذكر المثل القديم: "إذا كانت هناك سفينة واحدة للجميع فلا مهرب منها إلى أي مكان". هل يمكننا أن نصطاد بأمان في موجود جار عندما يقتلون هنا جيراننا؟ ورغم أن هناك خلافات بين الجيران فاللعنة على الذي يجلب اللص إلى منزل الجيران..

مع الدموع والنواح دفنت عشيرة تابين محاربيها الذين قضوا نحبهم، وبعد اسبوع أقاموا الولايم الجنائزية. قضى الأبطال كل هذا الوقت معا. وبعد انتهاء الولايم الجنائزية اجتمعوا في المجلس الكبير بمشاركة الرجال البارزين، والمحترمين، وجميع الشيوخ من القرى القريبة. قالوا بصوت واحد أنه إذا ثارت كل عشيرة بمفردها، فإن الجلادين سوف يحرقون بها بشكل محكم، وهكذا سيكسرون الجميع واحداً تلو الآخر. وإذا كانت راية أبلابي لاتعجب الجميع فليس أمامنا غيرها. لذلك تقرر أن يرسل رجل مبعول إلى قاسم توري الذي يوجد حاليا على ضفاف نهر سير داريا البعيد ليعلمه بدعمهم وطاعتهم. وكان الأنسب لهذا الغرض هو الباتير كودايمندي لاسيما وأنه ليس لديه منزل أو أغنام واللذان يمكنهما أن يحبساه عن هذا الأمر. ومن الضروري أيضا وضع خطة عمل مشتركة للمستقبل القريب.

ألهمت وحدة عشيرة تابين الباتير إيمان فغادر جبال موجود جار عائدا إلى وطنه مع محاربيه ليعد لاتنفاضة الكيبشاك. وسوف تقضي عشيرة تابين فصل الشتاء هنا في الروافد العليا لنهر إيليك. وإذا جاءت من جديد قوات الملك والأغوات السلاطين ولم تستطع عشيرة تابين وحدها أن تتصدى لهم فإنها سترحل حينئذ إلى ضفاف تورجاي وإرجيز في أرض كيبشاك. ففي هذه الأوقات الصعبة لا يمكن أن تكون هناك خلافات بين الاخوة.

على هذا تفرق الأبطال الثلاثة في ثلاثة اتجاهات مختلفة. لقد كانوا سعداء معا، ولكن كلما ابتعدوا أكثر عن بعضهم البعض أصبحت وجوههم أكثر كآبه. لم يكن



أحد يثق تماما أن جميع القبائل والعشائر الكازاخية ستجتمع ذات يوم تحت راية واحدة. وهم الآن كقمح نثر في الهواء. فمن يستطيع أن يجمعهم وهل هناك مثل هذه الوسيلة؟..

كانت العادات هي الروح الثانية لساكن السهوب. إنه يموت من التعاسة إذا أصبح تابعا لأحد. ويمكن أن تنتظر منه بعض الطاعة في يوم أو يومين في معركة أو معركتين. ثم يمل ويذهب على غير هدى لاسيما وأن السهوب شاسعة كأنه لا حد لها.

على الأقل كانت هناك بداية ما.



III

اختفت مدينة طشقند المجدولة من ملايين اللبنة والمساجد المبنية من الطوب الأحمر ذات المآذن النادرة البيضاء الصاعدة إلى السماء البيضاء الساخنة بأكملها في حدائق الغبار الزرقاء. وكانت الصرخات اليائسة لآلاف الحمير، وصرير العربات الضخمة ذات العجلتين، وبالنسبة إليها كان الخريف العنيد لقنوات الماء القذرة والشوارع المتربة التي تسير معا جنبا إلى جنب أمرا عاديا مثل حرارة جوها الرطبة المعتادة التي لا تطاق.

كذلك لم يغير سوق ناوان الشهير مظهره القديم. هناك تزيغ العيون من التحويرات السحرية للديباج والمخمل والحريير البخاري التي تمتلئ بها المحلات التجارية والأكشاك الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى. وتوجد خلفهم مباشرة على سجاجيد اللباد جبال من المشمش والزبيب والكمثرى الخوارزمية والتين الفرغاني والتفاح، والمكسرات الصينية والهندية. وحيث يبدأ الشام لا يوجد هناك موضع لقدم. لقد رصت كالجبال ومنها السرداري الأصفر الداكن الغلابي، والدونيري السمرقندي، والكاراكومسكي الفخرماني. ويبحث باعة المجوهرات الرعد والضوء والصراخ دائما في جميع الصفوف. لكن خواتمهم الفضية وأساورهم الذهبية التي يعرضونها على أناس ليست لهم دراية خاصة بمثل هذه الأشياء تلمع أكثر من اللازم. ويذانيهم في نفس المرتبة العديد من الخودجات وال دراويش والرهبان المتجولون والعرافون. إنهم يجلسون فرادى وجماعات جاعلين أرجلهم تحتهم. ويهز الخودجات والملالي المسابح، وينجمون على عظام فاكهة الكاكا، ويذكرون في كل مرة اسم النبي عندما يهتفون بالنبؤات.

لكن على الجانب الأخرى تمتص الشحاذون وال دراويش المتجولون الروائح القادمة من العديد من المداخل الكبيرة حيث يشوون اللحوم. وقد انثنوا بتذلل وهم يرتدون خرقة بالية بشكل لا يصدق، ومظهرهم بائس ومضطرب أما بقية الناس في السوق فلا يمكن معرفة كنههم في البداية من منهم شيخ الطريقة ومن منهم المزارع البسيط. فالجميع يرتدون جلابيب مخططة متشابهة وعلى رؤوسهم ربطت بإحكام عمام بيضاء. ولا تستطيع أن تحدد من يبيع ومن يشتري. فهنا كل شيء يباع وكل شيء يشتري بدءا من ممتلكات



الرجل الفقير الرخيصة جدا إلى الضمير الرخيص للرجل الغني.

في هذه المدينة يسير كل شيء وفق نظام معين لا يتغير أبداً. فلعدة قرون لا يزال الأغنياء العاطلون جاحظي العيون يراهنون على السمان المتقاتل والملطخ بالدماء، ولا يزال الميرزات المهمون يجلسون على الأريكة في المقاهي يدخنون النرجيلة، ويستمعون إلى آلات الجذاك الأبدية. والشمس لا تزال هي نفسها شرسة غير مرئية بسبب الغبار، وترغب في حرق هذا العالم.

تشعر فقط ببعض التغيير في "الرباط" أي بقصر الضواحي الخاص بكوش بيجي بيجديريك الحاكم الطشقندي الجديد الذي عين بدلا من "مامد عليم". فلا زالت العصافير تغني في حدائقها العطرة، ولا تزال الأرضيات في القصر الفخم مغطاة بالسجاد الخراساني الذي لا يقدر بثمن والجدران مغطاة بحرير أصفر فاتح مزين بالورود البخارية. ويسبح البجع الأبيض أزواجا صامتة في البرك الفضية، وتعكس المرأة الصافية للماء صورهم مع أكاليل الأشجار الهندية العجيبة المعلقة على ضفافها. كان كل شيء كما كان بالأمس وأول أمس وقبل قرن من الزمان.

العين الخيرة وحدها سوف تلاحظ شيء ما غير صحيح في مشية مريدي البلاط والنواب والصوفيين. وتشعر بشيء غير عادي في أحاديثهم.

إنهم لا يتحدثون مع بعضهم البعض، بل يتهامون، ولا يمشون بل يزحفون خلسته وبصمت. لم يكن هناك خوف بشري عادي على وجوههم، وإنما فزع حيواني لا يمكن تقاسمه مع بعضهم البعض. والأسوأ من ذلك أن ينبعث باستمرار من عينيك الفرح والهدوء في حين تصل موجات الفزع الباردة إلى الحلق نفسه. وعلاوة على ذلك تبدو اليوم قصور "الرباط" المليئة بالأسرار والألغاز الغريبة أكثر غموضا وكأبة وكأن غيوما مشؤومة غير مرئية خيمت فوق أسطح مسطحة، وتوشك العاصفة الدامية على الظهور.

هل أحس سيسنجيلدي وسارجان أبناء قاسم توري وأحفاد أبلاي خان بذلك أم لا؟ إنهما يقيمان لمدة شهر كامل برفقة الباتير شوبير تيبالي أجيباي وعشرين فارسا في قصر كوش بيجي في انتظار الرد على مقترحاتهما. وفي كل مرة يتأجل القرار الحاسم.

اجتاح الخوف المدينة بأكملها. فقد وصل اليوم هنا بشكل غير متوقع الحاكم الكوكاندي الشاب ماديلي خان الذي دعاه كوش بيجي بناءً على نصيحة النائب الكوكاندي داروجي لياشكار. لقد سافر في خيمة مثبتة على ثلاثة من الفيلة البيضاء، ورافقه العديد من الخدم والحرس. كان الناس مازالوا يغطون في نوم عميق حين دوت من الجانب الجنوبي الغربي أصوات آلات الكارناي الموسيقية القوية، وضربات الدودار،



وأصوات الزورن، والدقوف التي تمزق الروح. قفز سكان طشقند من الأسرة بذعر معتقدين أن المدينة قد تعرضت لهجوم من قبل العدو. وعندما علموا بقدم خان كوكاند خافوا أكثر. أحكم الكثيرون غلق أبوابهم، ولم يخرجوا إلى الشارع مطلقاً.

لم تكد الضجة والإثارة بقدم خان كوكاند تهدأ حتى سمع صوت الموسيقى من جديد. ومن خلال بوابة أخرى دخلت إلى طشقند الجميلة خان بدشايم البالغة من العمر ثلاثين عاماً أرملتة عمر خان، وزوجة أب ماديلي خان والتي تشبه الهلال الذهبي المبهر. لقد فقدت زوجها الخان عندما كان عمرها ستة عشر عاماً، وعاشت منذ ذلك الحين في أورا توب. لقد جاءت أيضاً بناءً على دعوة من كوش بيغي بيغديريك. وكان دخولها المدينة لا يقل فخامة فقد كان يجر عربتها المغطاة بثلاثة من الخيول البيضاء كالثلج، ويرافقها من الأمام ومن الخلف حراس مختارون من المحاربين الأكفاء مسلحين بالحراب. وأصيب سكان طشقند بالحيرة والذهول.

أصبحت مدينة طشقند في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إبان عهد الشيخ الشهير أيتوار واحدة من أكبر المدن في آسيا الوسطى، وأضحت بسرعة على قدم المساواة مع سمرقند، وخوارزم، وبخارى. وازدهرت هنا حياكة الحرير والجلود والمعادن والمجوهرات وغيرها من الحرف اليدوية. وأصبحت المدينة مركزاً تجارياً هاماً والتي من خلالها أقامت سائر بلدان آسيا الوسطى تجارة سريعة النمو مع روسيا، وكذلك مع كاشغر والهند. واعتمدت ثروة طشقند في المقام الأول على هذه التجارة، وحيث يتكلم الريح يصمت كل شيء آخر.

مع ازدهار المدينة تضاعف عدد المتنافسين عليها. وكان أهم المتنافسين ثلاثة هم بخارى وخوارزم وخانية كوكاند التي ظهرت في بداية القرن. وبحلول أواخر القرن التاسع عشر أخضعت كوكاند مدينة طشقند لها بشكل نهائي، وأصبحت منذ ذلك الحين إحدى ولاياتها. ومع ذلك فقد كانت تبعية اسمية فقط. كانت مدينة كبيرة جداً وغنية، وكان حكام كوكاند يعتمدون عليها إلى حد كبير. كانت الكثير من الأراضي تتبع الطشقندي كوش بيغي مباشرة ومن بينها أراضي السكان الأصليين الكازاخ منذ القدم على ضفاف نهر تشو، وساريسو فضلاً عن المجرى الأسفل لنهر سير داريا. وكانت المدن الكازاخية هناك مثل أك ميتشيت ويانا كورجان وجوليك وكاميس كورجان، وتشيم كورجان، وكوس كورجان محاطة بأسوار قلاع. وكان على كوش بيغي الطشقندي فقط أن يدفع لخان كوكاند كل عام ضريبة مقدارها مائتي ألف طنجة⁽¹²⁾.

12. اسم عملة عادة من الفضة. المترجم.



كانت هذه المدينة تتكون من قبائل عديدة. وكان الحكام الطشقنديين الذين يتغيرون كثيرا أيضا من قبائل مختلفة مثل الطاجيكي مامد عليم، والأوزبكي لياشكر، والكونزادي بيجديريبيك، والكيبشاكلي نور محمد. لكنهم كانوا جميعا يشتركون في الجشع الجامح والقسوة الوحشية. وعلى الرغم من صعوبة تفوق بيجديريبيك كوش بيجي الحالي على أسلافه في هذه الصفات إلا أنه ربما قد نجح في ذلك. وقد تعرض الكازاخ على وجه الخصوص لاضطهادات وحشية من جانبه، واضطهرهم إلى أن يدفعوا ضرائب باهظة. وكان يعقوب بك حاكم مدينة ألكميشيت مساعده الأول في ذلك الأمر. وقد بثت عقوباته الوحشية ضد القرى الكازاخية المتمردة القاطنة على ضفاف نهر سير داريا الرعب، وهوى الهاريون من جلادين الملك من نار صغيرة إلى حريق كبير.

لكن لماذا دعى كوش بيجي الخان ماديلي وزوجة أبيه خان بادشاييم الأرملة ذات الشأن تحديداً عندما حل يسينجيلدي وساجان السلطانان الكازاخيان ورثة قاسم توري بطشقند؟ هذا ما لا يعرفه أحد حتى الآن فقد كان كوش بيجي قادراً على الحفاظ على أسرارهِ. وحتى رباط (قصر) الحاكم يبدو أكثر شراً من أي وقت مضى.

يبدو أن اليوم كان نهاية الانتظار. وعلى الرغم من أنه قد انقضى شهر كامل منذ أتى السلطانان فإن كوش بيجي لم يستقبلهما متعللاً بحجج مختلفة. إما أنه يستعد لعملية صيد كبيرة أو حتمية إجراء محاكمة أو أن المرض قد داهمه. لم يرغب حفيداً أبلابي في تحمل مزيد من هذه الإهانات وقرراً أن يلوحا بأيديهما، ويذهبا، لكنهما أدركا أنهما لن يستطيعا الخروج من المدينة بسهولة. فلم تتركهما ولو للحظة واحدة جميع العيون التي ترى، وجميع الأذان التي تسمع. لقد أكلا كثيرا، وشربا، واستمتعا قدر ما استطاعا، ولكن كان من السهل أن يخمنا أنهما قد وقعا في الأسر. في البداية أثار ذلك لديهم الاندهاش فقط لأن لديهم مصالح مشتركة مع كوش بيجي، وقد أقسم لهما بيجديريبيك بنفسه مرارا على الصداقة الأبدية معهم. الأي علم الوضع القائم الآن في السهوب؟ ولكن لماذا أبقوهما مدة طويلة في الجهل؟ وماذا يعني مثل هذا الاستقبال غير اللائق بالسلطانين؟..

لقد أصيبا بالانزعاج والغضب من كل هذا، ولم يتمكننا حتى الأيام الأخيرة من فهم أي شيء حتى نجحنا في معرفة القليل من أحد مستشاري البلاط. اتضح أن كوش بيجي كان ينتظر وصول خان كوكاند ليتخذ قراراً نهائياً. لقد كان هذا سبباً وجيهاً، وكان لا بد من أخذه في الاعتبار.



اليوم وصل أخيرا ماديلي خان. لكنه كان صغير السن ولم يعتاد السفر خارج حدود كوكاند. لذلك خلد للراحة في أفخم غرف ديوان سراي كوش بيجي، وكان يحظر على العاشية حتى التنفس بعمق. في المساء كان عليه أن يتحدث مع كوش بيجي في كل أمور الدولة. وساد الهدوء الفناء حتى سمع من الغرفة الخامسة طنين ذبابة طائرة. هذا الهدوء يخفي خطرا عظيما.

كان كوش بيجي يبجديريك وحده مستيقظا في قاعة استقباله. كان عليه أن يعرف السبب وراء مجيء سلاطين السهوب قبل أن يتحدث مع الخان. وعلى الرغم من أن قرار كوش بيجي بشأنهما كان قد نضح حتى قبل أن يوجه الدعوة إلى يسينجيلدي وسارجان إلى طشقند فإنه ينبغي عليه أن يعاملهما باعتبارهما حكامين مساوين له. ولا ينبغي لهما أن يخمنا شيئا حتى يأتي الوقت المحدد.

ابتسم كوش بيجي بلطف وثقة، وتكلم معهما بظرف، وأثنى على كلاهما. كان يتكأ على أريكة لينتة مغطاة بسجادة بخارية ذات ألياف حريرية طويلة، ووضع تحته بطانية حريرية مبطننة، ومطوية ست مرات، وكان يميل مباشرة على اثنين من الوسائد محشوين بريش بجع خفيف. ووضع أمامه على المفروش الاحتفالي أي على المائدة بالهدب الحريري الساطع كل أنواع الأطباق الممكنة والمشروبات باهظة الثمن والشربات. وفي كل مرة كان ينحني بعزة واحترام إلى الأمام، ويقدم لضيوفه بصمت أفضل الطعام والشراب.

كان يبجديريك رجلا في حوالي الستين من عمره طويل القامة وذو وجه مستطيل ومشرق بشكل اصطناعي. وعلى هذا الوجه برزت حواجبه السوداء الملتحمة في خط واحد عريض، وشفاهه الرقيقة الشاحبة التي كانت تخلو من أي قطرة من الدماء. وكانت لحيته بيضاء رمادية بعض الشيء، وعيونه ثاقبة فاتحة تنظر بثبات إلى محدثه، وتهاجم ببرودة رهيبة لا إنسانية. لقد كانت برودة الكوبرا التي تستعد للانقضاء. كان يمكن لوجهه أن يبتسم، وينبسط فمه بترحاب، لكن تظل عيناه جليدية. لم تكن هناك أي تجعيدة على هذا الوجه، على الرغم من سنه، وبقي مستويا ورشيقا كأنه ابتلع سهما.

كان الرداء المخطط من الساتان السمرقندي، والقلمسوة الصغيرة المخملية السوداء المحددة بمرجان صغير هما الشيء الأوزيكي الوحيد في ملابسه. أما بقية ملابسه فكانت من أعلى الحرائر الصينية والهندية. وبدا من تحت القميص الأبيض الثلجي الأصفحاني الذي يلبسه تحت الرداء صدره الأبيض أيضا مع شعر رمادي مجعد. ومن وقت لآخر تظهر من الأكمام الواسعة أياد بيضاء دقيقة أنتجت شعرا خشنا. وانكمشت، وارتخت الأصابع البيضاء الطويلة التي كانت على استعداد لعصر ضحية أخرى، ويذكر التوباز القرمي



الداكن على الخاتم الضخم من الذهب الأحمر بقطرة الدم البشري المتخثر. وكان "باتشا بالا" الأشقر السمين بنى العينين صبياً في الحادية عشرة من عمره يجلس بين ساقيه نصف المفتوحة، ويدلك الساقين المشعرين. وكان هذا الصبي الذي أبقى لنزوات كوش بييجي غير البريئة الا قليلا يرتدي الحرير أيضا.

جلس يسينجيلدي وسارجان أبناء قاسم توري وأحفاد أبلاي خان من عائلة جوجي خان ابن جنكيزخان العريقة القرفصاء خلف المائدة أمام بييجديريبك مخترقين كوش بييجي بأنظارهما.

كان يسينجيلدي رجلاً بديناً قصيراً ذو عيون سوداء لوزية الشكل، وشوارب مرتفعة حوافها للأعلى بشكل جميل، أما سارجان الرشيقي أحمر الشعر المشدود كحصان قبل السباقات فقد كان خالياً من الدهون. وعلى الرغم من أن كلا منهما قد بلغ الخمسين من عمره فإنك تشعر بأن هذا الرجل النشيط ذو العيون الحارقة الخارقة لمحدثه أخطر من شقيقه. كان السلطانان يرتديان ملابس متماثلة تقريباً. وكانت تجلس على رأسيهما بإحكام قبعات جميلة من مدينة ساري أركا مع قمة رباعية الجوانب من المخمل الأزرق ومزخرفة الحواف بفرو الثعلب الأحمر. وغطيا أجسادهما بمعاطف صوفية بيضاء من صوف الجمل الرقيق لها ياقات من المخمل الأسود. وكانا ينتعلان أحذية لينة محكمة من جلد المهر، وزينت أصفاد السراويل المخملية الزرقاء النازلة عليها بزخرفة كازاخية قديمة. وتمنطقاً بأحزمة واسعة ذات مشبك فضي، وشارة ذهبية كبيرة في الأمام.

وحدها كانت الأسلحة لديهما مختلفة. فقد كان سارجان يحمل في حزامه سيفاً دمشقياً قديماً ثقيلاً طوله من المقبض ثمانين فيرشوك⁽¹³⁾. وكان مقبضه من قرن أصفى، أما الأعماد الفضية فقد ثبتت في الحزام بحلقات من النحاس. وبرز في حزام يسينجيلدي فقط سكين صغيرة ذات مقبض مطلي بالفضة، وتشككتشا كبيرة مصنوعة من قرن كبش لحفظ السعوط.

كانت عيون كوش بييجي الثاقبة ترى كل شيء كما لو أن باطن السلطانين الأخوين قد تحول إلى الخارج. وكانت في أعينهما نيران لا تنطفئ من الشك وعدم الثقة والترقب فقد كان الناس بالنسبة إلى كوش بييجي مجرد بيادق للعب. انقضى وقت طويل منذ أن جلسوا إلى المائدة، لكنهما لم يتناولوا الطعام بعد. ولم يكن ذلك بسبب أنهما يشعران بالحرج.

13. الفيرشوك مقياس روسي قديم يعادل 4.4سم - المترجم.



حاول كوش بييجي أن يبتسم، وأشار إلى إناء تورجاوش الكريستالي أمام السلطانين المليء بالعنب الأحمر المعروف باسم "أصابع الفتاة"، ثم قال:

- تفضلوا..- إن الزبيب الأوزبكي هو الشاه (الملك) بين الملذات الدنيوية. ولا عجب أنهم يقولون أن لم يتذوقه يموت بطريقة أصعب.

لم يحرك الأخوان شفاهما تقريبا وقالوا:

- نحن ممتنان لكم.

ابتسم كوش بييجي بييجديريك برقة، وانحنى إليهما بثقة كأنه بين أهله وقال:

-ربما سمعتم النكتة المشهورة عن زيارة الكازاخي للأوزبكي.

في هذه المرة أجاب الأخ الأكبر يسينجيلدي قائلا:

- لا لم نسمع بها.

- سأحكي لكما أن لم تكونا قد سمعتما بها.. ولمع شيء ما للحظة في عيون كوش

بييجي الباردة، ثم اختفى.. ذات مرة تصادق كازاخي وأوزبكي.. وحل الأوزبكي أولا

ضييفا على الكازاخي. فذبحوا من أجله خروفا، وقدموا للضيف أفضل حليب فرس كما

هو متبع في السهوب. وصار الأوزبكي الذي تعلم أكل اللحم على الطريقة الكازاخية

يشيد بالعادات السهبية. ثم حل الكازاخي ضيفا على صديقه من سكان المدينة، فوضع

الأوزبكي أمامه كعلامة الاحترام البالغ وعاءا كبيرا من الزبيب. أخذ الرجل السهبي الذي

لم يعرف الفاكهة من قبل يغرف حفنات من الزبيب، ويرسلها إلى فمه. فالعنب الحلو في

نظره لاشيء وهو الذي اعتاد أكل اللحوم؛ وعندما رأى ساكن المدينة البغيل قعر الوعاء

بدأ يدمدم بهدوء:

هذا زبيب يا ضيفي العزيز.

في كل مرة يأكل الناس زبببة واحدة فقط.

أجاب الكازاخي بصوت عال غير منصرف عن الوعاء:

لكنك تعرف الضيف الذي حل عليك.

لا يبتلع أقل من حفنة كاملة.

ابتهج سارجان ويسينجيلدي. النكتة المشهورة يمكن أن تحكى بطرق مختلفة

فأحيانا تكون مهينة بعض الشيء لساكن السهوب الكازاخي، أو للأوزبكي ساكن

المدينة. وقد مال كوش بييجي ناحية الكازاخي.

وأصبح الخط الواحد لحاجبي كوش بييجي أكثر استواء، ثم قال:



- ومع ذلك كما يقولون الحديث الفارغ لا يعوق عن العمل الجاد. ومن الأفضل للعجل أن يمتص اللبن من الضرع عن أن يستمع إلى القصائد الفكاهية.. - ومحا الابتسامة من وجهه، وأصبحت شفتيه قاسية مثل لسلك.. - لقد حان الوقت للبدء في المفاوضات. ربما قد علمتما السبب في أننا لم نتمكن من استقبالكما مباشرة فور وصولكما. نعم، إذا قال لك شخص ما عن ذلك فإنه لم يخطئ. لقد كنا ننتظر أعظم العظماء. اليوم، أخيراً، روا عطشنا الذي لا يطاق. الآن يستريحون، ويستجمعون قواهم ليظهروا أمامنا في أبهى ضوء لحكمتهم. وفي المساء سيتفضلون بسماعي أنا عبدهم الأوفى. ولكن قبل أن أمثل أمام أعظم العظماء أود أن أستمع إلى رغباتكما.

قال يسينجيلدي بأدب:

- إن طلباتنا ليست موجهة إلى ماديلي خان. - إننا قد جئنا إليك.

- نعم إن طلباتكم موجهة إلي، ولكن فمي منضغط إلى غبار حذاء خان كوكاند. أظهر كوش بيجي شريط أسنانه، ثم قال: فكيف تتصرف إذن؟ - ماذا نفعل إذا كان الله نفسه قد خلق العالم مثل آلة الدومبرا التي ربطت أوتارها مع بعضها البعض إلى الأبد. ومن يدري ماذا سيقول أعظم العظماء..

أومضت عيون سارجان، وقال:

- إن هذا مثل ما نقول عندنا "في الصندوق صندوق صغير، وفي الصندوق الصغير صندوق أصغر، وفي الصندوق الأصغر لا شيء".

قال كوش بيجي بيجديريك دون أن يتهز في وجهه أي وريد:

- نعم مثل ذلك يقولون ولكن أليس مفتاح الصندوق مع خان كوكاند.. وكيف نعرف ما سوف يسمحون بوضعه فيه؟ فماذا ستصوبون من كأس فارغة إلى وعاء فارغ، أليس من الأفضل القول مباشرة ماذا تبغيان.

سأل سارجان:

- ممن؟

- من ماديلي خان، ومني.

هتف سارجان رافضاً اللعبة المقترحة:

- نحن نناشدك أنت فقط ياكوش بيجي المحترم. - لقد أدركنا أنه في هذا العام لا يرغب الناس كثيراً أن تسيل دماؤها بعيداً عن ديارها. لذلك فإننا لن نطلب منكم محاريبكم، ولكن اسمحوا لنا أن نجمع القوات اللازمة من بين الكازاخ الخاضعين لكم. فمنذ العصور القديمة تعيش عشائرتنا كيبشاك، وكونراد، وتيمير، وسيبان،



وجانيس، وذيول العديد من العشائر الأخرى على ضفاف نهر سير داريا، وبالقرب من جبال كاراتاو وعند أنهار سايرام وتشو. لا تمنعنا من جمع المحاربين من أجل قضية عادلة.

نظر كوش بيجي ببرود إلى سارجان المتحمس، وبقيا حاجبيه بلا حراك. ماذا يريد هذان السلطانين الذين جاء إلى هنا من سهوبهما المضطربة. لم يخبراه بأي شيء جديد. لقد ذكروه فقط بكوش بيجي مامد عليم السابق الذي هرب في عام الحصان من كورجان عند اقتراب قوات الملك الأبيض. وهذا يعني أنهما ساخطان.

- وضد من تعتزمان جمع هذه القوة..

حملك سارجان في وجه بيجدريك، وقال:

- ضد الملك الأبيض.. - وهل لنا من عدو غيره أيها المحترم كوش بيجي؟

لم يجب كوش بيجي. هكذا يفكر الآن هذا السهبي المتحمس. لكن كيف سيتكلم، وكيف سيفكر الكازاخ عندما يجمعون مثل هذا الجيش!.. كان كوش بيجي يعلم جيداً شؤون الإمبراطورية الروسية. فهناك على الحدود الشمالية للسهوب تشيخ المقاطعات، وتبني الحصون. وعاجلاً أم آجلاً السهوب ستخضع للسهوب، وبعد ذلك سيسلخ الملك الأبيض جلودهم. لكن مازال الملك الأبيض وفقاً لمفاهيم كوكاند يتساهل مع هؤلاء اللصوص. حتى جمع الضرائب على المشية بقرار عام 1822 في الجزء الأوسط قد تم تأجيله إلى أجل غير مسمى. بعد ذلك بالطبع سوف يأخذ ذلك مائة ضعف. فليست السياسة القيصريّة بمثل هذا الغباء.

إنه يعلم جيداً كيفية التعامل مع الناس في خوارزم وكوكاند خصوصاً على الأراضي الكازاخية. وكم من العمل كان يتعين على الجلادين وحدهم بذله حتى يحصل على الثمانين ألفاً من الفضة اللازمة في ولاية تشيمكنيت بالإضافة إلى الخراج.. ويشكل كل خمسة عشر إلى عشرين تايخ من الأرض وفقاً لقيمتها كوشاً واحداً (مخيم). ومن هذا الكوش يأخذ في المتوسط 55 رطلاً من القمح. وهذا يعني أن معدل المشية ستة أغانام سنوياً، إذن ست مرات أكثر مما أوصى النبي بأخذه من المؤمنين. إنه وكوكاند يحتاج المال لذلك فقد فرض الضرائب على كل شيء بما في ذلك استخدام القش، واستخدام الرمث⁽¹⁴⁾، واستخدام الطريق، واستخدام الأسواق. كان هناك مئات الأنواع من الضرائب، بالإضافة إلى واجب إصلاح، وبناء جدران الحصون وحراسة حقول وحدائق بكوات كوكاند من السرقة والضرر، وإذا بدأت الحرب كان يجب على كل كازاخي أن يأتي مع حصانه وسلاحه.

14. الرمث أو الحمادة جنس نباتي يتبع الفصيلة القطيفية. يضم عدة أنواع تنتشر في غرب ووسط آسيا. المترجم.



حسنا إن كل ذلك حقيقي. ولكن إذا أعطيتهما الفرصة لجمع جيش كبير فإن الكازاخ سوف يدوسون في سيف واحد خانية كوكاند قبل أن يصلوا إلى قلاع الملك الأبيض.

صمت كوش بيجي الطشقندي والسلطانان الكازاخيان سارجان ويسينجيلدي. تذكر كوش بيجي أغنية سمعها ذات مرة في السوق في واحدة من البلدات الحدودية. لقد كان يتغنى بها شاعر سهبي عجوز، وكانت نداءً من المغني الكازاخي الشاعر جانكيزي إلى الخان الكوكاندي عليم:

إذا كان لديك هاون (المدق) - فاطحن الحبوب،

وإذا كان فارغا فاطحن على أي حال،

ومن أجل الجوار أخرج ابنتك،

أخرجها لتكون زوجه أو لليلة واحدة.

وبما أنك نايمان من مدينة أركا،

فاضحك، وابك، ولكن احن ظهرك!

نظر كوش بيجي إلى سارجان وفهم أنه يعرف هذه الأغنية، وبطبيعة الحال فإنه سوف يستغل مشاعر أهله من الكازاخ إذا أحس بالقوة. إنه يستطيع أن يخاطر مع شقيقه السلطان الآخر. أما مع هذا الذي يحمل السيف الطويل في حزامه فمن الممكن أن يخطئ.

كان سارجان يعرف بالفعل هذه الأغنية. وبطبيعة الحال بمجرد أن يسمح لهما بجمع القوات سيكون حديثهما مع هؤلاء الكوكانديين بشكل مختلف. ولكن نحن الآن بحاجة إلى التزام الصمت، والصبر لأنه ليس لديهما حلفاء ضد الملك الأبيض سوى كوكاند. ومع ذلك فقد أدركا بالفعل أكثر من مرة أي نوع من الحلفاء هؤلاء. لذلك قررا الاعتماد على قواتهما الذاتية. ولكن من دون كوش بيجي لا يمكن عمل أي شيء.

أجاب سارجان على سؤال كوش بيجي بسؤال:

- ربما لسبب ما لا تروق لك حربنا مع الملك الأبيض؟

قال كوش بيجي وهو يهز رأسه:

- هذه الكلمات من قبيل العبث. - إنني سأعتبر نفسي أسعد رجل في العالم عندما



أخضب لحيتي الرمادية بمائهم. لكن ذلك ليس ما يقلقني الآن. ويقلق أعظم العظماء.

- وماذا يقلقك؟

نظر كوش بيجي بيجديرييك إلى سارجان بابتسامته متعاطفة. فقد كان من غير الممكن الاختباء منه هو بالذات، ثم أردف قائلا:

- لدى الكازاخ إذا كنت أتذكر بشكل صحيح مثل يقول: "إن الجرو الذي أطعمه يعضني أنا أيضا".

أظلم وجه سارجان من الغضب، ثم أردف قائلا:

- كان يجب عليك أن تعرف أولا ما إذا كان الجرو هو الذي أطعم الآخر.

زاد كوش بيجي من جرعة ابتسامته، ثم قال:

- ألا تلتزمون عندكم بعادة أن الجالس على مائدة غريبة لا ينبغي عليه أيضا أن يمد رجليه؟

استشاط سارجان غضبا وقال:

- أنت على حق أيها المحترم كوش بيجي: ولكن ألم تمتد أرجل ضيوف آخرين على مائدة غريبة حتى وصلت إلى مدينة أك ميتشيت! - نعم مازالت قوتنا ضئيلة والا ما صار أحد الضيوف الوقحين يوبخ أحد أقاربه الذي وقع في مشكلة لأنه حاول أن يجلس بشكل مريح على مائدته الخاصة.

- رأيت، يا أخي العزيز من أجل ماذا تحتاج إلى جمع القوات..

الآن فقط أدرك سارجان أنه قد داس بتهور على جمرة مشتعلة. إن الكلمة بمثابة سهم إذا خرج من القوس فهيهات أن تعيده إلى أدراجة. وشحب لونه من القلق. لكن كوش بيجي نظر إليه بلطف وبتفهم.

تدخل في الحديث يسينجيلدي قائلا:

- أيها المحترم كوش بيجي.. إذا حفر أحد الأرض مدة طويلة فستتكون حفرة، أو إذا نخر أحد خدشا مدة طويلة فسوف تحدث قرحة. فلماذا تزعج الجراح في قلوبنا ونحن بدون ذلك محرومون من وطننا وأجبرنا على مغادرة ديارنا؟ وبما أننا جلسنا معكم في نفس القارب فيجب علينا أن نقوده إلى الشاطئ. وكما يقولون: إذا جئت تطلب إيران



(مشروب لبني حامض) فلا داعي أن تخبئ الإناء خلف ظهرك. لقد طرحنا أفكارنا هنا علانية. وندرك جيدا أنه من الصعب أن نسأل الإخوة الأوزبك أن يحرسوا أراضينا هناك في ساري أركا. علاوة على ذلك أنه ليس من المناسب أن نبدأ الحديث من أجل أن نقنعهم أن يعيدوا لنا بالقوة الأراضي التي استولى عليها الملك الأبيض. الأي سمعنا الله حتى إذا تحدثنا همسا؟ نحن نعلم أن كوكاند ليست لديها القوة الكافية للتغلب على الروس. لذلك نطلب منكم الإذن فقط.

هز كوش بيجي رأسه بتعاطف، وقال:

- إن الميرزا سارجان قد تحدث بالفعل عن ذلك.

- تذكروا أيها المحترم كوش بيجي أنه عندما يأخذون المشية تتألم المعدة، وعندما يأخذون الوطن تتألم الروح. وتذكروا أيضا أن الفهد الجريح يمكنه أن يفعل أي شيء في حالة اليأس.

أكد كوش بيجي بجديّة على كلامه قائلا:

- نعم إن الفهد الجريح حيوان خطير جدًا. - والصيادون ذوي الخبرة يعرفون ذلك. حسنا، لنفترض أننا سنسمح لكما بتوحيد الكازاخ الذين يعيشون في كاراتاو، وضاف نهرى تشو، وسير داريا. ماذا يمكنكم القيام به مع هذه القوات؟ أنهم غير كافين لخوض حرب خطيرة.

- وهل يعيش الكازاخ على ضفاف نهرى سير داريا وتشو فقط؟ إذا وحدنا هؤلاء على الأقل فإننا سنتوجه بعد ذلك إلى خانية (إمارة) خوارزم. وداخل حدود خوارزم ليسوا أقل منا. كما أن مصب نهر سير داريا، وساحل بحر آرال، وأستورت وما نجيشلاك أرضنا ولكنها تشكل عقبة في طريق الملك الأبيض إلى خوارزم. ولن يكون خان خوارزم دائما قادرا على فعل ما فعله مع جنود بيكوفيتش تشيركاسي من الروس منذ مئة عام.

جلس كوش بيجي بلا حراك. فلم يبدو هذا السلطان السهبي الذي يحمل خنجزا في حزامه ساذجا على الإطلاق. فقد كان كوش بيجي بيجديريك يعلم الأوضاع في خوارزم كما يعلم أوضاع طشقند.

في بداية القرن التاسع عشر في عهد الخان محمد رحيم أصبحت خانية خوارزم دولة كبيرة. وشغلت أراضي واسعة من بحر آرال إلى إيران. واستغل محمد رحيم ووالده الخان يلتيزير، كما هو الحال دائما الصراع بين العشائر الكازاخية وزعماء القبائل، وضموا



إلى هذه الممتلكات النصف الجيد من أراضي الجزء الأصغر. وكان مصير الكازاخ الذين وقعوا تحت كعب خوارزم أسوأ من مصير أبناء بلدهم في كوكاند. ففي حالة اظهار أدنى مظاهر العصيان كان الأجنب يبيدون قرى بأكملها، ويسوقون ما تبقى من الناس لبيعهم في أسواق الرقيق بمدينة هيرات، وكابول. و فقط في عام 1820 م، وهو عام التنين أزال انكشارية خان خوارزم عشرات القرى من على وجه الأرض، وذبحوا جميع الرجال هناك، واقتادوا الآلاف من النساء والفتيات الجميلات. ووفقا للمعلومات المتاحة لدينا فإن اللصوص سرقوا سبعة آلاف الخيول الأصلية، وخمسة عشر ألفا من الجمال وخمسة وستين ألفا من الأغنام الأستراخانية. وقد ثارت أكثر من مرة قرى الجزء الأصغر ضد المستعبدين القساة، ولكن في كل مرة يخنقون في دماهم بسبب بكواتهم وسلاطينهم المتقاتلين على السلطة.

في عام 1825 م أي في عام الدجاجة أصبح الابن الأكبر لمحمد رحيم خانا لخوارزم. حينذاك زوجه السلطان سيرجزي أيشاوك أولي الزعيم الرئيس لعشيرة تابين ابنته الوحيدة، وتلقى من يديه لقب خان الجزء الأصغر. في ذلك الوقت بدأت الحكومة القيصريّة تنظر إلى خوارزم بشهية مفتوحة. استشعر الخان ألكول الخطر الوشيك فسعى إلى تحريض قبائل أوستيورت وما نجيشلاك ومنطقة بحر آرال الكازاخية المحاربة ضد الروس لاستخدامها بمثابة درع واق. وانتفخت بشكل كبير فكرة الحرب المقدسة.

أدرك كوش بيجي على الفور أن يسينجيلدي يتحدث عن هذا تحديداً معتمداً على مساعدة خان خوارزم. لقد كان يعرف كل شيء، وكان يتسلى فقط وهو يستمع إلى ضيوفه السهييين المتحمسين قصيري النظر.

تحدث كوش بيجي بهدوء كما لو يطحن كل كلمة:

- حسنا دعنا نقول أن خانات خوارزم وكوكاند سمحا لكما بتوحيد الجزء الأكبر والجزء الأصغر، وسمحا لكما بتجمع جيش. - هل هذا يشكل قوة عسكرية خطيرة؟ فمن بين كل الكازاخ يتفوق الجزء الأوسط من حيث العدد. ووفقا لحساباتنا يعيش في مناطق كارا أوتكيل وسيميبلاتينسك، وتورجاي حتى نهر جايك مليون وثمانمئة وخمسين ألف شخص. هذا هو الجزء الأوسط مع بعض العشائر المجاورة الواقعة تحت نفوذه. فهل يمكن الاستغناء عنه؟

تحدث يسينجيلدي الآن كذلك بحرارة كما تحدث من قبل سارجان فقال:

- إذا توحدنا الجزء الأكبر والجزء الأصغر فلن يبقى الجزء الأوسط بمعزل عنهما. - ألم يرفع هناك ذات مرة جدنا أبلاي راية الوحدة؟ أنهم ينتظرون إشارتنا..



ابتسم كوش بيجي ابتسامته ذات مغزى. فهو دائماً لا يخطئ في الحسابات والافتراضات. ومرة أخرى حلق بعض قادة السهوب بعيداً جداً في أحلامهم. بطبيعة الحال إذا منحهم الفرصة للتوحد فإن الغبار سيأتي في المقام الأول من الأسوار الطشقندية. وستعيش خوارزم وكوكاند أيضاً أياماً صعبة. أما روسيا. فإنها بعيدة. من الجميل بالطبع أن يدحرج إليها تلك البندقية تحت قدميها، لكنها ساخنة جداً ليمسكها في يده. كما أن الخراف السمان لازالت كافية في السهوب الكازاخية. ولدة طويلة سنكون نحن والملك الأبيض قادرين على جز أوبارها.

قال كوش بيجي بقلق:

- وكيف سينظر الخان العظيم سيرجزي إلى هذا؟ ثم لاحظ باستماتة كيف اعوج من كلامه السلطانين. وأضاف قائلاً: - إنه ليس من قبيل العبث أن حاكم خوارزم قد منحه هذا اللقب السامي. ألم يقل خانكم سيرجزي أن العجل الخاص أفضل من الثور المشترك؟ وهل يفضل الوحدة الشاملة تحت رايتمكم على السلطة الذاتية الخاصة به على الجزء الأصغر؟ وهل سيريد حتى خان خوارزم أأكل أن يخالف ضيفه؟ بالإضافة إلى ذلك يقولون إنه مولع جداً بزوجه الشابة. وفي بعض الأحيان يثمن الخبير الذواقه عليه بحجم خاتم اليد بأكثر من واد مليء بالذهب.

استشاط سارجان غضباً، ولم يستطع أن يتمالك أعصابه أكثر من ذلك وقال:

- من يكون سيرجزي خان هذا.. بغض النظر عن الألقاب التي منحها إياه الأكل فإنه لن يحكم الجزء الأصغر مطلقاً. إنما تخضعان له فقط وبموجب القانون عشيرتي تابين وشيكتي، ومن أجل ذلك لجأ إلى طلب المساعدة من الملك الأبيض. والآن انحازت الغالبية العظمى من عشيرة تابين إلى الباتير جولمان..

أوماً كوش بيجي برأسه موافقاً. لقد كان يفكر أيضاً بهذه الطريقة. إذا سموا أنفسهم الكازاخ فهل سيسمح لأي عشيرة على الأقل أن تتوحد بالكامل تحت حكم خان واحد؟ وعلى الأرجح أن جولمان على شاكلة هذين السلطانين. يجب علي أن أتذكر. وأعتقد أنه حان الوقت لإنهاء الحديث. وربما يمكنني أن أستمتع في النهاية.

- ما رأيكما. على ما يبدو أن ابنة سيرجزي تمتلك صفات رائعة إذا كانت قد استطاعت أن تصعد بأبيها إلى هذه القمة.. وأغلق كوش بيجي عينيه كما لو أن شيئاً قد أعماهها. - إنه واحد من أمرين: إما أن لها رأساً من الذهب أو من الفضة.

طأطأ يسينجيلدي وسارجان رأسيهما.

- هذا يعني أن السلطانين الكازاخيين قد وجداً أخيراً فجوة إلى العرش الخاني. ربما كان لدى قاسم توري ابنة.



لم يلاحظ سارجان كيف اندفعت يده إلى الخنجر تحت ثوبه، لكن الأخ أمسكها بنفس السرعة. لم يحرك كوش بييجي ساكنا، لكن الشحوب الغادر أمت وجهه بطريقة أشد. ولم يعد يغمض عينيه بعد ذلك. أما العبارة التي بدأها فقد أنهاها بطريقة أخرى فقال: - جميلة، ولكن بقدر ما أعرف ليس في عرف السلاطين الحقيقيين أن يدفعا مقابل اللقب الخاني بهذه الطريقة. وعدم حبه لسير جازي أمر غير مفهوم.

نظر كوش بييجي مباشرة في وجهي السلطانين. لقد نسي مع من يتعامل. فأيدي أبناء السهوب تسبق عقولهم. وهذا أمر جيد ولكن ليس عندما تكون معهم في نفس الغرفة ودون أن تحذر الحراس مسبقا. نحن بحاجة إلى أن نبتسم مرة أخرى.

- كيف لنا أن نحكم الدولة إذا لم نتمكن من إدراك أوجاع المهانين.. الآن يتحدث كوش بييجي بجديّة وبشكل عاطفي وبإخلاص مؤثر وهو ينظر في أعينهما. - يا سلطان سارجان إنني أفهم جيدا أحزانكم، وبالتالي لا أخذ بعين الاعتبار بعض كلماتكم الطائشة. ألسنا نحن وأنتم أبناء دين واحد؟ ألسنا أتراكاً؟ حتى عندما سحب سلفي كوش بييجي ماميد عليهم محاربيهم من كورجان فصدقوني إنه فعل ذلك لأنه لم يستطع أن يفعل المستحيل. ولما جاء إلى هنا مع ستة آلاف جندي إن لم يكن يرغب في مساعدة الكازاخ؟ نحن دائما معكم، وسوف أدمم طلبكم اليوم في حفل استقبال خان كوكاند العظيم. قال يسينجيلدي بحذر:

- إذا كانت هذه الأمور لا تحل دون تدخل الخان فعلى الأرجح أنه يجب علينا أن نتقابل معه. وبطبيعة الحال بعد إذنكم.

أيد كوش بييجي بييجديريك بسهولة رغبتهما، وقال:

- هذه فكرة جيدة للغاية. ولسوف أتحمل بنفسني عناء ترتيب لقاء لكما مع راعينا أعظم العظماء. غير أنهم سوف يغادرون صباح الغد إلى كوكاند لذلك نحن بحاجة اليوم إلى ترتيب كل شيء. ويمكن أن يتم هذا في وقت متأخر من المساء. وليأخذ رجالكما قسطا من الراحة، أما أنتما فتجهزا كما ينبغي وانتظرا دعوتي.

كان "ديوان سراي" كوش بييجي الطشقندي يقع على مسافة بعيدة من قصر "الرباط" حيث يقيم الضيوف. وكان يفصلهما عن بعضهما البعض بستان فاكهة ضخمة وزهور ونوافير وبرجولات. وعندما غادرا يسينجيلدي وسارجان كوش بييجي، واجتازا العديد من الحراس سارا خلال الحديقة، وقابلا شوبيرتبالى أجيباي ويرجان ابن سارجان البالغ من



العمر تسعة عشر سنة. كان يرجان الأشقر الرشيق ذو الوجه الطويل الجميل يشبه أبيه إلا أنه كان أقصر قامته من أبيه، ويرتدي ملابس "السالي" - وهم شعراء ساري أركا المتجولون الظرفاء. وغالبا ما كان الكازاخ الأغنياء يلبسون أطفالهم على هذا النحو: قبعة من السمور، ومعطف مخملي مزين بأشرطة ذهبية مع أكمام واسعة، وسراويل من جلد الغزال، وأحذية ملونة ذات كعب عال ومحاطة حوافها بالفضة. وبدلا من الحزام المعتاد كان يلف حول خصره وشاحا أحمرًا حريريًا.

كان الرجل الذي ذاعت عنه الأساطير من سير داريا إلى إرتيش هو الباتير أجيباي من عائلة شوويرتيبالي. كان الباتير يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما أي نفس عمر الابن الأصغر لقاسم توري الجسور كينساري، وكان يعد الصديق الأول لمساويه في العمر على الرغم من أنه ينحدر من عائلة فقيرة. وليس من قبيل المصادفة أنه تم تكليفه تحديدا بمرافقة السلطانيين في هذه المهمة الهامة. كان الباتير أجيباي يتميز بالطول غير العادي والجسد البطولي. كان مظهره وحده يبيث الرعب. فيدها طويلتان، وقويتان تذكر بالفروع الحديدية لنبات العرعر الجبلي صاحب المائة عام، وبدأ أنه قادر بنقرة واحدة من إصبعه السميكة على إرسال أي شخص إلى العالم الآخر. وحتى على الرغم من أنه لا يملك لحية في وجهه وإنما تبرز فقط ذرنية من الشعر الأحمر الصلب تحت الذقن جعلت مظهره أكثر رهبة. وأضافت عيونه الصغيرة الغائرة التي تحرق أي شخص تنظر إليه الانطباع الكلي.

كان الباتير شوويرتيبالي أجيباي يرتدي معطفا واسعا من الصوف الأسود الخشن المغزول بالمنزل وغطاء على رأسه من نفس الصوف، أما السروال فقد صنع من جلد مهر أسود. ويثير حذائه العالي ذو المقاس الخرافي برقبته التي تتسع للأعلى العجب. وبدأ السيف المعكوف والخنجر الأسود من الصلب الأزرق المعلقان في مكان ما في الحزام صغيرين كلعب الأطفال تقريبا. وبدأ فقط الدرع الضخم الحديدي المعلق وراء كتفيه حقيقيا.

كان السلاح المفضل للباتير هو رمحه السميكة المصنوع من شجرة البتولا المشدود بإحكام بتسعة أطواق من النحاس، ومثبت على وسطه بحزام من جلد مدبوغ مضفر. كان مولعا جدا بهذا الرمح لدرجة أنه لم يكن يفارقه أبدا، وكان يحمله في يده ويضعه تحت رأسه في الليل. كان الهلال شعاع عشيرته، وعندما ينطلق على جواده المحارب أكيلاك ("الماعز الأبيض") مع صرخة جولديباي يبدو من بعيد أن ساكن المدينة الأوزبكي يجلس على حمار صغير والذي ينحني ساقيه حتى لا تطول الأرض. وكان أي باتير يصاب بالرعدة لدى رؤية هذا العملاق. وقيل إنه حدثت نوبة قلبية لرجل قابله ذات مرة أثناء الشفق، أما من واجهه على الأقل مرة واحدة في ساحة المعركة، واستطاع أن يفر منه فإنه يعاني من الكوابيس حتى آخر لحظة في حياته.



هكذا كان حتى نهاية حياته الباتير الشهير أولجاباي من كاركارالا والد أجيبي الذي عاش حياته لايملك في أفضل أوقاتها سوى ناقة واحدة وجمل صغير وفرس محارب. وقد غادر هذا العالم عندما كان جميع أبنائه لايزالون في مقتبل العمر. لكن داميتكين والدة أجيبي كانت من عشيرة يسيل تاراكاتي. كانت تمتلك قلب بطل وقوة غير عادية وشخصية فخورة وعنيدة. كان لديها من الأبناء أربعة وهم أجيبي، وميناباي، وتاناباي، وميناباي. بلغ أكبرهم أجيبي ثلاثة عشر عاما، ولم يكن عندهم شيء سوى هذه البادئة المتكررة "باي". ولكي تنقذ أبنائها حينئذ من الموت جوعا عملت داميتكين بالحرفة القديمة فبدأت بمداهمة الجيران الأثرياء وسرقة الماشية. تدريجيا تجمع حولها فرقة كاملة كاملة من النساء المحرومات، وأصبح عندهن من اللحم ما يكفي الشتاء كله.

يفعل الطير في أول تحليق له ما شاهدته في العش. واشتهر أجيبي الذي ربته أمه بأنه باتير (بطل) لايعرف الخوف. وقد انضم وهو في سن الثامنة عشرة إلى أبناء قاسم توري، ومنذ ذلك الحين لم تمر معركة واحدة الا وقد شارك فيها معهم جنبا إلى جنب. وقد تحول خلال تلك السنين إلى محارب محنك وقاس كالصلب وخبير بالشؤون العسكرية.

كان الباتير الواقف في حديقة القصر يشبه صخرة ضخمة محاطة ببحر من الأزهار. ومن خلال النظرة المركزة التي ألقتها على السلطانين تبين كم كان قلقا. لكنه لم يسأل عن أي شيء غير أن الفتى يرجان لم يستطع أن يتمالك نفسه وقال:

- هل تمكنتما ياكوكي من التحدث معه..؟

أجاب عمه يسينجيلدي دون أن يتوقف:

- نعم تحدثنا يابني. - والآن ننتظر لقاء مايلي خان.

أدرك يرجان أنه لا يجب السؤال عن شيء آخر. وأدرك الباتير شوبيرتالي أجيبي أن لقاءهم المنتظر مع الخان نفسه يعني أنهم لم يتوصلوا إلى أي نوع من الاتفاق مع كوش بيغي.

عندما عاد السلطانان الأخوان إلى "الرباط" اختليا بأنفسهما في غرفتهما، وبدأ في تذكر ومناقشة الحديث بأكمله مع كوش بيغي منذ البداية. وعلى الرغم من أن كوش بيغي يبجديريك كان مؤدبا ومهذبا الا أنهم شعروا بأن هناك شيء ليس على مايرام في سلوكه. وقررا العودة فوراً إلى ذويهم بعد إنتهاء المحادثات مع خان كوكاند. فقد كان الهواء نفسه مشبعا هنا بالخيانة.



لم يخبر السلطانان أحدا بشكوكهما حتى لا ينتقل الخوف إلى حراسهما من التولو نجوت. وعندما أصبعا وحدهما حذرا الباتير أجيباي الأيغفل لحظة عن يرجان خاصة حين يمثلان أمام الخان ماديلي.

وأردف سارجان قائلا بتجهم:

- توخى العذر وراقب الخيول عن كذب حتى لا يذهبوا عن غير قصد إلى مكان آخر.

لقد وضعوا خيولهم في إسطبلات كارافان سراي بالجوار، أما السروج فقد وضعوها في إحدى الغرف الأمامية لقصر الرباط. وكان السواس من الأوزيك يعتنون بالخيول، أما الحراس من التولو نجوت مع أجيباي فقد كانوا يتحققون من عملهم من حين لآخر.

قال الباتير بإقتضاب:

- حسنا. - ثم توجه إلى الخارج. لقد خمن أن هناك شيء ما غير سوي، وأيقن أنه يجب عليه أن يقاتل حينما يحين وقت حمل السلاح.

مالت الشمس نحو الغروب. ولقتل الوقت ولتهديئة النفس في نفس الوقت أخرج سيسينجيلدي مسبحة من جيبه وبدأ في مس حباتها. أما سارجان فقد أخرج حجر صوان من سرجه القريب منه، وبدأ في شحذ خنجره الحاد بالفعل حتى بدون ذلك كما يفعل قبيل المعركة.

بعد مغادرة السلطانين جلس كوش بيجي بعض الوقت في تفكير عميق. كان لا يزال يعيش تلك اللحظة التي أمسك فيها سارجان خنجره. وقد أحس به حينئذ عند الحلق. إن المتعطشين من الناس للدماء دائما جبناء.

وفي هذه المدينة الغنية بالأحداث الدامية لم يكن هناك رجل أكثر تعطشا للدماء منه. وبفضل هذه الصفة التي تقدر تقديرا عاليا في دول مثل خانبة كوكاند ارتقى بسرعة. وقد ساعده الكازاخ في ذلك بصفة خاصة، لكنه نهب أموالهم عن آخرها بمشاركة الجلاد الشهير يعقوب بك حاكم أك ميتشيت. وقد خلدت أسمائهما إلى الأبد في فولكلور كازاخ سرداريا، وسوزاك، وتشو.

أعجب به حاكم كوكاند المدلل بسبب قسوته الحيوانية. لكن هذا لم يكن كافيا له. في ذلك الوقت بدأت بخارى القديمة تستعيد قوتها مرة أخرى، وبدأ أميرها يرنو ببصره صوب طشقند. كانت كوكاند قد مزقتها جميع أنواع الفتن والصراعات،



وكان كوش بيجي بيغديريبيك بطبيعته على استعداد للخيانة في كل دقيقة من حياته. بالإضافة إلى ذلك كان متزوجا من امرأة بخارية.

كان كوش بيجي يعرف الهاوية التي يمكن أن يقع فيها ماديلي خان بسهولة عندما يرغب في ذلك أمير بخارى. إنها خانبادشايم زوجة أبيه. وليس من العجب أن أطلق عليها الشعراء الشمس والقمر في آن واحد. وليس هناك رجل على الأرض أو ملك في السماء لم يكن ليتنحى عن الطريق القويم بمجرد أن يراها مرة واحدة فقط. إنها تذكرنا بحواء التي أغوت آدم. ثم ننسى لأنه لم يبق شيء في هذا العالم غير العيون السوداء الواسعة التي تضحك باستمرار والحركات الرشيقمة المبهمة لهذه الساحرة.

الشيء الأهم هو أنها زوجة أب خان كوكاند ضعيف الإرادة والفساد منذ الطفولة. وعندما يشمان رائحة بعضهما البعض فمن ذا الذي سيمنعها؟.. بالطبع إن جدران القصر حجرية صامتة. ولكن هل هناك أسرار يمكن إخفائها عن أمير بخارى العالم العظيم حافظ وصايا النبي في هذا العالم الغارق في الخطيئة؟..

وهل يستطيع حينئذ أن يتحلى كوش بيجي بالشجاعة ليدافع عن مجرم مدنس لأركان الإسلام؟ بالطبع ليس هناك شيء أكثر خسة وتجديفا من الاتصال جسديا بزوجة والده. سيلعنه العالم الاسلامي كله، ويتحول عن الخان منتهك الحرمات..

نعم إن هذه هي واجباته نحو الإسلام. وبالطبع سيظهر أمير بخارى العظيم حماسه في خدمة شرائع النبي. وسوف يتعين عليه أن يجعل شخصا آخر حاكما لكوكاند.

وهناك سبب آخر يفسر أهمية وجود ماديلي خان هنا. إن أبناء قاسم توري سلطانين سهبيين. وبطبيعة الحال ليس لخان كوكاند علاقة بهما. ولكن أليس من الحكمة جعل الأحداث القادمة تحدث في الوقت الذي يتواجد فيه الخان في طشقند. الحذر لا يضر أبدا. وإذا علم أحفاد أبلاي الذئب أن كل هذا من عمل كوش بيجي فسيكون وضعه بالغ السوء. فقد تكاثرت العصابة الكاملة لتصبح ثلاثين ابنا وأربعين بنتا. ولديهم أيضا ذاكرة ذئبية.

أمر كوش بيجي باتشا بالا⁽¹⁵⁾ أن يأتي بعد منتصف الليل، ويذهب إلى غرفة ماديلي خان.

15. صبي مخصص لإرواء العواطف المتأخرة - المترجم.



بعد فترة راحة طويلة شعر ماديلي خان بشعور رائع. كانت عيناه تاللاً، وصارت حركاته قوية فقد كانت تنتظره في هذه الليلة سعادة غير متوقعة. لم يستطع أن يفكر في أي شيء آخر، ولكن كوش يبجي الخدوم يطلب بإصرار إجراء محادثة ما، وينبغي عليه أن يدعو.

جاء كوش يبجي من تلقاء نفسه، ولم تعد هناك حاجة في إرسال أحد في طلبه. وبدأ مرة أخرى هذا الحديث الأبدي عن الشؤون الكازاخية.

بدأ كوش يبجي يشرح بالتفصيل الممل فقال:

- كنا نظن أنه بعد أن قمعت الاضطرابات الأخيرة إنهم لن يرفعوا رؤوسهم لفترة طويلة. غير أن الغيوم تتجمع فوق السهوب من جديد. وهذه المرة أيضا يقوم بهذه الاضطرابات أبناء قاسم توري مثيري الشغب. فماذا تؤمروننا أن نفعل؟

جفل الخان ماديلي، ونظر إليه بأعين غير مستوعبة لما يحدث. لقد كان يرى الآن صوراً أخرى تماماً. إن كوش يبجي يتحدث عن هؤلاء الكازاخ مجدداً..

إنهم قد ثاروا ضد والده عمر خان الرهيب عدة مرات. وقد ترأس أكبر هذه الثورات تينتك توري الذي تمكن من توحيد جميع السهبيين على ضفاف أنهار سير داريا وساريسو وتشو. إن أخطر ما يكون عندما يكون على رأس الكازاخ شخص من التوري لأن جميع الأجزاء تميل إلى الاعتراف به. كما أنه يتمتع بمكانة كبيرة في البلدان المجاورة.

لقد جمع تينتك توري حينذاك عشرين ألف فارساً تحت لوائه، واستولى على بعض المدن التابعة لخانية كوكاند. وبعد أن انتزع سايرام من الكوكانديين نقل مقره هناك. وقد انضمت إليه شيمكنت، وأولى آتا. حاصر عمر خان مدينة سايرام مع جيش ضخم، ثم مدينة شيمكنت بعد ذلك. وقد استسلمت هاتان المدينتان بعد نضاد المؤن الغذائية. وعاقب إنكشارية عمر خان المتمردين بشكل لائق، فشنقوا مائتين منهم، وتم قطع رؤوس الآخرين أو بيعهم كعبيد. وانتزعوا ماشية أولئك الذين كان لديهم ولو علاقة بسيطة بالتمرد. ولكن على ما يبدو أن هؤلاء الكازاخ قد نسوا بسرعة تلك الإجراءات العنيفة.

وماذا لو لم يفلح مخططه مع الخان وزوجة أبيه؟ تذكر كوش يبجي غداء اليوم على شرف وصول الخان، ثم ابتسم. لقد جلس الخان الشاب وزوجة أبيه مقابل بعضهما البعض كما ينبغي. وقد صب كوش يبجي ببجديريك لهما الشاي بنفسه. وبعد أن أخذت خانبادشاييم من يديه وعاءاً من الخزف الأزرق ضحكت فجأة بصوت عال، وقالت بصوت شجي:



- يا عزيزي ماديلي خان إلى جانب أنك حاكم كوكاند فإنك أيضا ابني.. وكوش
بيجي خادمنا كما أكد هو بنفسه مرارا. بالإضافة إلى ذلك فإنه غير مبال بالنساء. لذا
فإنني أمل أن لا تلوموني إذا خلعت الحجاب أمامكما؟..

ألقت عنها حجابها دون انتظار رد الخان. وبدأ وجهها الجميل المتغنى به في الأساطير
يشرق كما الشمس التي تظهر من وراء الغيوم. فوق الوعاء من يد ماديلي خان.

ضحكت خانبادشاييم بخنوع خبيث، وقالت:

- أوه، لا بد أنكم قد احترقتم.. عليكم أن تكونوا أكثر حذرا.

منذ تلك اللحظة سقط ماديلي خان في تلك الحالة التي لا يلاحظ فيها أي شيء حوله.
وظهر في عينيه المثبتتين على زوجة أبيه نوع ما من الجنون. تعلق كوش ببيجي بشيء ما،
وخرج من الغرفة لبعض الوقت. وعندما عاد لاحظ على الفور أنه قد تم إقامة علاقة ملموسة
بالكاد ما بين زوجة الأب وربيبها. فقد نضحت عيونهما بهجة صامتة، وبالسعادة والترقب
حتى أنهما لم يعيراه أي اهتمام. لا، لا ينبغي أن يفشل أي شيء هنا..

حتى ولو لم يجعله أمير بخاري حاكما على كوكاند كلها فإنه على كل حال
سوف يكافئه بشيء ما. وليخلقوا شاريه بالفأس إذا لم يحصل على عشرين ألف تانجا
من الفضة والتي قد جمعها في العام الحالي ليدفعها لكوكاند. وهذا ليس بمال قليل فإنه
يكفي لبناء ست مدن لستة أبناء.

- كو. كو. كو.

اختفت الشمس وراء الأفق، وبدأ الوقواق يوقوق في حديقة كوش ببيجي الكبيرة
المظلمة. ظل يوقوق لفترة طويلة كأنه ينوح على مصيبة ما أو على الحياة التي ستنقطع
هذه الليلة.

- سيدي الخان الرحيم إن الذي يخفي مرضه محكوم عليه بالفشل. انحنى كوش
بيجي إلى الأمام ساعيا للنظر في عيون الخان الشاب. لذلك تجرأت أن أصرفكم عن
أفكاركم العليا. هناك طريق واحد فقط لمنع التمرد. نحن بحاجة إلى أن نستبق أعمالهم،
وندوس على الشرارة قبل أن تصل إلى القش. أبناء قاسم توري هم الجمرات التي يمكن أن
يندلع منها حريق كبير.



إلتزم الخان بالصمت لسبب غير معروف. لقد مثل أمام أعين كوش بيجي بيجديريك بوضوح سارجان الغاضب الذي إنتزع من الغمد خنجرًا كازاخيا مستقيماً. ومن غير المرجح أن ينسى أبداً نكات كوش بيجي التي تحمل معنيين.

- بالطبع يمكنني إعطاء الأوامر اللازمة بخصوص يسينجيلدي وسارجان. غير أننا جميعاً رعاياك، ولكنكم الآن تتواجدون هنا.

لم يفكر ماديلي خان في ما قاله كوش بيجي. لقد نما إلى مسامعه من بعيد بعض الأسماء. تينتوك توري، قاسم توري، يسينجيلدي، سارجان. إنه لايهتم بكل هؤلاء التوريين. الأياخذ كوش بيجي عشرين ألف طنجا فضية سنويًا كي يسيطر عليهم؟ فليأكلهم نيئين أو مطبوخين كما يريد..

إنه الآن يهتم باسم واحد فقط. خانبادشاييم!.. إن لها وجهًا ناصع البياض. وفخذيها مثيران جدًا تحت الفاتح نصف الشفاف. ويظهر بياضهما المشرق من خلال الحرير كأنهما يعكسان ضوء القمر. وصدرها المستدير ألا يتلأأ في الظلام، أو لا يشعر به بالفعل؟ بالفعل إنه لذنب عظيم أن تسعى إلى امرأة كان يملكها الأب. ولكن ما لا يلحظه الناس ليس بخطيئة. وماذا عن كوش بيجي؟..

إنه ليس في الحساب. في الحقيقة إنه ليس من قبيل العبث أن دعاني إلى هنا بإصرار. إنه لا يجرؤ أن يبت بنفسه في شأن الكازاخ، ولهذا فقد رتب لقائي مع خانبادشاييم. حسنا إن الثمن مناسب: اثنان من السلاطين الذين يرتدون وبر الإبل مقابل سعادة امتلاك امرأة كهذه. ولا مانع لدي أن يكونوا أربعة سلاطين. كلنا كائنات ميتة حتى أنا. ولاسيما هذا اليسينجيلدي وهذا السارجان، ومن أيضا. الحياة الحقيقية هي خانبادشاييم..

- ماذا سيكون قرارك السامي؟..

نعم هذا هو ما يريد منه كوش بيجي. أما هو فيريد الخطيئة الحلوة مع زوجة أبيه. وينبغي أن يحدث ذلك في هذه الليلة. وفي الصباح يجب أن يعود إلى كوكاند وإلا سوف تجري المحادثات. من المستحيل البقاء ليلتين متواليتين مهما كان بياض الفخذين الممتلئين عبر الحرير. علاوة على ما سبق فإنه خان وسوف يكافئها أيضا على الطريقة الخائبة.. ولكن من أين يحصل الآن على هدايا تليق بها؟

أضاعت عينون ماديلي خان.

- ألم يجلب لنا أبناء قاسم توري هدايا سوى رأسيهما؟



خمن كوش بيجي أفكار الخان الشاب قبل أن ينهي حديثه. بالتأكيد لم يأت السلطانان السهبيان بدون هدايا. والكرم في عيون الكازاخ البسطاء واحد من الشيم الرئيسية للإنسان. لقد جلبا معهما لخان كوكاند تسعة خيول مخملية سوداء، وتسعة خيول بيضاء كالحليب فائقة السرعة لا تقدر بثمن. كان كل واحد منها تحت سرج فضي غالي الثمن، ولجام فضي، ومثبت بكل سرج تسعة من فراء سمور ألتاي الأسود، وتسعة من فراء الثعالب الحمراء النارية. حيث أنه في السهوب يرمون لكلاب صيد الثعالب قبل الصيد بعض قطع اللحم اللذيذة.. وكان كبد دافئ مع ردف دهني طيب الرائحة هما ثمن صيدهم وفقا لمعايير الصيادين القدماء. أما دهن بدون كبد فغير مناسب. ولكن في كثير من الأحيان كان الثعلب الأحمر يخمن حيل الصيادين. وقد أخذ كوش بيجي الهدايا الموجهة للخان بفرح سري ثم أخفاها.

دوى صوت كوش بيجي بشكل ينذر بالشر وقال:

- على ما يبدو أن أبناء قاسم توري يأملان أن يأخذا شيء ما في هذه المرة.. وحلمهما أن يأخذا رؤوسنا في رحلهما..

غضب ماديلي خان فقط من عدم وجود هدايا يمكن أن يقدمها لخانبادشيم التي ليس لها مثيل، ثم لوح بيده قائلاً:

- حيث أنه لم يخطر في رأسيهما أن يقدرورا وضعنا بشكل لائق فإن رأسيهما لقيمة لهما.

أحنى كوش بيجي رأسه بتواضع مبالغ فيه، ثم قال:

- إنه لأمر حكيم يا سيدي الخان الرحيم.

تثاءب الخان ماديلي بتكلف ثم قال:

- يبدو أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. دعونا ننهى حديثنا عند هذا الحد.

ثم كسر بعدم اهتمام قطعة من الحلوة الطحينية، وشرب كوباً كبيراً من النبيذ الوردى.

نظر كوش بيجي لأول مرة مباشرة في وجه الخان ماديلي، ثم قال:

- سيدي الخان الرحيم. - إن غرفة ضيفتنا عالية المقام خانبادشيم بجوار غرفتكم. وتقع الأبواب على نفس الممر. فماذا تؤمرون بفعله في تلك الليلة: هل نضع الحراس على كل باب على حدة أم أن الحراسه حول القصر تكفي؟



نظر الخان ماديلي أيضا في وجهه بثبات وقال:

- وماذا تعتقدون بشأن ذلك يا كوش بيجي الحكيم؟

باعدت الابتسامة بين شفقي كوش بيجي البيضاء، وخفض ناظريه بخجل مختلق، ثم قال:

- حول القصر تكفي.

ابتسم الخان أيضا، ثم قال:

- في هذه الحالة فليكن كما قررتم.

قال كوش بيجي:

- أشكر سيدي الخان على الثقة التي يوليها لعبده. - ثم انحنى انحناء عظيمة، واختفي بهدوء. لم يعد ماديلي خان يتمالك نفسه أكثر من ذلك. فبعد هذه المحادثة مع كوش بيجي لم تعد هناك حاجة إلى الحذر، وتقريبا توجه جريا نحو غرفة خانبادشايم. ليته كان يعلم ما سوف تسفر عنه هذه الليلة بعد ست سنوات. لكن لازال ماديلي خان نفسه لا يعرف كيف وجد نفسه أمام باب عال منحوت.

قبل أن يدخل الخان ماديلي كان كوش بيجي يبجديربيك يقف بالفعل وراء حائط غرفة نوم خانبادشايم. ومن خلال ثقب خفي رأى كيف اندفع الظل القمري الأبيض من البطانية الحريرية، ثم سقط، واندمج مع ظل الخان الشاب.

كان كوش بيجي منذ فترة طويلة بارذا تجاه النساء. حتى أن هذا المشهد لم يدخل على نفسه السرور. ولكنه الآن يعلم بشكل أكيد أنه لن يلام على ما سيحدث لسلطين السهوب. وإذا لم ترحم الشائعات هذين الاسمين عاليا المقام اللذان يعبثان الآن على الوسائد الحريرية وراء الجدار فلن يلام أيضا.

ذهب كوش بيجي يبجديربيك إلى غرفة استقباله، ثم استدعى حراسه الشخصيين، وقال لهم:

- أخبروا ضيوفنا الأعداء- السلطانيين عاليا المقام أن خان ماديلي يدعوهما إلى مقره. ولكن أبلغوهما أنه من غير اللائق أن يجلسا حول مائدة الخان وهما يحملان السلاح. ولا تنسوا تحذيرهما بشأن خنجر سارجان هذا ..

عندما جاءوا إليهما كان جميع الفرسان المرافقين لهما نائمين فيما عدا الباتير أجيباي والشاب يرجان فقد كانا مستيقظين مع يسينجيلدي وسارجان. بدأ السلطانان الاستعداد بسرعة.



قال البواب الأسود يشيك أغا بشدة عندما أراد سارجان ربط خنجره الحاد:

- لا يمكنكما الدخول إلى أعظم العظماء حاملين السلاح.. وهذه القانون يسري حتى على الملوك. وعندما تعودون احمله.

تضايق سارجان أنه لم يقيم من قبل باخفاء خنجره تحت ملابسه. فهم لن يقوموا بتفتيش الضيوف، وهو لم يعتد مطلقاً فراق خنجره. فليس هناك صديق يعتمد عليه أكثر منه في اللحظات الصعبة. وعلى كل حال فلن يقتلوه وهو ضيف عند رجل مسلم.
- اربطه في حزامك.

أعطى ابنه الخنجر، وأراد أن يقول شيئاً ما، لكنه على ما يبدو قد عدل عن ذلك.

كان بانتظارهما ستة رجال مسلحين في الفناء. وفجأة بدأ أجيباي الذي كان المساء كله في مزاج كئيب يقلق. لا عجب أنهم يقولون أن الهجوم القادم للعدو يشعر به قبل الجميع الحصان المحارب. وهذا الشعور لم يخن الباتير أجيباي مطلقاً.
قال بعناد:

- سنذهب أيضاً معكما.

ولكن يشيك أغا منعه، وقال بلهجة لاتقبل الاعتراض:

- إن أعظم العظماء خان كوكاند سيستقبل السلطانيين عالياً المقام يسينجيلدي وسارجان أبناء صديقه وحليفه قاسم توري. - وأضاف بشكل أكثر هدوءاً: - أما الباقون فيستطيعون أن يناموا بسلام.

لكن الباتير أجيباي لم يهدأ، وقال:

- أنت..

لقد أراد أن يدفع الإنكشارية المتزاحمين حوله بكتفه، ويذهب خلف السلطانيين المغادرين، ولكن يرجان أمسكه من يده.

- ما الداعي لأن تحدث جلبة هنا يا باتير أغا؟ إن هذا يمكن أن يضر قضيتنا الهامة. - وسعى بكل ما فيه من قوة أن لا يظهر قلقه أمام الغرباء. - فلنذهب أفضل لنرى الخيول كما طلبوا منا.

توقف الباتير فجأة. ومضى السلطانان المحاطان بالحراس في طريقهما. وفجأة شعر بدم ساخن مجنون يندفع بغزارة إلى رأسه، وأدرك أن عينيه أصبحتا حمراوين. وقد حدثت معه بالفعل مثل هذه النوبات من الغضب عندما يمسك أول سلاح يقع تحت يديه فيبدأ بتدمير



كل شيء من حوله غير مفرق بين الأبرياء والمذنبين. وفي هذه المرة امتلك الباتير قوة الإرادة ليوقف نفسه في اللحظة الأخيرة. مهما حدث فما ذنب هؤلاء الناس البسطاء من حوله مثل السياس، والخدم، والمحاربين العاديين؟ فلمدة شهر كامل قاموا على إطعامه، واعتنوا بالخيول، ورتبوا الغرفة. وقد أظهروا أسمى مشاعر الصداقة للقادمين من السهوب، وقد منح له سائس أوزبكي مرتين بالفعل عن جريمة سوف تقع هنا. ففيما أذنبوا؟..

فجأة تذكر حادثة طواها النسيان منذ فترة طويلة. في تلك السنة عندما توفي والدي كان الشتاء باردا جدا. وكان لدى داميتكين التي تركت أرملة مع أربعة أطفال صغار ناقصة وجمل صغير. وذات مرة أثناء عاصفة ثلجية عنيفة جاء الشابارماني - بلطجية جامانتاي داوكي أولي أغا سلطان مقاطعة "كاراكالا". قالوا إن الباتير الراحل أولجباي لم يدفع الضرائب الملكية لمدة ثلاث سنوات، وأخذوا الناقصة، وتركوا الجمل الصغير. فماذا يمكن أن تفعله معهم امرأة وحيدة لا حيلة لها. ولكن الأسوأ جاء في فصل الصيف. وليس هناك مخلوق على وجه الأرض يبكي أشنع من الجمل. وحالما يحل الليل حتى يشرع الجمل الصغير في بكاء حزين، ويبكي أيضا ثلاثة أطفال، وهم يحتضنون عنقه. أما الرابع الذي كان أكبر في السن قليلا عن إخوته فقد كان يهرب إلى السهوب حتى لا يسمع هذا العواء. وبقي في الدم بكاء الأطفال التعساء الأربعة.

ذات مرة ناشدت داميتكين التي وصلت حافة اليأس ابنها أجيباي قائلة:

- يا بني إنك الأكبر سنا في هذا المنزل. هل يمكننا مواصلة الاستماع لصرخات هؤلاء الجياع؟ لقد أكلنا لحم البقرة التي ذبحت في الخريف الماضي. ولم يبق لدينا سوي الجمل الصغير. فلنذبجه، ولنبقي على حياة هؤلاء الأطفال حتى ولو بضعة أيام.

أعطته السكين وهي تخفي دموعها. وعندما خلد الأطفال إلى النوم أحضرت الجمل إلى اليورتا، ثم أسقطته على الأرض، وشدت وثاقه. لم يتحرك الصبي من مكانه.

قالت داميتكين:

- فلتحل اللعنة على الملك وتابعه جامانتاي من أجل موته. ثم ركضت إلى الشارع لكي لا تشاهد ذبحه فهي التي علمته شرب الحليب لأول مرة، وأطعمته بيديها.

اقترب أجيباي من الجمل ببطء. لكن بمجرد أن نظرفي عينيه الواسعتين الصافيتين الرطبتين حتى سحب يده بسرعة، وأصبح غير قادر على ارتكاب الجريمة.

عندما عادت الأم قال لها:



- لنذبحه في الغد يا أمي. - دعيه يعيش ليلة أخرى في هذا العالم.

مسحت دامتكين عينيها بطرف المنديل، ثم قالت.

- حسنا يا بني.

لكن أجيباي لم يستطع أن يذبح الجمل لافي الغد، ولا بعد الغد. فطلبوا من جارهم أن يذبحه من أجلهم. منذ ذلك الحين لم يكن هناك رجل في السهوب أقسى منه. وهذه الكراهية التي لا تعرف الرحمة قادتة إلى معسكر السلطانين الثائرين. فانظر إلى مدى يمكن أن يقود بكاء الجمل..

كبح الباتير جماح نفسه، ثم تطلع حواليه مرة أخرى. نعم لقد كان يشعر بالأسف لهؤلاء الناس العاديين الأبرياء. ولكن إذا اقتضت الضرورة من أجل السهوب أو العشيرة فإنه سيقطع رقبة الجميع هنا. وذلك لأن الجمل قد بكى..

سحبه يرجان من ذراعه وقال:

- أجيباي أغا يجب علينا أن نرى خيولنا.

دخل ثمانية من الإنكشارية غرفة الضيوف مصطحبين يسينجيلدي، وسارجان. وما إن رأى السلطانان كوش بييجي يباشرحبات مسبخته حتى انحنيا أمامه. في هذه اللحظة لمس بهدوء رقبة كل منهم سيفان معقوفان حادان. تقدم الجسدان مقطوعي الرأس خطوتين إلى الأمام، وجثيا على ركبتيهما أمام كوش بييجي بيجديربيك، ثم خمدوا بعد أن استدارا مرتين.

هز كوش بييجي رأسه بطريقة فلسفية، وقال:

- أيها السلطانين الجليلين لقد أردتما توحيد السهوب، ولكنما فارقتما رأسيكما بسهولة - ألقوا بهذين في الحفرة وراء السور، واجعلوا هؤلاء النائمين ينامون للأبد.

ذبح الفرسان النائمين الثمانية عشر المصاحبين للسلطانين الكازاخيين لاجراء المحادثات في طشقند كالنعاج قبيل احتفال توي. وقد نجا الباتير أجيباي ويرجان بمعجزة. وعندما لم يجدونهما في قصر الرباط أمر يشيك أغا بالبحث عنهما في الاسطبلات.



حذر الحراس قائلاً:

- إذا كانا هناك فقولاً لهما أن السلطانين قد عادا. - أما هو فقد بقي مع رجاله في الفناء. لم يكونوا يرغبون كثيراً في مواجهة الباتير وجها لوجه.

لكن نفس السائس الأوزبكي الذي كان ضمن العبيد تمكن من تحذير أجيبي أنهم يبحثون عنهما، وأنهم قد قتلوا السلطانين. أمسك الباتير الضخم يرجان الذي أخرج سيفه، وأجبره على الاختباء في الحارات المجاورة للفناء. وبعد أن قطع مقاليد الخيول التي كانت تحت أيديهما قفزاً عليها هكذا من دون سرج، وغادرا المدينة. أراد حارس ما كان يغالبه النعاس أن يقبض عليهما على أبواب الرياط، لكن الباتير أجيبي بركلة واحدة من قدمه جعله يصمت للأبد.

بعد ذلك بعام دعي لياشكر وبيجديريك قاسم توري نفسه إلى اجتماع سري.. وأقسما أنهما أبرياء، ووعداه بسرد تفاصيل وفاة أبنائه. وبالقرب من سوزاك على شاطئ بحيرة تيليكول قطع لياشكر بيده رأس السلطان العجوز، وحملها إلى طشقند.



VI

في الجزء الشرقي تقف الظلال البنية القاتمة لجبل كاراتاو كحدوة حصان مكسورة. وتشبه قممه الكثيرة أعراف الخيول، وحدبات الجمال المجدولة بشريط أزرق رمادي من الضباب غير قابل للاختراق من الشمس الغارية. وعلى المنحدرات الغربية كانت هناك حيوية غير عادية. وكمجموعات متلاصقة كأنها تعانق بعضها البعض امتدت مضارب الرجل الكازاخية. كان يحدث ذلك في أوقات الحرب. واحتشدت منازل البيورت في نصف دائرة متينة غير أن النهر الجبلي السريع كان يمزق صفها. وغطيت جميع المنازل بسجاجيد رمادية، وسوداء الا عدد قليل فقط غطى بالسجاد الأبيض. ولا يمكن القول أن هذه القرى غنية جدا فالسجاجيد القديمة التي لم تتغير لفترة طويلة أصبحت شعناء، وظهرت بها بقع كثيرة، وأتى عليها بالكامل السخام الكزياكي الحاد. وكان قطع الإبل الذي يرفع بالقرب منهم قليل جدا بالنسبة لعددهم. ومن مرة واحدة يمكن عد الأغنام والماعز، وكانت الغالبية من بين الخيول المتجولة في الوديان نحيلة، وذات بطون صغيرة، بالإضافة إلى الخيول المحارية. وكان يرى بالكاد أفراس مع الأنهار. ولكن كان هناك الكثير من الناس الذين يحرسون الماشية مع هروات ثقيلة في حضورهم.

كانت هذه قرى عشائر توكا وأويك وألشين، وألتاي، التي غادرت قبل عامين مع قاسم توري أرض آبائها، وانتقلت للعيش هنا في نتوات جبل كاراتاو، وفي نطاق أملاك عشيرتي كيبشاك وكونراد. وعلى الرغم من أن قاسم توري هو ابن الخان أبلاي فلم يقال عنه أنه كان أغنى رجل في السهوب. لقد أذهبت الحرب الطويلة التي بدأها أبناؤه بكل ثروته. كما أن الماشية التي اعتادت على العشب الغض، ورحابة السهوب لم تتكاثر في هذه الأرض المالحة ذات العشب النادر والنامي بإفراط في هذه الجبال. إن القرى الثائرة بالفعل لا تمثل الآن منظرا سارا..

عن ذلك الأمر كان يفكر شخص توغل في السهوب بعيداً عن الضجيج والبكاء. إنه شخص ليس بالطويل، قوي البنية، ذو عنق ضخم كعنق المصارع. وكان من الممكن أن نطلق على وجهه المستقيم ذي الأنف القصير قليلا، والشارب الصغير واللحية الحمراء الداكنة الكثيفة الإسفينية جميلا لولا العينين. فلقد كانت كما لدى نسر السهوب حادة وثاقبة وبها عروق دموية. ومع ذلك فإن هذه العيون تناسب هذا الوجه الذي طبع



عليه منذ الولادة التسلط والثقة بحقه في الحكم. وكان مظهره يشهد بأنه اعتاد على الاستماع أكثر من الحديث فحركاته شحيحة وشفثاه الرقيقة والمحددة بشكل حاد مضمومة بإحكام. وهناك ملمح آخر تلاحظه النظرة الفاحصة على هذا الوجه غير العادي وهو حلم ما خفي بشكل عميق والذي من أجله يفعل هؤلاء الناس كل شيء.

يتوغل هذا الشخص أكثر في السهوب ومن بعيد، من القرى، لا تستطيع إلا أن تميز معطف السمور ومعطفا قصيرا ذا ياقة ليننة مخملية، ومعطفا قوزاقيا بنيا فاتحا. لماذا يذهب هكذا بعيدا عن الناس كينيساري الابن الأوسط لقاسم توري وحفيد الخان أبلاي؟..

تنكسر الحصيرة الجافة مع طقطقة تحت الحذاء المصنوع من جلد الغزال ذي الزخرفة القبيلية الزرقاء. لقد اهتز أنفه فقد كانت السهوب تملئها أغنية رهيبية لا هواده فيها. لقد غناها بالأمس نيسانباي وهو يجلس على سجادة بيضاء وطاويا رجليه تحته. وكانت الأغنية عن حوليات فرع جوجي ابن تيموتشينوف.

كان وجه الشاعر العراف وجسده ساكنين. لقد غنى أيضا عن مضارب الرحل الحرة لعشيرة كيري على ضفاف نهر أونون وكيرلين، والذين أصبحوا أول الضحايا على الطريق الطويل والدموي لجنكيز خان. ثم ظهر على هذا الطريق العديد من القبائل والعشائر الكازاخية التي تقطن شواطئ أنهار أورخون، أرجون، وإيرتيش، ووديان "تارياجاتاي" نايمان، وأرجين، وعلى ضفاف جايك، وتورجاي كيشاك، وألشين. وقد حصل جوجي الشهير الابن الأكبر لجنكيز خان من الأم الكازاخية على نصيبه منه وهو السهوب الكازاخية من نهر الفولجا إديل وجايك حتى إرتيش. وقد وضع دم كازاخي كثير وعظام في أساس القبيلة الذهبية التي أقامها باتي. وحينئذ تفرق الكازاخ مجددا حيث ذهبت مجموعة العشائر الجنوبية جيتيسو والأنهار السبعة وأويسون ودولات وجاليري إلى أولوس (دولة) جاجاتيف التابع لدولة جنكيز خان الشاسعة.

رعدت ألة الدومبرا الصنوبرية القديمة الخاصة بنيسانباي جيرشي، وسبحت القرون قرنا وراء قرن من تحت أصابعه. ولم تمر سنة دون أن يسيل فيها دم لأن الخانات والبايات والسلاطين لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى تفاهم فيما بينهم. وقد فعل الأعداء على كل الحدود كل ما في وسعهم لكي لا ينتهي هذا الانقسام لأنهم كانوا يخشون من السهوب الموحدة.

سقطت القبيلة الذهبية، وانفصلت عشيرة كيري عن أولوس (دولة) جوجي. وتمكن السلطان جانيبك لفترة وجيزة من توحيد عشائر أرجين، وكيري، ونايمان، وأويسون، ودولات، ويستنبالي القاطنة ساحل تشو. كانت هذه أول خانية (إمارة) كازاخية مستقلة.



وقد زاد من حدودها الخان قاسم ابن جانبيك. ثم انهارت بعد ذلك. ومرة أخرى وحدها حكام عديدون مثل الخان خاك نزار، وتاوويكيل، ويسيم، وجانجير، وتاووكي. أصبحت قوة عظمت، وكان الأعداء يخشون التعدي على حدودها، عندما كانت تحكمها وفقا لتعاليم الأجداد رأس واحدة باليدين والرجلين. لقد تغنى الشاعر العجوز بمجد نايمان، وكيبشاك، وألشين وجميع العشائر الكازاخية الأخرى بالتتابع، وكان الفخرفي صوته. ومرة أخرى مزقت الحرب الأهلية بلد الكازاخ، لأن خانات الأجزاء الثلاثة لم يستطيعوا أن يتقاسموا السلطة فيما بينهم. وأصبحوا، كما هو الحال دائما، يبحثون عن الدعم من دول الجوار. وكان أولهم أبو الخير خان من الجزء الأصغر.

وكان آلة الدوميرا تشبعت بالدم فقد خفت صوت الأوتار. واهتز صوت المغني من الحزن الذي لا مفر منه. وغنى عن الأزمنة الرهيبة وعن "عام المحنة العظيمة". وقد استغل الخان الجونغاري سيبان رابتان الخصومات، والعداوات، واجتاز الأرض الكازاخية كإعصار دموي. وقد أبيدت تقريبا كل القرى على امتداد أنهار تشو، وساريسو، وسير داريا، في سفح كاراتاو. ورحل الجزآن الأوسط والأكبر إلى بحر آرال، وبحر قزوين، وضاف إيشيم. حينئذ وافق خان الجزء الأصغر أبو الخير، ثم خان الجزء الأوسط ساميكي بعد عام على المواطنة الروسية.

فقط وبعد ثلاثة وثلاثين عاما عندما سقطت جونغاريا التي ابتلعتها الصين، ومزق جيش البوجدخان (امبراطور الصين) ملايين البشر عادت عشائر نايمان، وكيري إلى أراضيهم القديمة على شواطئ إيرتيش الأسود، وإلى أودية تارباغاي. ولم يطب لهم المقام هناك في جوار الإمبراطورية السماوية القديمة القاسية.

وأومضت عيون الشاعر بطريفة مفعمة بالنشوة عندما غنى عن أزمنة قريبة جدا، وعن أعمال أبي المنصور. انتفخت أوداج الشاعر العجوز من التوتر الاستثنائي. ومثل حوافر الخيول السريعة في السباقات أومضت أصابعه وضربت على الأوتار ملقيا جملة وراء جملة. وقد أوما المستمعون في يورت قاسم توري بالموافقة لأنه كان نفسه هو أبو المنصور الذي اتخذ بعد ذلك اسم الخان أبلاي وأب التوري نفسه وجد أبنائه.

لم تكن حياة خان المستقبل سهلة. فبعد وفاة جده الملقب بأبلاي السفاح لم يستطع والده والي عديم الشخصية الاحتفاظ بتركستان التابعة له والتي غزاها بسهولة خان خوارزم. لقد أنقذ العبد أوراز أبي المنصور البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما، وظل هذا يعمل مدة طويلة كعامل مزرعة بسيط لدى أحد بكوات داوليت. ثم عاش لدى أحد أقربائه



وهو البك أبولمامبيت، وفي الثامنة عشرة من عمره حصل على مفرزة صغيرة من المحاربين السارياز، ومع صيحة جده أبلای سحق جحافل التورجاوت المتفوقة عليه من حيث العدد.

لقد كان عملا عظيما. نسي نيسانباي خيرشي كل ما حوله، كما لو كان قد فقد عقله. وعندما وصل العجوز إلى حكاية تنصيب أبو المنصور خانا للجزء الأوسط قفز من الفرخ بدرجة عالية حتى أنه كاد أن يضرب برأسة عمود اليورتا.

سايرام! أزریت! شیمكنت! سوزاك!.. الآن طارت الة الدومبرا من تلقاء نفسها إلى السقف، ودارت هناك مواصلة العزف بكافة أوتارها كما لو كان هذا بفعل السحر، ثم عادت مرة أخرى إلى أيدي المغني. انتزع أبو المنصور مرة واحدة سبع مدن من أيدي خان كوكاند، واستولى على طشقند، وهزم القيروز المعادين له في معركة دجايلي الشهيرة. وفي هذا الوقت تسمى باسم جده أبلای ..

وصف العجوز خيرشي بشكل احتفالي وبإبهاء الحدث الذي حدث في الوادي الأخضر على ضفاف بحيرة تيليكول القديمة، والمبجلة من قبل جميع الكازاخ. هناك اجتمع أفضل الناس من الأجزاء الثلاثة وبناء على اقتراح من البك العجوز أزيانبيك رفعوا فوق الناس على السجادة البيضاء أبلای البالغ من العمر ستة عشر عاما. وأصبح منذ ذلك الوقت الخان صاحب السلطة المطلقة على جميع الأرض الكازاخية.

غير أن الملكة الروسية التي لم تكن ترغب في أن تتوحد السهوب تحت سلطة خان واحد عارضت ذلك. وقد تم إقراره فقط نيابة عن الإمبراطورية الروسية خانا للجزء الأوسط. ولم يرد الإمبراطور الصيني أن يعترف به حتى النهاية.

ثم غنى نيسانباي خيرشي لفترة طويلة عن زواج الخان أبلای. فقد قدم معا ستة أشخاص من عشيرة أتيجاي كاراؤول بناتهم ليصبحن زوجات لأبلای. وكان لديه أيضا زوجته من كارا كالبكي وأخرى من الكالميك. وقد ولدن له واحد وثلاثين ابنا وأربعين بنتا.

وكحصان مطارده وصل العجوز خيرشي إلى نهاية قصته. وبعد أن مدح قاسم توري الذي أنجبته الزوجة الكالميكية سماه الموصل للعمل العظيم الذي قام به والده. ثم توجه بصوت أجش إلى كينيساري الجالس وحده قائلا:

كان طريق أبلای شانكا

لا تنس يا باتير كيني.

كن صلبا، وفي وقت ما

كن أبلای في وطنك!



حملق الحاضرون بحذرفي وجه قاسم توري الذي كان على وشك أن يبلغ السبعين عاما. وفي وجوده وفقا للعرف المتبع كان من الممكن أن توجه مثل هذه الكلمات فقط لسلطان يشغل منصب القائد العسكري. وخلال عهد قاسم توري كان يشغل منصب القائد العسكري ابنه البكر السلطان سارجان. وعلى الرغم من أن كينيساري كان يشتهر بالشجاعة وسعة الحيلة إلا أنه كان لا يزال باتيرا فقط. لكن نيسيناياي خيرشي اشتهر بين الكازاخ كمغن عراف، وخبيرا بالناس ومنتنبى. وكان قاسم توري يعرف ذلك. التزم قاسم توري الصمت، لكن روحه كانت مفعمة بالفرح. وعلى الرغم من أنه لا يمكن أن يشكو من أبنائه يسينجيلدي وسارجان إلا إنهما كانا بسطين وساذجين بالنسبة إلى هذا الحمل الثقيل، الذي كان عليهما أن يحملانه. لقد كان قلبه يميل إلى ابنه الأوسط الصامت والحازم. وربما، من بين جميع أبنائه كان عند هذا الرغبة قوية وراسخة نحو السلطة.

شجع قاسم توري المغني قائلا:

- لتمتد حياتك لسنوات طويلة لتسعدنا جميعا أيها المغني الوفي خيرشي. - لقد أسعدتنا بملمحتك القيمة.

لأكثر من شهر لم يكن هناك أي خبر من يسينجيلدي وسارجان، وبدأ قلب قاسم توري يؤلمه من الهواجس. لكن ما كان يهدئ من روعه فقط هو أن الخبر السيء ينتشر بسرعة. وحتى الآن لم ترد أية أخبار من أبنائه. - وتماسك الرجل العجوز.

لماذا أظهر موافقة صامتة على كلمات المغني الموجهة إلى كينيساري؟ وكيف تقبل الجميع اهتمام الرجل العجوز بابنه الأوسط.

كان كينيساري يعلم بذلك. لكن بالأمس أظهر الوالد مشاعره علنا لأول مرة. وهذا يعني أنه قد حان وقته..

الآن يزن أفكاره وهو يدوس على القشرة غير المطروقة للأرض البكر المألحة. نعم إنه يفكر في ذلك منذ سنوات عديدة. لم يكن الكازاخ مشتتين هكذا أبدا من قبل، وكان كينيساري يعرف بحزم ما ينبغي عليه لتوحيدهم. وكاسم جده وسلفه سيكون اسمه عظيما، وسوف يردده أعدائه في خوف.

ولكن من أين نبدأ؟ الآن ليس زمن أبلاي عندما لم تكن القوات الروسية قد اجتازت بعد نهر جايك الشفاف. لقد قص عليه المؤرخ الحكيم كارت كاجاك في مرحلة الطفولة المبكرة كيف تم بناء حصن كيزيل جار مطلقا عليه بطرس وبولس. لقد كان ذلك في العام الذي أعلن فيه أبلاي خانا. وقد تم بناء حصون سيميبالاينسك



وبيان أوول وكارا كالا وكارا أوتكل أكمولا منذ خمسة وعشرين عاما قبل هذا. ومع ذلك كان الأمر بالنسبة لجده أسهل. فلم يكن الجنود الذين استقروا في الأماكن الجديدة يحتاجون إلى الأراضي والمراعي. لقد كان يكفيهم بعض الحقول الصغيرة والحدائق حول القلعة. ولم يكن قد ظهر بعد رجل الصناعة التاجر الذي لم تكن التجارة وحدها تكفيه. كما أن القوات الروسية كانت مشغولة في مكان آخر.

وقد نجح الخان أبلاي لفترة طويلة أن يكون بمثابة وسادة بين الملك الأبيض والإمبراطور الصيني، وعندما كان يحاول أي منهما أن يتكأ عليها من أي جانب كانت تخرج من الوسادة ريشة شائكة. الآن ومنذ مدة طويلة لم يعد للوسادة غطاء، ويتطاير منها الريش مع الهواء. من جانب تضغط القوات الروسية، ومن جانب ثان استولت خوارجم الشرسة على ما يقرب من ثلث الأراضي الكازاخية، ومن جانب ثالث تضغط خانبة كوكاند الغبيشة والمأكرة.

فعلى ماذا يعول كينيساري؟.. على النمر الجريح الذي غرزت فيه الحراب من الجوانب الثلاثة. أفلا يشبه الكازاخ الآن ذلك النمر؟ إن النمر الجريح لا يخاف من شيء. إنه يقفز على أي شيء، وهذا ما ينبغي استغلاله. وإن الذي سيوجه قفزة النمر في الاتجاه الصحيح، حتما سيفوز..

ومما لاشك فيه أن النمر على استعداد للقفز. بالأمس فقط جاء من جبال أوليتاوا البعيدة الباتير كودايمندي، وجلب معه تحيات المحاربين المشهورين إيمان وجومان. وقد أكد أنه لا يوجد ركن في ساري أركا لا يشعر فيه الناس بالغضب من مخالفات السلطات القيصريّة والسلاطين الاغوات. وقد وصل الكازاخ القاطنين على ضفاف سيرداريا وساريسو وتشو والغاضعين لكوكاند إلى حالة اليأس. ومنذ مدة طويلة يشخذ المحاربون من عشائر ألثاي، وتام، وشوميكي، وجباس، وشيكتي حرابهم على الغزاة الخوارزميين. ينتظرون فقط الإعلان عن الزعيم وإطلاق الصيحة. حسنا لقد سمى المغني العراف بالأمس هذا الزعيم، وشجعه بصمت كبير عائلة أبلاي.

يبدو أن الوقت قد حان لما كان يفكر فيه كل هذه السنوات. فلقد وصل توتر الغوغاء عبر السهوب إلى أقصى الحدود، وأصبحوا يشبهون النجيلة الجافة. ويكفي إسقاط قطعة من الفحم لتشتعل النار من إديل وما نجيشلاك حتى تشو، وإرتيش الأسود.

فعلى من يعتمد عندما يسير في طريق جده؟ بالطبع سيعتمد أولا وقبل كل شيء على أحفاد أبلاي. إنهم كثيرون في السهوب، وليس من قبيل العبث أنهم يطلقون عليهم "الفقس الذئبي". إن هذا لدى الأتراك قمة الثناء والسبب في ذلك أنهم ينحدرون كما الرومان من الذئاب. وأن أكثرهم مصداقية وولعا بالحرب هم أبناء وبنات قاسم توري يسينجيلدي،



وسارجان، وموسى، وناوريزباي، وأبيلجازي، والشقيقة الكبرى الملقبة ببولاي باتير، وأبناؤهم كودايميندي، ويرجان، وعيسى، وكوشكارباي، وأبيلبييز. ويشق أيضا في أبناء عمه دايرتاتي، وأتي، وساتيبالدي وابنه كاديباي. إنهم على استعداد لأن يجتازوا النار، ويصعدوا إلى السماء من أجل مصالح العائلة. الوحيدون من نسل أبلاي الذين لديهم ضعف في الروح والشخصية هم ذرية كوتشوك. إن المهور التي تنحدر من فرس واحدة متعددة الألوان، ولكن بيضة فاسدة واحدة ليست بخسارة كبيرة لدجاجة جيدة.

لحسن الحظ لم يكن أبناء قاسم توري يتصارعون فيما بينهم من أجل الزعامة فالصغار كانوا ينتظرون ساعتهم بصبر، ويطيعون شيوخهم طاعة عمياء. لذلك لم يوافق كينيساري بينه وبين نفسه على ما فعل يسينجيلدي وسارجان. "لماذا ذهبنا للخضوع لحاكم طشقند كوش بيجي الحقير؟ فماذا يمكن تحقيقه عن طريق التسول لدى الأعداء؟ الأيدرك كوش بيجي أننا ألد أعدائه؟ إن كوش بيجي هذا لا يعترف إلا بالقوة. وأن تذهب إليه بيد ممدودة فسيعدك عبدا له. وهل سيأخذ أحد بعين الاعتبار مطالب العبد.. لا، إذا قدر لي أن أحكم السهوب فلن يستطيع كوش بيجي أو أي أحد آخر أن يجعلني أخضع له. من الممكن فقط التحدث مع العدو المهزوم."

وماذا عن السلاطين الآخرين؟ إنهم يوجدون في كل جزء، إذن فما هي الكيفية التي يجب التعامل بها معهم؟ كيف تستطيع أن تخضع لك ذراري أبو الخير وسامكي ونورالي وبوكي وسيرجزي ووالي؟ فهم جميعا أيضا من التوريين. حسنا فما الداعي لإشعال حريق في السهوب؟ فإلى أين يذهبون جميعا عندما يرون الغوغاء الثائرين؟ هل سيكون منقذهم هو الخان كينيساري؟

نعم سيصبح خانا للأجزاء الثلاثة لأنه سيقود السعي القديم نحو الحرية. وهذا الطريق وحده سيؤدي به إلى شاطئ البحيرة المقدسة تيليكول حيث تنتظره سجادة أبلاي البيضاء.

لا بد من فعل ذلك الآن والآن يحدث أبدا.. لأنه يعرف الكازاخ. إنهم قادرون فقط على الانفجارات. وإذا غمر الملك الأبيض وكوكاند وخوارزم النار التي تكاد تتأجج بالدماء فإنهم سيذعنون لمصيرهم وربما لن يرفعوا رؤوسهم إلى الأبد. لذلك لا يجب على كينيساري أن لا يتباطأ..

نظر إلى السهوب التي بدأت في السكون بحلول المساء. بمن يبدأ؟ بالأكثر خطورة الآن. لقد كان يعلم ذلك من المعارك العديدة التي شارك فيها: إذا هاجمك ثلاثة فحول وجهك نحو الأقوى. وسوف يركض الاثنان حولنا وعندما يقررا توجيه ضربة إليك ستكون



يديك فارغة. وهذا يعني أنه يجب أن تبدأ بالملك الأبيض..

سيكون هذا الأمر صحيحا أيضا لأنه من الأفضل دائما أن تتعامل مع أسد على أن تتعامل مع أبناء آوى. وحتى إذا لم يكن محظوظا وحطمته القوات الروسية فإن القادة وحدهم من سيعانون وأولئك الذين قاتلوا وسيبقى النساء والأطفال وستحفظ الأجيال. فالذي يعرف قوته الخاصة دائما ما يرحم الضعيف. وليس لدى الروس كراهية في الدم نحو الكازاخ. وحدهم موظفو الملك الجشعين والضباط الجلادين هم من يظهرن القسوة. ولكن إذا ما وقعت بين أسنان خنازير ووكوكاند أبناء ابن آوى فلا أحد يتوقع منهم أي رحمة. إن من عادتهم الخاصة بابن آوى إجبار الزوجات والأولاد وجميع الأقارب الأكثر بعدا أن يتحملوا المسؤولية عن الجاني. ومن الممكن أن يطرد الشعب كله في يوم واحد من وطنه دون الماشية والممتلكات. والروس لا يفعلون ذلك.

ليس هناك ما هو أسوأ من أسنان أبناء آوى الصغيرة والحادة. فإنك تموت بالفعل ولكنهم يمزقون جثتك الهامدة بشهوة بالغة. حسنا فليمنحنا الله الفرصة لتسوية القضية مع الملك الأبيض ثم يمكننا بعد ذلك التعامل مع الخانيتين. ولاضير من تذكيرهم بدماء ودموع القرى التي تم ذبحها ويكل أعمال العنف ومعاناة الأطفال الكازاخ الذين تم بيعهم كرقيق. ويجب أن يشعروا بكل ذلك على جلودهم..

هناك العديد من الأسباب لكي تبدأ هناك في الشمال، أول العمليات العسكرية. ومع ذلك فإن الجزء الأوسط أفضل سند له. وإذا كانت القوات الملكية تمتلك الحصون، وتتسلح بالمدافع، والبنادق فإنه يملك السهوب الشاسعة. وطالما كان هناك عدد لا يحصى من الأخاديد والوديان التي تنمو فيها الشجيرات بإفراط فلن يستطيع أي كلب اصطياد الأرنب السهبي. إن ساري أركا كبيرة جدا فهي تمتد من كاراكارالا إلى جايك الناصع ومن كيزيل جار إلى بيت بالك دالا. إنه بالفعل فضاء حقيقي للفارس الشجاع، فما عليه فقط إلا أن يشد حزامه بقوة، ويجلس بثبات على حصانه..

وإذا وقعت في مأزق فلن يفشي أحد سرّك على الأقل احتراماً لعائلتك. ناهيك عن أنه وفقا للقوانين السهبية ليست هناك جريمة أبشع من الخيانة للباير.

على أرض خوارزم ووكوكاند لا توجد مثل هذه الظروف. وسوف يكون من الصعب توحيد الكازاخ الرحل القاطنين على شواطئ سير داريا ومنطقة بحر آرال وأستيورت وما نجيشلاك. وذلك غير كاف لتحقيق النصر. فمن الضروري أن يدعم التمرد الإخوة من جيتيسو - الأنهار السبعة، والقيرعيز من الوديان الجبلية ألاتاو، وكاراكالباكي. وكلهم يعانون من هيمنة بكوات خوارزم ووكوكاند. ولكن هل سينتظمون جميعا طواعية في تشكيل واحد؟ حتى الكازاخ الأصليون وايسون ودولات الذين يعيشون على



آخر الحدود الصينية لن يتركوا منازلهم من أجل الذهاب للقتال من أجل قضية مشتركة. الناس يقاتلون على مضمض فهم يمسكون السلاح فقط عندما يصل العدو إلى الأعتاب. أما ما يحدث عند الجار فإنه لايعنيهم كثيرا. تلك السياسة السهوية يعرفونها جيدا في كوكاند وخوارزم. ويعلمون بكل المشاحنات، والصراعات الدائرة هناك، ويستغلونها بشكل كامل لمصلحتهم. يجب إثارة السهوب من الجزء الأوسط..

فجأة ارتعد كينيساري ابن قاسم توري وحفيد أبلاي كأنه قد داس على ثعبان. كان هناك سبب آخر. إنه الانتقام السهوي، النهم المنقوع بحليب الأم. والطبخ أحياء، والدفن في الأرض، والقضاء عليهم حتى الجيل السابع. تلك هي الرغبات التي تظهر في أي من أبناء قاسم توري عندما يتذكرون السلاطين من أسرة ساميكي، وبوكي أو والي. إنهم يكرهون بصفة خاصة كونور كوليدجا ابن كودايمندي، وجنكيزابن والي ووالدته أجانيم، وجامانتاي ابن تاكي من عائلة بوكي وأحمد ابن جانتوري. الخونة الأوغاد يلحقون أعقاب الملك الأبيض، ويساعدون الجلادين.. يعتقد كينيساري الآن بصدق أنه من أجل ذلك تحديدا يكرهونهم جميعا. ولكن القلب والكبد وكل سريرته يعرفون أن هذا المشاعر قديمة تنتقل من جيل إلى جيل، ويقبع في أساسها الصراع على السلطة والصراع الأبدي والاقتتال الداخلي الذي يريد أن يضع حدا له الآن.

كان يتخيل بوضوح كيف سيتعامل معهم عندما يقعون في يديه. إنه سوف يسحق، وينهب قراهم عن آخرها. إنه يتحرق شوقا أن يجعل أبناءهم عبيدا، ويعطي بناتهم لعبيده التولينجوت. وسوف يقيم اللوائم على ظهورهم الممدودة، ولن يروي عطشه سوى دمهم الحار.. تنبه كينيساري فجأة. ليس هناك حل آخر، فقط بهذه الطريقة سوف يكون قادرا على إقرار القانون والنظام في السهوب. يجب عليه قمع خصومه الساخطين وتوحيد الأجزاء الثلاثة تحت يد واحدة - يد كينيساري. أليس يبذل كل ما في وسعته من أجل الكازاخ؟ أليس هو على استعداد أن يعطي كل شيء من أجل القضية المشتركة: السعادة، والثروة، وحياته نفسها؟

لقد فكر في كل شيء مسبقا. إنه سيتوجه فور عودته مباشرة كسلطان شرعي بمطالبه إلى حاكم سييريا وحاكم أورينبورج. وفي النهاية من الممكن التفاوض حول كل شيء على أساس الشروط الثلاثة التي قبلها في وقت ما الخان أبلاي. فإذا وافقت حكومة الملك الأبيض على ذلك فستزيد أهميته وتقلص سلطة كونور كوليدجا، وأحمد، وجامنتاي وغيرهم. وحينئذ سيسوي حسابه معهم بمنتهى السهولة.

بالطبع سيكون هذا على كل حال مجرد بداية. وأنه ليس بالكلب الطائش الذي يهرب ما إن يحصل على ما يريده. كلا إنه لن يهدأ له بال حتى يوحد الأجزاء الثلاثة،



ويستعيد مجدها السابق وقوة خانبة أبلاي. وليصبح كبداية خانا للجزء الأوسط. على أي حال إن عاجلا أم آجلا سيحصل على ما يريد..

ولكن ماذا إذا لم يلبوا مطالبه؟.. حسنا إن الذي تجرد من ملابسه لا بد له من الدخول إلى الماء. حينئذ سيخوض الحرب وسيبدأها على أي حال بتدمير قرى كونور كولدجا الكريه. ثم سيسطوي على قلعة كارا أكتيل أكمولا، ويدمرها، حيث يوجد كونور كولدجا الحقيير..

يكفي أن تنطق هذا الاسم بهمس حتى يستيقظ كينيساري من نوم عميق. وليس مرد ذلك أن كونور كولدجا يطمح في أن يحكم السهوب كلها معولا في الأمر على مساعدة ودعم الحكومة القيصريّة. فمن جبل إلى جبل تقاطعت طرق عائلتهما. فهو ابن السلطان كودايمندي وحفيد ساميكي الذي أنزله أبلاي من على البساط الخاني للجزء الأوسط. وقد جلبت هذه العداوة الدامية الكثير من المصائب. وسوف تؤثر لفترة طويلة على مسار السياسة الكبرى بين الملك الأبيض والسهوب.

وقف كينيساري وحيدا في السهوب الشاسعة. لقد مر عبر مدرسة قاسية، وكان يعلم القوانين الحديدية للصراع على السلطة. فلا يمكن الظهور للناس ما لم يحن الوقت. وينبغي توجيه مسار الأحداث في الاتجاه الصحيح من بعيد ومن خلال أشخاص مخلصين. وللقيام بذلك لا توجد وسائل محرمة. وإذا كان ينبغي إزاحة العشائر والأجزاء الثلاثة من أجل الوصول إلى البساط الخاني، فإنه سيفعل ذلك دون تردد. وإذا كان ذلك الأمر يتطلب أنهارا من الدماء فلتسل تلك الأنهار، لكن دون أن يذكر اسمها.

ولكن عندما يحين ذلك الوقت كما هو الحال الآن الذي تتزامن فيه رغبته الجامحة نحو المجد والسلطة مع رغبة الشعب ينبغي عليه أن يكون أمام الجميع. سيكون اسمه على كل لسان وصورته في القلب.

وبعد أن يستولي على السلطة الكاملة دون أن يتقاسمها مع أحد سوف يكون قادرا على تمجيد نفسه عبر العصور.

أخرج كينيساري سيفه الأصفهاني من غمده، ووقف على ركبتيه، ووضع شفرته الحادة الباردة على شفتيه، وقال بصوت خفيض:

- لم تلدني أمي جبانا. وإذا ترددت للحظة واحدة على الأقل في الطريق إلى الهدف أقسم أن أشرب كل دمي. وليكن هذا النصل شاهدا.. وضع كينيساري السيف ببطء في غمده



وهو مازال جاثيا على ركبتيه. أراد النهوض إلا أنه سمع فجأة وراء ظهره صوت أنثويا مألوفاً له يقول:

- ياسيدي التوري هل تؤدي الصلاة؟

عرف كينيساري دون أن يلتفت خلفه أن هذا الصوت هو صوت زوجته الأولى كونجيمان. وهذا يعني أنها تبعته. نهض من جلسته، وأزال الغبار عن نفسه، وذهب للقائها قائلاً:

- لا، لقد كنت أجرب قوة النصل على الحجر.

- ألم تجربه كثيراً على جماجم الآخرين..؟

- هذا لا يكفي للصلب الحقيقي.

بلغت كونجيمان ستة وعشرين عاماً، وعلى الرغم من أنها أنجبت بنتاً، وولداً فإنها تبدوا أرشق من أي فتاة أخرى. لقد كانت واحدة من أولئك الحسنات السمراوات ذات الفم الصغير والشفاة الحمراء والعيون المتقدة والتي من نظرة واحدة منهما يصاب الرجال فوراً بحالة من الذهول. كان كل شيء فيها جميل بشكل استغزالي: فصدرها ضيق يمزق القلادة الذهبية، وخصرها نحيل على استعداد للكسر ووركها ممتلئين. وكانت ترتدي من الملابس ما يجعل من المستحيل أن تحول عينيك عن كل ذلك. كانت ترتدي قفطاناً خمري فاتح اللون مصنوع من أفضل القماش وهو الدوربا يحده من الأطراف فرو السمور وكأنه ألقى بشكل خليع على قميصها الأزرق الفخم المطرز بالذهب. وتغطي حبات اللؤلؤ الأبيض الساوكيلي المخروطي - وهو غطاء الرأس لنساء الطبقة الراقية في السهوب. ويسقط منه على الجبين صفائح ذهبية مستديرة وثقيلة وأعلى الساوكيلي يوجد شال مزركش شفاف. وفي أذان كونجيمان كانت تتمايل أقراط ذهبية فاخرة ثلاثية الركائز، وفضائرها السوداء الثقيلة التي تكاد تصل إلى الأرض كانت معلقة في أربعة صفوف بالروبلات الذهبية اللامعة من العملة القيصريّة. ومن العصور السحيقة كانت جميلات السهوب تحمل على أجسادهن كل ثرواتهم.

ومن مشية الاسترخاء ومن السلوك والتعامل مع الزوج يتضح على الفور أنها كانت الزوجة المحببة لديه. وإن أفضل ما يناسبها القصائد الشهيرة للشاعر السهبي جوسوب خودجي: إذا اعتبرتم عيباً أنها أصبحت امرأة فإنه عيبها الوحيد، وفي الباقي فإن أي فتاة لا يمكن أن تقارن بها. وبالإضافة إلى العقل اليقظ والراجح والجمال التي استولت بهما كونجيمان على قلب كينيساري فقد كانت ابنة أحد أنبل وأغنى العائلات السهبية وهي عائلة ألكيبايدالي الأرجينيه. وإذا استرسلنا في الحكى حتى النهاية فإنها كانت



تفاحة الخلاف التي أجمت الخلافات القديمة بين العشائر وقرقت بين السلطان كينيساري والسلطان كونور كولدجا، وقد حولتها إلى عداوة مميتة.

حينذاك فقط بدأ المجد البطولي لكينيساري. فبمناسبة انتخاب حاكم منطقة يردين سانديباي أولي من عشيرة جيريك التي استقرت في أوليتا وأقيم وفقا للعادات حفل كبير مع مسابقات الفروسية والمصارعة الكازاخية. ذهب كينيساري إلى هذا الاحتفال مع مجموعة من الفرسان. وكان لديه مهمة أخرى وهي أن يستكشف بمناسبة القلق المتزايد لبناء قلعة كوكاتشيتا ومزاج الناس والوضع في أوليتا. حقيقة الأمر أن هذه الأماكن كانت تعد مقدسة للكازاخ، فهناك وفقا للأساطير توفي المؤسس العشائري الأسطوري الأش الذي وحد لأول مرة ستة فروع من الأسلاف. بالإضافة إلى ذلك فإنه في جبال أوليتا يوجد ضريح إيديجي باتير الخودجا المقدس أكميشيت. ورأي كينيساري أنه يتعين عليه زيارة هذا المركز الكازاخي القديم. بعد الاحتفالات التي استمرت عدة أيام قفل عائداً إلى دياره عبر أرض العشائر الأرجينية ألتاي وتوكا. وتوقفوا على ضفاف نهر تريسكان لأخذ قسط من الراحة، وذهب إلى الغابات النهرية للاستحمام.

في البداية كان يعتقد أنه يعلم عندما رأي في مياه النهر فتاتين. ويقدر ما يمكن للعين أن ترى لم يكن هناك بالجوار أي مسكن. كان يفرك عينيه، لكن الفتاتين اللتان اقتربتا سباحة إلى قصب السمار بدأتا تطرطشان بضوضاء، وحينئذ اقتنع أن هذا حقيقة. إلى جانب ذلك رأي على الجانب الآخر اثنتين من الخيول المقيدة.

بعد ذلك فقط أدرك كينيساري أنه يقف ولا يستطيع أن يحول ناظريه عن إحدى الفتاتين اللتين تستحمان واللتان كان جسديهما يبيضان بطريقة سحرية، ويضيئان عبر طبقة الماء الشفافة. وكان من المستحيل على الباتير أن يتوارى في الغابة النهرية.

صاح قائلاً خوفاً من أن يخرجن إلى الشاطئ أثناء وجوده:

- هل الماء البارد جداً أيتها الجميلات؟

صاحت الأخرى الصهباء المنتفخة:

- أوي باي، كوتك. وقد ابيضت عيناها عديمة اللون أكثر من الخوف، وسبحت إلى الشاطئ الأخر وهي تلهث وتضرب برجليها القصيرتين. لكن تلك التي كان ينظر إليها سبحت قليلاً، وتوقفت، وحركت قدميها قليلاً في العمق حتى لا تغرق.

قالت بهدوء وعزة:



- متعكم الله بالصحة يا ميرزا..

في هذا الوقت جاء رجال آخرون، وبدأوا في المزاح المعتاد. وصاحوا على الفتاتين ليخرجا من الماء إلى الشاطئ، ولا يخافا، وإنهم- أي الرجال- سوف يبتعدون. وإذا عاندتا فإنهم سيسبجون إلى الشاطئ الآخر، ويأخذون ملابسهما.

توسلت الفتاتان للفرسان أن يبتعدوا عن الشاطئ، وقالتا إنهما تشعران بالبرودة، وكان من الواضح أنهما لم تعودا خائفتين. وقد طلب الرجال فدية من من أجل أن يدعوهما تخرجان من الماء.

سألته الفتاة سوداء العينين:

- يا ميرزا ماذا تريدون مني؟

- وإذا طلبت فهل ستنفذين؟

تعجبت من شجاعته لكنها لم تخفض ناظريها.

- هل ستخدع الفتاة التي لم يخدعها أحد من قبل؟ قولوا شرطكم.

واصلت النظر إليه بثبات وفجأة رفرف قلب كينيساري كأنه عصفور وقع في الأسر.

- إذا لم يخدعك أحد من قبل فلسوف نذهب. ولكن عليكما اللحاق بنا، وسوف

أعرض شروطي.

قالت الفتاة بحزم:

- حسنا.

ساروا قدما عبر شاطئ النهر وعند أول منعطف لحقتا بهم الصديقتان. كانتا تبليغان من العمر ستة عشر أو سبعة عشر عاما، لكنهما لم تكونا خائفتين من الرجال الغريباء. هكذا تتصرف فقط الفتيات ذوات الروح النقية.

لم يستطع أن يتركها. وهي لم ترد أن تتركه. وفي غمضة عين انفضت عذريتها. وقضيا ليلتهما في السهوب المفتوحة، وفاحت الشجيرة الشائكة عند رأسيهما برائحة الورد.

لم تحك كونيماجان أبدا عن تحقق رغبتهم - رغبتها هي أم رغبة السلطان الشاب. لكنها لم تخفي هذه الليلة عن أحد حتى عن خطيبها. وكان هذا الخطيب هو كونور كولدجا كودايميني أولي حفيد الخان ساميكي.

كان كونور كولدجا السمين الوجه ذو الأذنين الضخمتين الملتصقتين بالرأس قد خطبها قبل عامين. وكانت خطبة تحسد عليها، فقد تلقى والداها بكل سرور كمهر ثلاثة قطعان من الخيول الرمادية الداكنة الشهيرة. وقبل بضعة أيام أرسل آغا سلطان مع



رسول خيرا سريرا مفاده أنه بعد انتقال القرى إلى دجايلوي في كاراكوين كاشيرلي سيزور العروس.

وفي هذه الأثناء بالضبط كانت تلك السباحة. في صباح اليوم التالي دخل كينيساري، والفرسان المرافقين له وكونيمجان التي كانت تتركب خلفه على الحصان إلى قرية الشيخ بايبولات والذي نصب خيامه في هذا المكان المناسب للاستحمام. في البداية رأتهما العديد من الكنات ثم العمات ثم الأخوات ثم وصل الخبر أخيرا إلى بايبولات. في البداية أصابه الخوف من غضب العريس الشهير، واستاء من أنه سيتعين عليه إرجاع الهبة الثمينة. ثم بعد ذلك خاف أكثر بعد أن تذكر "الفقس الذئبي". كادت المصيبة أن تسقط الرجل العجوز، ولكن هنا جاء الخبر من كينيساري نفسه يطلب ابنته للزواج. ومن يوم لآخر كان ينبغي أن يصل العريس الآخر.

وزن الشيخ بايبولات كل شيء على الفور، ثم تفكر، واتخذ قرارا حكيما:

- عندما تم تنصيب أبلالي خانا زوجته ستة قبائل من عشيرة أرجين ستة بنات من بناتها. وسيكون أمرا غير لائق من جانبنا إذا بخلنا على حفيده بفتاة واحدة. فلنسمح له بأخذها..

بعد أسبوع بالضبط أرسلوا كونيمجان رسميا إلى قرية قاسم توري. وكان يجر كل من عرباتها الثلاثة ثلاث خيول رمادية فضية اللون، وسار خلفهم تسعة من أفضل الجمال محملة بالحريير والسجاد والمجوهرات. كانت العروس تتركب في العربة الأمامية أما في العربات الأخرى فقد كان يجلس الشهود من طرفها وأقوى رجال من عشيرة الكيبايدالي، وأكوشكار سايدالي.

قضم كونور كولدجا يديه من الغضب ومن عجزه عن فعل أي شيء. وقد فكر أول ما فكر أن يرسل حراسه التولو نجوت، ويطلق قرية بايبولات مع الرياح. ولكن كيف يمكن أن يتشاجر مع عشيرة الكيبايدالي العريقة والغنية؟ لم يكن إعجابه بعيونها السوداء هو الذي جعله يطلبها للزواج. فقد أراد تحديدا من خلالها أن يصاهر أقوى عشيرة في ساري أركا. كما أنه ليس في مقدوره أيضا خوض حرب مفتوحة مع عشيرة قاسم توري. كان عليه أن يخفي في نفسه الكراهية المسعورة، ويقتصر على المهر العائد والغرامة والتي تقدر ثلاثة X تسعة رؤوس من الماشية من كل نوع.

سكن الثعبان الأسود منذ ذلك الحين في صدر كونور كولدجا، ولم يجعله يشعر بالراحة مادام لم تواته الفرصة للانتقام. ذات مرة تربص هو وحراسه التولو نجوت لقافلة زفاف أخرى. لقد كانوا يوصلون ابنة سارجان الكبرى كونيكى من كوكيتشيتاف إلى عريسها. هاجم السلطان كونور كولدجا القافلة وقضى الليلة مع كونيكى ثم طردها.



والآن تدهورت العلاقات بين أبناء قاسم توري وكونور كولدجا إلى الدرجة التي طالبوا فيها بضحايا بشرية. كان الدم فقط هو الذي يمكن أن يغسل هذه الإهانة الفظيعة.

هكذا انعقدت هذه العقدة الشريرة من الصراع الأزلي من أجل السلطة ومن الغرور السلطاني ومن القتل والاعتصاب ومن النساء اللاتي لا يمكن اقتسامهن ومن أشياء كثيرة أخرى والتي انغرزت بالطبع في النضال العادل للشعب من أجل الحرية. ولا يمكن فك هذه العقدة دون السيوف الدمشقية، وهذا ما كانوا يدركونه جيداً في كلا المعسكرين المعادين.

خلافًا للعرف كانت كونيمجان لا تنادي كينيساري بزوجي، ولكن بسيدي التوري. بهذا كانت كإحدى سيدات السهوب النيبيلات تؤكد أكثر على عراقية أصل زوجها الذي كان له الحق في أن يتسيد عليها. ومع الخضوع الظاهري التام كان لها تأثير كبير على كينيساري، وعلى علم بكافة الأحداث.

- ياسيدي التوري لقد وجدتك بالكاد في هذه السهوب الشاسعة. يبدو أن الباتير كودايمندي قد جلب خبراً رهيباً لجدنا.

- أي خبر؟

- إنك تعرف ابن أزانباي.

- من منهما.. أزانباي من عشيرة كاراجاس التي تعيش في بايان أوول أم أزانباي أكساراي رجلنا الكوكتشاتي؟

- أزانباي من عشيرة كاراجاس.. إنك تذكر أنه قبل رحيلنا من ساري أركا إلى أومسك قد أعدموا ابنه تايجان؟ لقد قتلوا ولده الأكبر..!

صاح كينيساري:

- الباتير سيتين؟

أومات بصمت.

- فلتتوجه روحه إلى الجنة. لقد غادر الباتير هذا العالم في وقت مبكر جداً. وهل جاء موته على يد كونور كولدجا؟ لقد أقسم هذا الكلب على قتله.

- يقولون أن هذا هو ما حدث بالضبط. عندما غادرت قرية أزانباي إلى بلخاش كان



دليلهم آخر نصير معمد لكونور كولدجا. فقد وصل إليهم الجلادون في مين آرال.

بدأ الدم يظهر في وجه كينيساري، وسأل باقتضاب:

- كم عدد الأشخاص الذين لقوا حتفهم؟

- يقولون عدد قليل: اثنان أو ثلاثة أشخاص. لقد وقعوا في كمين وأنه لم يكن بمقدورهم المقاومة.

- فليذهبوا أيضا إلى الجنة. ونحن هنا سوف نذكرهم إذا قدر لنا العودة إلى ساري أركا.

- ويقولون أيضا أن أوجار ابن كوبيت قد وقع في أيدي الجلادين. - لقد اعتقدت كونيمجان أن من واجبها أن تعرف كل شيء من أجل زوجها. - ربما يكون في سجن بلدة أومسك.

أظهر كينيساري اهتماما كبيرا، وقال:

- أي أوجار هو؟ - أليس هو الذي كان رجل مراسلة عند كونور كولدجا؟ ألم يقطع منذ فترة طويلة كل صلة له بعشيرته؟

- يقول الناس إنه قد تشاجر مع كونور كولدجا، وعاد إلى ذويه. وعلى ما يبدو أنه تذكر المثل الذي يقول "إن من لا يهتم بدم الأقرباء تتبسبب يدها". وقد انضم إلى الباتير سيتين مرة أخرى بعد أن حزن للكارثة التي حلت بعشيرة كارجاس، وهروبهم من ديارهم. ولكن قد حدث ما حدث.

قال كينيساري متفكرا:

- لقد رأيته من قبل - إنه رجل قوي وذو شخصية حقيقية. يعني أنه أيضا لم يستطع أن يخضع. والآن ربما يرسلونه إلى سيبيريا!

التفت ونظربا اتجاه القرية. توجه نحوه بسرعة أحد الفرسان الشباب. عرفه كينيساري على الفور فقد كان شقيقه الأصغر ناوريزباي من أمه الكالميكية. وعلى الرغم من إنهما كانا من نفس الأب إلا أنهما لم يكونا متشابهين. كان ناوريزباي طويل القامة عريض المنكبين ذو وجه مستطيل أبيض دائما ما تغمره حمرة الصحة. وكان أنفه وفمه وعيناه وحاجباه ورموشه أكبر مما لدى الكازاخ العاديين. وكانت عيناه مختلفة بصفة خاصة فهما غريبتان نوعا ما ومائلتان قليلا مثل اللوزة الناضجة، وتنظران إلى العالم بثقة جذابة. ومن فوديه تنسدل صفائر طويلة ملفوفة بخيوط من لؤلؤ متعدد اللون.



وكانت قبعة السمور ذات القمة الحمراء المخملية تصل إلى شواربه البارزة. وكان معطفه الجميل المصنوع من فرو القاقم قد زخرف أيضا بالسمور، وعلق في حزامه خنجر فضي جميل في غمد منقوش.

وكان يذهب إلى المعركة في هذا الزي، فقط كان أثناء ذلك يشمر الكم الأيمن لقميصه الحريري غالي الثمن. وكان الأعداء يعرفونه من بعيد حين يخفض رمحه المغطى بالرصاص، ومع صرخة أبلاي يندفع على حصانه الرمادي الذهبي أكواز. ويقولون أن يده اليمنى تمتلك قوة أربع فرسان. وكان الرمح لا يخطئ في هذه اليد أبدا، وحتى الآن لا يوجد شجاع يستطيع أن يوقف الباتير الشاب المقترّب. أما في الأيام العادية لم يكن هناك في السهوب شخص أطيب وألطف من ناوريزباي. وكان معروفا بين جيرانه بالمهرج والفكاهي وكان أطفال القرية كلهم يحبونه.

الآن تباعدت حواجه الثقيلة، وأنبثت عيناه بحالة الارتباك.

لم يكن الباتير الشاب على مايرام لمدة طويلة. لقد كان الحنين إلى الوطن الذي اضطّر إلى تركه يستولي عليه. فبمجرد أن يغمض عينيه كانت تترأى له سجادة ساري أركا الخضراء، وقمم الجبال البعيدة الزرقاء والرمادية، وكتل الصخور الضخمة. وغالبا ما كان يحلم بالبحيرات الجبلية الصافية التي تنعكس فيها قمم أشجار الصنوبر المعمرة والأنهار العميقة الهائجة التي تضرب السواحل الصخرية بشكل محموم. كان يبدو له في تلك اللحظات أنه يسمع صوت شخص ما معروف وحزين يدعوه، ويتوسل إليه طلبا للمساعدة. ومن جديد تغرق أفكاره في الموجات المستعرة لبحيرة بوروفي البعيدة، وحملت بسهم ريشي إلى قمة أكجيتيبس. وتبحر النسور العملاقة وحيدة في سماء الوطن الزرقاء، ويتمزق قلب ناوريزباي إربا.

ولو كان يمكنه أن يطير إلى هناك حيث قضى طفولته وصباه وعرف حنان الأم وحبه الأول ما جلس في هذه الأماكن الكئيبة دقيقة واحدة. لكن من المستحيل العودة الآن إلى كوكيتشيتاو حيث يزدهر كونور كولدجا، وطفليات الملك الأبيض الأخرى. كان الباتير ناوريزباي يشبه نسرافتيا مربوطا في القاعدة التي يقف عليها. وكان حبله من حاشية حريرة قاسية، وعبثا كان يصيح، ويحاول تحرير رجليه المقيدتين.

لم يفهم ناوريزباي ماهو الشيء الذي يبحثون عنه على الشواطئ الصحراوية لنهر سيرداريا. ماذا يريدون - أن ينقذوا جلودهم؟ أليس من الأفضل القتال هناك، في وطنهم، والذي يعطي قوة لأبنائه. كيف يمكن تحرير ساري أركا وهم على بعد مسيرة يوم على ظهور الخيل؟ وهل الأفسنتين المحلي والعشب السهبي والعكرش أفضل من عشب كوكيتشيتاو العطري والكرাকাنديك؟



لم يكن يفهم سياسة والده قاسم توري وإخوته الكبار يسينجلدي وسارجان مهما أوضحو له ضرورة الانتظار. فمرح صغير في ساري أركا أعلى بالنسبة له من كل خانية كوكاند مع كل الدعم الذي يمكن أن تقدمه لقضيتهم.

أصبح الشوق يضج مضجعه ثلاثة أضعاف منذ أمس حينما وصل الباتير الحر كودايمندي. أما ناوريزباي فقد جاء إلى هنا ليتحدث على انفراد مع شقيقه. فقد رصدت عيناه العادة كينيساري في السهوب الشاسعة.

سألته كونيمجان وهي تبتسم:

- لماذا تبدو بشكل سيء للغاية ياسيدي التوري الصغير؟.. هل أنت مريض..؟

كان ناوريزباي غير قادر على إخفاء حالته ورفع رأسه بحزن قائلاً:

- هذا صحيح يا زوجة أخي. روعي تؤولني، وقلبي يئن، وشيء ما يضغط في صدري.

لزم كينيساري الذي كان يعرف هذا المرض جيداً الصمت. حاولت كونيمجان تشجيع الباتير الشاب فقالت:

- لا تتواجد الغيوم السوداء بشكل دائم ولسوف تسطع الشمس في يوم من الأيام. وسوف يزول مرضك.

- متى يكون ذلك؟

- يعتمد كل شيء في السهوب على الحصان.

- إنني لا أرى من هنا إلى أين يمكن للمرء أن ينطلق دون النظر إلى الوراثة. إننا جمعاً نشبه الذئب المطارد في الوادي. وبغض النظر عن فخرنا بشجاعة الذئب فإننا نختبئ في حفرة!

نظر كينيساري باهتمام إلى أخيه الأصغر، وقال:

- هل تعلم أن الذئب يكون خطيراً جداً عندما يخرج من مخبأه؟ استجمع قواك، والتصق بالأرض بقوة، ثم استعد للقفز، يا عزيزي ناوانجان..

تنهد ناوريزباي وقال:

- لا يا كيني أغا. - إن الذئب يقفز من مخبأه فقط قبل وفاته.

- وفي بعض الأحيان يحمل عدوه إلى العالم الآخر.

هز الباتير الشاب رأسه بعناد، وقال:

- أود أن أتربص للعدو بنفسسي. وهل هناك مكان أفضل لفعل ذلك من ساري أركا.



هناك كل شيء: الوديان لنصب الكمانن والسهوب حيث لا تستطيع الرياح نفسها أن تلحقني.

لقد أحس كينيساري بنفس الشعور غير أن طاعة كبار السن كانت بالنسبة للباتير هي الوصية الأولى. وقد ذكر بهذا بما له من قدرة على ضبط النفس فقال:

- إن النسر الصغير الذي يطير من العش في وقت مبكر يهرم بشكل أسرع. لا تتسرع في اختيار طريق لك طالما إخوتك الكبار على قيد الحياة.

طأطأ ناوريزباي رأسه. فقد كان أكثر إنسان في العالم يحب إخوته. وكان رأي كينيساري يمثل له أهمية كبيرة.

قال بهدوء:

- أنا أستمع إليك يا كيني أغا..

فجأة تنبه كينيساري الذي كان ينظر إلى السهوب. ونظر ناوريزباي وكونيمجان أيضا إلى نفس الاتجاه. فقد ارتفعت دوامات الغبار من جانب الحافة الشرقية. وقد خرج منها بعد حين اثنان من الفرسان كانا ينطلقان كما لو أن العدو كان يضغط على ذيول خيولهما.

هتف كينيساري قائلا:

- انه الباتير أجيباي. - وهذا حصانه أكيلاك.

ظل ناوريزباي يتفحص الفارس القادم، ثم قال:

- نعم إنه العم أجيباي.. ومن ذلك الذي بجانبه.. إنه يشبه يرجان وفقا لطريقة انحنائه على الحصان.

- نعم، إنهما بالفعل..

فجأة شحب لون كينيساري.

- أوي باوريم.. - انتقلت الصرخة عبر السهوب. وسرعان ما صرخوا، وبكوا في قرية تحت الجبل، ثم في قرية ثانية، وثالثة.

لقد كانت صرخة حزن والتي يعلنون بها عن وفاة الأعباء، ولاتقل عن عدو الخيل.

- أوي باوري.. يم.

ظل وجه كينيساري متحجرا، ولم يتحرك من مكانه. وقفت كونيمجان بالقرب



منه. لكن ناوريزباي لم يتحمل فركض لمقابلة رسل التعاسة. ترجل الباتير أجيباي عن جواده وهو في كامل سرعته، ووضع الحزام على عنقه حسب العرف القديم، وزحف على ركبتيه رافعا كلتا يديه إلى السماء، ثم قال:

- أيها الباتير كيني لقد فقدنا كلا السلطانين. وفقدنا ثمانية عشر شخصا من أفضل فرساننا. لقد لقي أخواك الكبيران يسينجيلدي، وسارجان حتفهما على يد كوش بيجي الطشقندي، وكذلك جميع محاربينا الأبطال..

لم يحرك كينيساري ساكنا وسأل بصوت هادئ:

- كيف ومتى؟

حكى الباتير أجيباي دون أن يكفكف دموعه الجارية تفاصيل مقتل السلطانين.

لقد ذهبوا إلى القرية، وهرع الناس المصدومون من هول المصيبة للقائهما. وقام ناوريزباي وكونيمجان بإسناد يارجان خائر القوى من كلا الجانبين. وما إن وصلت كونيمجان إلى اليورتا البيضاء الخاصة بها حتى مزقت من على رأسها قبعتها ذات الريش، وألقت على الأرض شالها المقصب، وحلت شعرها الأسود، وصرخت:

سقطا في غير أوانهما أسدان، لم يعرفا

الخوف

لقد صدقا العدو الغادرا

أه، لقد أوقعوهما بغدر في الفخ

وذبحوهما وهما عزل من السلاح!..

في غمضة عين انتشر الخبر السيء مثل ريح عاصف في جميع منازل اليورت فمزقت الأمهات في يأس شعورهن، وبكى الأطفال بمرارة، وتنهى كبار السن بصعوبة، وصر الفرسان أسنانهم. وارتفع العويل والبكاء فوق مضارب الرحل مثل صقر طار فجأة فوق سرب من الطيور يطير بسلام في الجو.

في صباح اليوم التالي فقط هدأت الضجة الناجمة عن هذا الخبر المروع نوعا ما. وبعد أن سمع العجوز قاسم توري من فم الباتير أجيباي القصة التفصيلية لوفاة ولديه شاب شعره في ليلة واحدة. وكأنه قد شرب سما مرًا فقد فقدت عيناه الرمادية المختلطة بخطوط حمراء كما لدى الذئب لونها، واسود وجهه ذو الأنف الكبير، وتغطت لحيته الحمراء التي ورثها عن أجداده بشيب كثيف. وعلى الرغم من بلوغه سن السبعين فقد كان لا يزال



ممشوق القوام مثل الرمح، أما الآن فقد انحنى كشجرة وحيدة مكشوفة لجميع الرياح في السهوب.

ولد قاسم توري ليرى الأعداء الخوف،

ولد مع كراهية في عينيه،

من رحم الأم إلى العالم

ولد مع حفنات من الدم في قبضاته.

هكذا كانوا يغنون عن قاسم توري قبل تلك الليلة. ولكن أين ذهبت قسوته التي لا ترحم، وقسوة قلبه الفطرية، وشخصيته العاصفة، والتصرف وفق هواه. كان قبل ذلك يعد الدم البشري أرخص من الماء. والآن أصبح يشبه الكبش الهزيل الذي تحول صوفه إلى أسمال بالية، وصار على الفور ضعيفا وعجوزا، وفي عيونه تحجرت بعض بقايا الشر الماضي والشراسة.

بحلول الظهيرة اجتمع التوري العجوز مع كينيساري وناوريزباي، وأجيباي والقادم قبيل ذلك بقليل الباتير كودايمندي. جلس صامتا فترة طويلة، ثم رفع رأسه، وقال:

- في شبابي عندما كنت غيبا وجامحا رأيت ذات مرة في جبال كوكيتشيتاو جملا أيضا وحشيا. وعلى الرغم من أن كبار السن كانوا يقولون أنه لا يجب فعل ذلك فقد سخرت من كلامهم، وأطلقت عليه سهما. وقال كبار السن حينذاك "إن هذا الجمل المقدس مالك كوكيتشيتاو، وقد أصابتك لعنته". الآن أعلم أنه بسبب تجديفي فقدنا جبال كوكيتشيتاو، والآن فقدت أبنائي. اللعنة في عشيرتي، ولن تحل السعادة على أحد من ذريتي إن لم يجلبوا ضحية. بسم الله الحكيم العادل أضحى من أجل الخلاص من ذنبي القديم بالكبش المقدس الأبيض ذو الرأس الذهبي. وأحني رأسي ذات الشعر الأشيب المثقلة بالخطايا، وأدعو الله أن يغفر لي، ويرحم أبنائي الباقين..

خفض قاسم توري يده المرفوعة للسماء، وجلس في صمت حزين. وهمس الحاضرون بصمت: « اللهم تقبل الضحية.. تقبل الكبش الأبيض ذو الرأس الذهبي..» وظهر للحظة ضوء غامض وخامد في عيون التوري العجوز.

- قال الشاعر بوخار إن النسر لا يموت من الشيخوخة، إنه يموت من الحزن عندما لا تحمله أجنحته في الهواء. - استجمع قاسم توري كل قواه، ونهض، واعتدل، ومد يده اليمنى مباركا كينيساري: - والآن حان دورك للطيران. آمين.

لقد أخرج من حزامه خنجر العائلة القابع في غمد فضي، ونزع من على الحائط بندقية



قديمة بعقب مطلي بالفضة، وقدمين أقرنين، وأعطاهما لكينيساري قائلاً:
- إن عمر هذا الخنجر ألف عام، ويملكه دائماً الأكبر سناً في أسرتنا. أما البندقية فقد
انتقلت إلى عن طريق أبي، وجدك الخان أبلاي. إنها تقتل من خمسمائة خطوة، ومن ذلك
الحين لم أعطها لأحد..

هذا يعني أن قاسم توري ينقل كل السلطة العشائرية، والعسكرية للسلطان
كينيساري. أخرج كينيساري خنجر الأجداد من غمده، ووضع حافظه على شفتيه، ثم
قال:

- أقسم أنني لن أرحم الأعداء أبداً، وليكن قلبي بارداً قاسياً مثل هذا الفولاذ.

أحنى قاسم توري رأسه علامة على الموافقة، ثم قال:

- أخطر طلب لي عندك أن تنتقم لمقتل الباتيرين والثمانية عشر حارساً الذين ذبحوا
غداً.. الآن لا يمكننا التغلب على خانية كوكاند، ولكن لدينا من القوة ما يكفي
لانتقام. اجمع غداً جميع المحاربين الأوفياء وعلى غرار جدنا العظيم الخان تاويكيل لا
تترك حجراً على حجر في طشقند. ولتقوض عش الخداع هذا وحينها تكون قد أدت واجب
الابن نحوي..

جلس السلطان كينيساري على ركبة واحدة، وقال:

- إننا نفكر الآن وسوف نخبرك بقرارنا بعد شروق الشمس.

في نفس الليلة جمع السلطان كينيساري في منزله ذي الاثني عشر جناحاً الباتير
أجيباي، والباتير ناورزيباي، والباتير كودايمندي، والمغني نيسانباي، وتشاور معهم لفترة
طويلة. وفي صباح اليوم التالي قام مع الأبطال بزيارة قاسم توري.

لم يغمض الخان العجوز عينيه طوال الليل متحولاً من جانب إلى آخر. كان يشك في
ما إذا كان قد تصرف بطريقة صحيحة عندما أمر بالهجوم على طشقند دون الاستعانة
بكازاخ سير داريا، وساريسو، وتشو. فهل يمكن إحراز النجاح معتمداً فقط على عشائر
التاي، وتوكا، وألتين، وأويك قليلة العدد؟ وعندما رأى قاسم توري ابنه قام من سريره اللين.

انحنى كينيساري أمامه انحناءً عظيمة، وقال:

- أيها التوري.. كما يقولون إذا كان العقل عصاً فإن الغضب سكين. لن نقطع
العصا. لقد فكرنا وتوصلنا إلى قرار أنه لا يجب علينا الآن مهاجمة طشقند. إن الوقت لم
يحن بعد..



- وماذا استفعلون؟

- سنعود إلى كوكيتشيتاوا.

لم يعد قاسم توري يسأل عن أي شيء آخر. فقد فات أوان اتخاذه للقرارات. وجلس طويلا وهو يهز رأسه، ثم قال:

- حسنا، لقد شككت في صحة ما قد فكرنا فيه. من الواضح أنه قد جاء الصباح الذي هو دائما أكثر حكمة من المساء. الآن دعونا نفكر في قراركم. عندما تترك الذئبة وليدها في مخابها فإن الصيادين حتما يضعون الفخاخ هناك. ألا ينتظرونكم في كوكيتشيتاوا؟ من المستحيل أن نعيش هناك بعد كل ما حدث. أليس من الأفضل أن نرتحل إلى أعماق ساري أركا، أو في حدود أوليتاوا فهذه سرّة الأجزاء الثلاثة، وإذا لم نستطع الاعتماد على أحدهم أمكننا الاعتماد على الآخر.

قال كينيساري بهدوء وبطريقة مقنعة:

- إن عشيرة باجانالي تملك جبل أوليتاوا. كان من الواضح أنه قد فكر في الأمر جيدا. - وماذا لورفض الآن أبناء سانديباي لجوئنا إليهم؟ ينبغي علينا ألا ننسى أن كلا من يردين، ودوزين قد حصلوا على لقب سام من الملك الأبيض. الأيتوجب علينا أن نرفع هرواتنا على الفور؟ وهل سيكون هذا أمرا حكيما حتى لو كانت لنا القدرة في التغلب عليهم؟ أو ما قاسم توري موافقا، ثم قال:

- نعم إنك تفكر بطريقة صحيحة يا سلطان كينيساري. إن المحاربين المنهكين من السفر يحتاجون إلى الراحة. وإن سوء العاقبة تصيب من يذهب كالعقرب إلى منزل غريب ليلدغ المالك. وليس من هذا يجب أن تبدأ ما فكرت فيه. - حدق في وجه كينيساري، ثم طأ رأسه وهو يتنهد.. وهل لم يبق في ساري أركا أماكن يمكن فيها أن يحيي الناس رؤوسهم لأحفاد لأبلاي؟

حينئذ أحنى الباتير كودايمندي الذي كان لا يزال واقفا من ذلك الحين صامتا رأسه أمام التوري العجوز، ثم قال: - لا يجب أن نأمل في كرم ضيافة أولاد سانديباي ياسيدي التوري. أعتقد أنه عليكم أن ترتحلوا سريعا إلى شواطئ تيرساكان في منطقة كاراكوين كاشيرلي. وبين أهلنا عدد كبير من عشيرة ألتاي، وأنتم تعرفون الباتيرين جانايدار، وتوليبياي. علاوة على ذلك ستقدم عشيرة ألتاي بسعادة المأوى أثناء الشتاء لأحفاد أبلاي. وفي فصل الصيف يمكن الذهاب إلى أوليتاوا لانتزاعه من أبناء سانديباي. وبعد أن تقصم سلسلة ظهرهم من الممكن التفكير في المستقبل.



قال قاسم تيورى متفكرا:

- حسنا إنه في مكان ما وراء تيرساكان يعيش أقارب كنتنا كونيمجان.

قال كينيساري:

- في هذه الحالة من الضروري أن نرسل فوراً رسولا إلى كارا كوين كاشيرلى ليبلغهم بما انتوبينا فعله.

- أوماً قاسم توري برضا، ثم قال:

- إنه قرار صائب.

. وفي نفس اليوم رحل الباتير كودايمندي من أجل إجراء محادثات مع عشائر ألتاي القاطنة في كارا كوين كاشيرلي وهو يمسك بمقود اثنين من الخيول من أجل التبديل. وبعد الاحتفال بالولائم التذكارية للسلطانين والحراس التولو نجوت اللذين لقوا حتفهم على أيدي كوش بييجي الطشقندي بدأت القرى على عجل الاستعداد لسفر بعيد وصعب. واتضح أن كبار السن والرجال الكبار ليسوا وحدهم من يتوقون إلى موطنهم بل يشاركونهم في ذلك الأطفال الصغار. ركضوا بسعادة، وساعدوا كبار على تفكيك منازل البيوت. وربط الفرسان أحزمتهم بأحكام، وربطوا ذيول الخيول بعقدة، واستعدوا للسفر. واختبروا أسلحتهم بعناية فقد أخرجوا من جعبتهم السهام الطويلة الفولاذية ذات الحدين التي تخترق أي صديري حديدي، والسهام العادية بحوافها رباعية الأركان كوزي جاورين، وغيروا فيها الريش المنثنى أو الجاف بفعل الزمن. وشحذ آخرون قمم الحراب الفولاذية التي يصل طولها ذراع ونصف، وربطوا فيها خصلات شعر من ذيول الجياد. وشحذ الشفرات كل من كان يملك السيوف والخناجر والسكاكين، ومن لم يملك سلاحاً معدنياً سحب من الجذور فروع الصنوبر الجبلية وبرأها. وأدرك الجميع أنه من الصعب الحصول على الراحة في وطنهم.

ووقف السلطان كينيساري على تلة عالية. وفي الأسفل انطلقت القافلة إلى الأفق بعد أن تجاوزت التلة من الجانب الغربي كما لو أنها سرب طيور مهاجرة عائد إلى وطنه..

وبعد أسبوعين عبروا بيت باك دالو. وهناك حيث ينتهي طريق نهر ساريسو ويختفي في الرمال الفضفاضة توجد منطقة كيزيل دجينجل. وهناك في قرية بوتيش الكبيرة كان ينتظرهم كودايمندي ومعه فارس ألتاي الشهير الرهيب في المعارك الباتير توليباي الذي سحب وحده جملاً سقط في بئر سهبي عميق. وجاء إلى



هنا مع الباتير توليباي لمقابلة السلطان كينيساري اثنان من الشيوخ من ذوي النفوذ، وخمسة عشر رجلاً قويا مسلحين بالهروات المغطاة بالحديد. وكانت الخيول الصغيرة الشعثاء، والمعاطف المصنوعة من جلد الغنم، والأحذية المصنوعة من جلد البقر تدل على أنهم أناس من أصل متواضع. وإن الباتير توليباي نفسه كان يلبس ملابس متواضعة، ولكنه كان يتميز فقط بشكله الرهيب غير العادي. وبدأ أن عرضه يساوي طوله، وطوله مثل طول فارس ونصف من الفرسان العاديين. وفقدت عينيه في أدغال حاجبيه الكثيفين والرموش، ووصلت شواربه الطويلة الراتنجية حتى أذنيه، والتفت حولهما. وكان تحت الباتير أيضا حصان له بدة سوداء ضخمة جدا تصل إلى الأرض. وكان ردف الحصان بالفعل أقل قليلا من أكتاف مالكه.

اقترب توليباي، وترجل عن جواده، وركع على ركبة واحدة ثم قال:

- هذه السهوب ملكك يا سلطان كينيساري يا حفيد أبلاي.

قام كينيساري الذي كان طوال الطريق عابسا ببسط كتفيه لأول مرة، ونظر إلى مكان ما من فوق رؤوس المحيطين به.



الجزء الثاني

I

تدفقت أشعة الشمس منذ فترة طويلة من خلال التوندوق- أي من ثقب السقف المقرب لمنزل اليورت، ولكن الأغا سلطان حاكم مقاطعة أتكيل كونور كولدجا كودايمندى كان لا يزال قابعا في فراشه. كان يجب أن يفكر كل صباح هكذا وهو مستلق على وسائد الريش الضخمة. وهاهو ينقلب بصعوبة من جانبه إلى ظهره، ثم تسمرت عيناه الصغيرتان، التي تشبهان ثمار شجرة الكرز على الأويك "أحد أعمدة التدعيم لليورتا"، وارتفع حاجباه الدقيقان اللذان يشبهان شوارب القط إلى الأعلى. وكانت بطنه العالية الضخمة التي تشبه الصندوق ترتفع بشكل متقطع وهي تفور مثل فراء جلد البقر عندما يسقط في الماء، ومع كل شهيق كان أنفه القصير الواسع الذي يشبه مقبض السوط يقبض على الهواء. وكانت شفته العليا غير ملائمة على وجه الخصوص فقد كانت الشعيرات النادرة مثل التي عند حيوان الهامستر تطعن الأنف أثناء الشهيق، وتعوج الشفة في كل مرة معبرة عن رغبة صاحبها في العطس.

قضى أغا سلطان ليلته في منزل اليورت الأبيض الفاخر ذي السبعة أجنحة الخاص بزوجته الشابة زينب. وفي نصف الغرفة تراكمت أغطية السرير من الساتان، والبطاطين الحريرية، والوسائد الريشيه، وكلها تقريبا قد تجعدت بسبب جسده المنتفخ. وشغلت بقية المكان سجادة كبيرة من الصوف خميرية اللون والتي كان يوجد عليها صناديق كثيرة مطلية بالقصدير الملون، وعلب مختلفة الأحجام، وعليها أيضا ألحفة، ووسائد من الحرير. وكان باب اليورتا الذي صنعه أحد الصناع من خوارزم منقوشا، وعلقوا على كلا الجانبين من أجل الزينة تسعة جلود رائعة لثعالب الماء السوداء، والثعالب السوداء البنية. وعلى العتبة وضع اثنين من جلود الذئب الرمادية اللون بنقط سوداء.

يرقد كونور كولدجا على السرير في قميص داخلي أبيض، وسراويل فضفاضة. شمרת زينب التي كانت ترتدى الحرير الصيني سراويلها حتى الفخذين، وأخذت تدلك سيقان زوجها الصلبة. وكان صدرها النحيل يتحرك بشكل إيقاعي بسبب الحركة



القوية، وتلمس بقوة ركبتيه بفخذيها. لم يكن وجهها يعبر عن أي فرح أو حزن، وكانت جبهتها الضيقة الجميلة خالية من التفكير. غير أنها فقط كانت تنظر من حين لآخر إلى قميص كونور كولدجا المتسخ بشكل يثير الريبة، وحينئذ ترتجف قليلاً رموشها الطويلة الحادة التي تشبه الحراب، وتنتفخ باستياء شفاهها الكرزية الممتلئة. وتشتعل العاطفة في عينيها حتى أنها قد وخزت سيقانه الذكورية الضخمة قليلاً، لكن الزوج لم يعر حالة زوجته الشاببة الجميلة أي اهتمام فقد كان مشغولاً بأفكاره الخاصة.

كانت أفكاره تلك عن شيء واحد. في أي شيء هو كونور كولدجا كودايمندى أسوأ من أحفاد أبلاي؟ لله الحمد إنه ليس أقل منهم شأنًا في النبيل أو الثروة. فقد كان جده ساميكي خان الجزء الأوسط يمتلك أربعين ألف حصان، والجميع يعرف ذلك. ومنذ عدة سنوات عندما أرسل أبو الخير خان الجزء الأصغر خطاباً للملك الأبيض يعرب فيه عن رغبته الانضمام إلى روسيا ألم يفعل جده نفس الشيء؟ والشيء السيء فقط أنه قد توفي قبل أن يتلقى إجابة بخصوص مصير الجزء الأوسط. لكن الملكة الحمقاء أقرت ساباتاك أبو المنصور الغريب من تركستان خاناً، وأصبح يتسمى فيما بعد باسم أبلاي.

أو والده كودايمندى الذي كان يمتلك ثلاثين ألف قطيع. وللأسف أنه أصبح نمزاً عندما كان أبو المنصور بالفعل تينياً. ومع ذلك لم يستطع التنين أن يبتلع النمر. لم يسمح له حاكم أومسك نفسه بذلك فقد تشفع بنفسه لوريث الخان ساميكي. وبفضل حكمة ودهاء والده تمكن من الحفاظ على حقه في الأرض والسلطة على أرجين. وأصبح كودايمندى بعيداً عن أذرع أبلاي الطويلة، وكانت حراب الجنود تستطيع أن تأتي في أي وقت لمساعدة جنوده من التولو نجوت.

إن السعادة مثل الطائر الصغير تجلس حيث يوجد الغذاء. لقد ورث كونور كولدجا ثروة أبيه لكن المجد والقوة اللذين لم يحظى بهما الأب قد تحصل عليهما بنفسه. أليس صحيحاً أنه أصبح السلطان الحاكم لكل مقاطعة كارا أوتكيل، ولم يتمكن من ذلك أحد أبناء أبلاي المنحطين؟ ألا يرعى في قطعانه عشرون ألفاً من أفضل الخيول الداكنة والفاخرة والتي لم يحلم أبداً أن يمتلكها هذا اليسينجيلدي أو أخيه سارجان؟

هنا ابتسم الأغا سلطان كونور كولدجا ابتسامة عريضة. وتذكر أن المعلومات المقدمة إلى الجنرال المحافظ تشير بشكل دائم أنه يمتلك اثني عشر ألفاً فقط من الخيول. وعند الجرد يتم إخفاء ثمانمائة ألف حصان، وهذا يحتفظ له بثمانين حصاناً كان يتعين عليه أن يقدمها كضرائب كل عام. وقد كلفه هذا فقط ستة خيول أهداها إلى أصدقائه المسؤولين في أومسك. وكذلك وجبة غداء جيدة أو وجبتين في السنة عندما يحضرون للتفتيش. ويمكن العيش مع تلك الأحوال غير أن الأوغاد وحدهم غير سعداء.



إن الملك الأبيض لن يفتقر من هذا فالإمبراطورية الروسية غنية وعظيمة، والثمانون حصانا تكفيه بشكل كبير ليجذب إلى جانبه جميع الأشخاص المؤثرين من الثلاث أو الأربع قرى. كما أن الذين يهديهم هذه الخيول لا يكثرثون بها كثيرا. إنه لا يسترضى فقراء. الأهم من ذلك هو الاهتمام والوعد بالمساندة والحماية من الغوغاء الثائرين. فقط من خلالهم ومن خلال أصحاب الرفعة والاحترام تطيعة العديد من القرى طاعة عمياء. أما الشعب فهو جروغي بئس يلقي بخطمه في أيدي الكبار، ويجب أن تكون لك القدرة على تربيته لينشأ كلبا وفيا. وقد اعترف الملك الأبيض نفسه وليس الحاكم العام لمقاطعة أومسك فقط بقدرته على التعامل مع الشعب..

فتح كونور كولدجا الراضى عن نفسه عينيه الخرزية الخبيثة. ورأى أثناء زوجته المتذبذة من جراء الجهد الذي تبذله، وشعر برجلها الدافئة الحثيثة عبر الحرير. إنه بالفعل ينعم بالسعادة مع زوجاته. ورغم أن التي كان يرغبها لم تأت إلى وسادته إلا أنه انتقم بشكل كبير من أخرى يسرى في عروقها دم صاف من دماء أبلابي، وهي تورية حقيقية.. وأما تلك التي تدلك رجليه فمن الواضح أنها قد استاءت أنه قد تركها في الليل. ولكن غضب المرأة يزول مع أول اهتمام. وما عليك فقط إلا أن تضغط بإحكام.

مد يده السميننة كثيفة الشعر إلى الحرير الذي يغطى فخذاها، لكن فكرة جديدة شغلت الأغا سلطان. هل هو في نظر الشعب سيء جدا؟ أليس جميع الكازاخ مدينين له بالمرسوم الامبراطوري الشهير الذي كتب على جلد العجل، وتم التصديق عليه بالختم أن لا يأخذهم كمجندين؟ أو ليس بسبب عريضته قد صدر المرسوم في الخامس من شهر كوكيك أو شهر إبريل الروسى في عام الدجاجة الحالى؟

كان الشتاء الماضى في عام القرد قاسيا وثلجيا، وعادة ما تكون معظم الماشية تقضى فصل الشتاء على الضفة المقابلة الجنوبية من نهر بلخاش. ولكن من غير الممكن الآن القيام بذلك لأنهم كانوا خائفين من جحافل كينيساري العائدة إلى ساري أركا. وقد هلك حوالي مائة وأربعون ألف رأس من الماشية التي بقيت في السهول الجرداء لمنطقة أكمولا بسبب نقص الأعلاف. وبالإضافة إلى ذلك قام إنكشارية كوش بييجي الطشقندى في منتصف الشتاء بنهب الكثير من القرى التي عانت بالإضافة إلى ذلك من نقص الغذاء والجليد. وقد اختمر الجوع أيضا بين كازاخ يسييل ونور.

تعين على الكازاخ بموجب المرسوم الجديد لمنطقة أكمولا بدءا من عام الدجاجة الحالى دفع الضرائب الطبيعية. وقد أدرك كونور كولدجا أفضل من الآخرين خطورة



جمع الضريبة في مثل هذا الوقت الصعب، لذلك كتب عريضة من أجل تأجيل تنفيذ هذا المرسوم مدة عامين كما فعلوا في مقاطعات كوكيتشتاو، وكاركارالى. وقد أرسل إلى نيكولاي الأول ستة من الخيول الجميلة ذات اللون الثلجى منحنية الأعناق كما لدى البجع كهديّة. وقد أعجبوا الملك لدرجة أنه أصدر أوامره بإعفاء الكازاخ التابعين لكونور كولدجا من دفع الضرائب حتى عام 1840م. أو ربما ليس الأمر بهذه البساطة فقد أرادت الحكومة القيصرية رفع وزن السلاطين الموالين لها وهي تمتلك خططا كبيرة للمستقبل فلم تظهر على الفور جميع أسنانها.

على أي حال فقد ارتفع وزن الأغا سلطان كونور كولدجا بالفعل إلى أبعاد لم يسبق لها مثيل من قبل. وقد وجه له أفراد الشعب المرهق الشكر لما قام به من شفاعته، وأصبحوا يقدمونه على السلاطين والبكوات الآخرين. وانضمت إليه بعض القرى التي لم تكن على وفاق معه في الماضى كأنها حملان تائهة ومتجمدة في عاصفة ثلجية.

لقد كان نقص الغذاء والجليد في صالح الرجل الذكي. ولقد حذره الحكيم العجوز جاركولاك عندما تنبأ بهذا الشتاء. حينذاك ألقى العجوز أمامه على الأرض حصى النهر، وقال: "أترون، يا أغا سلطان، إذا كان في شهرى ماوسيم- يونيو، وكاراش- نوفمبر سبرى في السماء بجوار بعضهما البعض نجمى ميرجين، والتوأم ساويس فيسكون الشتاء قاسيا وباردا. والآن في شهر ماوسيم، وشهر كاراش يتجاوز نجم ميرجين والتوأم ساويس. وكان هذا أيضا في عام الأفعى عندما تزوجت كاينيسا ابنة تويك. لقد كان ذلك العام عام الأفعى، وهذا العام هو عام القرد. وكل ثلاثين عاما يتكرر مثل هذا الشتاء القاسي فكن على حذرا!"

وفيما بعد كرر نفس الشيء العراف داكير جاورينشى الذي تفحص خطوط كتف الخروف العجوز الأسود الذي يشوى على النار. قال "إن الكتف الجاف والمحروق لذلك الخروف الأسود الفاحم يخفي في خطوطه مصائر سبعة ملوك يحكمون سبعة شعوب. وإن الكوارث الكبرى والعواصف الرهيبة والمجاعة والطاعون يرسمون في عام القرد دوائر"

ابتسم كونور كولدجا ابتسامة عريضة. إنه لم يستمع إليهم حينذاك، ولم يسوق القطعان إلى الجبال على الجانب الآخر من بيان أوول. كان ذلك سينقذ جزءا كبيرا من المائة والأربعون ألفا من الماشية التي لاقت حتفها. ولكن حينها لم يكن قد صدر المرسوم الملكى الرحيم، ولم تكن له اليد العليا على السلاطين الآخرين. والآن الشعب جائع، وأصبح أفضل، وأكثر طاعة. ما عليك إلا أن تعرف أين يكمن لك الحظ.. وما كانت ستفعل المائة وأربعون ألفا من الماشية. دعهم يعرفون الحاجة والعوز، ويحصلون منه على المساعدة. أن يكون ذلك شريطا جديدا من الذهب على ثياب مجده؟



فجأة تقطب حاجبا أغا سلطان كونور كولدجا الرقيقان. إن إفلاس الغوغاء يساعد الحكام بالتأكيد أن يقوهم في اللجام، ولكن لا يجب أن تصل الأمور إلى الحد الأقصى والاسيكون هناك ما هو أسوء من المجاعة. كيف لايعبس إذن..

كينيساري.. وقبيلة أبلاي المتمردة المتعطشة للدماء: إنهم جميعا يخرجون من رحم أمهاتهم مع مراح مرفوعة للقتال. وتقطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر، لكنهم مع ذلك لايستسلمون. ومن غير المرجح أن يحل الهدوء الذي يرغبه في السهوب مادام أحدهم على قيد الحياة.

في العام الماضي قطع كوش بيجي الطشقندي رأسى يسينجيلدي وسارجان. وفي هذا العام انتزع بارفانتشى لياشكررأس قاسم توري نفسه، ولكن هل تعقلوا وخضعوا لمصيرهم؟ على العكس من ذلك توحش الوغد كينيساري وشقيقه ناوريزباي تماما مثل ذئب جريحة. لقد لطخا السهوب كلها بالدماء منذ الخريف الماضي عندما ظهرا هنا. إنهما أسوأ من الطاعون الذي يقهر كل شيء، والرعاغ الأوغاد يذهبون إليهما وينسون كل ما قدمه لهم. هو أغا سلطان كونور كولدجا - من الخير..

وعلى الرغم من أن عشيرة أرجين كانت تستاء من تصرفات المسئولين الذين يأتون لزيارته إلا أنها كانت تخضع لأوامره بسهولة. والآن أصبحت مختلفة نوعا ما. وبدون ذلك كان هناك عدم ارتياح بين الناس، ثم جاء هذا النسل الذئبي. والآن من الواضح تماما أن قرى مقاطعة أكمولا بايدالى، وكويليباي شاجير، وجاناي كالكامان، وتيميش، وتينالى أصبحت متمردة. ويمكن أن نضم إليهم عشيرة كارجاس الثائرة بسبب أبناء أزانباي الذين تأثروا بترهات تايماس بيكتاسوف الداعية إلى التمرد، وقرى تورتاكارا، والعديد من قرى كارا أختيميبيتسك، وجيناباي شاكسوك، وكورسين كيرنييسكا، وبلدات كويانشى تاجايسكايا. وأخيرا عشائر الجزء الأصغر: تاما، وتابين، وجاجيبايلي، وألشين، وجاباس، وشيكتى، وتورتكارا والعديد من الكيشاك من ضفاف تورجاي الذين دعاهم الباتير إيمان دولاتوف إلى اعتلاء ظهور الخيل. وهناك أيضا نبأ أسوأ من ذلك فلقد انضمت إلى الكازاخ الثائرين 635 خيمة قرغيزية. وإذا استطاع كينيساري أن يستغل هذا التمرد فسيكون الأمر في غاية الصعوبة.

هكذا أبلغ أغا سلطان مقاطعة أكمولا الكولونيل كونور كولدجا ابن كودايمندى المعروف شخصا من قبل صاحب الجلالة الإمبراطور القيصر نيكولاى الأول مكتب الحاكم العام. ينبغي اتخاذ شيء ما حيال ذلك في أقرب وقت ممكن. وأن النار



تستخدم على طول الحدود السهبية للإمبراطورية الروسية، وأن مثير الاضطرابات الرئيسي ومؤجج الحرائق هو كينيساري الشهير من نسل أبلاي. وقد استغل قضية العوائد على الأراضي والضرائب ليثير في الشعب الكازاخي الكراهية للملك وخدمه المخلصين من سلاطين السهوب.

وينبغي ايلاء اهتمام خاص إلى حقيقة أن كينيساري السلطان المتمرد أنف الذكر يزيد مؤخرًا من أعماله اللصوصية في موقع حصن أكتاو الذي تم البدء في انشاءه. ويريد أن يحول السخط الناجم عن هذا البناء لصالحه، ومن أجل ذلك فإن لديه من القدرات ما يكفي. وهذا الحصن تحديدًا يقع على حدود مناطق أكمولا، وكاركارالين، وياجوسك ويعطى بأهمية كبيرة بالنسبة للشخص الذي يريد أن يسيطر بإحكام على السهوب.

هز كونور كولد جا جسده الضخم، وبذل جهدًا آخر، ومد يده إلى الحقيبة المصنوعة من السجاد المعلقة على رأس السرير. وأمسك بأصابعه السميكة الحافظة المصنوعة من جلد الماعز، وأخرج منه ورقة كبيرة سميكة مع صورة نسر برأسين. لقد كان هذا مرسوم نيكولاوي الأول الخاص ببناء قلعة أكتاو. ووضع كونور كولد جا على أنفه نظارة كبيرة، والتي كان يرتديها في المناسبات الرسمية، وشرع في القراءة محركًا ببطء شفته السفلى:

”بأمر صاحب الجلالة بتاريخ الخامس عشر من أبريل عام 1837 م“.

يتم إنشاء حصن دائم في المناطق الخارجية لمنطقة أومسك عند المنطقة الحدودية أكتاو، ويعهد برئاسته لقائد برتبة عقيد أو مقدم. ويقع على عاتق القائد مايلي:

I. مراقبة السلام الداخلي في المناطق الحدودية الثلاث: أكمولا، وكاركارالينسك، وأياجوز.

II. الحماية الفعلية للمواطنين القيرغيز الموالين أثناء ترحالهم بما في ذلك السهوب الجائعة.

III. المراقبة الدائمة لعدم المساس بالحدود: منع أي انتقال فردي لمواطنينا القيرغيز إلى حدود أخرى أو التدخل في حدودنا من جانب الشعوب المجاورة.

IV. حماية حركة القوافل التجارية. في هذه الأشكال تخضع هذه المقاطعات المذكورة لقائد قوات أكتاو وكل ما يوجد بها. وفي حالة الهجوم على مراكزنا وقوافل مواطنينا من القيرغيز يخول للقائد أن يواجه المعتدين بقوة السلاح وملاحقتهم إلى نهر تشودون تجاوزه أو في الأماكن الأخرى وراء الحدود الجنوبية من السهوب الجائعة.



كان كونور كولدجا يرقد في صمت سعيدا كما لو كان يرتشف الجسد والدم لكل حرف من مرسوم الملك. ثم ابتسم وقال ” حسنا انتظروا. فلو تم الانتهاء من البناء بشكل أسرع. حينذاك سنرى بأي صوت سوف يغنى“.

لم تشغله المرأة التي كانت تدلك ساقيه. وقرب المرسوم من فمه، والتصق أولا بالنسر ذى الرأسين بشفته السفلى، ثم بشاربه النحيل وأنفه العريض. وبعد أن قبل النسربسعادة أعاده إلى الحافظة المصنوعة من جلد الماعز، ووضعها في الحقيبة المصنوعة من السجاد. ثم لمست الأصابع المبللة السميكة مرسوماً آخر، وأخرجته من الحقيبة. كان الأغا سلطان يحب أن يستلقى هكذا كل صباح، ويعيد قراءة الوثائق الهامة.

”بأمر صاحب الجلالة المؤرخ في العاشر من نوفمبر 1837 م يعين للكنيسة المزمع إنشائها في المناطق الخارجية من السهوب القيرغيزية عند حصن أكتاوقس، واثنين من المرتلين، وحارس مع راتب سنوى لكل منهم كالتالى: 1000 روبل للقس، 60 روبل للمرتلين، و9 روبل و50 كوبيك للحارس. وفي حالة سفر القس إلى المراكز الحدودية أكمولا، وكاراكارينسك، وأياجوز يعطى بدل انتقال طبقا للقانون، وعلاوة على ذلك يعطى مبالغ مالية ونبيذ إلى آخره بمقدار 250 روبل في السنة“.

قرأ كونور كولدجا هذه الصفحة من مرسوم الملك ما لا يقل عن عشرين مرة لكنه لم ينفذ إلى الجوهري. وفي هذه المرة بدأ يصفق فجأة بأهداب قصيرة. ” كيف يمكن أن يكون ذلك؟ عندما قتل الخان أبلاي شارشو ابن الفاتح الكالميكى جالدين تيسرين، وأرسل نجله توجوم إلى البلاط الملكي مع التأكيد على التبعية الكاملة لروسيا أرسلت له الامبراطورة مع وثيقة اعتماده خانا مرسوما ملكيا يدفع بمقتضاه للخان ثلاثمائة روبل سنويا و200 بود من الدقيق من أجل الطعام. ويعطى هنا للملا الروسى العادى أربعة أضعاف... وتفسير ذلك إما أن الملك قد اغتنى، وإما أن السهوب الكازاخ بأسرها لاتساوى مبلغ إعاشة قس واحد. إنهم يقدروننا بشكل رخيص“.

هنا بدأ أغا سلطان ينظر بخوف، وارتعد لدرجة أن زوجته اضطرت فورا أن تترك من يديها سمائة ساقه الباردة.

- تفو. تفو

لقد لوح بيديه من هذه الأفكار الرهيبة. وخشى أغا سلطان كونور كولدجا من مجرد التخيل عما كان سيفعل دون مساندة الملك الأبيض. إنه لا يحتاج لأي راتب وانما يود فقط أن يتواجد الجنود هنا على الدوام. وإنه هو نفسه على استعداد أن يضحي بحياته من أجل الملك أو حتى ظله فقط..



إنه من دون شك مدين بكل ما يملك لجلالة الإمبراطور، وسوف يخدمه حتى الرمق الأخير.. ولا يوجد هنا في السهوب من هو أكثر منه ولاءً للملك. ألم يذهب كونور كولدجا مع ثلاثة سلاطين آخرين معرضاً حياته للخطر بناءً على أوامر الجنرال تاليزين ليمنع العشائر المتمردة من الانضمام لكينيساري؟ وقد فعلوا كل ما في وسعهم من أجل تنفيذ هذا الأمر: فقد هددوهم، ووعدوهم، ورشوههم. وحتى أنهم اضطروا إلى استدعاء إمام المسلمين في منطقة أومسك الإمام محمد شريف أوغلو من أجل المساعدة. لكن لا شيء من هذا قد أفضى إلى نتائج مرجوه حيث أن الشعب الغاضب كان يشبه ذكر الجمل في شهر مارس قبل التزاوج، ولم يرغب في الاستماع للوعظ. لقد كانت كراهيته للملك الأبيض والنبلاء والرجال المحترمين لحدود لها. إننا الآن لسنا في حاجة إلى الوعظ بل إلى الجنود. ومن الواضح أنه قد كتب على جبينه منذ ولادته قمع المتمردين.

في هذه المرة غضب حاكم أومسك تاليزين منه بسبب أنه لم يذهب إلى التفاوض مع كينيساري نفسه. لكن جلده عنده أعلى من كل شيء، وكما يقولون لا تدس إصبعك في عرين الذئب والا ستفقد يدك.

ولن تكون المفاوضات مع كينيساري ذات أهمية كبيرة. فكينيساري أمكر من إخوته جميعاً. إنه يتصرف مع القوات النظامية كالصقر الذي له خبرة في اصطياد الجمل من الوضع طائراً. وينقض كذلك كالصقر وبسرعة البرق على الفرق الصغيرة كما انقض على مفرزة الكابتن تشيريكوف، ويختفي تحت الأرض عندما تبحث عنه الوحدات النظامية الكبيرة. ومع كل يوم يشن هجوماً على وحدات أكبر. وتتزايد قوات كينيساري كالانهيار الجبلى.

ومع كل ساعة كان يكثف من هجماته. ويكفي أن نذكر خطابه الأخير إلى حاكم أومسك. "إن شواطئ أنهار يسييل، ونورا، وأراضي أكتاو، وأورتاو، وكاركارالا، وكازاليك، وجاركين، وشواطئ أوبجان وتوبول، وأودية كوشمورون، وجميع الأراضي من كاركارالا حتى نهر جايك تعد ملكاً أصيلاً لأسلافنا، وأنكم انتزعتوها منا، وتبنون عليها حصونكم. وإننا كمربين للماشية في حاجة إلى الأرض من أجل البقاء." إذا أردت أن تجذب الغوغاء إليك فاكتب مثل ذلك، وانشر هذه الكتابات بين الناس.

وأصبح يخيف الناس أكثر عندما ترد الأنباء عن بناء قلعة أكتاو. فيهدد بالحرب، ويقطع طريق البريد بين كوكيتشيتاو وكارارا أوتكيل، ويطالب بإرجاع أراضي الأجداد..

إن كينيساري ذئب جائع يعوى في السهوب. والحاكم يفعل الصواب أنه لا يرد على رسائله، ويبعث رسله واحداً تلو الآخر مباشرة إلى سييريا. وحده كينيساري يستغل ذلك،



ويحرض الناس. وكانت دعوته ” إذا كان الملك الأبيض لا يرغب حتى في الاستماع إلى الكازاخ فإننا سنعتلى ظهور الخيول”. إنه ماكر، ويستغل كل شيء لمصلحته. ولهذا السبب ينضم إليه جماعات كاملة من الأشخاص ذوى الشأن والغوغاء الحانقين على المسؤولين والسلاطين الأغوات. وهذا هو أخطر شيء. فمن الممكن التفاوض مع الجميع باستثناء الغوغاء. وحيث أنهم يشورون فلا بد من تحريك القوات. لكن جنرالات أومسك يعولون على المفاوضات..

الآن يقف كونور كولدجا ويجد في الحقيبة ورقة أخرى. لقد كانت مرسوما صادرا من الجنرال تاليزين.

”إذا كانوا لا يرغبون في العودة إلى صوابهم فإننى أطلبك للمرة الأخيرة بعد تسلم هذا المرسوم أن ترسل أولادك في غضون 24 ساعة وفقا له من أجل قمع القيرغيز، واستكشاف أماكن المتمردين. ويجب عليك أن تنفذه ببالغ الدقة“.

ازداد وجه كونور كولدجا الداكن عتامة من جراء الغضب. لقد تذكر كيف كان كل ذلك. فقد استدعاه الجنرال إلى أومسك، وصاح فيه وأمره رداً على الاعتراضات بإرسال أبناءه لاجراء محادثات مع كينيساري. ألم يجبره هذا الأمر على ترك المنزل الهادئ، الأمن الخاص بزوجته الأولى كينيسا التي تعيش في قلعة كارا أوتكيل، ويأتى إلى هنا، إلى قرية زوجته الشابة. كان ولداه جاناديل، وجنكيز طلاب في مدرسة أومسك العسكرية. ومن أجل مصلحته الشخصية كان على استعداد الأيرسلهم إلى مخيم كينيساري الخطير فحسب، بل إلى أسنان الشيطان نفسه. لكن هل سيستجيب له أبنائه؟

جاناديل ابن كونور كولدجا من زوجته الكبرى كينيسا، وجنكيز ابنه من زوجته الثانية أكاجاس حفيدة والى خان.

كان جاناديل خائر العزم أخرقا وجباناً، أما جنكيز فكان على النقيض منه تماما. لقد كان سريعا وشجاعا وعلى استعداد أن يفعل أي شيء. وكانا مختلفان أيضا في المظهر. فإذا كان جاناديل أخرقا داكن الوجه ويشبه أباه تماما فإن جنكيز قد ولد شبيها بأقارب أمه فهو أبيض الوجه، رمادي العينين، ويملك جميع صفات طائفة التوري من الغرور وعدم الخوف والحزم والقسوة. وعلى الرغم من صغر سنه فقد شارك بالفعل في المواجهات مابين العشائر والقرى. وفي العام الماضي كان جنكيز مترجما في مفرزة النقيب لبيديف التي قبضت على الباتير سيتين على شاطئ بحيرة بالخش. وكان يعجب الناس أكثر من أخيه جاناديل على الرغم من أنه كان أقل شبيها بأبيه. غير أن كونور كولدجا لم يكن



يحبهما هما الاثنين. وكان على استعداد لإرسالهما إلى الموت المحقق، لكنه كان يخاف من أقارب أمهاتهم الأقوياء.

توقفت نظرة آغا سلطان المتجوله ما بين الجدران والسقف على زوجته الشابة. وأومض شيء ما شرير ومظلم في أعماق عينيه التي تشبه عيون الفأر. ونظر إلى صدرها ووركها فأتقى الجمال.

لقد قالت له زوجته الأكبر سنا كاينيسا أكثر من مرة أن زوجة الأب الجميلة تحب ابنه جنكيز. لم يعر كونور كولدجا ذلك أي اهتمام مدركا أن بابايشى - زوجته الأولى - يجب أن تفتري على منافستها الشابة وعلى ابن زوجته الثانية في نفس الوقت. ومع ذلك فقد دس على هذه الزينب من يتجسس عليها والذي أبلغه مؤخرا أن هذه الأخبار صحيحة.

كلا إن كونور كولدجا ليس ذلك الشخص الذي ينتقم على الفور. إنه لا يسحب مخالفه قبل الأوان لكي يطلقها في اللحظة المناسبة، وينفذ الحكم بهدوء.

لكن كل ذلك تراجع إلى الخلف عندما سمع الآغا سلطان خبرا أكثر سوءا من ذلك الخبر. فلقد أبلغوه أن ابنه الآخر جاناديل قد وقع في حب ابنة أحد الأرقاء البسطاء من التولينجوت، ويريد أن يتزوجها. ويقولون أن الفتاة تحبه. وإذا عارض الأب فإن جاناديل كما قالوا قد أقسم أنه سيأخذ الفتاة إلى أومسك.

كاد كونور كولدجا أن يجن عندما سمع ذلك. يا له من عار: ابن الآغا سلطان يتزوج فتاة من الغوغاء. إن السهوب كلها سوف تسخر منه.. إن هذا الأمر لا يحتمل التأجيل، وقام على الفور باستدعاء جاناديل.

سأله كونور كولدجا وعيناه مليئة بالدم:

- هل صحيح أنك تنوى الزواج من كوميس ابنة العبد التولينجوت أبدوفاخيت؟

أظهر جاناديل الهادئ دائما عديم الإرادة ثباتا هذه المرة. وعلى الرغم من أنه لم يستطع الصمود أمام نظرة أبيه إلا أنه لم ينكر قسمه، وقال:

- نعم هذا صحيح.

- ألا تعلم أنني قد خطبت لك ابنة يردين الصغرى لتكون البابايشى - الزوجة الأولى - في منزلك المستقبلي؟ وأمل أن لا تكون قد نسيت أن يردين يمتلك جميع أراضي أوليتا، وكارا كينجير، وسارا كينجير؟



- أعرف. فليتزوجها جنكيز.

- ماذا الهراء الذي تقوله؟ كيف تجرؤ أن تقول ليتزوجها جنكيز؟.. سأخطب له فتاة، ولا بد أن يتزوج جنكيز.

نظر جاناديل إلى مكان ما تحت قدميه، وتمتم بشيء غير مفهوم:

- الأي قدر على ذلك. إذا كان يستطيع فعل ذلك مع زوجة الأب فلماذا لا يستطيع أن يتزوج عروس شقيقه.. فليتزوج هو فالأمر بالنسبة إليه سيان؟. أما أنا فأريد كوميس. وسأذبح نفسي إن لم أتزوجها ..

كان هذا فوق أي احتمال. وهنا قرر كونور كولدجا أن يسقط جاناديل على الأرض، ويدوسه جيدا بقدميه، ولكن بعد ذلك فكر أن هذا الأحمق سينتقم بقول ما يعرفه عن زينب وجنكيز فقال له:

- اغرب عن وجهي..

لم يستطع أغا سلطان مدة ثلاثة أيام أن يقرر ما يجب القيام به. لا يجب أن يعلم الناس العلاقة السرية بين هذه الحقيرة زينب والجرو جنكيز والآن يبقى لديه أي وزن، فسينسكب كله كما ينسكب حليب الفرس من قرح مقلوب. ولا بد أن لا يعرف أيضا بالعقاب الذي سينالهما أحد غيره. أما فيما يتعلق بجاناديل فلا بد من محو رائحة كوميس لدى هذا المعتوه والآن سيغضب يرددين ابن ساندباي الذي بمصاهرته سيضيف عمودا آخر إلى خيمته ذات الاثني عشرة عمودا. ولكن ما العمل إذا واصل هذا الأحمق جاناديل عناده؟ لقد كان والد والدته مثله حمارا عنيدا. لا بأس، ما على فقط إلا التفكير.

قرب كونور كولدجا حينئذ لأول مرة خطاب الجنرال تاليزين إلى ناظره.

أو ليس هذا هو الحل الأفضل؟ إنه من غير المحتمل أن يطلق الذئب الجراء (أبناء الكلب) التي تدلف إلى بيته. والجنرال يطالب بأن يقوم أبناءه تحديدا بإجراء مفاوضات مع كينيساري. وكيف يتصرف في هذه الحالة الخادم المخلص للعرش؟..

في الحقيقة إنهم أبناؤه وإرسالهم إلى هناك موت محقق. لكن ألم يقطع الخان أبلاي المبجل في الأجزاء الثلاثة رأس عبده الأسود المخلص أورا الذي أنقذه في حين ما من العبودية فقط لأن وجوده ذكره بسنوات الذل؟ لا ينبغي أن يبقى على قيد الحياة شخص قد شهد ضعفك. لقد كان ذلك قانونا لجميع التوريين ورثوه عن أجدادهم العظام. وهل هو سليل الخان ساميكي أسوأ من نسل الخان أبلاي؟..



كان كونور كولدجا يرغب في أن يعلم ولديه بقراره، لكن لم يتم العثور عليهما في القرية. فأرسل بعض الحراس الشخصيين للبحث عنهما. واتضح أن ولديه ذهبا إلى قرية زوجته الشابة. فتوجه الآغا سلطان إلى هناك يرافقه خمسة عشر من حراسه التولينجوت.

وعلى الرغم من أن زينب كانت خائفة جدا من منظر زوجها المتجهم الذي اصطدم بها فجأة فقد حرصت ألا تظهر قلقها. لقد كانت تمشي على رؤوس أصابعها مسبلتة عينيها ومظهرة مفاتها الوافرة في أحسن صورة. تناول كونور كولدجا خروفا صغيرا تم طهيته بشكل جيد، وشرب دلو من لبن الفرس المخمر القوي، وتحولت عيناه إلى زوجته المزهرة كما ثعلب أظطاي الأحمر النارى. لقد كانت تنتظر شيئا ما بخضوع مصطنع. لكن زوجها ألقى عليها نظرة خاطفة، ثم انصرف.

كانت هذه الفترة هي الفترة المسائية حين كان الجميع يستعدون للنوم. وسار الآغا سلطان بين الخيام بشكل وقور وهو يردد على تحيات كبار القوم. لقد ذهب جاناديل مع جنكيز إلى مكان ما في السهوب فأرسل في طلبهما.

سأل كونور كولدجا:

- أين اليورتا الخاصة بالتولينجوت أبدوفاخيت؟

أشاروا له قائلين:

- هذا المنزل الصغير المغطى بالحصيرة السوداء.

توجه آغا سلطان إلى ذلك المنزل دون أن ينبس ببنت شفة، وتبعه حراسه بصمت.

السلام عليكم..

اجتاز كونور كولدجا عتبة المنزل، وكان أول شيء رآه نار من حلوى المروج مطفأة وسط المنزل. ثم رأى على سجادة مصنوعة من القصاصات فتاة صغيرة قد حلت ضافئها. تجمدت الفتاة من الخوف حين رأت آغا سلطان يدخل بشكل غير متوقع. لم يكن أحد بالمنزل سواها.

- أين عبودفاخيت؟

تعجب كونور كولدجا بشكل واضح من جمال الفتاة. ارتبكت الفتاة أكثر من نظرتة النافذة فقالت بسرعة:

- لقد دعاه والداي أمى لزيارتهم. إنهم يختنون ابنهم الأصغر. وقد ذهب أبى وأمى إليهما،

وهما على وشك العودة إلى المنزل.



- مفهوم.. وما اسمك؟

- كوميس..اسمي كوميس.

صارت الأوردة في رقبتة تنتفخ فبادر حراسه العالمون بعادته بمغادرة المنزل.

عاود آغا سلطان النظر إلى الفتاة.. في الواقع إنها مثل الفضة تماما. وجبينها واسع وأملس كأنه مصنوع من الفضة المطروقة، وسائر جسدها أبيض ونظيف. وليس عبثا أن جاناديل هذا يتمسك بها.

فجأة ألقى عن كتفه المعطف المصنوع من فرو حيوان القاقم، ولم يكن يرتدى تحته سوى قميص وسروال، وشرع على الفور في حل شرائط فتحة سرواله الواسع.

توجه إليها قائلا:

- اعطيني، يا بني، هذا الوعاء هناك، مع شيء بارد.

ارتجفت الفتاة، واتسعت عيونها السوداء الكبيرة مثل ماعز برى لحق به ذئب. كانت تود أن تهرب، لكن الحراس أغلقوا الباب من ذلك الجانب. غادرت الفتاة مكانها بعجز وكانت لا تزال تأمل أنه يريد أن يشرب فقط. كما أن الناس في القرية حولها من جميع الجهات. أمسكت بأيدي مرتجفه وعاء مشقوقا ملفوفا بسلك به أيران⁽¹⁶⁾، وتوجهت إليه كأنها عصفور في فم ثعبان.

- خذوا، تفضلوا ..

أمسك آغا سلطان ذراع كوميس قبل أن تنهي ما أرادت قوله، وجذبها للأسفل. وأطبق عليها بجسده الضخم كاسزا الأضلاع الهشة للفتاة حتى قبل أن تتمكن من الصياح بكلمة "أوي باي". لم تستطيع حتى أن تتنفس، وسرعان ما فقدت الوعي.

لم يعبا كونور كولدجا بمشاعرها. وقضى نصف ساعة مع جسدها الهامد ممزقا إياه كتكوت وقع في مخالبا نسر. تركها على البساط الرديء المرقع، ثم نهض، وبدأ يمسح تيارات العرق المنهمر.

- لماذا غضبت أيها السلطان الشاب؟ هناك الآن يوجد أبوك الموقر آغا سلطان نفسه فلا

يمكنك أن تذهب إلى هناك.

أدرك كونور كولدجا أن الحراس خلف حائط اللباد لن يسمحوا لابنه جاناديل بالدخول إلى اليورتا. وأدخل قميصه في سرواله الداخلي فوق بطنه الضخم، وأخذ سرواله المصنوع من جلد المهرت تحت إبطه، وألقى على كتفه معطفا من الفروي يصل إلى الأرض، وابتسم في رضا. فليتزوج الآن جاناديل بتلك التي جعلها أبوه امرأة.

16. لبن مخمر مصنوع من الزبادى والماء له طعم الزبادى - المترجم.



وعندما اقترب من منزل يورت زوجته الشابة رأى جاناديل من بعيد. لقد كان يجلس على الارض بالقرب من مربط الأغنام، وكان يبكي بهدوء، ويغطي وجهه بيديه، ويتمايل من جانب الى آخر. وعندما مر كونور كولدجا ناحيته لم يلتفت اليه. لقد تجرأ الجرو على أن يلمح له بعلاقة زوجة أبيه مع جنكيز، وأنه ليستحق ما ناله.

قال له أحد الحراس الذي تمكن من اللحاق به:

- أيها الأغا سلطان القوي بماذا تأمرونا أن نفعل مع والديها؟

- وما خطبهما؟

- لقد ربطناهما وهما في طريقهما الى القرية حين كانا عائدين من زيارتهما.

- خلوا سبيلهما ..

كل هذا كان بالأمس. لقد حول أغا سلطان كونور كولدجا عيناه عن الفخذين الضخمين لزوجته الشابة، وأرسلهما الى السوط المعلق عند الباب. وكان طوله يبلغ ثماني بوصات وسمكه حوالى اصبعين جيدين. وبالمناسبة فإنه يناسب هذين الفخذين. وتخيل الندبات الغضة المنتفخة على الجسد الأبيض، وأغلق عينيه بسعادة.

غير أنه لا ينبغي القيام بذلك الآن. فلا ينبغي المزاح مع أهل زينب. فإنها الشقيقة الصغرى لأغا سلطان مقاطعة كاركالي جامانتاي وابنة السلطان تاويكي. وبموجب القانون لا ينبغي ضرب النساء من عائلة السلاطين. وإذا حدث شيء ما فينبغي على الزوج بحسب العرف المتبع اصطحابها إلى منزل والديها بنفس البهاء والشرف اللذين أرسلوها بهما إليه. ووالدها هو الشخص الوحيد الذي له الحق في معاقبتها. لذلك فالسوط ليس لها على كل حال فهو معلق هنا من أجل الجواري. وسيتعين عليه أن يشفي غليله منهن.

والتقط نظرة زينب النهمة المترقبة. فهي لم تنم بالليل عندما عاد. والآن يعجبها كونور كولدجا الضخم الذي يشبه الحصان العجوز أكثر من جنكيز المهر الرضيع الرشيق خفيف الوزن. لقد تقلبت طويلاً وبصوت عال على السرير الروسي المطلي بالنيكل عند الجدار البعيد، ولكنه ذهب إلى مكان الضيوف في منزل اليورت، وسقط على وسادة، وبدأ في الشخير على الفور.

وعندما فتح عينيه عند الظهيرة رأى زينب المنتظرة عند قدميه. لم تحول نظرتها عن قميصه المتسخ. أخرج كونور كولدجا ساقيه الضخمتين المشعرتين من تحت البطانية وقال لها:



- ذلك.

لم يقل أي كلمة أخرى. وجلست زينب عند قدميه، وكانت ترفع فقط من وقت لآخر رموشها الطويلة. وأخذت نفساً عميقاً حتى أن صدرها قد ارتفع بأكمله تحت الموسلين الحريري، ثم عاودت تدليك سماتيه المليئتين باللحم كثيرتي الشعر.

بعد ذلك رفع آغا سلطان الذي حصل على قسط كبير من الراحة ساقه، ووضع كعبه الكبير الخشن على فخذه العاري. وبعد أن رقد هكذا أخذ يتنفس بشكل أكثر صعوبة.

- حسناً. ضعي الخطاف على الباب، واخلمي ملابسك.

قفزت زينب المسرورة، ووضعت الخطاف على الباب بسرعة. في تلك اللحظة طرق شخص ما الباب. لصقت وجهها إلى الفتحة، وقالت:

- يا مولاي السلطان لقد جاء جنكيز وجاناديل. أفتح لهما؟

- لا. لن يموتا إذا ما انتظرا.

وبعد أن قضى وقتاً ممتعاً مع زوجته الشابة النهمّة سمح لأبنائه بالدخول. وعلى الرغم من أنهما قد أتيا إلى هنا للراحة من المدرسة العسكرية فقد كان وجه كل منهما نحيفاً ومتعباً. وقد ظهر جاناديل على وجه الخصوص بشكل سيء فقد غارت عيونه، وانهارت خدوده، كما لو أنه قد قام للتو بعد التيفود. كان يقف منكس الرأس ولم يستطع أن يرفع عيناه إلى والده كما لو أنه كان المذنب فيما حدث.

نظر إليه كونور كولدجا بامعان. وقد حدث ما توقعه. إنه جرو ضعيف الشخصية غير قادر على الصراخ، ولن يجرؤ على رفع عينيه. وبعد الآن لن يذهب مطلقاً إلى محبوبته كوميس. ولعله قد بكى لهيب حبه طوال الليل. لقد كان يقف كدجاجة بعد الاستحمام. وكان والد أمه على هذه الشاكلة عديم الإرادة وحساس كأمراة بعد الولادة.

خمن جنكيز على الفور وفقاً للمظهر السعيد لزوجته أبيه أنهما قد تصالحا. حسناً إنه لن يصيبه ضرر من جراء ذلك. ويستطيع والده ابن أوى العجوز أن يغفر لهما ذنبهما الصغير فهو نفسه قد ارتكب مئات الجرائم طوال عمره المديد. ولن يسوءه أن ابنه قد امتلك شيئاً متوفر لدى الأب بكثرة. الشيء المهم هو أن لا يسبح بعيداً عن الأسرة..

ألقى عليه الوالد نظرة غير مبالية. وهذا يعني أن العاصفة قد مرت بسلام أو أنه لا يعرف شيئاً.



أخرج كونور كولدجا من الحقيبة المصنوعة من السجاد قرار الجنرال تاليزين، ووضع النظارة على عينيه، وقرأه ببطء على أبنائه. وبعد أن انتهى من القراءة نزع نظارته، ونظر إليهم بصرامة قائلاً:

- إنكم الآن تعدون فعلياً ضابط الملك الأبيض، أبانا، وولي نعمتنا، لذلك عليكم تنفيذ كل ما جاء في هذا القرار دون أي شرط. وسوف أخصص لكل واحد مائة جندي. اذهبوا إلى القرى المتمردة. فإن استطعتم أن تقنغوهم فيها ونعمت والاتعاملوا معهم دون رحمة كما يطلب من القسم والقرار. وتذكروا أنه في هذا الصيف سينعمون عليكم بالرتبة المناسبة. وسوف تعتمد خدمتكم المستقبلية على الطريقة التي سوف تتعاملان بها مع هذه المهمة.

سأل جنكيز بسرعة وقد خمن على الفور إلى أين يرسلهما أبوهم الموقر:

- وإذا لم يكف المائة جندي؟ - لقد هرب كينيساري مراراً من جنودنا.

قاطعها الأغا سلطان قائلاً:

- هذه الكلمات لا تليق بضابط حقيقي.. حذاري أن تلوثا شرف سلفكما ساميكي.

أدرك جنكيز أن والده يعرف كل شيء، ولم يصفح عنه، وأنه يرسلهما إلى موت محقق، ويضحى من أجل ذلك بمئتين من الجنود. وبعد أن اقتنعا بعدم جدوى الحديث معه، انحنيا، ثم انصرفا. وبعد مرور بعض الوقت دوت طرقات حوافر خيولهم التي كانت تبتعد بسرعة صوب قلعة كارا أتكيل.

استمع كونور كولدجا إلى هذا الضجيج حتى هدأ في مكان ما بعيد، ثم التفت إلى

زينب قائلاً وهو ينظر إليها برقة:

- إلى متى سيظل ملتصقا بذيل ثوب زوجة أبيه؟ - لقد حان الوقت ليعلن جنكيز عن

نفسه.

سرت البرودة في صدر زينب. إنه حقاً يعرف كل شيء لذلك جاء بشكل مفاجئ. وإن

إرسال أبنائه إلى أسنان كينيساري يرتبط بذلك أيضاً. حقاً إنه ذئب معنك..

ربما ليس هذا بالضبط ما كانت تفكر فيه، ولكن كان الإعجاب بادياً في عينيه.

لقد كان كل هذا بسببها. لقد أرادت أن تطلب منه الصبح، لكنها لم تنس أنه من نسل

بوكي خان. سألتها بلا مبالاة:

- وفيما أخطأ جاناديل المسكين؟



- انه يعرف الكثير عنا جميعا: عن زوجة الأب، وعن الأخ. وعلاوة على ذلك فقد جلب لنا العار مع فتاة من عامة الشعب، ونسى إلى أي عائلة ينتمي.

- ومتى ستعيديني إلى والدي؟

نظر كونور كونور كولدجا إليها باهتمام قائلا:

- إن ابني هو جسدي من قبيلتي. لذلك فإن معاقبته لن تكلفني أي شيء. أما الزوجة فقد اشتريتها مقابل تسعة وأربعين رأسا من الماشية. وهذا ليس ثمنا بخسا، وينبغي أن أحصل منها أولا على كل شيء مع الأرباح.

بدأت عيناه الصغيرتان تتلألآن بفرح، ثم قال:

- إنني أريد أن أشرب. اعطني الكوميس (حليب الفرس)!

توجهت على أطراف اصابعها نحو الباب، وأخذت خلاط الكوميس الفضي المعلق بالجوار، وتوجهت أيضا بهدوء حاملة الكوميس إلى السابا⁽¹⁷⁾ المصنوع من جلد جواد كامل.

إذا شرب من يديها المدنسة بالخطيئة فهذا يعني أنه سيصفح عنها. وقد شهدت العوائل الخائنة خطايا أسوأ من تلك. فلماذا تكثرث إذن؟

دلف إلى البورتا أحد ما من وراء ظهرها وقال:

- السلام عليكم.

تهلل وجه كونور كونور كولدجا، ومد كلتا يديه للأمام وقال:

- أنت أوجار الشهير؟

- أتمنى لكم صحة جيدة ياسيدي أغا سلطان..

- إذن أنت حي وبصحة جيدة يا عزيزي.. من أين أتيت وأي ريح طيبة حملتك إلينا؟..

اجلس في أفضل مكان في بيتي.

جلس أوجار، وثني الوسادة بجسده الثقيل، ونظر نظرة خاطفة إلى زينب التي كانت تسكب الكوميس.

- إنني قادم من أومسك. ولست وحدي.

- ومن معك؟

17. حقيبة أو قرية - المترجم.



- زوجتي.

- ابنة من هي؟

- تايجان.

- تايجان. أي تايجان؟ - ووقف كونور كولدجا من جراء المفاجأة. - أليس هو ذاك الذي
ثار، وقتل رميا بالرصاص. ابن أزينباي أليس كذلك؟

- نعم، إنها ابنته.

- وهل لديه ابنة؟

- نعم، لقد كانت ألتينشاش فتاة صغيرة عندما نفوا أسرة تايجان، وبقيت في مكان
ما. واشتراها أحد التجار من الحراس، ثم أعطها إلى الجنرال فونديرسون. وهي الآن تبلغ من
العمر ستة عشر عاما.

- إذن هذه هي أخبارك.. ولكن كيف تمكنت من الزواج بها؟ إن المعجزات تحدث.. وأين
هي، ولماذا لا تدعوها إلى هنا؟

- نظر أوجار مرة أخرى إلى زينب الصامتة التي كانت تستعد لصب الكوميس. فهم أغا
سلطان إيماءته، وقال لها:

- يا توكال! - لقد استخدم خصيصا هذه الكلمة المسيئة التي تعني زوجته الصغرى. -
أذهب إلى هناك، ومريهم بذبح شاة. وليضعوا بسرعة السماور على النار⁽¹⁸⁾!

ابتسمت زينب بفهم، وخرجت من اليورتا وهي تهز وركيها بسلاسة.

وقص أوجار بهمة، وبشكل تفصيلي كيف نجح في القبض على الباتير سيتين.

- اضطررت لأن أفضى في سجن أومسك أسبوعين. - لقد قهقه إلى حد ما بشكل رقيق
غير عادي. - قرروا محاكمة كل واحد منا على حده. وفي أحد الأيام زارني في السجن
الجنرال فونديرسون نفسه بشواربه وبكل أزواره الذهبية. وقد أشاد بي للإقائي القبض على
سيتين، ووعدني بأن يلبي لي كل ما أريد. وفي أومسك رأيت ذات مرة هذه الألتينشاش.
فطلبته منه. لقد قلت: "أعطني، سعادتك، تلك الخادمة القيروغيزية، التي تعيش في
منزلكم." في البداية رفض. وقال إنهم قد تعودوا عليها. وقال "إنه طبقا لقانون السنة

18. السماور هو وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية - المترجم.



الخامسة والعشرين⁽¹⁹⁾ فإن الفتاة حرة في الزواج بمن تشاء، لذلك أستطيع أن أفعل إذا رغبت هي في ذلك.

وعندما قلت أنه فيما يخص موافقة الفتاة فلن تكون هناك أية عقبات، برزت أعين الجنرال للخارج، وقال "كيف ستتزوج من كان سببا في هلاك أسرتها؟" طمأنته مجددا. ولم تعد لديه أي حجة يتعلل بها.

سأل كونور كولدجا باهتمام:

- وكيف حالك أنت؟

- اسمعوا يا آغا سلطان. لقد علمت من الرقيب التتاري الذي تحول للمسيحية وكان حارسا علينا أن خادمة فوندرسون الصغيرة سألته عني عدة مرات حتى أنها أرادت أن تعطيني من خلاله بعض الطعام. ذلك أنني اعتقلت مع عمها، واعتقدت أنني من أهلها. لقد خمنت ذلك على الفور.

حتى القنفذ يستدير عندما يشم الطعام اللذيذ. دسست في جيب الشرطي القليل من المال، وطلبت منه ترتيب لقاء لي معها. إن ذلك الذي يغير دينه يفعل أي شيء مقابل المال. وذات مرة أدخل علي ألتينشاش. واتضح انها قد رأني مقيدا مع سيتين عندما كانوا يقتادوننا بالقرب من منزلها. قالت أنها بعد ذلك ظلت تبكي طوال الليل.

باختصار على الرغم من أنها ترعرعت بين الغرباء فإنها على استعداد لتقديم حياتها للأقرباء. وإنها تعدني صاحبنا لوالدها وعمها، وإنها على استعداد لتهرب معي إلى السهوب.

وعندما أبلغت فوندرسون بقرارنا رفض، وأراد أن يعاقب ألتينشاش لنكرانها الجميل. ثم لوح بيده وقال: "مهما تطعم الذئب فإنه ينظر إلى الغابة". ثم فكر وهو يرسلني بهذه المهمة إلى المتمردين أنهم سوف يثقون بي أكثر عندما أعود إلى السهوب مع ابنة تاجان. لقد تزوجتها، وأنا الآن في طريقني إلي مخيم كينيساري.

كان كونور كولدجا وهو يستمع إليه يلوح بيديه من الفرحة ثم قال:

- حسنا فعلت.. يعني أن الذئب شبعى والغنم آمنة. وأخذت بالإضافة إلى ذلك زوجة شابة.

ابتسم أوجار ابتسامة عريضة، ثم قال:

- كما يقول الحكماء: "إذا كان الزمن يتخابث كالثعلب فتحول إلى كلب صيد

لتلحق به."



- وهل نسيت أن من يضع قدميه في زورقين يغرق؟ كن حذراً خاصة في قرية كينيساري.
فلدى هذا الذئب عين ثاقبة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه ليس وحده مصدر الخطورة.

- ومن هناك الآن من الشخصيات البارزة بجانب أقارب قاسم العجوز؟

عبس وجه كونور كولدجا وقال:

- كثير من الناس يميلون إليه. - لقد سمعت من شخص أمين يبيع عندهم جميع الأشياء
التافهة أن لديه الآن من المحاربين المشهورين أجيباي بالطبع، وتوليبياي من عشيرة ألتاي، ومن
تابين بوخاري، ومن بانجالي كوداميندي، والكيشاكي إيمان باتير. ومؤخراً أرسل
إليه جولمان باتير ابن تيلينشي ابن أخيه الباتير الشاب بايتابان، وأكد أنه سينضم إليه مع
عشيرة تابين.

ابتسم أوجار ابتسامته عريضة، وقال:

- نعم لقد حانت الأوقات الصعبة. - هل صحيح أنه يضم النساء إلى جيشه؟ يقولون إن
شقيقته بوباي تركت زوجها السلطان من نسل والي خان، وخطفت ستة من أبنائه وكل
ماشيته من أجل أن تساعد.

- وفيما العجب. إذا كان أبناء قاسم من سلالة ذئبية فإن بناته ذئبات. إن بوباي هذه
دائماً ما تحمل الرمح، وتتقود المقاتلين أفضل من أي باتير. والآن تحاصر كل شيء حول قرية
والي خان حيث زوجها هناك.

فكر أوجار ثم خدش نفسه خلف أذنه وقال:

- إذا كانت بوباي في معسكر أخيها فإن الباتير جانايدار هناك أيضاً.

- لماذا تعتقد ذلك؟

- ألم تسمع ياسيدي الأغا سلطان عن بوباي وجانايدار؟

- سمعت شيئاً ما في شبابي.

- لقد كانا مثل (كوزي كوربيش وبايان سلو) غير أن قاسم توري العجوز لم يزوجها
له لأنه كان من الرعاغ.

صاح كونور كولدجا قائلاً:

- لا يمكنني أن ألومه على ذلك.



- نعم، ولكن على الرغم من أنها أنجبت ستة أطفال من رجل أخرجها تسقط من على الجواد لدى سماعها اسم جانانيدار. وهو الآخر يشحب لونه عندما يذكرونها أمامه. لذلك فمن المحتمل أنهما قد تلاقيا عند كينيساري. وعن ذلك لا يمنعني أن أتذكر.

- هل تعرفها جيداً؟

- لا، لقد رأيتها ذات مرة في وليمة ذكرى المتوفي بايجوبيك. إنها مثل أخيها شقراء الشعر وذات عيون رمادية. وعندما تركب الجواد الأبيض لا يمكن لأي فارس أن يلحق بها.

تذكر أوجار شيئاً ما، ونظر باهتمام إلى الأغا سلطان، ثم قال:

- كل الذين ذكرتهم من الفرسان الأبطال باستثناء جولان تلينشاي وأول رجال أسوياء لكنهم ليسوا أغنياء.

أوما كونور كولدجا موافقا ثم سأله:

- هل انضم إليه أي شخص من الأثرياء من قومنا أو من المانابات القييرغيز؟

- قليل من الأثرياء لكن تحت التهديد. ومن بينهم موسى شورمانوف، وبلييميس جاكوبوف، والثري أسيلجازين. أما الآخرون فيترقبون الأحداث. وانضم إليه أيضا كودايمندي كازين من كاركارالا، وتايماس بيكتاسوف من بايان أوول الذي طرد مؤخراً من منصب حاكم المقاطعة.

- تايماس بيكتاسوف؟

كان من الواضح أن هذا الخبر قد أزعج أوجار الهادئ حتى ذلك الحين.

سأله كونور كولدجا وهو ينظر إليه شذراً:

- ما خطبك؟

- لا، لا شيء. إنني أعرفه قليلاً.

سأله الأغا سلطان بسرعة:

- لماذا خفت هكذا؟ - هل تايماس هذا عدو لك؟

- لا نحن لا نعرف بعضنا البعض بشكل جيد. - نظر أوجار إلى الباب، ثم قال همساً:

- في العام الماضي عندما قبضوا على أنا وسيتين، ونقلونا إلى أومسك قضينا ليلتنا في

بيت هذا التايماس.

- وماذا في ذلك؟



- كنت أخشى حينها إن كان قد اشتهم شيئاً ما. والآن إذا كان عند كينيساري.

- إذا لم تكن خائفاً من شخص آخر فيمكنك الذهاب إليه. لقد غادر هذا التايماش منذ أسبوع كينيساري، وتوجه إلى الباتيرين جولمان وإيمان على ضفاف نهر إيرجيز وتورجاي. ومن الواضح أن القرى التي ترتحل إلى نهر جايك الأبيض وأوري ستنضم إلى كينيساري. إذن لن يعود تايماش هذا من هناك قبل الخريف. وحين يرتفع الفأس تكون قطعة الخشب قد أفلتت. وخلال هذا الوقت حاول أن تكسب ثقتهم كي يبدو كل ما سيقولونه عنك من أشياء سيئة ملفقا.. وإذا اشتهموا شيئاً ما فأظهر لهم التوبة. وقل لهم إنك تريد أن تكفر عن ذنبك، واستدع الزوجة لتشهد على إخلاصك..

- كان كونور كولدجا يصل من السعادة وهو يرسم لوحة مستقبلية لسلوك أوجار في المستقبل في معسكر كينيساري.

تهلل وجه أوجار بشكل واضح وقال:

- إذا كان تايماش بعيداً فلا ضير إذن.. إنني لا أخشى أي شخص آخر. فعلى طول الطريق إلى أومسك وبعد ذلك حتى أعدموا سيتين لم تقابل أحداً. وقد حمل معه إلى القبر ما كان يعتقد أنه عني.

وافقه كونور كولدجا الرأي وقال له:

- رأيت.

واصل أوجار حديثه عما ينبغي عليه فعله وكيف سيتصرف مع المتمردين.

- أن جميع من يتعلقون حول كينيساري أولئك الذين نزعت أراضيهم وحرموا من مراعيهم. - ضيق عيناه وقال: إذا كان تحت الرجل نار قوية فإنه يغلي بسرعة. ولكن الذي غلي بسرعة يبرد بشكل أسرع.

عبس الأغا سلطان، وهز رأسه قائلاً:

- إن التمرد في هذه المرة ليس كالومضة العشوائية التي تنطفئ من تلقاء نفسها. فإنك تعرف من يقوده. وإنهم صامتون من فترة طويلة. ومن الواضح أنهم يعدون شيئاً ما. ويبدو أن لديه هناك مستشارين أذكياء.

- أي مستشارين؟

- مختلفين. ألم تسمع أن لديه فرقة خاصة من الروس والباشكير الهاربين؟ وكما يقولون إن من بينهم من يستطيعون أن يصبوا المدافع ويصنعوا البارود والرصاص.



ومن بينهم مستشاريه أيضا سايداك خودجا الذي طرد من بخارى، وأحد الضباط البولنديين من المنفيين جزاء تمرده. وكأنها عصا بة من قطاع الطرق تستقبل جميع الراغبين.

لوح أوجار بيده وكأنه يمسح كل شكوكه ثم قال:

- حسنا ليكن ما يكون..- بقي أن نتفق على كيفية إبلاغي لقيادتي بكل شيء.
إن مهمتي الرئيسية هي الإبلاغ عن جميع خطط كينيساري. ذلك أمر ليس باليسير.

- نعم. كنت أعرف أن شخصا ما يجب أن يأتي من قومنا من أجل ذلك، ولكن لم يخطر على بالي أنه أنت. إنك ستكبر، وسترتفع. وقريبا ستجاوزني في الوظيفة أنا الرجل العجوز.

- فقط بمساعدتكم ياسيدي الأغا. إن عقلكم وشرفكم كانوا دائما لي مثلا يحتذى.

سهل كونور كولدجا من الرضا عن النفس وقال:

- حسنا انظر جيدا مرة أخرى. ربما لم تتعلم تماما.. وكيف ستصلي تقاريرك؟

- إنني لدي ثلاثة رجال مخلصين ساعدوا في القبض على سيتين، وهم سامين وجاكوب وساكيب. إنهم لدى كينيساري منذ فترة طويلة. سوف استخدمهم، وسأجد هناك آخرين.

- وكيف أعرفهم؟ هل ستلبسهم جوالا ليميزوا مثلما يلبسون الخروف قبل الزواج؟

- لن ألبسهم شيئا فرجالي لن يتزينون بالحلي ولكن سيكون لدى كل واحد منهم علبة سعوط وسكين مثبتان بالحزام من الجانب الأيمن على غير العادة.

- لماذا لن يكون هناك حلى؟

- الشباب لا يحتاجون تعليق حلى على الحزام، وهذا يسترعى الانتباه على الفور.

- يبدو أنك قد استوعبت العلم حتى النهاية. في هذا الموقف لم يكن ليرد بخاطري أن أتوخى الحذر بهذا الشكل!

- طالما كينيكي على قيد الحياة فمن غير الممكن أن تنسى هذا العلم.. وعلى الرغم من أن أوجار قد ذكر اللقب الهزلي لكينيساري إلا أنه كان يتحدث بشكل جاد جدا..-

إن لديه عيون نسر بعروق حمراء.

ونفض من مكانه ليودعه.

سأله كونور كولدجا وقد أصابه الدهول:



- ألن تأكل؟

- لا يجب أن يراني الناس هنا. لقد قلت لزوجتي أن هناك أمرا أود التحدث بشأنه مع أحد السكان القرويين. والآن حان وقت الرحيل. سيكون ذلك أفضل.
- حسنا، تصحبك السلامة.

تنعم كونور كولدجا أربعة أيام على الوسائد الناعمة لدى زوجته الشابة ثم عاد إلى البايبيشا (زوجته الأولى) في قلعة أكمولا.

وعندما اقترب من بوابة القلعة التقى ابنه جاناديل وجنكيز العائدين من الحملة. لقد نفذوا أوامر الجنرال تالزين، وصلوا مع فرقتهم إلى القرى الساخطة في مقاطعات تنالي كاربيك، وتيميش. وعندما واجه جاناديل وجينكيز قوات كبيرة من المتمردين خشيا أن يتقدما للأمام، وعادا أدراجهما ليحتميا بجدران القلعة.

في الأسطورة أرسلت زوجة الأب الراعي الصغير ليحضر النرد الذهبي معتقدة أن ميستان كيمير - أي الساحرة العجوز الشريرة ستقتله. شعر الأغا سلطان عندما رأى ولديه أحياء وبصحة جيدة بنفس شعور زوجة الأب التي رأت من النافذة ربيها يعود أدراجه. ولقد أزعجه بصفة خاصة منظر جنكيز الوثائق من نفسه، الذي راه في الأحلام بلا رأس. ومع كل دقيقة كان لونه يتحول أكثر فأكثر إلى اللون الأرجواني، وكان يسير من زاوية إلى أخرى في حجرة مكتبه، ويضرب بالسوط حذائه اللامع. وكان أبنائه ينظرون إليه في صمت.

في تلك اللحظة دخل الجندي المناوب، وأخبره أنه قد جاء من السهوب أحد الركبان. خرج الأغا سلطان إلى الساحة، ورأى من التل الذي يقع عليه مكتبه جنديا ضخما ذي شوارب حمراء اللون يدخل من البوابة، ويسقط من على حصان رغوي كستنائي اللون. وكان كتفه وجنبه الأيمن مخضبان بالدماء:

قال بصوت أجش:

- مصيبة..

لقد هرب من الثكنة العسكرية قائد قلعة كارا أوتكيل الأسمر الصغير أفتس الأنف صغيرة العقيد كاربيشيف الذي يلعبه الكازاخ بكارا إيفان.



سأل بصرامة الجندي الذي قام من على الأرض:

- ماذا حدث؟

قال الجندي وهو يمسك بيده كتفه المصاب:

- مصيبة، يا صاحب السعادة - إننى من وحدة الملازم كوتوف. لقد كنا نحرس قافلة التاجر ستروجانوف التي كانت ذاهبة من بترويا فلوفسك إلى طشقند. وما إن غادرنا قلعة أكتاو التي تبني الآن إلا ووجدنا هناك رجال كينيساري سلطانهم المتمرد. لقد كانوا كثيرون العدد، وكانوا جميعاً متمسحون بالهروات والرماح. ولقد نصحنا الجنود من ذوي الخبرة بعدم إطلاق النار، ولكن الملازم الشيطان خدعنا. أطلقنا النار على ثلاثة رجال أو أربعة منهم، فاندفعوا جميعاً نحونا. ولم ينجو أحد غيري. وذلك بفضل سرعة الحصان فقط. احتشد الجنود من القلعة. وكان القلق والفضول قد كتباً على وجوههم.

حرك القائد حاجبيه الأسودين السميكين وسأله:

- كم عدد المتمردين هناك؟

- حوالي خمسمائة.

- ألم تركينيساري بينهم؟

- لا، يا صاحب السعادة، إننى لا أعرفه. ولكن شقيقه ناويرزباي كان معهم. لقد رأيته من قبل في كوكشيتاو. إنه شاب صغير وضخم.

- وكم عدد الجنود الناجين؟

- لا أعرف، يا صاحب السعادة. فلم أكن هناك حين ذلك. لكنني لاحظت من بعيد فقط أنهم اقتادوا الأسرى والقافلة.

- ويرأيك أي طريق سلكوا؟ هل سلكوا الطريق الذي يؤدي إلينا؟

- لا، لقد سلكوا الجانب الغربي.

- حسناً، اذهب إلى المستشفى الآن، وهناك سنرى ما سوف نفعله معك.

في الرواق أمام المستشفى فحص جرح الجندي مساعد طبيب شاب.

أصيب المساعد بالدهشة وقال:

- الجرح عميق.. اذهب إلى المستشفى يا عم. يجب عليك ان تستلقي على ظهرك.

وسيكون كل شيء على مايرام إذا لم يكن بالسهم الذي أصابك أي سم.



- بدأ الجنود في الضجيج فجأة مثل النحل بسبب الدخان .
- يبدو أننا سنموت هنا في الصحراء دون أن نتمكن من التوبة.
- لماذا تسميها صحراء؟ إنها أرض الإمبراطورية الروسية.
- سوف تحصل من هذه الامبراطورية على ستة أقدام. و فقط عندما تموت.
- وأي حاجة دفعت بنا إلى حافة العالم؟
- حتى في الحلم لم نكن لنرى هذه الأرض.
جار كاربيشيف الصغير بصوت عميق:

- اصمتوا.. - علينا أن نتذكر الخدمة العسكرية. لن تدعنا جحافل كينيساري من قطاع الطرق هنا وشأننا. لذلك من الغد سيقوم جميع الرجال المتواجدين هنا، وكذلك النساء والمراهقين بحفر خندق. وبعد ذلك نملئه بكل أنواع القمامة فيما عدا تلك التي تثير الرمال. في الواقع لن يترك متمرّدو كينيساري قلعة كارا أوتكيل التي بنيت على مفترق الطرق الرئيسية في السهوب. وإلى جانب ذلك كانت هناك حسابات دموية قديمة بين السلطان كينيساري وأغا سلطان كونور كولدجا.

في هذه الليلة لم يغلق الأغا سلطان عينيه. إن أول ما سيفعله كينيساري إذا استولى على القلعة أنه سيربطه هو - كونور كولدجا - في ذيل حصانه. لم يكن الأغا سلطان يشك في أن كينيساري سوف يأتي إلى كارا أوتكيل. وليس من قبيل العبث أنه يحوم حول قلعة أكتاو المجاورة.

هل يرسل إليه شخص ما من أجل أن يتفاوض معه؟ لكن مهما قلت فإنهم جميعا أبناء جوجي ابن تيموتشين. وهل سينسى الإهانات من أجل ذلك. إن كينيساري يمكن أن يغفر للجميع إلا هو. إن هذه الكراهية سوف تنتقل من جيل إلى جيل، وإنه يعرف ذلك جيدا. وهل إذا وقع تحت يديه أحد أبناء قاسم فهل سيرحمه؟. الآن لم يعد لديه أمل سوى أومسك. يجب أن يطلب من هناك المساعدة بصورة عاجلة، وأن يصل من أجل الأتتأخر عليه. ليست هناك فائدة كبيرة ترجى من كارا إيفان. وبالإضافة إلى ذلك كان ينظر إليه لسبب ما بارتياب. وإنه أيضا سوف يتركه تحت رحمة المتمردين، ويغادر مع جنوده..

في صباح اليوم التالي جلس آغا سلطان كونور كولدجا في وقت مبكر يخط رسالة إلى الجنرال تاليزين.. وقد كتب مايلي: إن كينيساري قاسيموف يعدني أسوأ عدو له



- إنه يكرهني لأنني أخدم بإخلاص وصدق صاحب الجلالة إمبراطور عموم روسيا، وأنفذ بأمانه جميع أوامر سيادتكم. ويعتزم قاطع الطريق من أجل أن يروع الآخرين قطع رأسي، واجتثاث جذري النبيل بأكمله حتى النساء والأطفال الصغار. وليس وحده من يرغب في ذلك، بل جميع القبائل والعشائر الأخرى المعادية لجلالة الإمبراطور. وفي هذه الساعة الصعبة أرجو منكم بشكل عاجل إرسال قوات إضافية إلى قلعة أكمولا التي يمكنها أن تتصدى للقبيلة المتمردة كثيرة العدد.

بعد أن أتم كتابة الرسالة عهد إلى كارياشيف تسليمها باليد، وشرع في إنجار الأمور العاجلة. في المقام الأول سوف يجلب إلى القلعة أفراد قريتي زوجته القريبتين، وأراد أن يعهد بذلك الأمر لجاناديل وجنكيز، ولكنهما لم يكونا مجددا في القلعة.

قالت البايابيشي - الزوجة الكبرى:

- إنهما سيعودان قريبا إلى أومسك للدراسة. - لماذا أنت غاضب عليهما؟ إنهما يريدان قبل الرحيل التنزه، والراحة. وخاصة جنكيز.

وابتسمت عند ذلك حتى أن فم كونور كولدجا التوى من الغضب.

صاح قائلاً:

- إنني أعرف كيف يستريحان. - إنني هنا طوال الليل لا يغمض لي جفن، وفي نفس الوقت يتحسس جنكيز الوغد الردف الضخم والضرع المشدود ..

لقد أراد بالفعل أن يعتلى صهوة جواده ليذهب مجددا إلى قرية زوجته الشابة زينب، لكنه تذكر أن دوريات كينيساري في مكان ما بالجوار. قرع أغا سلطان بالسوط، ورأى في نفس الوقت حصانه الكستنائي يتراقص عند البوابة. كان الحصان بدون راكب، وكان حول رقبتة شيء معلق يشبه الكيس. وكالعادة اقترب الحصان من مزود العلف عند رواق أغا سلطان مع صهيل ملح. ما هذا الشيء التافه المعلق على عنقه؟ حرك كونور كولدجا جسده الضخم بصعوبة، واقترب من الحصان، وفجأة ارتعدت ساقاه. كان في الكيس المصنوع من القماش المعلق على عنق الحصان شيء مدور مثل البطيخ، وسالت قطرات حمراء طازجة، وسقطت على تراب الفناء.

أخرج كونور كولدجا سكيناً حاداً، وقطع الحبل الذي كان يتعلق عليه الكيس. سقط الكيس على الأرض مع صوت مكتوم. سحب كونور كولدجا حافة الكيس بأيدي مرتعشة فسقط منه رأس إنسان. كانت العينان بالرأس تحدقان،



والأسنان مكشوفة وضاحكة بشكل وحشي، وقد علق بينهما لسان أسود. على ما يبدو أن الرأس قطعت بالفأس لأن فقرة العنق قد انفلقت نصفين. وكان الشعر الأسود المبلل بالدم يشبه فراء الحمل الأسترخاني الأسود. حدق كونور كولدجا في الرأس بدهشة غير ذات معنى، ثم علم فجأة. لقد كان ابنه جنكيز.

تمكن آغا سلطان وهو يفقد الوعي من أن يهمس باسم شخص ما. لقد كان اسم سيزديك ابن كينيساري الذي أقسم كونور كولدجا بقطع رأسه انتقاما لجنكيز.

لكن رأس جنكيز لم يقطعها كينيساري أو أي شخص آخر من جنوده وإنما أبدوفاخيت الخادم التولوينجوتي العجوز والد كوميس. في تلك الليلة عندما ألحق الآغا سلطان العار بابنته الوحيدة جمع في منتصف اليورتا جميع ممتلكاته التافهة، وأحرقها مع المنزل. ثم أخذ بيد ابنته وزوجته وولى هاربا إلى السهوب على غير هدى. أرسل كونور كولدجا ورائهم على الفور من يطاردهم، لكنهم اختبأوا في أحراش الديس الساحلية الكثيفة.

أرسل أبدوفاخيت زوجته وابنته مع إحدى القرى المتمردة المهاجرة، ثم عاد إلى موقده. كان قلبه يتألم من الإهانة والحزن، واكتنف الضباب عينيه. اختلطت أفكاره، ولم يعرف من أين يبدأ. وبدا له أن الحل الأفضل هو قتل كونور كولدجا. وأنه بذبح الجاني فقط سيغسل بقعة العار هذه..

بعد أن حسم أبدوفاخيت أمره صار يراقب منزل زينب زوجة الآغا سلطان الصغرى ليلا ونهارا. لم يستطع أن يقترب من اليورتا لأن الحراس كانوا يحرسونه باستمرار. في صباح أحد الأيام رأى من مخبأه أن الحراسة قد زالت، ولم يكن يعرف أن كونور كولدجا قد غادر المنزل. في مساء ذلك اليوم جاء اثنان من الركبان إلى القرية من ناحية قلعة كارا أوتكيل، وترجلا تقريبا بجوار الديس الذي يختبئ فيه أبدوفاخيت. وكان جنكيز أحد هذين الراكبين.

أرسل رفيقه إلى يورت زينب، واضطجع في مكان جاف في انتظار خبر من عندها، وسرعان ما خلد إلى النوم. تسلل أبدوفاخيت إلى جنكيز دون أن يدري شيئا عن العلاقة بين الأب وابنه. تفكر أبدوفاخيت، وقال "فيما يفضل ابنه ابنتي"، وقطع الرأس النائم بالفأس.



في صباح اليوم التالي دعا أبدوفاخيت حصان أغا سلطان كستنائى اللون القادم إلى الماء. جاء إليه الحصان بسهولة لأن العبد العجوز كان يطعمه من الحلمة عندما كان مهرا صغيرا. ربط أبدوفاخيت في عنق الحصان كيس يحوي رأس جنكيز، ثم جلد الحصن، وأسرع إلى معسكر كينيساري.

لم يغادر كونور كولدجا لمدة ثلاثة أيام فراشه، وقام فقط عندما دفن أقربائه ابنه. لقد كان يشعر في نفسه بالسعادة. ولكن الابن هو الابن، ويجب أن يظهر حزنه. وبعد أسبوع سوف تقام ولائم ذكرى فاخرة، في حين كان الأغا سلطان مشغولا بإعداد القلعة من الصباح إلى الليل لصد هجوم المتمردين.



II

كان كينيساري يسير في منزله الأبيض الغالي الكبير كنمر داخل قفص. لقد كان دوما ما يتصرف على النحو التالي: يقطب حاجبيه السميكيين، ويمسك بيده اليمنى مقبض خنجر العائلة، ويسير كثيرا عندما كان ينبغي عليه اتخاذ قرار بخصوص شيء ما مهم. كان في هذه اللحظات يشبه الوحش الضاري فقد كان عنقه يتصلب، وتصبح خطواته غير مسموعة، وتشتعل عيناه بنار شريرة. وخوفا من غضبه كان لا يستطيع أحد في ذلك الوقت أن يخرق خلوته. وبالسوء حظه من يقع تحت يده عندما يكون في مثل هذه الحالة.

واليوم استمر هذا الأمر بشكل أطول. وكان المعطف المعلق عليه رتبة العقيد والذي آل إلى كينيساري من أسلافه ملقى فقط على كتفيه، وكانت حوافه تطير عند الدوران.

بالأمس وصل أحد رجال الاستطلاع من ضفاف نهر سير داريا. وقال إنهم نقلوا كوش بيجي بيجديريبيك إلى أويلي آتا، وحل محله لياشكر بشكل مؤقت. وقد ساء وضع الكازاخ هناك جدا بسبب ذلك، ومن الممكن حدوث انفجار. وقد نقل الرجل شائعة أخرى شائعة عن علاقة حاكم كوكاند ماديلي خان الأثمة مع زوجة أبيه. ولم تكن القضية في عدم الالتزام بالقانون، ولكن في أن يحصل هذا الأمر على الانتشار والذيعوع. وهذا يعني أنه كان من المفيد لشخص ما أن يسقط خان كوكاند، وهذا ما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار.

لم يكن مصير كازاخ سيرداريا يقلق السلطان كينيساري، ولكنه كان يريد أن يستغل الوضع القائم للتزود بالقوات. ينبغي عليه الانتظار حتى ينضج خراج كوكاند بصفة نهائية، ثم سيتصرف بالتأكيد. ومن الممكن إضافة مائة أو مائة وخمسين ألف شخص إلى الخمسين ألفا الذين يتبعونه. وهذا بالفعل قوة كبيرة.

وماذا لو نضج الخراج، وتباطأ هو دون جدوى. وهل سيواصل الناس الذين جمعهم تحت لوائه بصعوبة طوال هذا العام الثقة به؟ ومن يعرف ربما يبدؤون في الغد التفرق في السهوب. إنهم كازاخ. إنهم يشبهون القطيع المكون من عدة الأف من الخيول غير المروضة. مثل هذا القطيع يندفع عبر السهوب ويمكنه أن يحطم كل شيء في طريقه. ولكن إذا عرف



العدو بتلك اللحظة الوحيدة المعروفة للرعاية المحنكين، وأخافه في المكان المناسب فإن القطيع يرجع للوراء. وحينئذ لاتستطيع أن توقفه بأي شيء لا بالإقناع، ولا بالسوط.

لا، لا يمكن السماح بذلك بأي حال من الأحوال. لذلك يجب إحداث مزيد من الضجيج والصراخ من الخلف لكي لا يرى القطيع الهائج أي شيء أمامه، ويندفع فقط إلى الأمام دون النظر إلى الوراء ويملاً الخنادق والأخاديد بالأجساد الدافئة، ويكسح جميع الحواجز.

حتى الآن لا يدهم رجاله سوى قرى السلاطين المعادية له، وينهبون القوافل على الطريق بين طشقند وكارا أوتكيل، ويشتبكون مع مفارز صغيرة من القوات الملكية. ومؤخراً استولوا على قافلة كبيرة للتاجر ستروجانوف وألقوا القبض على حراسها، الذين أطلقوا النار على محاربيه. والآن حان الوقت للانتقال إلى إجراءات أكثر جدية. وهذا ماينتظره منه الجميع، ومنتظره الغوغاء حيث أنهم لم يتبعوه من أجل مهاجمة القوافل. وإذا لم يظهر الآن للناس أنه يقوم بعمل عظيم، فإنهم ستبتعدون عنه، ويمضون إلى حال سبيلهم.

نعم، لقد حان وقت العمل. إنهم لا يردون على رسائله، ويعلم الجميع ذلك في السهوب. لقد أرسل بعضاً من تلك الرسائل إلى الحاكم العام لغرب سيبيريا الأمير جورتشاكوف يدعوه فيها إلى إجراء المفاوضات. إن قواته تتزايد، وكان يعول على أن الحكومة القيصرية ستبدأ أخيراً النظر إليه بعين الاعتبار.

لقد أرسل الرسالة الأخيرة منذ فترة قريبة في بداية شهر مامير من عام الكلب أوفي مايو عام 1838م وفقاً للتقويم الروسي. لقد كتبها مباشرة بعد العودة إلى ساري أركا بعد قضاء فصل الشتاء على ضفاف نهر تشو. وقد حمل هذه الرسالة إلى أومسك اثنان من رجاله الأوفياء تاييلدي، أوكيتيوييلي، وكوشيمباي كازا نجال أولي. إنه يذكر كل كلمة فيه، والآن وهو يخطو من ركن إلى ركن ويردد.

” إلى سعادة السيد الحاكم العام من كينيساري قاسيم أوغلو من منزل خان أبلاي. رسالته.

نود إبلاغكم بأننا نسعى لإحلال السلام والوئام بين مملكتينا. ولكن نما إلى علمنا أن سعادتكم تشكون في أننا نعوي قومكم بالانضمام إلينا. أريد أن أقول لكم أنكم قمتم من دون موافقتنا ببناء محافظات على أراض تابعة لجدي خان أبلاي، وفرضتم فيها ضرائبكم، ووضعتم رعايانا في ظروف لا تطاق. ونحن غير سعداء بهذا ولا يمكننا أن نستمر في طاعتكم ما لم يتم إلغاء هذه الضرائب. وكيف كنتم ستشعرون لو حدث نفس الشيء في المملكة الروسية؟ عليكم أن تفهموا موقفنا.



وقد ضمت بالحق المخول لي كإزاح مناطق بيان أوول، وكاركارالي وأكمولا. وندعو الله أن نستمر في توحيد أرضنا. وسيكون أمرا جيدا إذا ظللنا في التواجد بشكل مستقل، حينئذ لن يكون لديكم جيران طيبون أفضل منا.

ووفقا للشائعات التي وصلت إلي فإنكم تهدفون إلى تدمير علاقاتنا مع كوكاند وبخارى. ولكن يتعين عليهم كمشاركين لنا في العقيدة أن يساعدونا.

سيكون أمرا حسنا لو عشنا في سلام ووثام. غير أن رؤساء المقاطعات يحضرون إلى السهوب، وتحت ستار جمع الرسوم القانونية لإجراء الانتخابات ينزعون من الكازاخ أفضل الخيول، والأشياء الثمينة. وعلى الرغم من القانون الذي يقضي بعدم المساس بملكات الرجل الشخصية فإن موظفي المقاطعات لا يتخذون أية إجراءات ضد المبتزين، ويسمحون بالفوضى والنهب والعنف. ومن فترة ليست بالبعيدة سرق قومك زوجة الكازاخي أزينباي من مقاطعة جورتوبيل، وزوجتي اثنتين من أبنائه وابنته وكذلك إحدى الأرامل. ولا يعرف أحد المكان الذي يتواجدون فيه الآن.

ومن أجل الحفاظ على الصداقة الأبدية والسلام بيننا، فإنني أطلب منك ما يلي:

1. وقف بناء قلعة أكتاو.
2. هدم قلعة ومدينة أكمولينسك.
3. إغلاق جميع المؤسسات الحاكمة على الأرض التابعة لنا.
4. الإفراج عن جميع السجناء من رعايانا، كذلك إطلاق سراح الرجلين اللذين أرسلنا إلى السلطان كونور كولدجا.

أضع توقيعنا باسمي تحت هذه الرسالة وأؤكد لها بالختم.

أنا كينيساري قاسيم أوغلو ” أرشيف تاريخ كازاخستان السوفيتية، صندوق 82، القائمة 1، الوثيقة 164، ص. 15-16.“

حسنا لقد كتب كل شيء بشكل صحيح حتى التزام بخارى وكوكاند بمساعدته. ودع المحافظ يعتقد بإمكانية مثل هذا التحالف حتى يقدم لنا بعض التنازلات. ومن غير المرجح أن يتخيل كم الكراهية التي تسود بيننا.

لقد مضت ثلاثة أشهر على إرساله تلك الرسالة وحتى الآن لم يتلق أية إجابة. فلقد ألقى القبض على تابيلدي، وكوشيمباي اللذين كلنا بحمل الرسالة في الطريق من قبل أبناء كوشيك أتباع كونور كولدجا المعروفين. وقادوهما سيرا على الأقدام حتى أومسك. وقبل بضعة أيام تلقى خبرا مفاده أن رسله سوف يحاكمنا، ويرسلنا إلى سيبيريا.



هل من الممكن أن يستمر حفيد أبلابي في تحمل هذا التجاهل؟ لقد اقتنع بأنه دون هزة قوية لن يحسب له أحداً أي حساب. الآن أمامه طريقان. الطريق الأول أن يرضخ للملك الأبيض، ويحني رأسه أمام القذر كونور كولدجا وأبناء والي، وأن يسرح الناس إلى بيوتهم، ويسمتع مع زوجاته على الوسائد الحريرية. أو الطريق الآخر الذي اختاره بعد أقسم على سيف جده..

لن يولوه أي اهتمام مالم يظهر قوته وحزمه. ويجب البدء بقلعة أكمولا التي تقع في مفترق جميع الطرق. هناك يقبع كونور كولدجا ابن أوى الخسيس. ولا بد من دحر أيجانيم زوجة والي خان العدو للددو لأبناء قاسم توري في شعاب قرية ساريمبيت. يجب أن يعلم الأعداء أنهم لن يفلتوا من القصاص. ومن ليس معه لا بد أن يرتجف من اسمه.

اقترح عليه الأبطال أن يبدأ العمليات العسكرية بالهجوم على قلعة كوكيتشيتاوا لكنه رفض. فهناك مساحة صغيرة لعمل خياله ثم إن مدينة أومسك قريبة منها. ومن الممكن وصول تعزيزات إلى القلعة المحاصرة في أي لحظة. إلى جانب ذلك أليس هناك قد تقابل قاسم توري مع الجمل الأبيض ثم قتله؟ ولا بد أن تمضي سبعة أجيال حتى تنزع اللعنة عن عائلته. الآن لا يستطيع كينيساري أن يخاطر.

لا بد له أن يستولي على قلعة أكمولا بأية طريقة. فهي تقع في وسط السهوب، وسيؤثر خبر الاستيلاء عليها بشكل مباشر على مجرى الأحداث.

يجب الإسراع في فعل ذلك. فقد أخبروه بالأمس أنه يتم الإعداد لمرسوم الملك الخاص بتحصيل الضرائب من ساري أركا وفق الميثاق الجديد. وأنه سوف يمس في المقام الأول أولئك الذين تعرضوا للكثير من المضايقات من قبل موظفي منطقة كوكاتشاو ومنطقة كاركارالي والمناطق الأخرى، وحتما سيتم الإعلان عنه في سنة الكلب هذه في شهر كاراش أي نوفمبر. ولا عجب أن الخبر السهبي - "أوزون كولاك" - قد حصل على لقب "الأذن الطويلة". وهو دائما ما يصدق خصوصا عندما يتعلق الأمر بالضرائب والمضايقات الجديدة. إنه لم يستطع أن يؤلف أخبارا جيدة لنفسه. والناس من خبر واحد حول ذلك ستندفق أنهارا إليه!..

وماذا لو فشل في الاستيلاء على قلعة أكمولا؟ إن لديه جيشا مكونا من خمسة آلاف جندي لكن هل من الممكن أن تطلق على كل من فيه محاربين؟ ألن يولون الأدبار كجواد ضربوه بعضا على رأسه ما إن يتجرعوا مرارة أول هزيمة؟ ومن سيمضي قدما خلف قائد خسر المعركة؟..

ثم قد يكون بعد ذلك انتكاسات وهزائم، إذن فلا بد لنا من النصر في المعركة الأولى. وحينئذ سوف يقولون أن أسوار القلعة قد تهاوت من صوته فقط. هناك في قلعة أكمولا



يخفون تلك السجادة البيضاء التي سوف يرفعونه عليها فوق الأجزاء الثلاثة كما رفعوا فوقها من قبل جده النبيل.

ولكن هل سيسلم له كونور كولدجا وكارا إيفان هذه القلعة بسهولة؟ إن ارتفاع أسوارها ثلاثين قدما وحولها خندق عميق. وخلف أسوارها توجد مدافع وبنادق وحامية مكونة من خمسمائة رجل. ولا يمكن الاعتماد هنا على الشجاعة وحدها والبسالة.

يتعين علينا عمل ما نصح به أشرف الباشكيري. لو يعرف هذا الباشكيري المسكين مدى خطورة تقديم نصائح جيدة للسلطين. انهم لا يغفرون ذلك، وليس هناك شيء يمكنك القيام به حيال ذلك. ولا ينبغي لأحد أن يعتقد بأي حال من الأحوال أن نصيحة شخص ما جلبت النصر للزعيم. - إن كينيساري هو النصر، وليس لأحد غيره علاقة به..

لقد جاء إليه من عند جولمان باتير اثنان من الباشكيريين. ولكن اتضح أن المدافع يستطيع صيها دافليتشى وحده. خصص له كينيساري خمسة من الحدادين الكازاخ، وأمر بجمع القذور والحوامل ثلاثية القوائم اللازمة من القري، وحدد مكانا للسبك في وادي كورجاسيندا. أما أشرف الذي كان أبوه مشاركا في ثورة الروسي بوجاتشوف مع الباتير سالافات فقد أبقاه معه.

بماذا نصح هذا الأشرف أن نفعل؟.. فجأة تذكر كينيساري بوضوح ابتسامته وذلك الحديث الأخير قبل ثلاثة أيام. بعد أن حكى السلطان عن قلعة أكمولاسأل الباشكيري كأنه عن دون قصد كيف استطاع محاربو سالافات أن يستولوا على هذه الحصون.

سأله أشرف:

- وكيف تفعلون ذلك؟

حينئذ أوما كينيساري برأسه موافقا، وقص عليه كل شيء بالتفصيل. يتحرك الكازاخ كما كانوا يفعلون منذ ألف سنة بكتلة صلبة من الجياد من أجل الاقتحام. ومن الصيحة القتالية الرهيبة يتجمد الدم في عروق العدو، وترتجف أيديهم، حتى أنهم لا يستطيعون أن يسحبوا وتر القوس كما ينبغي. وبعد أن يملأ طوفان الجياد الخندق مثل الموجة التي تصعد للأعلى يتدفق عبر الحائط مباشرة فوق أكتاف المدافعين..

قال أشرف ببساطة:

- لا، بهذه الطريقة القديمة لا يمكن الاستيلاء على قلعة جديدة حيث يوجد المدافع والبنادق.

صمت السلطان ثم سأله :

- لماذا تعتقد ذلك؟



- إنني أتذكر ما قاله أبي. لقد اندفع ذلك الطوفان إلى الخندق، ولكن قبل أن يخرجوا من هناك تمكن جنود زوجة بوجاتش الخائنة الملكة ياكاترينا من حشو بنادقهم بالرصاص مرتين، ثم أطلقوا نيران مدافعهم في الصميم. فكان ولا بد من القتال بشكل مختلف.
- كيف؟

- والآن يمكن حشو البنادق بشكل أسرع، وكذلك المدافع.
- حسنا؟

غامت أعين كينيساري من الغضب، ولكنه كان يبدو هادئا ويقظا. قص عليه أشرف بهمة وبالتفصيل ما فعله بوجاتش وسالافات في مثل تلك الأحوال. لقد كان تكتيكا سهيا قديما نقلته قبيلة ساكي إلى الكيشاك والمغول، ولكن اتضح فجأة أنه الآن نجع ضد المدافع والبنادق.
وذكره الباشكيري قائلاً:

- لا تنسوا أن في القلعة الكثير من البيوت الخشبية. - وكان سالافات دائما ما يأخذ ذلك في الحسبان.

بعد ثلاثة أيام قضى أشرف الباشكيري نخبه في الغابة عرضا بسبب شجرة سقطت عليه. لقد أرسل مع جلاد السلطان الكئيب ذى الأيدي الطويلة كارا أوليك ليدخن القطران. وكانت قبضة كارا أوليك أثقل من الهرواة المغطاة بالحديد فتحطم عنق أشرف الصادق مثلما تتحطم قطعة الخشب. لم يقل السلطان شيئا لكارا أوليك ولكنه اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه. وكان عليه أن يتسامح مع ذلك. فهذا هو قدر الحاكم. لم يكن الباشكيري يريد إلا الخير عندما أعلم السلطان كيفية الاستيلاء على القلعة. وماذا في ذلك؟ ألم يسلب أبلاي بيديه حياة عبده المخلص أوزازكي لا يكون ممتنا لأحد في هذا العالم. وكان الجد يفتخر بلقب "أبلاي الدموي". أما والده قاسم توري فقد ولد مع حفنات كاملة من الدم. وهل سيأسف كينيساري على أحد الباشكيريين إذا وضع أمامه مثل هذا الهدف. عندما تذهب إلى السلطنة يكون من الضروري سفك دماء البريء أكثر من الجاني. إن الشفقة لاتولد إلا الضعف الذي لا يليق بالزعيم الحقيقي.

قال كينيساري وكان أول من ألقى حفنة من الرمال على قبر أشرف:

لتكن أرضنا لك أنعم من الزغب. ودفنوا الباشكيري الهارب الملفوف في الكفن الأبيض بشكل لائق، وحضر جنازته أفضل الناس.

الآن لم يكن كينيساري يفكر في أشرف البتة. في البداية يجب أن يجمع أشجع المحاربين ويطلب منهم المشورة. وعندما يتحدث كل واحد منهم، يجب عليه أن يقول



كلمته القوية التي تليق بالقائد. وعندما يستولون على القلعة، سيقتنع الجميع بقدراته الموروثة.

فجأة سمع حفيفا فالتفت بحدة وقال.

- من هناك؟

لقد كانت بطبيعة الحال كونيمجان زوجته الأولى. لم يكن أحد غيرها يستطيع أن يدخل عليه في تلك اللحظات عندما كان يفكر. لقد أصبح ذلك قانونا، وكان يعاقب من ينتهكه بطريقة أشد ممن يقوم بالخيانة. إن الزعيم يجب أن يكون في وضع خاص خاصة وأنه سوف يصبح خائفا.

لاحظت كونيمجان على الفور في أي حال هو، وسارعت إلى تبييد أفكاره بضحكة مرحة.

قالت بصوت عال:

- ياسيدي التوري إنه ينتظرك.

لم يفهم السلطان وقال:

- من؟

- إنك قد أطلقت عليه. المجلس على ما يبدو.

ابتسم كينيساري رغما عنه.

- كلهم جاءوا، كل هؤلاء المحاربون الكبار، وينتظرونك بالفعل بقدر ما يكفيني

من وقت لحلب فرس.

أوما كينيساري وقال:

- لنذهب..

ذهب مع كونيمجان إلى الخيمة التوأم المجاورة المسماة على الطريقة الروسية مقر القيادة. وقد جاء إلى هناك جميع المحاربين الأشداء ناوريذباي، وأجيباي، وكودايمندي، وبوخارباي الأسمر ذي الشوارب الطويلة، والمقاتل المعروف بأسيجارا المنضم إليهم مؤخرا من عشيرة أتيجاي، والباتيران جانايدار، وتوليبياي من ألتاي، والباتير الشاب بايتابين الذي أرسله جولان، وآخرون. وبالإضافة إلى إليهم تواجدت في الخيمة شقيقة كينيساري بوباي الشهيرة، وشقيقه السلطان أبيلغازي، وبالقرب من المغني العراف نيسانباي جلس بجوار الباب خلف مائدة كازاخية مستديرة غير عالية المستشارون: سايداك أوسبان أوغلو أقي



الأنف، والشاعر البولندي أزرق العينين جوزيف جيربروت المسمى في السهوب جوسوب، وجلس أعلى منهم، التتاري الأشقر ذو الجبهة العريضة والعيون الرمادية الذكية عليم يا جودا أوغلو كونه أكبر منهم سنا. وفي الجانب جلس على صندوق كبير للمستندات الرجال الثقات رئيس الحرس الباشكيري باتيرمورات، وصديق ناوريزياي الجندي الروسي الهارب نيكولاي جوبين.

عندما دخل كينيساري قام الجميع عاقدين أيديهم على صدورهم، وانحنوا له. انحنى لهم بالمقابل، وجلس على صندوق كبير مغطى بسجادة بخارية من الصوف والذي يوجد مقابل الباب تحت الراية الخضراء. وجلس الآخرون على السجاد عاقدين أرجلهم.

بدأ كينيساري على الفور:

- أيها المحاربون البواسل وقادة جميع الأجزاء الكازاخية الثلاثة. - لم نرى يوماً واحداً من الهدوء منذ أن بدأنا قضيتنا النبيلة. لقد كانت هناك مصاعب ومشاق لكننا تغلبنا عليها جميعاً. إن الشعب الكازاخي الآن يشبه النهر المضطرب أثناء الفيضان الذي ملئ مجراه، واندفع إلى العراء. إن الفرسان يطمحون إلى القتال، وليس هناك معنى من منعهم. ولكي لا نفقد ثقة الناس يجب علينا أن ننتقل من المعارك الصغيرة إلى حرب حقيقية. لذلك قررنا اقتحام قلعة أكمولا.

أجابوه بتنهدة عامة سعيدة وقالوا:

- رأي صائب..

- لقد حان الوقت..

- كان الله في عوننا..

أشار كينيساري بيده إلى ورقة أمام يوسف جيربروت وقال:

- يا جوسوب اقرأ للفرسان كل ما فعله جلاذو الملك الأبيض على أرضنا.

وقفت جيربروت، وبدأ في قراءة التقرير المكتوب سلفاً باللغة الكازاخية مع لهجة طفيفة.

قرأ جيربروت:

- "إن جنرالات الملك الأبيض يعدوننا متمردين ولصوص. - وقد أمرقائد منطقة أومسك الجنرال تاليزين بتشكيل وحدات خاصة في جميع الحصون الحدودية لقتالنا. لقد قال صراحة: "إن مهمتكم هي القضاء على اللص كينيساري وإعادة السكان الهاربين إلى



أقاليمهم. ” ولتنفيذ هذا القرار أرسل بعض الوحدات لتعقبنا.“

قال له كينيساري بلهجة أمره:

- أخبرنا بكل ما فعلوا.

- لقد نهبت فرقة قوامها خمسمائة جندي تحت قيادة أتامان لبيديف في شهر ماوسيم - يونيو من هذا العام جنبا إلى جنب مع رجال الأغا سلطان قرى عشائر كاربيك وتيميش اللاتي تتجول على ضفاف نهري تورجاي وجانديري كوروبي، وفعلت نفس الشيء في قرية السلطان سارجان حيث قتل الجلادون أربعمائة شخص، وأسروا مائة آخرين من بينهم بايدي بك.

نفد صبر كينيساري فأشار كينيساري بيده قائلاً:

- وماذا بعد ذلك؟

- نهبت فرقة قوامها خمسمائة شخص بقيادة الأغا سلطان كونور كولدجا، والعقيد كاربيشيف في شهر شيلدي - يوليو من هذا العام قري كوشيك سلطان، والميرزا سايداك اللاتي تتجول في أيركوم. وقد قتلوا نحو خمسين شخصا من بينهم نساء، وأسروا ثمانين شخصا آخرين.

لوح كينيساري بذراعه وقال:

- كفى.. ماذا سنفعل لمنع هذا؟ قص علينا هذا الأمريا سايداك ميرزا..

لم يتعجل الميرزا سايداك خودجا وهو رجل في منتصف العمر ذو شارب جميل وحركات ناعمة ولطيفة في الوقوف من مقعده، ثم قال وقد أحاط الجالسين جميعا بنظرة واحدة:

- عندما نتاح لنا الفرصة فإننا لا نسمح بذلك. - لقد خضنا بعض المعارك ضد فرق أرسلها قائد قلعة أكتاو سيمونوف. وذات مرة هرب العقيد سيمونوف نفسه، وترك في ساحة المعركة عشرين قطعة من البنادق والمسدسات بحشواتها من الرصاص الأمر الذي كان ذو منفعة كبيرة لنا. وخلال ذلك الوقت استولينا على مئة وخمسين بندقية وحوالي مئة مسدس ومئتي سيف بتار والكثير من الأسلحة الأخرى والذخائر. وبالطبع فإننا نهاجم بصفة رئيسية قرى الأغوات السلاطين الحكوميين والبكوات الظالمين المشاركين في الحملات العقابية ضدنا. وفي هذا العام أخذنا منهم مليون رأس من الماشية والكثير من الخيرات.

قال له كينيساري مصححا ما يقول:

- ليس فقط في القرى.



- نعم وكذلك تتضمن القوافل التي استولينا عليها، وما أخذناه من موظفي الملك مثل ضباط الشرطة والرقباء والمترجمين. وكذلك حصلنا على غنيمة كبيرة بالقرب من قلعة أكتاو. لقد أخذنا جميع الماشية التي كانت في حوزتهم.

سأله كينيساري بصرامة وقد عدل كتافة العقيد بحروفها الملكية القديمة:

- هل كانت هناك شكاوى بحقنا من قبل الفلاحين الروس؟. إنني أتحدث عن أولئك الذين يزرعون الحبوب وليس من يبنون الحصون ضدنا.

- تقريبا لا. لقد ورد إلينا من جميع المزارعين بمنطقة كاركارالي حوالي مائة روبل.

في الواقع لقد ورد من هناك أكثر من ذلك بكثير ولكن كينيساري طلب من سايدك خودجا قبل ذلك تقليص هذا الرقم إلى مائة روبل رمزية. لقد كان يعرف أمزجة البعض من محاربيه من عامة الناس.

انفعل فجأة أجيباي باتير لدرجة أنه قفز من مكانه وقال:

- نعم هذا صحيح. - ليس عندهم ما نأخذه. إنهم ليسوا أعدائنا.

أوما العديد من المحاربين بالموافقة، ونظر إليهم كينيساري نظرة طويلة ثابتة. جلس أجيباي باتير بارتباك منزعجا من حديثه المفاجئ. وأشار السلطان لسايدك ميرزا بمواصلة حديثه:

- إذن فدخلنا الرئيسي يأتي من الأغوات السلاطين والتجار وموظفي الملك. وأخذنا من قرى أبناء كودايمندي عشرين ألفا الخيول. والآن لم يبق رجل من رجالنا إلا ولديه جواد أصيل ومعه جوادين احتياطيين من أجل التبديل في المسافات الطويلة.

لوى كينيساري شفثيه وقال:

- إن كونور كولدجا يشتكينا في رسالته التي أرسلها إلى أومسك. - لقد كتب أننا أخذنا منه شخصا اثني عشر ألفا الخيول.

ابتسم سايدك خودجا بتكلف وقال:

- وماذا نكتب له أيضا؟ إنه لا يخدع السهوب فحسب ولكن يخدع الملك نفسه والمحافظ. حيث أنه وفقا للمرسوم الصادر في عام كويان- الأرنب فإن الأغوات السلاطين الذين يملكون أكثر من خمسة آلاف رأس من الماشية يدفعون ضرائب على الماشية الزائدة مثلهم مثل الجميع. وهاهم أبناء كودايمندي المبجل قد أكدوا للسلطات أن لديهم اثني عشر ألفا رأس من الماشية. وأن الثمانية آلاف الزيادة قد جاءت إلينا، على الأرجح، من الله. على أي



حال لم تتضمن الشكوى أي ذكر عنهم. وفيما يخص كونور كولد جا سيكون الأمر أسوأ إذا أعطيناهم البيانات الصحيحة.

قال كينيساري بشكل جدي:

- لا يجب أن نسيء إلى شخص طيب أمام السلطات.

فضحك الجميع.

- لقد كنا نظن أننا أخذنا من الرجل الفقير كل جواده، ويقولون هنا أن لديه في إحدى الجزر البعيدة في يسيل ثلاثة آلاف من الجياد البيضاء كما السكر الروسي. الآن لن يستطيع أن يتقدم بشكوى لأنه وفقا لمصلحة الضرائب فإننا قد سلبناه كل ما يملك. وهاهو أجيباي باتير كل يوم يتسائل: متى سيسمح له كينيكى بأخذ هذه الخيول الضالّة.

قال كينيساري بنشاط وقد تغلى عن جميع النكات:

- هذه الجزيرة بعيدة جدا عن هنا... والآن لدينا مشاغل أكثر أهمية. وإن شاء الله لن تغفلت منا هذه الخيول البيضاء.

هتف بوخارباي الذي لم يكن لديه في أفضل الأوقات أكثر من جوادين من شدة المفاجأة:

- يا الله! - وهل يوجد على الأرض مثل أولئك الأغنياء!

قالت بوباي بغضب:

- لهذا السبب يختبئون خلف الملك الأبيض.. إنهم يحتاجون إلى قلاع على أرضنا. ومها اقتطعوا للمهاجرين من أرض فلا تزال الأراضي والمراعي الخصبة في حوزة ذرية ساميكى ووالي خان. وإنهم على استعداد لبيع أرضهم وأرواحهم من أجل الحفاظ على قطعانهم.

انظروا إلى ما يفعلون فأحدهم يحكم في يسيل وفي السهول الفيضية لنورا، والآخر يحكم في سفوح ساريمبيت حتى شوبار وكوشمورون. ويمكن وضع ماشية هذه البلدات الثلاثة كاملة في ممتلكات أرملة والي خان أجانيم الخبيثة وحدها! إلى متى سنتسامح مع حيلها وشرها؟ ألم يحن الوقت لسحقها هي وكونور كولد جا؟..

لمعت عيناها، ومدت يدها لأخيها بشكل مطالب. نظر كينيساري إليها بثبات. وأخيرا أوما برأسه قائلا:

- لن يهاجم أي محارب يحترم نفسه قرية تملكها امرأة. إذا لم تأخذك رافة بأقارب زوجك فافعلي ذلك بنفسك.



أعجب الفرسان بدهائه وقالوا:

- هذا صحيح..

- قرار حكيم.

- لن نتدخل في أمور النساء.

فكر كينيساري في شيء للحظة، ثم التفت مجدداً إلى أخته قائلاً:

- نعم وهذا ما سنفعله. في طريقنا إلى وطننا اذهبي إلى قرية والي خان. واقتادي ماشية

بلدة أمانكاراجاي إلى ناحيتنا.

صفقت بوباي بيديها من الفرح وقالت:

- وفيم الانتظار؟ إن جنودي سوف يقومون بهذا الأمر على الفور.

حول كينيساري رأسه إلى سايداك خودجا وقال:

- هذا أمر صائب: - اكتبوا إليها أمراً بأن تصل بلدة أمانكاراجاي في خمسة أيام. ثم

تأخذ يوماً للراحة في أحراش نبات الديس، وفي صباح اليوم السابع تشنون الهجوم. وفي اليوم

نفسه سنقود قواتنا الرئيسية لمهاجمة قلعة أكمولا..

قال جانايدار باتير الذي فهم خطة السلطان:

- لا يجب على جنود بوباي أن يتخفوا كثيراً في طريقهم إلى أمانكاراجاي.. وإذا

تحركت من أومسك بعض القوات لدعم قلعة أكمولا فإنها ما إن تعلم عن تحرك فرقة

بوباي فستغير مسارها إلى أمانكاراجاي. عندئذ لن ينتظر كونور كولدجا المساعدة التي

طلبها..

أوماً كينيساري برأسه فانتعش الفرسان وقالوا:

- أخيراً سنخوض المعركة.

- فليغادر النوم عيون الكلب كونور كولدجا.

- يجب أن يكون وسط السهوب نظيفاً. سوف نزيل قلعة أكمولا من على وجه الأرض.

- رفع كينيساري يده وقال بعد أن تفحص بعينييه جميع الجالسين:

- والآن لنفكر في كيفية فعل ذلك بشكل أفضل. - إن جدران القلعة عالية. علاوة

على ذلك فإنها محاطة بخندق يبلغ عرضه عشرة أقدام أشخاص ممدودة وعمق خمسة من

نفس هذا القياس. وينقطع هذا الخندق عند بوابتين فقط، وهناك يمكن لأربعة فرسان

فقط على خيولهم أن يمروا وراء بعضهم البعض.



لوح ناوريزباي بلا مبالاة:

- بالنسبة لنا هذا يكفي. - المهم أن يكون هناك طريق حتى لفرد واحد..

نظر السلطان إلى أخيه بمحبة خفية وقال:

- أه يا ناو نجان. وهل كونور كولدجا وكارا إيفان طيبون لدرجة أنهما لن يطلقا البنادق والمدافع حين تعبر هذه البوابات؟ وإذا تجاوزت الخندق فكيف ستمر بعد ذلك عبر الأسوار؟ وعلى الرغم من أننا أكثر منهم عددا فإن السير في طريق مستقيم يعني أننا نضحي بمقاتلينا دون جدوى لذلك فإنني أنتظر اقتراحاتكم.

ساد صمت عميق في خيمة القيادة. وجلس الرجال الكبار الأقوياء منكسون رؤوسهم، ويهرشون خلف أذانهم، ويمسدون السجاد عند أقدامهم. لقد جمعوا قبضة قوية وحين حان موعد الضرب تعلقت في الهواء بلا حول ولا قوة.؟ وما العمل بعد ذلك؟ إن قلعة أكمولا هي الجوزة الأولى فقط. إن بها مائتين من الجنود أو ثلثمائة، وأربعة مدافع. أما الملك الأبيض فلديه مئات القلاع وعدد لا يحصى من الجنود وآلاف المدافع. فهل هناك أي معنى لهذه الانتفاضة؟..

رأي كينيساري كل ذلك، وتقطبا حاجباه. إذا كان مزاج المحاربين الأكثر شهرة قد تغير هكذا حتى قبل اقتحام القلعة فماذا يمكن أن يحدث إذا تعرضوا للفشل؟ إن الناس في حاجة إلى النصر..

سألهم كينيساري:

- هل نتخلى عن فكرة الاستيلاء على قلعة أكمولا ونعود إلى منازلنا؟

تحدث الباتير أجيباي للمرة الثانية في ذلك اليوم فقال:

- لا تقل هذا يا توري.. فعندما يكون بالكبد شظية فإنها تؤلم في كل دقيقة ما

بقيت في مكانها. يجب تدمير قلعة أكمولا.

- وكيف نفعل هذا برأيك؟

- إنني لست قائدا، ولكنني محارب فقط. اطلب مني الشجاعة في القتال، وعاقبي إذا أظهرت الجبن. وأقول أيضا أنه لا توجد مثل هذه القمة التي لا يمكن للنسر أن يصل إليها. لذلك لا توجد أمامنا عقبات لا يمكن التغلب عليها. وفي رأيي أنه ينبغي أن نضرب حصارا محكما حول قلعة أكمولا بحيث لا يمكن لأي فرد أن يخرج من هناك. ومن يظهر على السور سيرحب به سهم متقن.



- ما رأيكم أيها المحاربون؟ - وبما أن المحاربين التزموا الصمت واصل كينيساري حديثه فقال: - لقد قدم لنا أجيبي الأمر نصيحة جيدة ويوما ما سوف نستخدمها. ولكن هل سنستطيع بهذه الطريقة أن نستولي على قلعة أكمولا بسرعة؟ وأهم شيء بالنسبة لنا هو السرعة. وإذا صمدوا خلف أسوارهم حتى وصول التعزيزات من أومسك فهذا يعني أننا خسرنا الحرب.

قال بوخارباي باتير:

- يجب تسلق هذه الأسوار في الليل. ويقال أن تينتك توري هجم على سايرام وسوزاك بالليل وإلا ما استطاع أن يستولي عليهما.

هز السلطان كتفيه وقال:

- إن الليل مثل حصان أعمى. - ومن الممكن أن يحملك إلى الأصدقاء والأعداء على السواء. وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان لدى التوري في سايرام وسوزاك رجال يدينون له بالولاء فتحوا له البوابات في الليل. ولكن ليس لنا في قلعة أكمولا مثل هؤلاء الأصدقاء. إن الجنود والحراس الأكثر ولاء قد تركوا هناك. كما أن بعض العائلات النازحة وصيادي الأسماك من بحيرة كاراسو والذين نقلناهم بأنفسنا إلى هناك نساء وأطفال.

قام الباتير باسيجارا الضخم من مكانه بصعوبة وقال:

- يا توري - نحن مثل كل المؤمنين نعتمد على الله قبل كل شيء. ومن بعده نعتمد عليك فقط يا سلطان. لذلك قل لنا ماذا نفعل والإا سصيبنا ألم بالرأس قبل المعركة. وإذا لم تستطع التوصل إلى حل فاللوم يقع عليك. أما إذا استطعت ولم نتمكن من تلبية طلبك فاللوم يقع علينا. ولكني أعتقد أن الله يسمع كل شيء حتى الهمس ولسوف تجد لنا وسيلة لاخترق أسوار قلعة أكمولا.

جلس كينيساري بعض الوقت في صمت، ثم هز رأسه، وصنع علامة بيده. أحضروا له مفرشا أبيضاً كبيراً، وبدأ يضع عليه حباب الخرز السوداء والبيضاء. وشرح لفترة طويلة كيفية الاستيلاء على القلعة، وحدد مهمة كل واحد أثناء الهجوم. والآن وثق المحاربون المحبطون في إمكانية النجاح، وأصبحت وجوههم مرة أخرى حازمة.

اختتم كينيساري حديثه قائلاً:

- إذا كنتم تعتقدون أن حساباتي صحيحة فلنتوقف عند هذا الحد.

أوماً المحاربون برؤوسهم علامة الموافقة وقالوا:

- فليساعدنا الله.



- إن شاء الله سيحالفنا التوفيق..

أوماً كينيساري وقال:

- أكتب.. وهذا سيكون أمرنا الثاني. في صباح الغد سنجمع جميع الناس، وسنريهم كيف يمكننا الاستيلاء على القلعة. وسنعتبر أن التل الكبير في شمال القرية كأنه قلعة أكمولا.

- سنفعل ما أمرت به أيها التوري.

- نظر جوسوب أو يوسف جوربروت بدهشة إلى كينيساري. كيف تأتي لهذا السلطان السهبي الذي لم يقرأ أبدا المؤلفات العسكرية والتاريخية أن يتحصل على مثل هذه المعارف؟ أم هي لديه بالسليقة؟ إذن فقد اختار الشعب زعيمه بشكل صحيح على الرغم من أنه سلطان من حيث الدم. وعاجلاً أم آجلاً ستتباع مساراتهم. إن السلاطين لا يجلبون السعادة للناس.

وعندما هموا بالخروج سمعوا خلف جدار اليورتا جلبة وصرخة أحد الأشخاص. أسرع الباتير مورات وجوبين بالخروج لكي يعرفا حقيقة الأمر. عاد رئيس الحرس كارا أوليك المحارب الذي انضم إليهم مؤخراً وذكر أنه الشاعر أريستان. لقد أرادت النساء بنفسها أن تنتقم منه ولهذا السبب حدثت هذه الضجة.

قال كينيساري:

- أحضروه إلى هنا.

كان أريستان شاعراً فقيراً من عشيرة أجيباي، وكان في وقت ما أحد أفراد فرقة سارجان. وفي السهوب يقدررون بشكل خاص الطرافة والبلاغة، وكان هذا الشاعر يمتلك منهما الكثير. علاوة على ذلك فقد كان يعرف التقاليد الكازاخية القديمة، ويمكنه أن يغني من المساء حتى الصباح عن مآثر الأجداد. لكن كانت شخصيته متقلبة وعنيدة. وذات مرة غضب بسبب عدم الاهتمام من جانب كينيساري فذهب إلى كونور كولدجا، وأصبح دليلاً دائماً للفرق العسكرية التي كانت تصور خريطة السهوب. وسجل أغانيه ضابط طوبوغرافي روسي شاب، ودفع له مبلغاً من المال مقابل ذلك. وفي السهوب كانوا يكرهونه معتبرين إياه المسؤول عن تدمير القرى وعن دم ودموع أحبائهم. مثل هذه الأمور لا يغفرونها خاصة لأولئك الذين كانوا منذ عهد قريب يتغنون بالحرية والبطولات الشعبية. وكان فرسان كينيساري يطاردونه منذ فترة طويلة.

في الواقع كان كل ذنب الشاعر أريستان يتمثل في أنه دل الطوبوغرافيين على الطريق. إنه لم يقتل أحداً أبداً، وكان يعتقد أنه يفعل الصواب. وفي نهاية الأمر إذالم



يدلهم هو على الطريق فسيفعل ذلك شخص آخر، كما أنهم يدفعون له جيدا ويطعمونه في نفس الوقت. إن البعض يتكسبون رزقهم من ماشيتهم، ويتكسب البعض الآخر من أرضهم، أما من الشعر فلن تشعب بشكل كاف. فماذا يفعل الرجل الفقير الذي لديه حصان واحد أعرج؟ وهناك قول مأثور يقول: اكسب المال حتى ولو بغسل ذيل حمار. وهكذا فعل. أراد كينيساري الذي لم يكن يحب أريستان لسبب ما أن ينتقم منه كتحذير للآخرين. والآن أدخل رجلان إلى خيمته رجلا عجوزا ضئيلا بذقن مثل الوتد يشبه الصقر.

كان الشخصان اللذان يسحبانه من ذراعيه من ذوي الشهرة في السهوب. كان أحدهما الشهير كارا أوليك الجلاد الرئيسي للسلطان كينيساري الذي كان كل اصبع من أصابع يده يعادل ذراع طفل حديث الولادة. وكان الشعر الخشن على صدره متجدد بشكل كثيف مثل الميرمية السهبية، وشفاته متدللتان بشكل كبير، ولم تكن عيونه المائلة الصغيرة التي تشبه عيون القط تطرف أبدا. لم يعرف الشفقة قط في حياته فلقد كان شخصا قاسيا مثل الوشق، وضخما كالفيل، وأسودا كالسحام. وقد ظهر كارا أوليك في حياة كينيساري بمحض الصدفة فقد قبض عليه متلبسا بالسرقة، وأراد أحد التجار من سوزاك أن يعده. فافتدى كينيساري العملاق الأصم الأبكم بجمل أسود. وأطلق عليه لقب "الجمل الأسود". لم يشتريه كينيساري بمحض الصدفة. فقد كان كارا أوليك مخلصا للسلطان إخلاصا شديدا، وكان يتميز بصفة مريحة. كان لعدم سماعه الكلمات يحرق في عيون سيده، وينفذ ما كتب فيها. وهل حدثه السلطان عن هذا الباشكيري المسكين الذي قص عليه كيفية استيلاء بوجاتش الروسي وسلافات على القلعة؟ والآن لم يعد أشرف قيد الحياة.

ومن الجانب الآخر أمسك أوجار الشاعر أريستان الذي خارت قواه بسبب الضربات. لقد جاء إلى هنا منذ شهر. ولقد استقبله كينيساري بكل سرور كمستشار عسكري للباتير سيتين، وزوج ابنة الشهيد العظيم تايجان. وقد خصص له السلطان منزل يورت لائق، وأعطاه ماشية وكفل له كل الضروريات. وبعد عشرة أيام بالضبط من وصوله أرسل سامين الاصب النشيط إلى كونور كولد جا مع تقرير مفصل عن عدد المحاربين في جيش كينيساري وحالتهم المزاجية وكفائتهم القتالية. واليوم منذ الصباح يحاول أن يدخل إلى يورت القيادة لمعرفة ما يقولون في المجلس العسكري للثوار. فقد أدرك حين رأى الفرسان المعروفين والقادة مجتمعين أن هذا ليس من قبيل الصدفة. لكن كان مجرد الاقتراب من يورت القيادة أمرا مستحيلا فقد كان جميع حرس السلطان البالغ عددهم أربعين شخصا واقفين على جميع المداخل، ولم يسمحوا لأحد بالمرور. وبعد أن أصيب أوجار باليأس من معرفة أي شيء سمع فجأة أنهم قبضوا في مكان ما على أريستان الكريه، وأنه الآن يرقد



في يورت السجن مضروبا ومقيدا.

شرع أوجار في تأجيل العاطفة، وطالب بأن يأخذ الخائن إلى السلطان من أجل أن يحاكم، ويعاقب بأقصى سرعة. لقد أراد أن يقنع كينيساري بحميته وكرهيته للخونة وفي الوقت نفسه يمكنه أن يشم ما اجتمعوا من أجله كل هذه المدة الطويلة. واللبيب بالإشارة يفهم.

ما إن رأي أريستان السلطان كينيساري حتى شرع في البكاء، وألقى بنفسه على قدميه وقال:

- يا مولاي السلطان إنني نعمة حقيرة ضالة. أنا بريء مما يقوله هؤلاء الناس. إنني كنت أدل العلماء الروس مساحي الأرض على الطريق لأكسب لقمة عيشي. اغفر لي هذه المرة، وسأبقى عبدك إلى الأبد..

لم يهتز أي عرق في وجه كينيساري الحجري غير أن لونه صار أبيضاً بسبب الغضب. ولم ينظر ولو لمرة واحدة إلى الشاعر أريستان الملقى على قدميه.

قال كينيساري بصوت رزين:

- إن من يخون وطنه يكون مثل الحصان الذي أصيب بمرض الرعام. - ولكي لا يصاب القطيع بالعدوى ينبغي التخلص منه. لذلك ليس هناك سوى قرار واحد وهو الموت وعدم السماح لأحد بعد ذلك بالاقتراب من جثته..

عض يوسف جيربورت شفته. ثم قال حسنا إنه قرار قاس ولكنه صائب. إذا أردت بالفعل الحفاظ على الاستقلال فلا بد للناس أن تخاف من التواصل مع العدو بأي شكل من الأشكال. ولا بد من وجود ضحايا في القتال، وليس هنا أي فائدة لنبل النبلاء. وإنه يدرك ذلك جيدا..

ولكن لماذا لا يؤيد المحاربون السلطان هذه المرة؟ أنهم جميعا أحوار رؤوسهم، ويحاولون ألا ينظروا في وجهه. ولماذا حزن ناويرزياي الذي عادة ما يلتقط كل كلمة يقولها شقيقه الأكبر كأنها وحي ثمين؟..

ما هذا؟ كأنهم هم الذين حكم عليهم بالإعدام وليس هذا الرجل البائس الذي يرقد على الأرض فاقدًا للوعي. إنه شعب عجيب فهم أثناء القتال قساة لا يعرفون الرحمة ولكن عندما يأتي إليهم شخص مذنب فإنهم على استعداد أن يصفحوا عن عدوهم اللدود.

وها قد وقع هذا الأريستان في أيديهم والذي كان القبض عليه بمثابة حلم للكبار والصغار كي يقطعوا رأسه. ولكن بعد أن شاهدوه بذقن مبللة بالدموع يتوسل طلبا



للرحمة ارتجفت على الفور قلوبهم القاسية. لكن الأتتشابه في هذا جميع الشعوب. وبدا كأن كينيساري لا يلاحظ المزاج العام. فكيف سيتصرف الآن؟..

تفحص السلطان المحاربين القانتين مرة أخرى بنظرة هادئة، وخفض يده بحزم مشيراً بإصبعه إلى أسفل وقال:

- هنا في هذا المكان سوف يقطع الآن كارا أوليك رأسه القدر.

أحنى المحاربون رؤوسهم أكثر. وساد هدوء مطبق لدرجة أنهم كانوا يسمعون النسيم السهبي الرقيق يلعب فوق منزل اليورت. لم يجروا أحد منهم أن يقول شيئاً كما أن قولهم لم يكن يجدي نفعاً. فالكلمة التي يقولها السلطان لا يمكن أن يغيرها أحد حتى هم أنفسهم.

أيد يوسف جيربروت ذلك الأمر. إذ يجب على الزعيم أن يعود الناس على الانضباط الحديدي والإسيكون الحال كما هو الحال في وطنه حيث يعتبر كل نبيل نفسه زعيماً.

عاد أريستان إلى وعيه، ورفع رأسه، وجلس القرفصاء بعد أن اقتنع بعدم جدوى توسلاته. عدل ثيابه، ونظر مباشرة إلى كينيساري، وبحركة حادة أبعد يد كارا أوليك ذات الشعر الكثيف الممدودة بالفعل بسكين إلى حنجرته.

قال وهو ينظر إلى كينيساري:

- إذا كنت ترغب في تذوق دمي فأصبر قليلاً فسوف تفعل لاحقاً. - إنني أريد بموجب القانون أن أتكلم يا سلطان. لقد أمرت بقطع رأسي ولم تأمر بقطع لساني.

- تكلم.

تنحى كارا أوليك جانبا وفقاً لإشارة السلطان. قفز أريستان وهز نفسه كطائر يستعد للطيران. نظر إلى كينيساري كما في السابق بعيون متقدة، وشرع في الغناء:

انظر لي بعين العطف يا كيني فإنني عبد عند قدميك

وإذا أردت أن تحتقني فساظل أصم وهاديء

ولكن تذكر أنني ابن أتيجاي

الذي أهدى أبلاي ستة فتيات حسان.



لوح كينيساري بيده في غضب، وقال وهو يشير إلى أريسان:

- كفى.. إن قليلي الحياء هم وحدهم من لا يتأثرون بالكلمة المناسبة. - إن هذا الرجل قد لف أفعاله في الأفعال الحسنة التي قدمها أجداده لأجدادي. فهل يمكن أن أقتله؟ دعوه.

صاح المحاربون قائلين:

- قرار صحيح ياتوري.

- إنك بالفعل توقر ذكرى الأجداد.

- وإنك تقدر معنى الكلمة.

أشاد يوسف جيربروت مرة أخرى في نفسه بالسلطان من أجل حكمته. يجب أن يكون لدى القائد القدرة على الاستماع إلى أنصاره لأنهم هم من جعلوه زعيما. وبالإضافة إلى ذلك فهذا الصفح يشير إلى نبلة وكرمه.

لم يكن جوسوب يعلم بعد أن أريستان الذي عفي عنه مؤخرا سيقتل بالصدفة بعد عدة أيام إثر وقوعه على الأرض من فوق ظهر الحصان. ولن يرى أحد كيف حدث ذلك ولكن سينكسر في رقبة الشاعر التعس نفس العمود الفقري الذي حطمته الشجرة الساقطة لدي الباشكيري أشرف.

و فقط بعد كثير من الوقت سوف يفهم جيربورت السلطان كينيساري ابن قاسم توري وحفيد أبلاي بشكل تام. وسيخمن السبب في أن السلطان يتعامل بهذا اللين مع الأسرى من الجنود الروس الذين يتجولون في معسكر الثوار دون أي حراسة وفي أغلب الأحيان يبقون لديه للخدمة.

غادر الأبطال السعداء بالقرار الحكيم للسلطان مقر القيادة واحدا تلو الآخر. وتوجه كل واحد منهم إلى جواده الذي كان يمسكه من الزمام حامل سلاح خاص وقائد للحصان. واقترب ناوزيرباي أيضا من جواده وقبل أن يقفز إلى السرج نظر إلى مربط الفرس المجاور. وفجأة توقف قلبه، ثم بدأ يخفق بسرعة وبصوت عال.

فلقد كانت هناك فتاة محاربة في ثياب رجل تمسك بزمام حصان كستنائي. وكانت تمسك في يدها اليمنى برمح ذي كفوف. لقد كانت أكبوكن.

ومنذ أن جاء بايتابين وأكبوكن إلى مقر كينيساري من الشواطئ البعيدة لنهر إليك التحق هو بمفرزة ناوزيرباي، أما هي فقد التحقت بمفرزة بوباوي. وقد توقع الجميع أن تتم خطبتهما، ولكن مرت الأيام، ولم يحدث ذلك. لقد كانا يعاملان بعضهما البعض كأخ وأخت، وكان الناس يرفعون أكتافهم في حيرة. وكانوا يعتقدون أنهما سوف يتزوجان



عندما يعودان إلى الوطن.

لقد قابلها ناويرزباي من قبل بين النساء اللاتي كن يحطن ببوباي، وفي كل مرة لدى رؤيته لتلك الفتاة كان قلبه يتوقف فجأة عن النبض. وقد ساهمت أكبوكن نفسها في هذا الأمر.

وذات مرة بمناسبة عيد ميلاد السلطان كوشيك أقيم احتفال في مقر كينيساري. وكما هي العادة أثناء ذلك ساعدته مسابقات الفروسية والمصارعة الكازاخية المسماة كوريس. فقد تعين على ناويرزباي أن يصرع بايتابين. وكان ناويرزباي أضخم جسما من خصمه وأكبر قليلا منه في السن، وبعد مقاومة عنيدة سقط بايتابين على الأرض. وقد أهدى ناويرزباي الحصان الكستنائي فائق السرعة الذي حصل عليه لقاء فوزه للفتاة أكبوكن.

سألته أكبوكن وهي تمسك بزمام الكستنائي:

- ياباتير هل هذا واجبك كمنتصر أم أنه هدية؟

- هذا واجب المنتصر أمام قريبك الأجدد من بين كل من صارعتهم.

ضحكت أكبوكن وتلألأت عيناها وقالت:

- هذا صحيح! - وكأننا لم نعطي سببا للتفكير فينا بشكل مختلف. أنا أقبل هذا

الحصان فقط كدين لقريري القادم من بعيد.

تطلب الرد على المزاح بمزاح مثله.

ابتسم ناويرزباي وقال:

- اذا حكمنا من خلال الضحك غير الودي يا أختاه فكأنك قد فرحت أكثر بفوز الجانب

الأخر على الرغم من أننا جميعا هنا أقباء! - وإذا كانت لديك مثل هذه الرغبة فلماذا لم

تهمسي لي بذلك مسبقا؟

أشرقت عيون أكبوكن السوداء التي تشبه الزبيب.

- إذا استمعت إلى الهمس فأعتقد أنه ستتاح لنا أيضا مثل هذه الفرصة.

- اتفقنا!

مد لها ناويرزباي يده. توهجت خدود أكبوكن، ولمست أصابعه الطويلة بخجل. فشعر

بالرجفة الخفيفة ليدها.



بدا لبايتابين أنه قد هزم مصادفة. فقد التوت ساقه، وسقط على الأرض. لقد تصارعا بمقدار حلب الفرس مرتين أو بمقدار ساعة كما يقال باللغة الروسية، ولم يتمكن ناوريزباي من التغلب عليه تماما. وليس عيبا في حقه أنه وقع على الأرض. ولم يثر سقوطه بين الحاضرين غير ضحك طفيف. ولكن لو كان هذا قد حدث لهذا الناوريزباي المتأنق لما تحمله. أما بالنسبة للجواد الهدية فلتمطيه أكبوكن وحدها.

لم تخفض أكبوكن عينيها عن المتصارعين، ووجدت أنها غير متعاطفة كثيرا مع بايتابين. لقد سمعت كثيرا عن ناوريزباي التوري الشاب الشهير البارح والمرح، وأرادت منذ فترة طويلة أن تراه. والفتيات دائما ما يحدبن أولئك الذين يتكلم عنهم الناس. وعندما تصرف بنبل مع المهزوم، ومد لها يده الكبيرة، أبتت رغما عنها أصابعها بالقرب منها.

ومنذ ذلك الحين كأن شبكة ذهبية منسوجة من أشعة الشمس قد ألقيت عليها، وسرعان ما بدأت تصطاد بهذه الشبكة الأفكار والمشاعر. لم تكن تعرف ما يحدث لها لكن قلبها لم يعد يخفق لدى سماع اسم بايتابين. لم تعد الآن تنام الليالي وهي تفكر في ذلك. وهل هي سيئة لدرجة أنها استطاعت أن تنسى يمين الوفاء؟ وهل يليق هذا بفتاة كازاخية؟ إنها منذ الطفولة تحب بايتابين العزيز، وهو أقرب الناس إليها على وجه الأرض. وربما لم يكن هذا حبا؟ فماذا يكون الحب إذن؟

ولماذا يدق قلبها هكذا لدى رؤيتها لناوريزباي؟.. وقبل شهر عندما كان بايتابين في حملة طويلة تبادلت مع ناوريزباي عظمت صغيرة من مفصل خروف. وأثناء ذلك في حضور العديد من الضيوف جرت مسابقة غنائية، وقبيل النهاية أعطاهم التوري الشاب العظمت الصغيرة. وكان هذا يعني الصداقة وسرا ما بينهما. ولكن أي سر هذا؟..

وهل يعرف بايتابين بهذا؟ وإذا كان يعرف فلماذا يصمت؟ وربما لا يهمه ما يحدث لها؟ بالطبع إن بايتابين يرى كل شيء بوضوح. ولكن أي نوع من ضبط النفس لديه يمنعه من أن يصدر أي تلميح ولو مرة واحدة. ماذا ينتظر؟

وعندما خرج بايتابين من مقر القيادة رأى أيضا أكبوكن لكنه شاهد السلطان الشاب المتوجه نحوها فتنحى جانبا.

توجه ناوريزباي الذي يتصف بالشجاعة في التعامل مع الفتيات إليها مباشرة وقال:

- مرحبا يا أختاه!

- هل أنت بخير يا باتير؟

ضحك ناوريزباي بمرح وقال:



- أعتقد أنني فاجأتك سيرنو أكبوكن... ردي على العظمة.

إن الفتاة التي تحصل على هذه العظمة المسماة توبيك يتعين عليها أن تبقئها معها دائما لوقت محدد، وأن تظهرها عند أول طلب من الشخص الذي قام بإهدائها إياها. وإذا لم تكن معها فإنه يتعين عليها أن تنفذ طبقا للاتفاق ثلاث رغبات. وحيث أن أكبوكن تشبه الغزال بالفعل وتحمل اسمه فإنه صدقت ناوريزباي في أشياء كثيرة.

- إن الأسود وحدها هي من تبحث عن الفرصة المناسبة لتهاجم الغزال المسكين. لكن الغزلان تعلم ذلك.. ضحكت أيضا، وسحبت فجأة من تحت لسانها عظمة صغيرة، وقالت:- تفضل.

مد ذراعيه وقال:

- لا يمكن للمرء أن يتخيل مكانا أكثر أمنا منه!.

- مثل هذا الشيء الثمين لا يحفظ إلا في هذا المكان!..

في هذا الوقت ظهرت بوباي، وقالت شيئا ما لبايتابين الواقف على مسافة منها، وذهبا معا إلى المتحدثين.

حياها بايتابين بأدب وقال:

- أمانسين با. مرحبا يا أكبوكن!

- بارسين با يا بايتابين!

أرعى بايتابين قليلا حزام سرج الحصان الكستنائي المعروف في جميع أرجاء السهوب التي تمطيه بوباي ثم عدل السرج. نظرت إليه بوباي من الجانب، والتفتت إلى ناوريزباي قائلة:

- ألن تعطيني هذا الباتير الشاب ليلتحق بخدمتي؟

عبس ناوريزباي بشكل غير ملحوظ وقال:

- لماذا؟

- لذي أسبابي.

لم يجرو أن يعارض شقيقته الكبرى وقال:- حسنا.. عندما نستولي على قلعة أكمو لا يمكنك أن تأخذه. أما الآن فإنني أحتاج إلى رجال شجعان.

- إذن فقد اتفقنا.

سأل ناوريزباي الذي أراد بوضوح أن يغير موضوع الحديث:



- متى ستغادرين يا بوباي أبا؟

- الآن.

قفزت بوباي إلى السرج بخفة تفوق أي فارس شاب.

- رحلة سعيدة.

- فلتتحقق جميع أمانيك.

تحركت بوباي وأكبوكن من مكانيهما في وقت واحد. وسار خلفهما على مسافة

معينة أربعة من الحراس.

بقي ناوريزباي وبايتابين في مكانيهما.

- وداعا..

لوح ناوريزباي بيده. لكن المرأتان غادرتا دون أن أن تنظرا خلفهما. وبعد أن غادرتا

القرية أطلقتا العنان لجواديهما. غير أن الرماح ذات الكفوف المبتعدة بسرعة ظلت مرئية

لبعض الوقت خلف الستارة الترايبية..

التفت بايتابين إلى ناوريزباي قائلاً:

- هل سنذهب إلى أكتاس يا باتير؟

نظر إليه ناوريزباي بدهشة وقال:

- لماذا؟

- يقولون إنه قد ظهر في الفرقة رام من ألتاي يثقب من مائتي خطوة بالسهم قبعة من الفرو

قد رميت عاليا. أود أن أشاهد ذلك.

أجاب ناوريزباي بعدم رضا:

- الآن ليس الوقت المناسب للانشغال بالرمي الفارغ وسباقات الفروسية. لقد سمعت أنه

بعد أسبوع سوف نتسلق أسوار أكمولا. وينبغي علينا أن نعلم الرجال من الفجر حتى

الغسق. وسوف نبدأ في الغد.

- هذا صحيح.

- أما اليوم فقم مع نيكولاي بنقل كل الفرقة المكونة من ألف رجل إلى ساسيرلي. إنه

يعرف ما يلزم للهجوم على القلعة. وها هو بالمناسبة قد جاء إلينا.

ذهبا لمقابلة نيكولاي جوبين الذي اعتبره جميع الكازاخ منذ فترة طويلة واحدا منهم.

وفجأة توقفا معا وهما في حالة من الدهول. فقد كانت هناك امرأة شابة فائقة الجمال



تجلس على عتبة يورت صغير.

نظرناوريزباي إلى بايتابين ومضى قدما، أما بايتابين فقد توقف ولم يستطع الذهاب. وفجأة أعمته هذه المرأة مثل ومضة البرق. هل ياترى يوجد في هذا العالم مثل تلك النساء الجميلات؟.. كانت العيون الزرقاء السوداء تنظر بطريقة حاملة كما لو أنها كانت تشاهد عالما آخر، وأشرق وجهها بنور غير عادي أما الباقي كالضفائر الذهبية القاتمة المربوطة بإحكام والتي تصل إلى الخصر النحيف والحركات الرشيقية لليدين الصغيرتين المنقوشتين فقد كانوا كإطار باهظ الثمن لهذا الوجه الثمين. لقد نظرت إليهما دون فضول، واختفت في منزل اليورت كشعاع شمسي عابر.

انتظرناوريزباي بايتابين مع نيكولاي. ابتسم بشكل ينم عن فهم.

قال: اسمها ألتينشاش.. شعر ذهبي.. لكن يوجد له مالك.

نظر إليه بايتابين بحيرة. إنه لا يفكر الآن فيما إن كانت متزوجة أم غير متزوجة. لم يكن هذا الأمر يمثل له أية أهمية. لقد كان الشيء المهم هو أن مثل هذه المرأة تعيش هنا على هذه الأرض.

ذهب ثلاثتهم إلى مشارف القرية، وتوجهوا إلى المكان الذي سيعلمون فيه الرجال من صباح الغد كيفية الاستيلاء على القلعة.

فجأة هاجمت بوباي المرأة المحاربة بلدة أمانكاراجاي على رأس ستمائة محارب، وسحقتها، وبعد أن تحولت إلى جبال ساريمبيت نهبت قرية أيجانيم الزوجة الصغرى لوالي خان. وفي اليوم التالي انتشر عبر ساري أركا كلها خبر دخول جيش كينيساري سهوب كوكيتشتاو. وبعد أن تلقى العقيد سيمينوف هذا الخبر خرج على الفور على رأس مئتي جندي من قلعة أكتاو لاعتراض فرقة بوباي ليسترد الماشية التي سرقتها. وقد تحولت أيضا السرية الأمامية السائرة من الجانب الآخر لمساعدة قلعة أكمولا نحو كوكيتشتاو.

وهذا ما كان يريده كينيساري. فلقد تحرك نصف جيشه ليلا ونهارا مدة يومين أو ثلاثة أيام، واقترب من بحيرة كورجالدين، ووقف على شاطئها. وقد ظهر النصف الآخر الذي عبر ضفة نهر يسيل إلى أنباسار في كارا أوتكيل. وفيما يخص الخيول الكازاخية التي تستطيع أن تقطع بسهولة مائة وعشرين ومائة وثلاثين ميلا في اليوم



فإن المسافة إلى قلعة أكمولو قد تقلصت إلى بضع ساعات من السفر. وفي صباح يوم السادس من شهر تاميز - أغسطس استأنف المسير بعد أن سمح للناس والخيول بأخذ قسط من الراحة. وفي صباح اليوم التالي عندما اعتلى السور الأغا سلطان كونور كولدجا والعقيد كاربيشيف شاهدا عددا لا يحصى من الحمم الخيلية تحاصر القلعة من جميع الجهات.

غير أن كينيساري قد ترك ممرا ضيقا على الجانب الشرقي من القلعة حيث يجري نهر يسيل في شبه جزيرة. وكان يقود الجيش الذي كانت حدوات خيوله ترتكز بحوافها في النهري ثمانية من الفرسان الأبطال. تولى كينيساري قيادة الجناح الأيمن كما كان متعارفا عليه في السهوب. ثم تلته فرقتي أجيباي، وبوخارباي التي تضم كل واحدة منها ألف رجل، وفي الوسط كان يوجد باسيجارا، وعلى يساره توليباي، وكودايمندي، وجانيدار، وكان السلطان الأصغرناووريزباي على الحافة المقابلة لحدوة حصان كينيساري. وبمجرد أن بدأ أول شعاع من أشعة الشمس يلعب على الأسوار حتى اندفع صوب القلعة خمسة آلاف فارس مع صرخة أبلاي المدوية.

لقد استعد كارا إيفان كاربيشيف بالفعل أن يعطي أوامره لإطلاق وابل من النيران لكنه ظل بيد مرفوعة. لم يندفع رجال كينيساري للهجوم بالحمم الخيلية المعروفة - كتفا بجانب كتف - وإنما بسلسلة مفتوحة متباعدين عن بعضهم البعض بمقدار 15 ساجين أي 1015 ياردة. ولم يندفعوا إلى الخندق، ولم يعرضوا أنفسهم للرصاصة ولنيران البنادق، كما جرت العادة، ولكن كانوا يطلقون السهام، ويعودون بسرعة إلى الممرات التي تركوها ليخلوا المكان للآخرين. لقد كان هجوما متواصلًا أصبح معه المدافعون عن الحصن الذين أمطروا بالسهم عاجزين أن يلحقوا بالمهاجم أي أضرار تذكر. وبدا من الأعلى كأن نهرا حقيقيا يرمي باستمرار موجة وراء موجة تحت أسوار القلعة وأن الرزاز الذي يتطاير من هناك مميت. وكان أيضا مثل مشهد من الجدار إلى عش النمل حيث تجر الآلاف من النمل السريع بهمة حملهم إلى مكان واحد، ثم يتركونه، ويعودون دون أن يعوقوا الآخرين في ترتيب منظم من أجل الحمل التالي.

ارتفعت الشمس فوق القلعة. وسحب عشرات الجنود القتلى والجرحى من الأسوار إلى الشكنات لكن الموجة الحية لم تضعف قط. وحل فرسان كينيساري الذين اعتادوا على ألعاب الفروسية الطويلة مثل - كوكبار، وسائس - وكأنهم يلعبون محل بعضهم البعض تحت أسوار القلعة. وخذ بعضهم للراحة بالتناوب عند التلال البعيدة، أما المدافعون فلم يسمحوا لأنفسهم بالراحة لأن الهجوم كان يتهددهم في كل لحظة من قبل هذه الكتلة الخيلية. وكان من المستحيل فهم أي شيء أو التنبؤ به في هذه الدورة الحية.



وقد بدا من السور أن الخمسة آلاف محارب ليسوا هم من يهاجمون القلعة، وإنما تهرع اليهم فرق جديدة قادمة من مكان ما في السهوب الشاسعة. أمر كونور كولدجا بالبحث عن زعماء المتمردين، وإطلاق النار عليهم لكن الجنود لم يتمكنوا من تنفيذ هذا الأمر لأنهم كانوا جميعا في هذه المرة يرتدون نفس الزي حتى أنه كان من المستحيل معرفة السلطان كينيساري نفسه من بين المهاجمين.

دمدم كونور كولدجا وقال:

- هل أحصاهم أوجار بطريقة سيئة؟.. لا يبدو أنهم خمسة آلاف محارب بل يبدو أن الأجزاء الثلاثة قد تجمعت كلها هنا عند القلعة..

عرف الأغا سلطان الفجوة التي من خلالها يمكنه الخروج من هذا الفخ. ولم يكن كارا إيفان أقل منه دهشة. وقد حدد سلفا الأماكن التي وفق تقديراته سيهاجم منها المتمردون، وصب نحوها المدافع المعبأة بالقذائف. وكان ينبغي إطلاق النار عندما يملء محاربو كينيساري الخندق، ولا تكون لديهم أية فرصة للعودة الى الخلف. كان هذا دائما ما يفعلونه في السابق عندما كان يحاول أهل السهوب مهاجمة القلعة. ولكن هذه المرة حدث شيء ما غير مفهوم. فالشوار لم يقتربوا قط من الخندق، وكانوا يطلقوا سهمين أو ثلاثة سهام بأقصى سرعة، ويعودوا مرة أخرى إلى السهوب. وأمر الجنود بالذهاب إلى الملاجئ. وإذا كان الأمر كذلك فليطلقوا من الأقواس ما يشاؤون.

وبمجرد أن ابتعد الجنود قليلا إلى الوراء بدأ الفرسان في الاقتراب أكثر من الخندق. لكن السهام الحمراء الطويلة حلقت عاليا فوق رؤوس الجنود دون أن تسبب لهم أي ضرر. هدا كارا إيفان قليلا، لكن الفزع لم يتركه. فقد كان كل شيء في هذا اليوم يختلف عما سبق. ألا يفهم كينيساري أن رمي السهام على القلعة حين يكون الجنود في الملجأ مضيعة للوقت؟..

- أوي باي. هناك شيء يحترق.

- حريق..

صاح كونور كولدجا بذلك تحت أذنه مباشرة. نظر العقيد حواليا، ورأي سحبا كثيفة من الدخان الاسود تخرج من الثكنات ومن بعض المباني المجاورة. وظهرت في كثير من الأماكن أسنة اللهب البيضاء الناصعة. واشتعلت منازل مستوطنة الجنود واحدا تلو الآخر. واشتعلت شجرة الراتنج التي جففتها شمس السهوب مثل البارود. ولم يستطع أن



يحول ناظره عن هذه الصورة الرهيبة.

وفجأة اخترق الجدار بجانبه سهم طائش مضاد للدروع. سحبه كارا إيفان بطريقة آلية. وبدأ رأس السهم الملقوف بشريط أسود محترق في الاشتعال على الفور في الهواء. وركضت النار في السهم المشبع بشحم الخنزير. فكان عليه أن يرمي السهم بعيدا عنه.

نعم لقد فاقه المتمردون في الدهاء. وحانت اللحظة الحرجة.

وإذا أحاطت النار بالقلعة كلها فستحترق المخازن مع الأمدادات العسكرية والمؤن. ومن ثم تصبح المقاومة بعد ذلك ضريبا من المستحيل.

أخذ خمسين جنديا من عند سور الدفاع، وأرسلهم لإخماد الحريق. ودفعوا بالمدافع الأربعة الموجودة في القلعة إلى السور، ووضعوهم على شكل نصف دائرة.

قال لهم كارا إيفان بلهجة أمرة:

- صوبوا على تجمعات المتمردين.

رعدت المدافع في وقت واحد تقريبا. وتدحرجت القذائف خلال التشكيل النادر للفرسان، وأصابت ثلاثة أشخاص أو أربعة مع الخيول. سمع الثوار هدير المدافع لكنهم في هذه المرة لم يهربوا إلى الجهات المختلفة بل اصطفوا في برهة واحدة في خمسة صفوف، وانطلقوا إلى القلعة. وأجبرت سحب السهام الجنود أن يدفنوا رؤوسهم في الأرض على المتاريس. واستغلت مجموعتان من المحاربين البعيدين بقيادة الباتير باسيجارا والباتير توليباي الوقت الذي كانوا يعبئون خلاله مجددا المدافع بالذخيرة واجتازوا الجسور البرية عند البوابتين إلى الجانب الآخر من الخندق، وانطلقوا بدائرة ضيقة على طول السور، وأسروا بالحيال المدافعين الغافلين. وبدأ الذعر على المتاريس. والتحم رعد البنادق وصفير السهام والشتائم وصرخات وأهات الجرحى في جوقة واحدة محمومة.

لم يلاحظ المدافعون عن القلعة أثناء الدخان والضجيج أن بعض الفرسان قد تأخروا عند البوابتين. فلقد قفزوا من على خيولهم، ووضعوا عند البوابات براميل صغيرة بها راتينج قابل للاشتعال. وفي نفس الوقت دهن الآخرون البوابات البلوطية المتينة المؤطرة بالحديد بالراتينج وشحم الخنزير بشكل سخي. وبعد دقيقة اندلع حريقان عاليان ساخنان عند مخارج القلعة اندمجا مع الحريق العام التي اجتاحت جميع المباني. وعلى الرغم من أن الوايل الجديد من المدافع في هذه المرة كان رصاصا، وسبب أضرارا كبيرة للمهاجمين، وأجبرهم على الابتعاد عن الأسوار لبعض الوقت فإن مصير قلعة أكمولا كان قد حسم.



واضطر كونور كولدجا وكارا إيفان أن يرسلوا نصف الجنود والعبيد التولينجوت لإخماد الحريق. وبقي على الأسوار فقط أقل من مائتي شخص. بالإضافة إلى ذلك تمكن رجال كينيساري من اصطياذ اثنين من رجال المدفعية بالحبال. احترقت البوابة الشمالية أولاً، ثم انهارت الكلاب الثقيلة على الأرض محدثة دويًا عاليًا. ويتثنأ الآن في السور ممر يبلغ عرضه عشرين ساجينا. أدركا على الفور أن الخطر الرئيسي يتهددهم من هناك فأجبرا الجنود على غلق الفجوة بأكياس الرمل.

سأل كينيساري:

- من يريد من الأبطال أن يقتحم القلعة أولاً؟

أراد الجميع ذلك ولكن وقع الاختيار على باسيجارا. كان الجسر الأرضي ضيقاً جداً مما يحول دون الهجوم بعدد كبير من الرجال لذلك أخذ الباتير باسيجارا معه فقط مئة فارس من أشجع الفرسان. وكان ينتظرهم جميعاً تقريباً موت محقق. فقد نصبوا في مقابل الفجوة مدفعين، وردد خلف أكياس الرمل ضاربو السهام.

ودعهم كينيساري قائلاً:

- حظاً موفقاً!

ولكي يصرف انتباه المدفعين عن القلعة أمر بقصفها من جميع الجهات بشكل مستمر. وبدأ مرة أخرى الدوران الجنوني للفرسان حول الأسوار. والآن انطلق أكثرهم بأساً إلى الخندق نفسه.

انحنى باسيجارا إلى أسفل حتى وصل إلى شعر الحصان، ثم انطلق على رأس المئة رجل. تمكن حصان الباتير القوي - كيرتوبل الشهير - من نقله عبر أكياس الرمل، وبدأ الجنود الحيارى الذين لم يسعفهم الوقت لتعبئة البنادق مرة أخرى في التراجع. وسقط أربعة منهم تحت ضربات الهروات المغطاة بالحديد. وفي اللحظة الأخيرة تمكن أحد الجنود الذي خرج من الملجأ من إطلاق النار عليه في صدره من مسافة ثلاثة خطوات. لم يكن باسيجارا يرتدي أي دروع، وتمكن فقط من أن يصيح قائلاً: "إداعا يا أبطال"

عاد الجميع أدراجهم بعد أن فقدوا زعيمهم. وأطلقت السهام التي استفاقت وإبلا في ظهور الفرسان، ولم يتمكن أحد منهم من العودة إلى ذويه.

وحده فقط عاد كيرتوبل سالماً من هذا المعركة. واندفع مباشرة إلى السهوب بالقرب من كينيساري مع بدة ترفرف وهو يرح الهواء بصهيله الحزين.



أدرك كينيساري ما حدث، فقفز بساقيه معا على ظهر جواده كوكبوريل الضخم البالغ من العمر خمسة أعوام، وصاح بغضب:

- إن جسد باسيجارا في أيدي العدو.

لقد أراد أن يلقي بنفسه في القلعة لكن خرج الباتير توليباي من بين الحشد الخيلي على حصانه الشهير أورتيك، وركض إلى الفجوة المدخنة في السور، ثم قال:

- ماذا تنتظرون يارجال؟

أطلق كينيساري لفرسه العنان. وانطلق جميع الفرسان إلى البوابات قائلين:

- أبلاي! أبلاي!..

- أجيباي!

- أتيجاي!

كان الهجوم قويا لدرجة أن الأكياس تطايرت إلى جميع الجهات، وكان الثوار يجتاحون القلعة كالماء أثناء الفيضان. وبدأ الظلام يحل، وتراجع الجنود المنهكون المحروقون إلى الشكنات وهم يطلقون النار بشكل عشوائي. وتواصل إطلاق النار حتى وقت متأخر من الليل حتى قتل آخر مدافع عن القلعة. وهنا أظهر كينيساري نفسه.

لم يتعرض الفرسان البسطاء من فقراء الكازاخ الذين اقتحموا القلعة للأسرى وخاصة النساء والأطفال الذين سمح لهم مؤخرا بالدخول إلى هنا دون أي عوائق. أما حراس السلطان ومحاربيه فكانوا يستمتعون بالدم مثل الذئب الجائعة. ولم يرحموا صغيرا أو كبيرا. وسمع العويل والبكاء من جميع الجوانب. ولم يتوقف النهب والعنف إلا في الصباح. وبقيت هناك الأطلال المدخنة حيث كانت هناك بالأمس قلعة أكمولا.

وفي صباح اليوم التالي شرع محاربو كينيساري بمساعدة السكان الذين أقتيدوا من القرى المجاورة في تسوية الخنادق، وتدمير التلال المتبقية. نظر الناس بخوف إلى أنقاض الشكنات التي ارتفع بجوارها جبل من الجثث بعد الانتقام الليلي من قبل حراس السلطان من التولينجوت. واختارت النساء الكازاخيات البسيطات بعض الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة وقاموا باخفائهم. ولم يبحث عنهم أحد بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين أصبح يعيش بين سكان المقاطعة كازاخ ذوي شعر أشقر وعيون زرقاء يشبهون الروس.



لقد نقب محاربو كينيساري في كل شيء، وقلبوه رأسا على عقب. لكنهم لم يجدوا أغا سلطان كونور كولدجا أو كارا ايفان قائد القوات. لقد استغلا الفوضى فهربا مع بعض الجنود إلى واد يؤدي إلى يسيل.

جيكي باتير "الباتير الذي استولى على القلعة وحده" - هكذا أمر كينيساري بأن يلقب الباتير توليباي بهذا اللقب منذ ذلك الحين. وقد حصل الكثير من الفرسان الآخرين الذين برزوا أثناء الاستيلاء على قلعة أكمولا على ألقاب فخريّة. وأقيمت للقتلى ولائم جنازية فاخرة.

وبعد عدة أيام دمرت فرق الثوار بقيادة أجيباي، وناوزيرباي وبوخارباي بناء على أوامر من كينيساري حصون أكتاو وأورتاو، وسوتها بالأرض.

كان هذا أول نجاح كبير لكينيساري. لم يكن الأمر يتعلق بقلعة أكمولا وحدها. فقد أمنت أخيرا بعض العشائر والقبائل الكازاخية التي كانت لاتزال تتمسك بسياسة الترقب بقوة كينيساري وإمكانياته. وتواصل قدوم فرق جديدة من المحاربين إليه من مختلف أنحاء السهوب. وبالغت الشائعات متعددة الأصوات في نصره عدة مرات، وتغنت بشجاعه وبسالته الأبطال المنضمين إليه. وهذا ما كان يعول عليه كينيساري.

لقد كان يعلم أنه ليس لديه القوة الكافية لخوض حرب حقيقية. والآن بعد استيلائه على قلعة كبيرة كان يستطيع دون أن يهين اسمه أن يخوض حربا سهبية مجهدة مع هجوم مباغت، واشتباكات خاطفة، وكمان ثعلبية. ويمكنه أيضا بسهولة سحق القرى المعادية له، وجذب المترددين إلى جانبه.



III

في ليلة سقوط قلعة أكمولا فرأغا سلطان كونور كولدجا إلى أصغر زوجته زينب التي ارتحلت قبل بضعة أيام مع أهل قريتها إلى الغرب حيث ينعطف نهر يسييل نحو إرتيش. وكانت هناك بالفعل أراضي مقاطعة كاركارالي. فلقد كان لكونور كولدجا حساباته الخاصة.

في ذلك الوقت ساند كينيساري جزء كبير من الكازاخ البسطاء الذين فقدوا أراضيهم. وكان يدين له بالولاء أيضا بعض الإقطاعيين مثل أبناء أزنباي. غير أن العديد من بكوات وسلاطين ساري أركا لم ينضموا إلى الثورة إلا لخوفهم من انتقام الغوغاء، ومن ليس لهم أرض، والمعدمين. وقد استغل كينيساري هذا الخوف بذكاء مجبرا طبقة النبلاء على طاعته. وقد انضم إليه بعض الناس رغما عنهم مثل شون يد يجوبلي، وأبناء ساندباي يردين، ودوزين، وأكوشكار صايدالي أولي. وحتى بعض أحفاد السلاطين الذين اعترفوا بسلطة الملك الأبيض قد ظهروا لبعض الوقت في مخيم كينيساري. وهذا ما حدث على سبيل المثال مع الابن الثاني لوالي خان الذي لقي حتفه وهو يقاتل في صفوف الثوار.

وكان بين هؤلاء من اعتقدوا أن الحكومة القيصريّة قد تخطتهم عند توزيع الرتب والمناصب. فقد انضم الإقطاعي المعروف سارمان تورسونخان إلى أبناء قاسم توري مباشرة بعد أن عينوا تورلي بك كوشينوف من عامة الناس أغا سلطانا في منطقته بدلا منه. وفي حقيقة الأمر لم يكن كينيساري يعتمد على أحد اعتمادا كاملا إلا على النسل المباشر لأبلاي.

أصبح الوضع الآن لدى كونور كولدجا سيئا. فلم يكن يسانده في ساري أركا سوى جامانتاي أغا سلطان كاركارالي، وجنكيز نجل والي خان من زوجته الصغرى أيجانيم، أغا سلطان أمانكاراجاي، وبوشتاي تورسينباي من عامة الناس أغا سلطان بيان أوول، وزيلجارا أغا سلطان كوكيتشتاوا المعروف في السهوب بغناه وطفغيانه.

لكن كان أكثر من ساعد كونور كولدجا من الحكام هم أقارب زوجته الصغرى زينب أحفاد بوكي خان - كوسبيك، وجامنتاي تاوكي أولي. وعلى الرغم من أن الإخوة كانوا ينهشون بعضهم البعض من أجل المراعي والسيادة على أبناء قبائلهم فإنهم أصبحوا



جميعا على قلب رجل واحد عندما تطلب الأمر مساعدة كونور كولدجا الحامي لهم. وكانت كلمتهم في مقاطعة كارارالي بمثابة القانون. ولذلك لم يطرد كونور كولدجا زوجته زينب بسبب علاقة الحب مع جنكيز كونها أختهم الصغرى. وفي هذه الأوقات العصبية كان هناك ما يكفي من الهموم.

وفي هذا الشأن هل كانت هذه هي الحالة الأولى بين التوريين؟ إنهم على عكس الرجل البسطاء يسمعون لأنفسهم بأكثر من هذا يستوى في ذلك الرجال والنساء. وكان بسطاء الناس يقولون إن ملابس التوريين تحاك بطريقة تمكنهم من أن يخلعوها في لحظة واحدة. أولم يؤلفوا الأغنية الفكاهية التي صارت مثلا:

لا تعط ابنتك للتوري

ولا تخطب ابنة التوري:

فالأزواج ينامون عند الجيران

وتمد الزوجات أبصارهن إلى الغرياء.

لقد كان من عادة التوريين أنهم يغضون الطرف عن مغامرات الزوجات العاطفية شريطة أن يلتزموا بالاستقامة الظاهرية. ولم يكن كونور كولدجا استثناء من ذلك، وسرعان ما نسي جريمة زينب. "إن البحيرة العميقة لا يعكس مائها قطيع كامل فهل ستصبح قدرة بسبب شقاوة فرس واحد صغيراً!" تذكر هذا المثل المناسب لهذه الحالة وكذلك أقارب زوجته أصحاب النفوذ فغفر لها عن طيب خاطر هذا الاثم التافه. وفي نفس اليوم الذي أبلغه فيه أوجار بخط كينيساري فيما يخص قلعة أكمولاً أرسل كونور كولدجا زينب إلى مصب نهريسيل. وهناك عن انعطاف النهر بالقرب من أملاك إخوة زينب توجد جزيرة كبيرة بها ثلاثة آلاف حصان أصيل يملكها الأغا سلطان قد أخفاها عن الضرائب. وخلف النهر تبدأ أملاك جامانتاي الذي يستطيع أن يهب فوراً للمساعدة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. ولم يشك كونور كولدجا مطلقاً في أن كينيساري سيرغب أولاً في سحق قرية زينب ابنة تاوكي، ثم يتوجه بعد ذلك إلى جامانتاي ابن تاوكي.

اقترب شهر جاستوكسان من نهايته وهو وقت لم تهدأ فيه حرارة الصيف بعد. وقد ذبلت في السهوب منذ فترة طويلة زهور التيوليب المتأخرة، والهندباء والزهور الصغيرة المذهلة



التي يسميها الكازاخ بسبب الكثافة التي تنمو بها "مساعدة العدو". واصفر لون نبات العكرش، وانكسرت تحت الأرجل محدثا قرقعة، وسقطت أوراق التالا والراكيتنك. وعلى الجزيرة عند انعطاف نهر يسييل حيث ترعي قطعان كونور كولدجا كانت الأعشاب من الضخامة بحيث أن الأقدام كانت تتحرك فيها بصعوبة. فلم يدفع أبناء كوداميندي بماشيتهم الرئيسية إلى هنا مدة عامين خشية الابتعاد عن قلعة أكمولا. بالإضافة إلى ذلك فإن نهر يسييل في هذا الوقت قد ارتفع عاليا بشكل غير عادي، وأغرق شطآنه. وتكونت بحيرات صغيرة غطيت بنبات الديدس، وتكاثرت فيها الطيور البرية. وكانت تعيش هنا على الشواطئ جميع الطيور مثل السمان الصغير، والحجل، والدجاج البري، والدودوك، وطائر الذبال الناري، وعلى الماء يعيش الأوز الأسود الضخم الذي يوازي الحمل في الحجم والغاق. وكان يعيش بالجوار عدد لا يحصى من الوحوش مثل الأرنب البرية والثعالب والسنجاب والغرير. ومن حين لأخر كان يدوي هدير الوشق وصيحة الذئب.

أرسل كونور كولدجا إلى هنا خمسين رجلا لحراسة الممتلكات والمواشي. وعندما علم جامانتاي بسفر شقيقته إلى حدود مقاطعة كاركالي أصابه القلق. فقد كانت دوريات كينيساري تمشط جميع الأماكن وإذا أصابوها بأي أذى فسيلحق بأبناء تاوكي عارلا يزول. لذلك خصص من جانبه مائة جندي من أشد الجنود (السرياز) لحمايتها.

كانت زينب تستلقي أياما كاملة على العشب الأخضر الساحلي بكل سرور. وكثيرا ما كانت تستضيف فتيات من القرى المجاورة. وجاء إليها عدد كبير من العمات اللاتي ربيهن منذ الطفولة. تذكرت أيام صباها عندما كن يهمنس لها بشكل تنافسي بجميع الأشياء اللطيفة. أه لماذا لم يخبرنها حين ذاك. "هل تعرفين يا عزيزتي أن نجل حاكم المقاطعة يحلم أن ينظر إليك حتى ولو بعين واحدة." إن الميرزا الشاب الذي يقود القوافل إلى طشقند أرسل إليك أربع بالات من الشاي الصيني وخمس رؤوس من السكر على أمل أن تستجيب لشعوره حتى ولو لليلة واحدة!"

وعلى ما يبدو فإنهن يمزحن معها الآن أيضا، ويقدمن لها النصح عندما يأتين إلى قريتها. "يا طفلتنا المدللة إن وركيك أصبحا أنعم من الحرير وأكثر بياضا من السكر. لقد نضجت وصرت جميلة مثل جواد توليجين الأزرق الذي يستطيع أن يعدو أربعين يوما دون أن يعرف التعب" امنحي زوجك أبناء ليرثوه، وخذي السلطة في يديك المخملية، "ولا تكوني خجولة، وامنحي من ترغبين ليلة إضافية. فقط عندما تكونين شابة يمكنك التمتع بكل ملذات الحياة. أعتقد أننا لم نخدع أزواجنا؟ لذلك لا تفقدي الليلة الإضافية.."



لكن كل هذه الكلمات اللطيفة على أذنيها لم تقال هذه المرة. ولم يضع الحراس الذين رصدت بينهم الكثير من الشبان اللطفاء الأقوياء رؤوسهم في باب منزلها. لقد كانوا يخشون كونور كولدجا وجامانتاي اللذان نهوهم عن الاقتراب من زينب بمقدار رميئة من القوس. ياليت أحدهم ينتهك هذا الحظر ولو لليلة قصيرة..

إنهم كانوا يخشون جواسيس الأغا سلطان. فمن منهم يريد أن يتلقى طعنة غادرة في الظهر لقاء ليلة لذيدة. لقد تعبت المرأة الشابة من الشوق وهي تلتهم عدة مرات في اليوم لحم القورداق الطازج ولحم الفرس الشهي، وبلعت وجبة الغداء المشبعة بالقشدة وحليب الفرس القوي.

لم يحدث لها هذا من قبل. فمنذ أن تزوجت كانت نادراً ما تقضي الليل وحدها. لقد تذكرت القبلات القاسية التي كانت تفوح منها رائحة العرق الرجولية القوية. وبدون ذلك فلا حاجة لها في الذهب والفراء والجياد البيضاء وكلمات الإطراء. والتهدت ملتحمة عينها، وتشقت شفتها الصغيرة الممتلئة من الحرارة الكامنة.

لم تكن زينب تعرف أي شيء عن ما يحدث لقلعة أكمولا، وانتظرت رسولا من هناك يأتيها بالأخبار. لقد اعتقدت أنه من خلاله يمكنها أن تغوى كونور كولدجا على الأقل لمدة يومين أو ثلاثة أيام. وعلى الرغم من تقدمه في العمر إلا أنه لا يقل شأنًا بأي حال من الأحوال عن الشباب. وللأسف سوف تمر بضعة أيام طوال لا تطاق حتى يصل. وأخذت تضرب في الوسادة تحتها في غضب، وشرعت في البكاء.

بكت زينب دون أن يخفف هذا من الثقل اللذيذ في الجسد كله فدمت قدمها العاريتان في نعلها المطرز بالذهب، وفجأة سمعت وقع أقدام الخيل. وعلى ما يبدو فإن الركبان لم يكونوا في عجلة من أمرهم. فمن يكون هؤلاء ياترى؟.. دعت الجارية التي كانت تجلس دائما خارج الباب.

- يا ابنة التوري. - قالت ذلك المرأة المسنة المجدورة وهي تدخل المنزل وتحنني أمامها بخشوع. - ابن أخيك قد وصل، ويريد أن يقدم لك احتراماته.

- أي واحد فيهم؟

قفزت زينب بحيوية من على السرير في ترقب لطيف.

- من قرية ماسان بك.



- أحقا ماتقولين!

كيف لا تطرب لسماعها هذا الخبر. إن ماسان هو البك الأكثر شهرة في مقاطعة كاراكالي وسليل كازداوستي كازيبك من عائلة كاراسيك الشهيرة. لقد كان القادم ابن أجيئاي قريب ماسان. كان يدعى يسيركيجين. وكان يبلغ من العمر حوالي السبعة عشر عاما، ودرس بالمدرسة الروسية في بيان-أوول.

لم تفقر زينب بسبب نبل ابن أخيها. فقد كان يسيركيجين أصغر منها بأربعة أعوام. وعندما كانت في الرابعة عشر من عمرها وكان كونور كولدجا خطيبها على وشك المجيء إليها ذهبت لفترة وجيزة إلى القرية لزيارة أقربائها. وفي ذلك الوقت كان هناك أيضا صبي في الحادية عشر من عمره هش البنية جميل الطلعة ذو عيون واسعة لوزية الشكل. لقد كان يسيركيجين الذي كان أقربائه يدعونه بالتناوب ليقضي الليل عندهم. ولم يكن من المستهجن عندهم أن ينام صبي لم يبلغ الحلم مع الفتيات.

وذاث مرة عندما كان يقيم مع جديه والدي أمه وضعوه بالليل في نفس السرير مع اثنتين من عماته الشابات. كانت إحدهن عروسا في سن الزواج وهي زينب، وكانت الأخرى هي خديجة الجميلة زوجة سلطان منطقة أتباسار. حينذاك لم يكن رب البيت كوسبيك قريب ماسان بالمنزل، ولكن كان هناك شابان من التوريين يقضون ليلتهم في نفس المكان. لذلك وضعت ربة المنزل المتقدمة في السن يسيركيجين في سرير النساء كي لا يحدث ما لا يجوز.

ولم يكن هذا من قبيل العبث. ففي تلك الأوقات السهلة كان من تقاليد الرجال الحقيقيين أن ينتهكوا نوم الفتيات. ومن زوايته أخذ الضيف الوسيم ذو اللحية السوداء يقص على الصبي الحكايات فخلد إلى النوم سريعا بعد أن تدفء بين جسدي المرأتين الدافئتين.

استيقظ الصبي فقد كان يحلم بعاصفة على البحيرة. وبالفعل كان السرير الروسي الكبير المطلي بالنيكل يهتز مثل القارب. لقد تذكر ما قالت له جدته العجوز، وهي تضعه في السرير: «لاتدع أحدا يسرق عماتك. وإذا حدث شيء فاصرخ» مد يده إلى وجه خديجة فلمس هناك لحيحة شائكة. غار الصبي الذي فهم الكثير على قريبته الجميلة. وأراد أن يصيح بصوت عال، ولكن فجأة شعر بأن زينب الراقدة على الجانب الآخر تحاول أن تنقله من خلالها إلى الحائط. فعندما شعرت أنه استيقظ أمسكته فجأة بيديها الساخنة، وهمست في أذنه قائلة: «دعنا نفعل مثل ما يفعلون!» - وفجأة استحوذ عليه المجهول.



وانصاع تماما لكل ما كانت تفعله معه.

وفي صباح اليوم التالي شعر الصبي بالحرج من عمته فركض في وقت مبكر من الصباح بعيدا عنهما، ولم يذهب إليهما مجدداً حتى موعد رحيله. والآن جاء لزيارة عمته غير الشقيقة زينب في قريتها.

كم عمره الآن؟.. سبعة عشر عاماً. ارتدت زينب ملابسها بسرعة، ورتبت السرير بنفسها.

- السلام عليكم.

دخل يسير كيجين وفي يده سوط مطوي طيتم. إنه لم يعد صبيا منذ وقت طويل. وخير دليل على ذلك هذا الزغب الكثيف جدا على شفته العليا وعظام خديه الصلبة الممدودة وعرض كتفيه. وعلى الرغم من أن يسير كيجين كان يدرس مع الروس إلا أنه كان يرتدي ثيابا مثل ثياب أبناء القرية الأغنياء. فقد كان يعتمر قبعة زرقاء مخملية جميلة مزينة بفرو الحمل الرمادي. ويرتدي معطفا قصيرا من صوف الجمل الأبيض ذي طوق مخملي أزرق فاخر. وتسقط سراويله الواسعة المصنوعة من المخمل الأزرق بحرية فوق حذائه الأسود اللين اللامع ذي الكعب العالي الذي يبلغ طوله ثلاثة أصابع.

فحصته زينب من رأسه حتى أخمص قدميه بنظرة واحدة. نعم إن فتى مثل هذا يمكن أن يثير فضول الفتيات. ذهبت إليه بأذرع مفتوحة على مصراعها، وكادت خدود يسير كيجين أن تحترق من قبل عمته الساخنة. لقد شعر بدفء جسدها، وتذكر ما حدث له قبل ست سنوات، وخلص نفسه تقريبا بالقوة من أحضانها.

أشرقت زينب من الفرحة وسألته:

- كيف حال قريتك؟ وكيف حال أبيك وأمك - هل هم أحياء وأصحاء؟

- نعم إنهما بصحة جيدة. وكل شيء على ما يرام.

- انظر كيف أصبحت رجلا! - على ما يبدو أنها أدركت أنه يتذكر تلك الليلة فضحكت بصوت عال. - يقولون إنك تدرس في المدينة. لعل فتيات المدينة قد علمنك شيئا ما!..

لم يرق يسير كيجين أنها تتحدث معه بلهجة مازحة لكنه أجاب بأدب:

- علينا أن نتعلم هناك على يد المعلمين وليس على يدي الفتيات.

- حسنا، لا تخجل. فحال أهل المدينة كحالنا تماما سواءا بسواء.



ذبحوا خروفا بسرعة، ووضعوا السماور. وشربوا الكازي كوميس المطبوخ مع دهن لحم الضأن المجفف. ودعت رجلين من كبار السن لتناول طعام الغداء معهما. وقد تحدث الرجلان عن أخبار العالم، وتمنيا الصحة الجيدة لزوجته الأغا سلطان وابن أخيها، ثم غادرا.

بدأت زينب تسأله بالتفصيل عن الحياة في المدينة. وأرادت أن تعرف عما إذا كان سيتزوج بفتاة من المدينة أم من القرية، ثم سألته مباشرة إن كان قد تذوق نساء المدينة. وكانت تضحك بشكل مفرح حتى أن يسيركيجين لم يكن يعرف كيف يتصرف. تورد لونه من الخجل وفي كل مرة كان ينفخ شفثيه، ويجيب إجابات ليست لها علاقة بالسؤال. وعلى الرغم من أنه كان في السابعة عشر من عمره تقريبا إلا أن روحه كانت نقية مثل برعم الربيع الذي لم يتفتح بعد.

أما بالنسبة لزينب. فكلما زادت الدهشة في عيون الشاب الصافية الشفافة كلما أصبحت نكاتها ذات معنيين. كانت ترقد على فراشها، وتنظر إليه باستمرار بعد أن سحقت الوسادة ببطنها. ومن حين لآخر كانت ترفع رجلها فينزلق رداؤها الحريري للأسفل، وتتعرى سمانتي ساقها البيضاء الممتلئة. وكانت تمشط شعره بيدها الصغيرة بشقاوة. وارتجفت أصابعها المليئة.

لم يعتبر أحد في القرية أن وجودهما معا لمدة طويلة يعد خطيئة. ولم يكن الشاب المسكين الذي كان لديه مفاهيم أخرى تماما أكثر سموا عن العلاقات بين الرجل والمرأة يعرف كيف يتصرف. لقد جاء إلى هنا بناء على طلب من جده ماسان بك كي يبلغ قريبته تحياته وقد نسي تماما تلك الليلة. وعندما مالت الشمس نحو الغروب هم يسيركيجين بالرحيل لكن زينب لم تدعه يفعل ذلك وقالت له:

- فيم العجلة وكانت بمنزلك زوجة شابة تعبت من الانتظار؟ اقض ليلتك هنا، وخذ قسطا من الراحة كما يجب.

لقد توسلت إليه لدرجة أنه اضطر إلى البقاء. وفي المساء زار يسيركيجين رفاقه الذين كانوا مثله في زيارة لأقربائهم أثناء الأجازة. وقالوا إنهم سوف يغادرون فقط في الصباح ولم يعد لديه خيار سوى العودة إلى خيمة عمته.

أعدت زينب ليسيركيجين عشاء فاخرا، ودعت إليه اثنين من زملائه وبعض الشيوخ. لقد تحدثوا بشكل جيد، ثم ذهبوا جميعا إلى منازلهم بعد منتصف الليل بوقت طويل. أعدت له زينب بنفسها سيريرا ريشيا، ووضعتة في مكان الشرف، وغطته ببطانية حريرية حمراء على زغب الماعز، ثم أطفئت مصباح الكيروسين ذي الثماني شرائط، وذهبت إلى الجزء الخلفي من السرير، وبدأت في خلع ملابسها.



خلعت ملابسها ببطء، وقرقر كل شيء في صدرها بسبب الغضب العاجز. تحول
الفتي إلى الجانب المقابل، وتظاهر بأنه قد نام نوما عميقا. لم يكن عندها شيء أسوأ من
العذاب. ومع كل إصرارها التام لم تجرؤ أن تدعوه إلى نفسها صراحة أو أن تستلقي بجانبه.
وبالنسبة إليها أصبح هذا الشاب الراقد على مسافة ثلاث خطوات منها كنجم في السماء
صعب المنال، وبدا لها انها سوف تموت إذا لم تصل إلى النجم.

تقلبت زينب على سريرها الضخم المطلي بالنيكل من جانب إلى آخر، ودوى رنين فضي
تضرعي مما زاد من اشتعالها. وكانت ليلة خانقة بعض الشيء بشكل لا يطاق، وبدا لها
أن جسدها المتعب يحترق على نار هادئة. أليس هذا الجرو برجل؟ فهنا بجواره تتنظره متعة
كهذه، ويتظاهر بالنوم! فما الذي يمنعه؟

في البداية أرادت أن تنهض من مكانها، وتطرده من البيت، ثم صارت على استعداد أن
ترمي نفسها على ركبته، وتطلب منه الرحمة. أما هو فقد خلد إلى النوم ويشخر بلذة في
نومه. لقد جرح هذا الشاب بالفعل كرامتها الأنثوية! هل قبيحة إلى هذا الحد الذي يجعل
الشباب ينامون معها في منزل واحد، ولا يريدون أن يلمسوها!..

- حسنا، انتظر..! - لقد همست بذلك، ثم ارتدت رداءها، وذهبت إلى الخارج. التفت
يسير كيجين الذي كان لا يزال يتظاهر بأنه نائم إلى الباب ونظر في إثرها بفضول. كان
على وشك أن يغض في نوم حقيقي لكن في هذه الأثناء عادت زينب برفقة الجارية التي
كانت تحمل طستا كبيرا من النحاس بغرض الاستحمام. نظرت القريبة إلى الشاب الذي
أغض عينيه بإحكام، وابتسمت بسعادة بينها وبين نفسها.

همست مرة أخرى وقالت:

- انتظريا عزيزي!

شاهد يسير كيجين بدهشة من خلال جفونه المغلقة الاستعدادات للاستحمام. وضعت
الجارية الطست في منتصف المنزل في المكان الذي يشعلون فيه النار. ثم أحضرت من الفناء
الغلاية النحاسية ودلوا من الماء الساخن. ألقت زينب عنها الرداء الفاخر بهدوء، وأصبحت
عارية تماما.

- لا بأس إنه نائم! - قالت ذلك لجاريته وشرعت في الاغتسال. تلاً لأ جسدها في ضوء القمر
الذي تدفق إلي المنزل من خلال قماش رقيق مفتوح. صبت الجارية عليها الماء فصارت تغسل
نفسها وهي تمسك بيدها أذناها الثقيلة. وقد التوت بينهم الضفائر السوداء الطويلة،



وفقدت في مكان ما في عتمة الفخذين. وانبعثت منها رائحة صابون المدينة ذي الرائحة العطرة.

بدأ يسير كيجين يئن. هزت بسعادة أكتافها البيضاء الممتلئة، وأمرت جاريتها أن تحمل ما جاءت به إلى الخارج. ثم أغلقت الباب بالمزلاج، ووقفت في نفس المكان في منتصف منزل اليورت، وبدأت تنشف جسدها العاري بمنشفة كبيرة بعناية ولفترة طويلة.

جن جنون يسير كيجين على الفراش الريشي. وكان على وشك النهوض ليذهب إليها إلا أنه سمع فجأة وقع أقدام خيول تقترب. نبحت كلاب القرية، وزمجرت، ودوت في الليل أصوات صاخبة لزمرة من الرجال. وسمع ركباناً مجهولين يقتربون من منزل اليورت، ويبدأون في التزلج عن خيولهم.

- هل أنت بالمنزل أيتها البغيضة؟

لقد كان كونور كولدجا. رجعت زينب بسرعة إلى سريرها، وأجابت من هناك:

- بالطبع في المنزل. - وكان مما يثير الدهشة أن صوتها كان ناعساً. - وأين يمكن أن أكون في هذه الساعة.. ألم تستطع أن تختار وقتاً آخر لقدمك؟!

ذهبت إلى الباب بخطوات متثاقلة، ثم فتحته. وقع كونور كولدجا بعنف، وشغل نصف المنزل على الفور وقال لها:

- الناس يموتون. وكل منطقة «يسيل» ملطخة بالدماء، وأنت تنامين هنا في أمان.

قالت زينب وكان النوم قد قفز من عينيها:

- ماذا حدث؟

لم يقل لها كونور كولدجا أي شيء. وعندما خلع الأغا سلطان زي العقيد المزين بالجدائل رأي يسير كيجين الجاثم على سريريه.

سأل زوجته بصوت أجش:

- من هذا الشيطان الأشعث الذي عندك؟

- إنه ابن أخي من قرية ماسان بك.

هدأ كونور كولدجا ثم قال وهو يدمدم:

- لماذا لا يزورك أقاربك إلا في غياب زوجك! - أهو ابن أخت جامانتاي الذي يدرس في

المدينة؟



- نعم إنه هو، ويدعى يسيركيجين.

- في هذه الحالة نم أيها الشاب، وسنتحدث في الصباح.. - جلس على السرير الذي كان يئن من تحته، ومد ساقه بحدائثها الجلدي اللين ثم قال:

- أيتها الزوجة اسجي الحذاء!

زادت زينب من فتيل المصباح، وخلعت حدائه، ووضعت جانبا، وبعد ذلك فقط لاحظت أن وجهه شاحب جدا فقالت له:

- ما بك؟ - وسمع في صوتها شيء من التعاطف. ثم سألته: - ما الأمر؟ لماذا لا تخبرني؟

زمجر كونور كولدجا مثل كلب مربوط في سلسلة وقال:

- ولماذا تهتمين بكل هذا! لا داعي للقلق فقد أحضرت لك ما تحتاجين إليه دائما كاملا غير منقوص. وعلي الرغم من هذا فالحمد لله!.. من الأفضل أن تعطيني الكوميس (لبن الفرس المخمر) إن كان لديك شيء منه.

صبت زينب الكوميس في وعاء كبير، وأعطته لكونور كولدجا الذي كان جالسا وعليه قميص فقط:

- الآن اخرجي، واعرفي كيف سيقضي رجالي ليلتهم!

خرجت، ثم عادت بسرعة، وقالت:

- لم أر أحدا هناك سوى الحراس عند أطراف القرية.

- إنه لأمر جيد أنهم لم يزعجوا الناس. وليبدو الامر كأننا لسنا هنا. حسنا، تعال إلى هنا!

جذبها نحوه بشدة، وانقض عليها دون أن يلقي بالا إلى يسيركيجين الراقد على مسافة ثلاث خطوات منهما. لقد كانت بالفعل سعيدة ولم يكن لديها أي فكرة أن زوجها قد وصل إلى هنا بعد أن نجا بالكاد من الموت.

استيقظ الناس في الصباح، وسمعوا أن مقاتلي كينيساري قد استولوا على قلعة أكمولا. فرح كثير من الناس سرا بهذا الخبر. وبدا للوهلة الأولى أن إعصار الحرب المدمر قد تجاوز هذه القرية النائية، ولكن الخوف كان قد دب في كل شيء.



أثناء تناول الشاي في الصباح نظر كونور كولدجا بصرامة إلى زوجته الشابة وقال:

- حسنا توقفي عن البكاء بسبب هذه القلعة، إذا احتاج الملك الأبيض لمزيد من القلاع فسيبنيها. - إن كارا إيفان الآن في طريقه إلى مدينة أومسك. وسوف يبحث هذا الأمر مع الجنرال تاليزين. أما أنا فلدي ما يكفي من الأمور الخاصة.

- نعم يجب عليك أن تفكر في شؤونك الخاصة.

مسحت دموعها التي كانت تنهمر بغزارة على وجهها، وأشرق من جديد. ووقع نظر الأغا سلطان على يسير كيجين فقال له:

- هل تعرف اللغة الروسية جيدا؟

- نعم أعرف.

- إن كاتي قد قضى نحبه في أكمولا. فابق معنا هنا إلى أن نجد الشخص المناسب.

قاطعت زينب قائلة:

- إن الولد سوف يتأخر عن دراسته. من الأفضل أن تجد لهذا العمل ولدا أكبر منه سنا.

كانت تقصد بالولد الأكبر سنا جاناديل.

دمدم كونور كولدجا:

- قتلت الولد الأصغر، والآن تريد أن تقتل الأكبر. - كفي عن هذا ولا تتدخلين في

حديث الرجال. إذا اخترت جيرانك بناء على نصيحة زوجتك فحتمًا ستسقط في أيدي العدو. وجاناديل لن يذهب إلى أي مكان وسأجد له عملاً آخر.

وافق يسير كيجين وقال

- حسنا، سوف أبقى.

- إذن فاقرا هذه الورقة وترجمها لي. إنها وردت إلي منذ فترة طويلة، ولكن بسبب هذا

السفاح كينيساري لم أطلع عليها. اقرأ بصوت عال فعيناي تؤلمني بعض الشيء..

كانت هذه الرسالة رداً من الجنرال تاليزين على رسالة كونور كولدجا التي طلب فيها

الأغا سلطان تعويضه عن فقدان الماشية التي سرقها رجال كينيساري. أوضح له الجنرال

الوضع الراهن، ووعده باتخاذ التدابير المناسبة بخصوص كينيساري في القريب العاجل،

وبشأن التعويضات عن الخسائر فقد عزاه فقط ببعض الكلمات. ونصحه بأن يعوض

خسائره عن طريق فرض ضريبة إضافية.



”إنني أسمح لك بتعويض خسائك على حساب القرغيز الذين عهدنا بهم إليك.“ قرأ يسيركيجين هذا، ونظر إلى كونور كولدجا منتظرا رده.

اكتب كونور كولدجا.. إذا كان هذا العدد الكبير من الجنرالات ذوي الأزرار النحاسية اللامعة لا يستطيعون كبح جماح كينيساري فلماذا إذن يطالبونه بالكثير! إن أسهل شيء هو أن تطلب فرض ضرائب إضافية، ولكن كيف يمكن تنفيذ ذلك؟

ففي اليوم الذي بدأ فيه جمع الضرائب في مقاطعات كوكيتشتاو وكاركارالي وفقا لقانون عام 1822 م بأخذ رأس واحدة من المشية عن كل مائة رأس انضمت على الفور كثير من القرى إلى كينيساري. لقد كانت المشية دائما للكازاخي أعلى من الحياة لأنه لم يكن يملك ثروة غيرها.

لن يمكنني الآن أن أستعيد السبعة عشر ألفا من الخيول الأصيلة الخاصة بي. إن الناس قد أصابتهم الفاقة خلال فصل الشتاء، وإنهم الآن ينظرون على نحو متزايد صوب السهوب عليهم يرون رجال كينيساري... ولقد أعفوا كازخ كارا أوتكيل من الضرائب حتى عام الأربعين من أجلي، وعليهم أن يقابلوا الإحسان بالإحسان. وإذا لم يضمنوا ذلك بأنفسهم فيجب علي أن أذكرهم بذلك. أيسلبي كينيساري خيولي أما أنا فيجب علي أن أتساهل مع الرعاع؟ سأخذ ما أريد، وإذا ما قاوموا فسوف أنتزع مع الدم لحومهم. إن مصيرهم في يدي، ولا بد لهم أن يعلموا ذلك.

وهل أنا لا أعرف حالتهم المزاجية؟ إن داخل كل واحد منهم نفسا متمردة. فليلوموا الآن محبوبهم كينيساري على الضريبة الإضافية!

يجب علي أن أذهب إلى أومسك، وأتحدث مع الحاكم العام جورتشاكوف نفسه. إنه بالطبع سوف يستقبلني. فلقد استقبل حتى الكازاخي البسيط بوشتاي تورسينباي حين ذهب ليبلغه أن أهل بايان أوول يريدون الانضمام إلى كينيساري. فأرسل إلى هناك مفرزة كبيرة. وحتما سيأخذ جورتشاكوف طلبي بعين الاعتبار، ولن أعلق أمالي بعد الآن على تاليزين وحده.

بعد تناول الشاي جلس كونور كولدجا مع يسيركيجين على انفراد، ووزع الضريبة الإضافية البالغ قيمتها سبعة عشر ألفا من الخيول والتي سوف تؤوّل إليه على تسعة بلدات من الثمانية عشر بلدة بمقاطعة أكمولا. لقد كانت تلك البلدات التي لم تتورط بعد في تمرد كينيساري. وكان على سبع بلدات أن تقدم كل واحدة منها ألفا من الخيول،



وعلى بلدي أتباسار وكورالجي التي ساندت كينيساري بشكل جزئي أن تقدم كل واحدة منهما ألفا وخمسمائة من الخيول. وقد ذكر على وجه التحديد في المرسوم الذي كتبه يسير كيجين على الفور وسيرسل إلى البلديات أنه لن يقبل منهم في هذه الضريبة الطارئة إلا الخيول الأصيلة والصغيرة.

أرسل كونور كولدجا المرسوم إلى البلديات، ثم بدأ يستعد للذهاب إلى أومسك. وسرعان ما وصل جاناديل الذي تم إرساله ليعيد توطين قرى زوجات الأغا سلطان الأكبر سنا كينيسي وأكاجاز إلى الروافد الدنيا من نهري سيل. بالإضافة إلى ذلك استدعي كونور كولدجا على وجه السرعة الأغا سلطان لمقاطعة مقاطعة كاركارالي جانتاماي تاوكي أولي وأغا سلطان، مقاطعة كوكيتشتا وزيلجارا كاراتوكا أولي، وأغا سلطان منطقة جنكيز والي أولي أمانكاراجاي. لقد أراد أن يطالب هؤلاء الناس من أصحاب الشأن أن يطالبوا مع الحاكم العام بأن يتخذ ضد كينيساري إجراءات سريعة وحاسمة. الآن تستطيع القوات والمدافع فقط أن تؤثر في مجرى الأحداث.

وإذا بدأوا في أومسك المماثلة مرة أخرى فإن الأغا سلطان سوف يجري مفاوضات مباشرة مع كينيساري. بالطبع إن هذا أمر صعب لكنه ممكن بشكل كبير. ستبقى العداوة الأبدية بينهما لكن السلام سيعود على كليهما بالنفع. إن كينيساري يريد أن يوحد الكازاخ وعندما يحني رأسه أمامه فإنه لن ينسى له ذلك الصنيع.

- إن الرجال لا يتصلحون طالما يتشاجرون. اعطني يدك أيها التوري، وسوف أخدم أقدارك بإخلاص!.. هكذا سيقول عندما يذهب إلى كينيساري مع أتباعه التولينجوت. وعندما تكون هناك فرصة سانحة سيكون من السهل عليه أن يستغلها وهو بالقرب منه. وبهذه اليد سوف أسحق حلق العدو. يا الله قوي اجعله يعيش حتى هذا اليوم المشرق!

غير أن السلاطين الأغوات المجاورين قد تأخروا. وتوالت الرسائل من أحدهم تلو الآخر يخبرونه بأن المقاطعات تسودها الاضطرابات، وأصبح الخروج من البلديات التي يحميها الجنود على قدر كبير من الخطورة. وقد أيدوا بالإجماع طلبه الخاص بإرسال قوات. ونصحوه أيضا باستغلال الشتاء القادم لقتال المتمردين. ففي فصل الشتاء تكون تحركات الكتلة الخيلية محدودة، وبالإضافة إلى ذلك فإن كينيساري ربما يسمح لمقاتليه بالذهاب إلى منازلهم في فصل الشتاء، ويبقى معه فقط الثلاثمائة أو الأربعمائة شخص من الحراس والأبطال المحاربين.



أدرك كونور كولدجا بعد أن تلقى هذه الردود مدى خطورة كينيساري لكنه لم يخف بل غضب. إنهم جبناء، جبناء! لكن ذلك لن ينقذهم. وبقدر معرفته بكينيساري فإنه يعلم أنه سيقتلهم واحدا تلو الآخر، كل واحد فيهم في مخبأه الخاص.

كان يسير كيجين ينفذ جميع أوامر الأغا سلطان، وينظر إليه باهتمام. ولم يستطع أن يظل غير مبال حيال القصص عن مآثر أبطال كينيساري التي كانت تتضخم بالتفاصيل الأسطورية بعد أن تنتقل من فم إلى فم. كان الشباب مفتونون منذ فترة طويلة بهذه البطولات، وكان الكثير منهم على استعداد للتوجه إلى جيش السلطان الثائر. بالإضافة إلى ذلك كان ماسان جد يسير كيجين الذي كان يتعاطف مع كينيساري إلى حد ما يؤثر على حفيده تأثيرا كبيرا. كما أن جامانتاي لم يظهر نفسه مؤخرا كعدو مباشر لكينيساري، وفضل أن يبقى صامتا. وكان الناس من حول يسير كيجين وخاصة زملاءه يشيدون علنا بالثوار.

وعندما تنبأ كونور كولدجا أن كينيساري سوف يخنق جميع أعدائه كل واحد منهم في مخبأه عبس يسير كيجين رغما عنه. وعندما لاحظ الأغا سلطان هذا نظر إليه بدهشة. ولم يتأتى له أن يعرف أنه من هذه المدارس الروسية بصفة خاصة والتي يدرس في إحداها ابن شقيق زوجته الشابة سيخرج في المستقبل أخطر الناس وهم الثوار، وسيكون يسير كيجين واحدا منهم.

رافق الأغا سلطان عشرة رجال إلى أومسك. لقد أرادوا أن يغادروا قبل الظهر في الطقس الجيد ولكن هبت رياح باردة من ساري أركا، وتغطت السماء بغيوم ثقيلة. دخل أحد الحراس على كونور كولدجا وقال:

- يا آغا سلطان لقد جاء إليك أحد الرجال.

- ومن أين هو؟

- يرفض أن يقول اسمه، ويريد التحدث معك فقط.

- أدخله ولكن خذ سلاحه.

منذ أن قتلوا جنكيز أصبح يخاف من الزوار المجهولين. فمن الممكن أن يرسل له كينيساري أحد القتلة في أي وقت، وصاروا يفتشون كل من يدخل إلى الأغا سلطان.

نظر كونور كولدجا إلى الباب بترقب. دخل عليه شاب شاحب اللون هزيل القوام ذو عيون زرقاء. ارتجف يسير كيجين من النظرة الباردة الكريهة للقادم عليهم.



قال الرجل وقد أحنى ظهره:

- السلام عليكم

- وعليك السلام. قل لي لماذا جئت.

لقد كان سامين رجل أوجار السري.

لقد أدرك كونور كولدجا ذلك عندما ألقى نظرة عابرة على حزام الرجل. لقد كانت السكين والعلبة معلقة على يساره، وليس على يمينه كما جرت العادة. لمح يسير كيجين نظرة الأغا سلطان وأصيب بالدهشة.

سأله كونور كولدجا:

- وأين سيدك؟

- إنه في مفرزة بيتابين ولم يتمكن من أن يأتي حتى ولو ليوم واحد.

لم يستمر في الحديث، وأشار بعينه على يسير كيجين. ولكن كونور كولدجا لوح بيده سامحا له بالحديث:

- تكلم إنه واحد منا، وهو أيضا قريب.

كان الرجل غير متحمس بشكل واضح وقال:

- رسالة هامة - لقد أرسل كينيساري إليك مفرزتين قويتين بقيادة. أجيبي، وبايتابين. وإن فرقة أجيبي توجد بالفعل في مضيق كاراجار، وفي الغد سيتحرك إلى كاراكال. إنهم يريدون أن يسرقوا قطعان أغا سلطان. جامانتاي. إن كينيساري قد غضب عليه لأنه يتردد.

- وإلى أين تذهب فرقة بايتابين؟

- إنني في فرقة أجيبي. إن فرقة بايتابين تسير خلفنا، وستكون هنا مع الفجر. لقد أرسله كينيساري من أجل أن يأخذ الخيول المتبقية لديك.

تحول وجه كونور كولدجا إلى اللون الأرجواني.

- كم عددهم؟

- أربعون رجلا في كل فرقة.

عبس الأغا سلطان بصرامة وقال:

- فقط! - لقد أصبح هذا اللص وقعا بشكل تام. وقد حان الوقت لأظهر لهم أن المزاح

معى سيء للغاية. أتقول أنهم في مضيق كاراجار؟



- نعم، وغدا سنذهب إلى كاراكالي، أما الآخرون فسيأتون إلى هنا. إنهم يخصصون وقتاً قليلاً للراحة.

استدعى كونور كولدجار رسوله، وأمره أن يحضر أسيلجيري رئيس حراسه من التولينجوت.

التفت إلى سامين مرة أخرى وسأله:

- وهل يعرفون أين ترعى خيولي؟

يعرفون كل شيء. لقد أخبرني بذلك من أرسلني.

لقد فهم يسيركيجين الآن كل شيء. إن ذلك يعني أن للأغا سلطان عيون وأذان في مخيم كينيساري. ولكن لم تكن لديه الشجاعة ليسأل من هم هؤلاء الناس.

- وأين سيبحث بايتابين عن خيولي؟ - سأله ذلك السؤال كونور كولدجا وهو غير مصدق أن المتمردين استطاعوا أن يكتشفوا مكره.

- عند انعطاف يسيل نحو إرتيش.

تفوه كونور كولدجا بعبارات نابية ثم سأله:

- وكيف علموا بكل هذا؟

- ذلك الرجل لم يتمكن أن يهرب من المفرزة. وعندي لك شيء آخر.

- يمكنك التحدث. - لقد سمح له كونور كولدجا تارة أخرى.

- في مكان ما هنا يختبئ في أحراش نبات الديس أحد الرجال ويدعى أبدوفاخيت، وقد أمره كينيساري بأن يأتي برأسك.

قفز الأغا سلطان من الخوف وقال:

- أي أبدوفاخيت؟

ابتسم سامين ابتسامة ماكرة وقال:

- عبدك السابق. - إن لديه ابنه تدعى كوميس.

كانت الأرض تعج بالشائعات. وسمع يسيركيجين بحافة أذنه قصة اغتصاب كوميس. وعندما عندما كان ذاهباً إلى للدراسة في العام الماضي، ومر بأمالك كونور كولدجا رأي ابنة التولينجوت الجميلة. وقد طلب منها أن تسقيه شراب الكوميس، ولم يرغب لمدة طويلة أن يغادر منزلهم. وعندما علم بخبر اغتصابها شعر وكأنهم قد اغتصبوا شقيقته. وهاهو الآن يجلس بجانب المغتصب، وينفذ جميع أوامره. وتمنى الفتى أن يلقي في وجه السلطان بكل ما كان يفكر.



دخل أسيلجيري رئيس حرس الآغا سلطان، وكان رجلا طويل القامة ذو شارب الأسود. قص عليه كونور كولدجا بالتفصيل ما سمعه من سامين، وأمره أن يتحرك على الفور إلى مضيق كاراجار.

وضع كونور كولدجا قبضته المشعرة على السجادة وقال:

- إن أهم شيء هو ألا تدع أجيباي يتوجه إلى كاركارالي، وأن تقبض عليه في مكانه على حين غرة. - وسيحكي هذا الشاب يسيركيجين لجامانتاي عن حاجتنا للمساعدة من جانبه.

أوما يسيركيجين بصمت.

توجه كونور كولدجا إلى يسيركيجين بشكل مباشر وقال له:

- قص عليه كل ما سمعته.. ودعه يعرف من هم أعدائه ومن هم أصدقائه. وحذره من أنه إذا ما استهدفه كينيساري فإنه لن يتركه. - والتفت مجددا إلى أسيلجيري وقال له: - اجلس مع مقاتليك في الطريق المؤدي إلى القطعان. وطوق مفرزة بايتابين لكي لا يخرج أحد منهم حيا. ثم أعثر على أبدوفاخيت، وضعه في السلاسل. وعندما أعود سوف أعاقبه بنفسي.

قال له رئيس الحرس بعدم ثقة:

- حاول أن تؤجل سفرك إلى أومسك بعض الوقت يا سيدي السلطان. - فتحت قيادتكم سيمكنا أن نتخلص منهم بشكل أسرع.

- إذا كنتم تخشون أن تقاتلوا حوالي خمسين من اللصوص فلماذا إذن تحملون السلاح. - غضب كونور كولدجا غضبا شديدا لكن كان من الواضح أنه كان خائفا حتى الموت عندما علم بخبر أبدوفاخيت المختيء في الغابات النهرية.

عهد كونور كولدجا بجميع المسائل الهامة إلى أسيلجيري، وعلى الرغم من سوء الاحوال الجوية توجه في اليوم نفسه الى أومسك. وفي الطريق قام بتغيير الخيول مرتين في اليوم الواحد لدي أقرانه من الجيران الأغنياء، وفي صباح اليوم الرابع وصل إلى حيث أراد.

كثيرا ما زار كونور كولدجا هذه المدينة، وتقابل هنا أكثر من مرة مع الشخصيات الملكية المرموقة. وكان هناك حدثين من بين تلك الأحداث لهما وقع لطيف على نفسه. وقع الحدث الأول في عام 1829 م- أو في عام البقرة بالكازاخية- عندما احتفلوا بالذكرى الأربعين لمدرسة أومسك للمتربين العسكريين. وقد حضر الحفل سبيرانسكي نفسه مؤلف وضع قيرغيز سيبيريا. وقد حصل كونور كولدجا حينذاك على أول رتبة



عسكرية له وهي رتبة نقيب. وهو الآن ضابط برتبة مقدم.

والحدث الثاني الذي تذكره كان افتتاح مدرسة أومسك العسكرية في العام قبل الماضي. وكان المبنى الضخم المكون من أربعة طوابق يتلألأ بالأضواء. وقد ميزه الأمير جورتشاكوف عن جميع الأغوات السلاطين فقد سار معه مرتين عبر الصالة المضاءة يدا في يد. وكاد الأغوات السلاطين الآخرون أن ينفجروا من الحسد.

وقد أحاط الضباط ذوى الأجسام المتناسقة والزي الجميل بسيداتهم في رقصة الفالس. نظر الأمير إلى مجموعة من الشباب الكازاخي أبناء المدعوين من البكوات والسلاطين والذين كانوا يرتدون زيا واحدا وقال:

- بعد خمسة وعشرين عاما سيكونون ضباطا رائعين كهؤلاء. - وسيصبح جميع القييرغيز أناس آخرين.

وعلى الرغم من أن كونور كولدجا كان دائما ما يوافق رؤسائه إلا أنه في هذه المرة لم يستطع أن يخفي شكوكة فقال:

- وإذا لم يرغب الكازاخ في ذلك؟

نظر إليه الأمير نظرة قاسية وقال:

- ما ذا تقصد بلا يريدون يا عزيزي؟ - أنت رجل متعلم، وتفهم مصلحة شعبك. في كثير من الأحيان يتحتم إدخال الحضارة ضربا بالعصى كما فعل في روسيا بطرس الأكبر.

أعجب كونور كولدجا بالإجابة الواضحة والمباشرة للأمير جورتشاكوف. وعندما أوضحوا له ماهي الحضارة اعتقد آغا سلطان أكمولا أنه يخدمها منذ نعومة أظفاره. وعلي أي حال سيكون كونور كولدجا في هذه الحضارة على راحته تماما. عليه فقط أن لا يكون أحمقا ويتشاجر مع رؤسائه. أما الرعاع فيجب أن يبقوهم في الجسد الأسود. لقد فهم ذلك بشكل جيد.

تذكر كونور كولدجا وهو يقترّب من أومسك الأسطورة القديمة عن جنكيز خان. ذات مرة سأل جنكيز خان المقربين منه عن أعظم متعة للإنسان. قال أحد الفرسان الأبطال "مطاردة ثعلب مع نسر على اليد!". وقال آخر "عناق الحبيب!". وقال ثالث. "حكم الشعب من عرش ذهبي!". قال "مزلة الكون" كلكم على خطأ - "إن أعظم متعة للإنسان هي أن ينتصر على عدوه، ويأخذ منه كل شيء، ويقوده من اللجام مثل الكلب، ويستمتع بزوجاته وبناته على مرأى منه!"



نعم لقد كان الجد العظيم على حق. إن كونور كولدجا على استعداد أن يموت مباشرة بعد أن يدوس على رأس كينيساري، ويسحق تحته زوجته الأولى كونيمجان؟ تلك التي انتزعها منه كينيساري.

دخل كونور كولدجا المدينة عن طريق ناعم به أشجار على الجانبين، ثم توقف بضع دقائق ليفكر أين سيقوم في هذه المدينة. وقد رأي أمامه في ميدان كبير مسجد مسلمي أومسك بمآذنتيه. وبالقرب منه يوجد منزل ضخم مبني بالطوب الأحمر يعيش فيه أخون محمد شريف عبد الرحمن أوغلو. وعلى اليسار، في المقابل تماما، توجد كنيسة متوجة بصلبان مذهبة. وخلفها يوجد قصر أبيض جميل مكون من طابقين يملكه الحاكم العام. وبرزت بشكل خاص عليّة بناوفاذ على الجوانب الأربعة تحت سقف أزرق يشبه قبة الفتاة العذراء. لقد كان مكتب الأمير جورتشاكوف.

قرر كونور كولدجا أن يقيم عند أخون. استقبله محمد شريف بأذرع مفتوحة. وعلم الأغا سلطان منه أن الجنرال تاليزين مريض، وقد أسعده هذا الخبر جدا. فالآن سيكون له الحق في أن يطلب لقاء عاجلا مع الأمير.

في اليوم التالي دعا الأمير جورتشاكوف نفسه الأغا سلطان كونور كودايميندين للقائه. فجأة شعر كونور كولدجا الذي يعتبر نفسه مسئولا بشكل جزئي عن تسليم قلعة أكمولا بالتردد، وطلب من أخون أن يذهب معه. لكن الحاكم العام استقبله هو وحده.

أشار الضابط الأنيق طويل القامة المختص بالمهام الخاصة لكونور كولدجا بيده فاجتاز بحذر بابا ضخما مبطنًا بجلد أسود. لقد كان يعرف هذا المكتب منذ فترة طويلة. كان المكتب غرفة واسعة بها كراسي لينتج بجوار الحائط، وفي العمق مائدة ضخمة مغطاة بقماش أخضر سميك. وفوق المقعد ذي الظهر الطويل المنحوت صورة ضخمة لصاحب الجلالة الإمبراطور نيكولاي الأول بكامل هيئته تصل إلى السقف. وعلى أكتاف الملك كتافات العقيد تقريبا مثل تلك التي على الزي الرسمي للأغا سلطان.

كان يقف على المائدة نسربرونزي أحذب بأجنحة مفرودة، وبمخالبه محبرة صغيرة. وخلف المنضدة رجل يشبه هذا النسربرونزي وهو السيد على الحياة والموت للخاضعين له. إنه الحاكم العام لغرب سيبيريا الأمير جورتشاكوف. كان شعره مقصوصا كالقنفذ، وعلى وجهه الشاحب الباهت انتفشنت شواربه الحمراء الخشنة، وكانت نظرتة لا تعرف التردد. كان واقفا ولم يعرض على ضيفه الجلوس.



- أيها المقدم كودايميندين.. - كان صوت الأمير سلسا وخافتا بعض الشيء. - لقد دعوتكم بمجرد أن علمت أنكم وصلتم إلى أومسك. إننا نعلم جيداً تفاصيل الاضطرابات في سهوب القييرغيز. لقد أبلغني العقيد كارايشيف كيف أنكم تخليتم عن قلعة أكمولا. وأنه يجب أن تحاكموا معاً لعدم الوفاء بالقسم، ولكننا سنعفو عنكما هذه المرة. والآن قل لي ما الذي جئتم به، وماذا تريدون منا. فقط تحدث بسرعة ودون أي رسميات. بالفعل لقد كان الأمير في عجلة من أمره. لقد اشترى المحب الكبير للكلاب في هذا الصيف كلبه سياترا رائعة من إنجلترا. والآن هي مريضة، وقد استدعى لها الأمير أفضل طبيب بيطري في تومسك. وكان قد وصل للتو، وأراد الأمير أن يفحص الكلب في حضوره. لم يعلم الأغا سلطان كونور كولدجا كودايميندين شيئاً عن هذا لذلك شعر بالارتباك. وكان أكثر ما يخشاه أن يذهب الجنرال دون أن يستمع إليه.

قرر كونور كولدجا أن يقول فقط الأهم مما كان قد أعده فقال بصوت متوسل:

- يا صاحب السعادة- إن المتمرّد السارق كينيساري يزداد قوة كل يوم. إذا لم نقضي عليه في فصل الشتاء هذا، فلن نقدر عليه في الصيف المقبل..

نظر إليه الأمير جورتشاكوف بحدة وقال:

- هل تعتقد ذلك؟

- إننا نخشى أن ينضم إليه الكيبشاك ذوي الأعداد الغفيرة الذين يتجولون على ضفاف نهر تورجاي، وعشائر الجزء الأصغر من ضفاف نهر إرجيز واليك وإيمبا. وإذا استمر الأمر على هذا الوضع فسوف يجمع كل السهوب تحت يده في فترة قصيرة.

قال الحاكم العام وقد اهتزت شواربه إلى الأعلى:

- هؤلاء القييرغيز أغبياء- يثورون ضد صاحب الجلالة الإمبراطور! أي يعلم كينيساري هذا أنه لو كانت لديه قوات أكثر عشرات مرات مما لديه الآن فلن يستطيع أن يتغلب على القوات النظامية. لقد ولى زمن أبلاي.

قال كونور كولدجا وقد أضغم كلامه في كلام الحاكم العام:

- هذا صحيح يا صاحب السعادة! - إن الأشخاص الأذكياء لا يفكرون في ذلك. إنه وحده كينيساري من يفعل ذلك من أجل تحقيق أهدافه الخاصة.

- إن كينيساريك هذا قد تجرأ أن يكتب لي كأنني شخص مساو له. ويعرض علي المفاوضات والخدمة بإخلاص نظير الاعتراف بالاستقلال القييرغيزي. وبهذا الشكل لن تكون لدينا إمبراطورية وإنما الشيطان وحده يعلم ماذا سيكون لدينا! وإنني لم أجب



على رسائله المجنونة.

- إنه سارق يا صاحب السعادة! إنه يسرق آخر ما لدي خدام صاحب الجلالة الإمبراطور المخلصين من ماشية، ويتركهم أيتاما.

لم يعر الأمير حديث كونور كولدجا أي اهتمام واستمر في حديثه:

- وهل هناك ما يعيب في هذه الطاعة؟ بل يجب تقبلها بسعادة كبيرة. فأنا على سبيل المثال أمير لكنني أجد متعة في خدمة العرش. وكذلك كل شخص مخلص. ولكن القيروغيز غير شاكرين. إنني شخصيا أبلغت جلالته: "إن أفضل طريقة لإقامة العلاقات مع الشعب القرغيزي هو إبقائهم في خوف دائم". ويؤيد هذه الفكرة وزير الحربية الأمير تشيرنيشيف. وسيتم لي عنق أي شخص لن ينفذ التعليمات مثل قرن الكبش. وهذا لمصلحتهم الشخصية!

مسح كونور كولدجا العرق عن جبينه خلستة وقال:

- إننا نشارككم نفس الرأي يا صاحب السعادة! - إننا نتوسل لكم إرسال القوات بسرعة ومعاقبة المتمردين. وسوف نفعل كل ما نقدر عليه.

- إننا الآن نعد خطة للقضاء على عصابة كينيساري، وإخماد الفتنة في السهوب القيروغيزية. وسوف تشارك في ذلك. - وتذكر الأمير جورتشاكوف الطبيب البيطري الذي وصل لتوه، وبدأ في الإسراع بالخروج ثم قال له: - تباحث في باقي الأمور مع رئيس المنطقة تاليزين حينما يتعافي سعادته.

ذهب كونور كولدجا من عند الحاكم العام وهو متحير تماما. ولكنه ابتهج بعد أن التقى الجنرال تاليزين الذي تعافى من مرضه. وعلى الرغم من أنه قد حصل على مائة من الجنود فقط من أجل الحماية الشخصية إلا أنه قد علم أنه بحلول الصيف المقبل سوف تنطلق حملة عسكرية كبيرة ضد كينيساري. وفي فصل الشتاء كما هو معروف لن يكون كينيساري قادرا على فعل أي شيء ذي بال. وسيكون من الممكن التصدي للفرق الصغيرة بقواته الخاصة.

لكن عندما اقترب الأغا سلطان من قريته علم أن فرقتي الثوار بقيادة أجيباي وبايتابين سرقا كل ما تبقى لديه من الخيول. وأصبح كونور كولدجا الآن فقيرا مثل أفقر فرد من عبيده التولينجوت.

وهذا هو ما حدث.



عندما ذهب كونور كولدجا إلى أومسك توجه يسيركيجين بناء على تكليف منه إلى قريبه جامانتاي. ولم ينسى الفتى ما رأى وما سمع في بيت الآغا سلطان. وتذكر ما قاله زملائه في المدرسة. "لقد بدأوا في بناء القلعة على مراعيينا الشتوية وهذا يعني أن القرية سوف تنتقل إلى الرمال". وذكر بعضهم علنا أنه يجب التصدي لذلك. وفي المدينة تزايد ظهور روس غرباء، ومنفيين، و"أعداء للعرش وللوطن" كما وصفهم بعض المعلمين الذين منعوهم حتى من التحدث معهم. وكان هؤلاء الغرباء يتحدثون عن السياسة الاستعمارية القيصرية، وعن السرقة والسطو اللذين يرتكبهما المسؤولون، وعن حق الشعب في الحرية. وكان هناك بعض المعلمين الذين كانوا يتعاطفون معهم.

لقد سمع يسيركيجين الكثير عن الباتير أجيباي من عائلة شوويرتابالا. إنه أيضا ينتمي إلى تلك العائلة وكان يفخر بأجيباي الذي دارات عنه في السهوب الأساطير. والآن يخيم فوق الباتير خطر الموت، وأخذ الفتى يفكر في كيفية مساعدته.

وعندما غادر مع أصدقائه قرية عمته قفز أرنب في طريقهم. ركض الشباب كما جرت العادة وراءه. وكان حصان يسيركيجين أفضل من خيول الآخرين، وحمله بعيدا إلى الأمام. اختفى الأرنب في نهاية المطاف في الغابات النهرية فوق يسيل، وبالكاد لم يدهس الشاب الرجل النائم في أحراش الديس. لقد كان أبدوفاخيت الذي حذروا منه الآغا سلطان. قفز أبدوفاخيت، ولوح بالهراوة لكن الفتى أخبره أنه ليس عدوا له. تذكر العبد السابق بشكل غير واضح الصبي الذي شرب عندهم في منزلهم ذات مرة شراب الكوميس.

- يبدو أنك سليل ماسان بك. إنه شخص طيب.

إن قطعة الذهب المكسورة لا تفقد خصائص السبيكة الكاملة.

كرر يسيركيجين بحرارة:

- نعم إنني لست عدوا لك.

لم يضع الوقت، وقص عليه على الفور كل ما سمعه في منزل الآغا سلطان. قفز أبدوفاخيت فورا على حصانه الذي كان يرعى بالجوار، وخرج من الغابات النهرية.

صرخ يسيركيجين في أثره:

- لا تنسى أن تبلغهم أنه في فرقة بايتابين رجل يدين بالولاء لكونور كولدجا. وكن

على حذر. فهم يعرفون بأمرك، ويبحثون عنك ليقتلوك..

تمكن أبدوفاخيت الذي وصل إلى مضيق كاراجار من تحذير الباتير أجيباي من الفخ



الذي نصب له، فأسرع هذا بقيادة فرقته، وانضم إلى فرقة بايتابين، ثم انقضوا جميعاً بشكل مفاجيء على الحراس الذين كانوا يحرسون خيول الأغا سلطان، فلاذ هؤلاء بالفرار. واقتاد الثوار معهم جميع خيول الأغا سلطان.

انطلق رجال أسيلجيري ورائهم وولحقوا بهم. ولكن أولئك كانوا يتوقعون الهجوم فتصدوا لهم. لكن بث منظر أجيباي على جواده المحارب أكيلاك وبايتابين على فرسه سيركيسان الرعب في قلوبهم لدرجة أن حراس السلطان لاذوا بالفرار. وقد جرح عدد قليل من الثوار، وكان أوجار واحدا منهم. لقد التوت قدم حصانه، ووقع في حفرة وحش. وكاد الحراس أن يقبضوا عليه ولكنه قاومهم. رأي الجميع ذلك. لكنهم لم يروا كيف تمكن من رمي حقيبة لأحد رجال كونور كولدجا بها تقرير جديد.

وكان أكثر ما ندم عليه الباتير أجيباي أنه لم يستطع في هذه المرة أن يصفى حسابه مع الأغا سلطان جامانتاي الذي غذى تجاهه الكره الحارق من سنوات الطفولة الجائعة. الآن من غير الممكن مهاجمة كاراكالي بقوات صغيرة. وكان عليه أن يعود مع فرقة بايتابين.

وقد بكى كونور كولدجا عندما علم بفقدان جميع خيوله. فهل سيمكنه البقاء طويلاً في وظيفة الأغا سلطان دون ثروة؟ إنه ينبغي عليه أن يقدم بعض المال لبعض المسؤولين! إن الثروة هي من تصنع المجد والاحترام وخوف الأعداء.. وكان عزاءه الوحيد أن أبدوفاخيت عبده السابق الذي لم ينم الليالي بسببه قد قتل في المعركة.



VI

شعر كينيساري بالرضا بعد أن سحق حصون أكمولا، وأكتاو، وأورسك. وقد زاد في سعادته أن أجيباي وبايتابين جلبا معهما الثلاثة آلاف الأخيرة من خيول عدوه اللدود كونور كولدجا وأن شقيقته المحاربة بوباى حرقت ضيعة أجانيم أرملة والي خان، وأحضرت معها كل شيء حتى سجاييد الشعر القديمة.

كما أن الاستيلاء على قلعتي أكمولا وأتراو والانتصارات الآخري قد أثروا على الفور على قرى مقاطعات كارا أوتكيل، وكاركارالي، وكوكيتشتاو، وبيان وول التي تباطأت في الانضمام إلى كينيساري. والآن بدأوا واحدا تلو الآخر في الانضمام إليه لا سيما وقد وردت أنباء سارة من الجزء الأصغر فلقد عاد من هناك تايمائيس الذي خاض حربا مع مفرزته مدة شهرين على ضفاف أنهار إليك وإيمبا وإرجيز وجيم. وقد أخبر أن العديد من قرى تاما، وتابين، وشوميكي، وتورتكارا تجمعوا حول الباتير جولمان وإنهم على استعداد لمساعدة كينيساري. ونفس الشيء أخبر به الكيبشاك من شواطئ تورجاي الذين يقودهم الباتيران إيمان وجاووكي. وقد طلبوا فقط نقل مقر القيادة إلى تورجاي حيث سيكون من السهل توحيد الجزئين الأوسط والأصغر من أجل محاربة الملك الأبيض.

كان كينيساري يفكر ليلا ونهارا فيما سيفعله بعد ذلك. وأخذ يسير مجددا على السجادة في منزله الأبيض، ولم يجرؤ أحد على الدخول عليه. نعم إذا ما استطعنا أن نجذب إلى جانبنا كازاخ سردار الذين يقاومون كوكاند على فترات، وكذلك أدايس من بحر قزوين والأرجين الأقوياء الذين يقعون تحت سيطرة شيجي بك حينذاك يمكننا التحدث بشكل جدي باسم السهوب كلها. ويبدو أننا نتحرك نحو ذلك..

أشرقت نظرة كينيساري، واختفت التجاعيد حول فمه. لكنه تذكر مجددا الخلافات الأبدية على المشيئة والمراعي التي تميز السهوب. فهل يستطيع أن يبقي الأعداء السابقين معا لفترة طويلة؟ وسيبقي الصراع كما كان في السابق طالما يتجول الكازاخ تحت هذه السماء.

تاه جوسوب - يوسف جيربروت الذي كان يري السلطان يوميا في تخميناته. فلماذا يتعذب بهذا الشكل رجل أحرز لتوه بعض الانتصارات الهامة؟ ربما يكون السبب زفاف ناويريزاي الذي تحدثوا عنه كثيرا؟..



قبل أسبوع عندما كان بايتابين في الحملة احتفلوا بزفاف ناوريزباي وأكبوكن. وكان كينيساري نفسه الحكم على مسابقات المطربين وألعاب الفروسية. أعجب الجميع بحكمه ولكن مزاج السلطان تعكر بشكل مفاجيء. وكما هو الحال دائما انغلق على نفسه فجأة، وتوقف عن الحديث مع الآخرين، وعن المزاح والضحك. وفي اليوم التالي تحدث يوسف مع كينيساري حديثا طويلا لن ينساه مدى الحياة.

حل المساء. وعم القرية ضجيج وأزيز القطعان العائدة من المراعي. وجاءت من بعيد أغنية حزينة وكئيبة لراع القطيع وكأنها بكاء على الشمس الغاربة.

خرج كينيساري من منزله ممسكا في يده ابنه سيزديك البالغ من العمر خمس سنوات. لقد كان لديه ثمانيّة أبناء هم جبار، وتايشاك، وأحمد، وعمر، وأوسبان، وأبو بكر، وسيزداك وجاكي، لكنه كان يميز قبل الأخير سيزديك على الآخرين. كان السلطان يرتدي معظفا أبيضاً بسيطاً من وبر الإبل، وتدلّى من وشاحه خنجر واحد فقط. وبمجرد أن خرجوا بدأ سيزديك الصبي الرشيقي الأصهب ذو العينين الملونتين القفز فوق الشجيرات الشائكة. لقد كان نسخة طبق الأصل من والده.

رأى كينيساري يوسف واقفا بجوار اليورت المخصص له فقال له:

- تعال معنا يا جوسيك. سوف نتنزه قليلا.

إذا كان الباتير مرات هو من يحرس السلطان في الحملات فإن كارا أوليك وحده هو من يحرس السلطان في القرية. سار العملاق الأصم خلفهم، ونظر إليه يوسف جيربروت من الجانب، ثم أسرع يمشي بجوار كينيساري.

وفجأة رأى أن يد السلطان صارت بيضاء وهي تتشبث بيد الطفل. نظريوسف مجدداً إلى الجلال الذي كان يتبعهم في هدوء، وأصابته القشعريرة. وتصور للحظة أنهم يفكرون في إعدام الطفل. ولكن ما تهمة هذا الطفل أمام الله والناس؟ فهذا الوحش لايسير ورائهم من دون غرض.

توقف ثلاثتهم عند قمة تل صغير. وفي الأسفل أظلم الوادي الهادي. استدعى كينيساري الأصم العملاق بإصبعه، وأخرج سكيناً حادة، وحدد له مكاناً في الأسفل، وبين له بالإشارات أنه ينبغي حفره بالنصل إلى الأعلى. فهم الأصم سيده، وحفر حفرة صغيرة، ودفن السكين بحيث يبرز الجزء الحاد منها بمقدار ثلاثة أصابع من الأرض الهشة. شاهد يوسف جيربروت كل هذا بدهشة بالغة. التفت كينيساري لابنه الواقف بجواره وقال:

- سيزديك هل تريد أن تصبح باتيراً؟



أشرق وجه الطفل وقال:

- سأكون باتيراً كبيراً حتى أكبر من عمي ناوريزيائي نفسه.

- إذا كان الأمر كذلك فإن الباتير الحقيقي لا يخاف من أي شيء. - ثم أشار إلى قمة التل وقال: - إذن فاركض من هنا، واسقط بصدرك على هذا السكين. لا تخف من شيء، وستظل حياً، وتصبح باتيراً.

أومض شيء ما في عيني الطفل يشبه الخوف، ثم انطفاً على الفور. ونظر إلى النصل البارز من تحت الأرض، ثم قال:

- وهل هذا السكين لن يخترق صدري؟

- إن الباتير لا يسأل هذا السؤال قط.

التفت سيزديك، وتوجه إلى التل. مسح يوسف جيربروت عرقه، وقال: يا إلهي! هل هناك آباء بهذه القلوب الحجرية؟ وهل يمكن التحقق من شجاعة طفل في الخامسة من عمره بهذه الطريقة؟ وإذا ما حدث شيء ما؟ لا، إن الطفل لن يجرؤ أن يفعل ذلك.

ذهب سيزديك إلى الأعلى دون يرفع رأسه. انحنى كينييساري فجأة، وانتزع الخنجر من الأرض بسرعة البرق، وخبأه خلف معطفه. وفي الوقت نفسه جمع التراب وجعله كالتل كأن السكين لا تزال في مكانها. تنفس يوسف جيربروت الصعداء. هذا هو ما يجب أن يكون فحتى الوحش المفترس لا يرسل طفله إلى موت محقق. ولكن ياله من اختبار رهيب للصبى. إما أن يموت أو يسقط في عين أبيه! ولا عجب أنهم يقولون هنا أن لدي التوري شخصية الذئب. إنهم نقلوا قوانين الوحوش إلى الإنسان أعظم مخلوق خلقه الله..

- كفي ياسيزديك. والآن اركض.

التفت الصبي، وركض على الفور. وانطلق من الجبل، وكان واضحاً أنه لن يتوقف. وفي لحظة أغمض عينيه، وركض إلى المكان الذي دفنوا فيه الخنجر للتو. ولكن كأن الطفل قد غضب من جنبه ففتح عينيه على مصراعيها، وانطلق كالرصاصة إلى الأمام. وسقط ببطنه على التلة الصغيرة بعيون مفتوحة ودون أن يقلل من سرعته. وعندما لم يتعجبه هذه السقطة، رجع عدة مرات بعنف ليثبت أنه ليس خائفاً من الموت.

اقترب منه كينييساري في صمت دون أن يخفي فخره به. لم يقبل الطفل أو يداعبه ولكن وضع فقط يده على رأسه وقال:

- اذهب إلى والدتك.



انطلق سيزديك إلى القرية بتهور كالمهر الذي تحرر من وثاقه. وبإشارة غير ملحوظة من كينيساري سار خلفه كارا أوليك. وبقيما هما الاثنان وحدهما على التل. لم يتحمل يوسف جيربروت، وصاح وهو يشير بيده اليمنى إلى حيث انطلق سيزديك:

- إنك ستجعل منه ذئبا حقيقا بهذه الطريقة.

أوما السلطان كينيساري برضا وقال:

- ولكن الإنسان مخلوق من مخلوقات الله، ولا يجب أن يصبح وحشا..

بدأ كينيساري يضحك علنا. لقد أضحكه أن هذا الرجل الغريب الذي ظهر بينهم مصادفة لا يفهم حياة السهوب.

- ما الذي يضحك؟

أصبح كينيساري جادا بشكل مفاجيء وقال:

- إنني أضع آمالي الرئيسية على سيزديك. إن له مكانة خاصة بين أبنائي لذلك أردت أن أختبر روحه. وقد ضحكت لأن حديثك عن سيزديك يكرر تقريبا الحلم التنبؤي لجدي أبلاي، وهو الحلم الذي فسره الشاعر بوخار. نعم، ينبغي على ابني سيزديك أن يصبح ذئبا مفترسا.

لقد دون يوسف جيربروت منذ فترة طويلة حكايات، وأمثال، وشعارات الكازاخ. وعلى الرغم من أنه كان يعرف أن التوريين لا يحبون أن يحكوا عن حياتهم الخاصة فقد طلب من السلطان أن يحكي له عن هذه النبوءة القديمة. ولدهشته وافق كينيساري على الفور.

- في الليلة التي سبقت اليوم الذي غسل فيه أفضل الناس من الأجزاء الثلاثة جدي في حليب الأفراس البيضاء، ورفعوه على السجادة البيضاء، ونصبوه خانا لجميع الكازاخ رأي حلما رائعا، وطلب من الشاعر العراف بوخار أن يفسره له. وقد روي جدي حلمه على النحو التالي: عندما كنت أجوب ساري أركا على ظهر حصاني جالتينكويريك اعترض طريقي أحد الأسود. فأسرعت بمطاردته، وبقرت بطنه، ولكن قفز من بطن هذا الأسد نمر، ثم ولى الأدبار. أدركت النمر، ومزقت بطنه أيضا. وقفز من النمر ذئب كبير. أدركت الذئب، وبقرت بطنه، ورأيت ثعلبا أحمر ناريا. وعندما قتلته خرجت منه مخلوقات صغيرة عديدة كالديدان والنمل، وسرطان البحر، والضفادع، والسحالي. لقد كان عددهم يقدر بالملايين، وزحفوا إلى أعلى عبر أرجل الحصان حتى وصلوا إلى إبطي ورقبتي وشعر رأسي. فصرخت، واستيقظت على صوتي.



نظر كينيساري إلى مكان ما بعيدا عنه وكأنه ينظر في الواقع كل ما حكي عنه.
- وقد فسر الشاعر العراف هذا الحلم على النحو التالي: "إن اعتلائك ظهر حصانك جالتينكويريك يعني أنك ستجلس بقوة على العرش الخاني، وإذا قفز أمامك في الطريق أسد فيعني أن ابنك سيكون أسدا.. ومن هذا الابن سيكون لديك حفيد مثل النمر. وسيكون ابن حفيدك ذئب كبير. لكن الزمن سوف يتغير ويصبح حفيدك ذكيا وواسع الحيلة مثل الثعلب. وماذا يمكن أن يولد منه غير الكثير من المخلوقات الصغيرة؟ وستطحن عائلتك، ثم ستنتشر على الأرض. هكذا كان الأمر دائما وهكذا سوف يكون."
نظر إليه يوسف جيربروت في دهشة. فهذا الرجل الذي يبدو أن ليس لديه شيء مقدس أو محرم يؤمن بصدق ويعمق بالأحلام والتنبؤات. ومع ذلك فإن النبوءة تتحقق بالفعل. الأ يشبه هذا الرجل النمر بمشيته اللينة المهددة، وقلبه الذي لا يعرف الرحمة؟ وألن يصبح هذا الصبي ذئبا بسبب مثل هذه التربية؟.. أما بالنسبة للثعلب والمخلوقات اللاحقة فهذه هي قوانين الطبيعة.

جلس كينيساري على العشب وقال:

- حسنا، دعنا نؤجل الحديث عن الأحلام.. اجلس يا جوسوب. إنك من أرض غريبة، وشاب، لكنك رأيت الكثير بالفعل. وإذا لم تكن قد رأيت ما كانوا نفوك إلى هنا بعيدا عن وطنك. إنك أصبحت تشكل خطرا حقيقيا للملك الأبيض.

- حتى حرسه الخاص أصبح مصدر خطر له عندما بدأ هذا الحرس يفكر..

- نعم سمعت عن ذلك. - ولوح كينيساري بيده. - إنني أريد منك النصيحة. وإذا كنت صديقا حقيقيا فقل لي الحقيقة كاملة دون تحفظ.

- أقسم أن أكون صادقا معكم.

- لا داعي للقسم. إنك قد عانيت أيضا من الملك، وإنني أثق بك. وإننا لسنا من يخدع بعضه البعض. لقد أردت أن أسألك عن شيء ما. إنك ترى أنه يكفي فقط أن تشعل النار في سهوبنا فيندفع لهيبها إلى الأمام من تلقاء نفسه. ولن يستطيع أحد حينذاك أن يوقفها. فكيف تعتقد ماذا سينتج عن هذه النار؟..

أعاد يوسف السؤال:

- ماذا سينتج؟

- نعم.. - رفع صوته كينيساري بحماس.. فنحن أيضا أصبحنا أكثر خبرة، وأكثر قوة. وإذا ثار الجزء الأوسط كله، وأيدته الأجزاء الأخرى. لنفرض. أنني قد وحدت جميع



الكازاخ فهل أستطيع أن أرغم الملك الأبيض على قبول شروطي؟ أم أن كل ما أقوم به إهدار للقوة؟

أدرك يوسف جيربروت على الفور أن كينيساري لم يبدأ هذا الحديث اعتباطاً وإنما لغرض ما في نفسه. وهذا يعني أنه يشك أيضاً في النصر النهائي! أي زعيم آخر لم يكن ليشارك في النصر الحاسم بعد كل هذه الانتصارات التي حققها. إن الشك هو نصيب العقول العظيمة. إن هذا الكازاخى رمادي العينين ذو اللحية التي تشبه الوتد يعادل في القيمة العديد من القادة العظام. إن لديه كل شيء لتحقيق النجاح فيما عدا الشيء الأهم.

إن لديه أرضاً شاسعة. ولكن أليس في هذا دائماً ما يكمن الخطر بالنسبة لشعب صغير العدد؟ وإلى متى يمكن الحفاظ على مثل هذه المساحة التي لا حدود لها في عالم اليوم سريع النمو؟ وإن لم يبتلعها عملاق فسيبتلعها عملاق آخر. ولكن ليس هذا هو المهم.

- كيف لي أن أقول له هذا دون أن أغضبه. ولكنه طلب مني أن أقول الحقيقة. سأقولها مهما كانت مريرة وكريهة بالنسبة إليه! ويجب الرد بالصدق على الصدق ..

قال يوسف جيربروت بصوت خافت:

- لا يمكنك الآن هزيمة الملك الأبيض. - تماماً كما لم نستطع أن نفعل ذلك نحن. كما لم يتمكن من ذلك الحرس في ساحة مجلس الشيوخ.

عس كينيساري وقال:

- وماذا تستطيع أن تفعل أنت مع حرسك. - قل لي لماذا لا يمكننا أن نتغلب عليه!

- لقد تحولت روسيا إلى إمبراطورية ضخمة. إن لديها الكثير من المصانع التي تصب المدافع الجديدة، وتصنع البنادق، وتعد الذخائر. وبدأت اللحاق بركب الدول الأوروبية الرهيبة في كل شيء. وتسعى مثلهم إلى توسيع حدودها. ذلك أمر لا مفر منه. وهذا هو قانون التاريخ. ولن يعاني من ذلك الكازاخ وحدهم فحسب أو نحن البولنديين ولكن الفلاحين الأقنان الروس أيضاً الذين يفعلون كل هذا بأنفسهم.

نظريوسف جيربروت إلى كينيساري. هل يفهم هذا الشخص ما يقول؟ أو ما كينيساري برأسه وكأنه قد خمن أفكاره وقال بجدّة:

- أعرف ذلك.

- فلماذا إذن تقاثلون؟

أومضت عيون كينيساري بالشر وقال:



- النمرا لا يكون خروفا.. ولكي لا يقول أسلافي أنني أحنيت رأسي بخنوع كأبناء
أيشواك، وكوديامندي وجانتوري ووالي!. إن دم أبلاي يسري في عروقي، والشرف بالنسبة
لي أعلى من الحياة!

- وهل سيكون أحفادك ممتنون لك من أجل ذلك؟ وكم من الدماء سوف تسيل من أجل
أحلامك التي لن تتحقق!..

- هل تعتقد أن أحفادي سوف يلعنوني؟

- إن زمن النمرد دخل في التاريخ بلا رجعة. إن الشاعر بوخار قد فسر حلم جدك بشكل
صحيح.

قال كينيساري بصوت سلس وقد تغير وجهه:

- نعم، هذا صحيح!.. لقد كان الناس في زمن أبي قاسم أسودًا، ومعني الآن نمورا. ويجب
علينا أن نعمل قبل أن يصبح الكازاخ نملا وديدانا وسحالي.

قال يوسف بهدوء وقد تعجب من جرأته الشخصية:

- يبدو لي أن الشاعر بوخار لم يقصد الناس. - من الطبيعي أن تضمحل بعض العوائل
النبيلة. إنني بولندي، وأعلم ذلك جيدا. إن الشعب مثل الماء في النهر يتجدد دائما.. إن
الكازاخ قد قالوا بصدق: هناك حيث نمت الشوكة سوف تنمو الشوكة، وعلى شجيرة
الورد حتما ستزدهر الورود.

- وماذا نفعل إذا نمت الزهور أشواكا.

- يجب التخلص منها. أجب يوسف جيربروت دون أن يعرف ماذا يقصد هذا الرجل ذو
الأوردة الدموية في العيون الرمادية.

- وهذا ما أفعله حتى يبقى القليل جدا من الأعشاب الضارة بين الزهور القادمة.

كم كان هناك تهديد شريف في هذه الكلمات حتى أن الصقيع سري في جلد يوسف
جيربروت. لقد أدرك ما يرمي إليه كينيساري. فقد ذقت العديد من القري ويلات غضبه.

نظر كينيساري باهتمام إلى البولندي الهارب وسأله:

- كيف تتخيل المستقبل؟ أهو استعباد أبدي؟.. أم أنك ترى طريقا آخر؟..

- الطريق الوحيد للتحرير هو أن تسير مع أولئك الروس الذين يرغبون في التخلص من
ملكهم. بهذا فقط يمكنك أن تحقق شيئا ما. أما الهجوم على بعض القلاع أو التخابث مع
الملك في محاولة لخداعه فمضيعة للوقت.



احتج كينيساري متفكرا:

- ولماذا يتخلصون من ملكهم؟ - الملك هو الملك كالخان عندنا أو الشاه لدى الفرس.

- سيأتي الوقت الذي لن يكون فيه ملوك أو خانات.

في هذه اللحظة التفت إليه كينيساري، وصمت يوسف جيربروت.

نظر إليه كينيساري باهتمام ثم سأله:

- لماذا انضمت إلينا إذن إذا كنت واثقا من عدم جدوى نضالنا؟ - هل تريد أن تفقد

رأسك؟

تنهد يوسف جيربروت بهدوء وقال:

- إنني لا أريد أن أضحي بحياتي هباء. - إن وراء ظهري أشياء كثيرة مثل الوطن، والأحلام المكسورة، والانتفاضة المقهورة. هذه هي القصة الحزينة لشعبي. بالطبع إنني أتعاطف معكم، وأريد أن أساعدكم حسب قدراتي وإمكاناتي حتى ولو بالنصائح. والآن اقتنعت تماما أن كل هذا دون جدوى.

- ألم نستمع إلى نصائحك؟

- لقد كانت عديمة الجدوى. إن الأمير جورنشاكوف والجنرال تاليزين والنبلاء لا يريدونك. إنهم تعودوا على الحل العسكري الخشن لمثل هذه القضايا دون أي دبلوماسية. ولكن يوما ما ستدفع القيصريّة الروسية الثمن غاليا يوما ولكن الآن. وبالنسبة لي. إن أوقاتا عصيبة تدهام الكازاخ. فهل يمكنني الآن أن أتخلى عن الشعب الذي أحبه من كل قلبي. إنني معكم حتى النهاية.

نظر إليه كينيساري بعيونه الرمادية الباردة. هل استطاع يوسف جيربروت الذي ولد تحت سماء مختلفة تماما أن يعرف روح هذا الرجل؟ فهذه الروح قد نسجت من آلاف التناقضات. إن فيها كل شيء. فيها الرغبات السامية والمنحطة. وسيأتي الوقت الذي سيري فيه يوسف جيربروت الساذج أن الطموح، والانتقام الشخصي، والتعطش غير المحدود للسلطة، والقسوة غير العادية لهم اليد العليا في هذه الروح. وإن سلطان طائفة التوري هو كينيساري ولحمه من لحمهم.

قال كينيساري حينئذ:



- من الأفضل أن أكون حصانا محاربا بقلب ممزق من الجري على أن أجزطوال حياتي كفارس بانس! - إنني سوف أقاتل حتى الرمق الأخير، وليحكم علينا الأحفاد أيا من كانوا. أحنى يوسف جيربروت رأسه.

أدرك يوسف جيربروت أثناء هذه المحادثة الثنائية أن كينيساري قرر أن يمضي إلى النهاية، والأيتوقف أمام شيء. ونصح السلطان بقبول عرض الباتيرين جولمان، وإيمان الخاص بالرحيل إلى السهول الفيضية لنهري تورجاي وإرجيز. فقد شعروا بالاستياء في أومسك من النجاحات الأخيرة التي حققها كينيساري، وقد يقوموا بعمل عسكري ضده على الرغم من فصل الشتاء. لقد أحسوا بذلك في ساري أركا، وابتعد عنه العديد من زعماء القبائل مرة أخرى. بالإضافة إلى ذلك فقد انتشرت الشائعات عن أن الفلاحين الأقنان الروس يثيرون القلاقل في أورينبوج، وربما ساهم ذلك في نجاحه.

كان مزاج كينيساري في جميع الأيام متكدرا. وقد ساء أكثر بعد حديثه مع شقيقته بوباي. لقد عادت من بلدة أمانكارجاي بغنيمة كبيرة بعد أن قامت بغارة جديدة على هذه البلدة عشية زواج ناويريزباي من أكبوكين.

قالت بوباي لشقيقها بحسرة:

- ما كان يجب عليك أن تتم هذا الزواج يا توري.

سأل كينيساري في دهشة:

- لماذا؟

- لأن أكبوكين كانت مخطوبة لبايتابين منذ الطفولة. ولم يتمكننا من الزواج حتى الآن لأنهما يعيشان في أرض أجنبية. فماذا سيقول الآن الباتير جولمان عن تزويجك أخيك من عروس ابن أخته الحبيب؟ وماذا سيقول الناس عندما يرون أننا أساءنا إلى بايتابين الذي جاء إلينا بحثا عن المأوى من اضطهاد الخان سيرجزي؟ وربما بسبب هذه الفتاة سيبتعد عنا على الفور بعض العشائر الكبيرة. فضلا عن ذلك فإننا نزمع الذهاب إلى أرضهم ..

أخذ كينيساري يفكر في ذلك الأمر.. هل يمكن لهذا السبب التافه غير المتوقع أن يعوق توحيد الجزئين الأوسط والأصغر؟ وهل إذا اشتكى بايتابين للباتير جولمان أنه قد تعرض هنا للإهانة بشدة هل سيكون لدى جولمان من الحكمة ما يكفي كي لا يعوق القضية العامة؟ بالطبع إنه سيشعر بالإهانة لأنه أيضا كازاخي، وليس هناك ما يمكن عمله حيال ذلك..



وكيف ستكون الأمور إذا حدث لهذا الباتيين حادث غير سعيد؟ قد يموت في اشتباك مفاجيء، فنحن في زمن الحرب. ولكن هل الباتير جولمان حاكم غبي لهذه الدرجة بحيث لا يستطيع أن يعرف الأمور على حقيقتها. وبعد هذا الزواج المشؤوم سيخمن الجميع لماذا مات بايتابين. وبعد ذلك لن ننتظر من عشيرة تابين غير العداوة الشرسة.

هل يجب علي أكبوكين أن تختفي؟ إن النساء يحدث لهن كل شيء. لكن كيف يمكنهم بعد ذلك أن يسروا عن ناوريزياي الذي يحبها من كل قلبه. وهل يستطيع أن يفقد ناوريزياي؟ لا، إنه لن يسير في هذا الطريق.

ماذا بقي إذن؟ بقي أن نصل إلى حل مع بايتابين. وبذلك يحول دون صراع عشائري جديد في معسكره، ويأتي أفراد عشيرة تابين برئاسة الباتير جولمان تحت رايته الخضراء.

توصل كينيساري إلى هذا القرار وصار ينتظر عودة بايتابين بفارغ الصبر. إذ لا يجب أن تشتعل العداوة بين الأجزاء كلها بسبب فتاة. ويجب عليهم مهما كانت الأمور أن يرتحلوا إلى ضفاف نهري تورجاي وإرجيز. تلك هي عادته وهي عدم البقاء في مكان واحد، حتى البولندي جوسوب قد فهم الفائدة من ذلك. فاليوم يقيم في يسيل، وغدا في تورجاي، وبعد غد في طرف آخر من أطراف السهوب. ويجب عليه كوحش محنك أن يترك خلفه أثارا زائفة. ولن تستطع القوات النظامية التعامل مع ذلك حتى ولو كانوا أكثر عشر مرات..

جاء بايتابين بشكل غير متوقع. وخرج كينيساري ويوسف جيربروت والمرافقين لهما إلى مشارف القرية لاستقبال ناوريزياي العائد من رحلة صيد. وفي هذا الوقت تماما ظهرت من الناحية الأخرى مجموعة صغيرة من الفرسان على خيولهم. عرفهم السلطان من الوهلة الأولى فقال بصوت سلس وهاديء:

- إنه الباتير بايتابين!

جاء مع بايتابين الباتير جيكي، والباتير كودايمندي، وتايماش. كان وجه بايتابين شاحبا جدا. وكانت أسنانه مضمومة حتى الصرير. وفي عينيه الموجهه إلى كينيساري حزن وذمول.

كان واضحا للجميع أن بايتابين كان يعلم بأمر زواج ناوريزياي بعروسه أكبوكين. كان يقود جواده بهدوء، ويمسك في يده اليمنى قوسا على أهبة الاستعداد. وسكن جميع الناس المحيطين بكينيساري.



في تلك اللحظة دوت قعقعة خيل، وضحكات مرحة. لقد عاد ناوريزباي مع أصحابه من رحلة الصيد. وعندما رأوا كينيساري ترجلوا عن جيادهم، وتوجهوا نحوه. سار ناوريزباي في المقدمة، وجلس على كتفه الأيمن الصقر الشهير في الناحية كلها كاندي كوز. "العين الدامية" مع خيط حريري أبيض على قدميه.

رأى ناوريزباي بايتابين فتجمد في مكانه. اقترب بايتابين من كينيساري. وجثى الباتير على على ركبة واحدة،، وحيا السلطان، ثم سأله:

- عن ماذا أتكلم أولاً يا سلطاني: عن الحملة التي أنهيناها أم عن الظلم الذي تعرضت له عندما كنت بعيداً؟

تلاقيا حاجبا كينيساري السميكين الأصهبين كأنهما جناحي نسر فوق جسر أنفه، ونظر إلي بايتابين مباشرة وقال:

- سيكون هناك متسع من الوقت للاستماع إلى هذا وذاك.. ولكن علينا أولاً أن نحل قضية مثيرة للجدل. إن الناس يقولون، يا باتابين، إنك أفضل رام في جيشنا. فإذا كان هذا صحيحاً فأصب هذا الصقر الذي يجلس على كتف ناوريزباي من مائة خطوة..

أصيب الناس بالخرس. ووقف ناوريزباي صامتا، وتجمد الصقر على كتفه كأنه فهم الدور الذي حدد له.

نظر بايتابين إلى ناوريزباي وقال:

- يا سلطاني إن لدى السهم عادات مجنونة ورأس الباتير قريبة جداً من الطائر.

- لن نحاسبك على السهم الطائش.

لقد كان ذلك أمراً جيداً. ومن جديد فزع يوسف جيربروت من شخصية هذا الرجل. فلم يكن لدى كينيساري أحد أقرب إليه من شقيقه ناوريزباي. وهاهو الآن يجعل رأسه رهانا لسياسته. فإذا أخطأ بايتابين في الرمي، وأصاب رأس ناوريزباي فسوف يحل الصراع بينهما. وكذلك سوف يحل الصراع بين الجزئين الذي يريد كينيساري أن يوحدهما مهما كلفه الأمر. ولن يحدث شيء لباتابين من جراء ذلك.

يالها من قسوة! ولكن كان كل ذلك من أجل الهدف الذي وضعه نصب عينيه زعيم السهوب. فماذا تستحق مثل هذه الصلابة الهائلة: الإعجاب أم اللوم؟ على ما يبدو أنها تعتمد على مكان ووقت حدوث ذلك.

لقد فهم الجميع مغزي ما يحدث. وأفضل من فهم ذلك هم الأبطال الحاضرون لذلك لم ينبس أحدهم ببنت شفة.



ابتعد ناوريزياي بالضبط مائة خطوة، وأجلس الصقر على كتفه الأيسر بالقرب من القلب، ووقف منتظرا الرمية بهدوء. فقط شحب قليلا وجهه الأسمر.

لم يرغم بايتابين نفسه على الانتظار طويلا. ونظر إلى الأبطال المحاربين نظرة ثابتة، وأخرج من جعبته بحركة حاسمة السهم المشهور كوزي جاورين- "موت الحمل"، ورفع القوس إلى مستوى صدره، وأرسل السهم كأنه لا يصوب. وفي نفس اللحظة سقط الصقر على الأرض من على كتف ناوريزياي الأيسر.

تنفس الناس الصعداء، لكن كانت وجوه الأبطال المحاربين جامدة كالحجر. فقد أدركوا أن بايتابين بهذه الرمية قد أنقذ الوحدة بين الجزئين.

اقترب منه كينيساري، وقبله في جبينه، وهذا لم يفعله مع أحد من قبل وقال بصوت عادي:

- لم أكن أعرف أنك رام عظيم. - وكمكافأة لك على الشرف الذي قدمته لي يمكنك أن تختار كزوجة لك أي فتاة من عائلتي أو من العائلات الأخرى في جميع أنحاء الأرض الخاضعة لي.

وهكذا انتهى الخلاف بين الباتيرين اللذان عادة لا يغفران لأعز الأصدقاء مجرد كلمة واحدة قيلت دون احتراز. وأمر ناوريزياي تخليدا لهذا اليوم بدفن الصقر في نفس المكان الذي سقط فيه. وأصبح الناس منذ ذلك الحين يسمون هذا التل بسونكار أولجين أي "قبر الصقر".

ثم اقترب كينيساري من بايتابين، وتصافحا، كما يليق بأناس يعملون عملا مشتركا. وأحس الجميع بهجة في الروح. غير أن شخصا واحدا فقط شعر كأن قلبه اعتصرته المخالب. لقد كان كينيساري هو هذا الشخص. فقد انتصر عليه الباتير البسيط بايتابين في مسابقة نكران الذات..

وفي هذه اللحظة خطرت على بال السلطان كينيساري يد كارا أوليك الثقيلة. إن أناسا بهذه الإرادة وهذا النبل كما لدي هذا الباتير الشاب ينبغي أن ينضمون إلينا. لكنهم مع مرور الوقت يشكلون خطورة كبيرة.

قال كينيساري وهو ارتسمت على شفوية ابتسامة طيبة:

- والآن يا باتير بايتابين أخبرنا عن تلك المهمة الصعبة التي تركتنا من أجلها.

تحدث بايتابين بالتفصيل عن حملته الطويلة فقال:



- وفقا لروايات رجال الأغا سلطان كونور كولدجا يمكن أن نستنتج أنهم يستعدون لأعمال عسكرية في فصل الشتاء. - لقد تحدث بايتابين على الرغم من صغره بشكل واضح ومنطقي كأنه قائد محنك. ويقولون أنه ستأتي من أومسك تعزيزات كبيرة إلى القوات الموجودة هناك بالفعل. ولكن على ما يبدو أنهم يعتزمون مهاجمة معسكرنا عندما تسرح المقاتلين في فصل الشتاء. وحين لن يبقى معك سوى سوى خدمك وحراسك التولينجوت.

مر الظل على وجه كينيساري. إن العدو يعرف المكان المؤلم. وهل من السهل إطعام مثل هذا الجيش الكبير مع الخيول في السهوب في فصل الشتاء. لقد تعود في كل خريف أن يسرح المقاتلين إلى قراهم ومع حلول فصل الصيف يجمعهم مرة أخرى. وقد قرر العدو أن يستغل هذا الأمر. إنه لن يستطيع أن يبقى معه في فصل الشتاء غير خمسمائة من المقاتلين ومن الحراس والخدم التولينجوت. وإذا حاصرت القوات النظامية قريته فسيكون الأمر في منتهى الصعوبة.

إن الجنرال تاليزين يختار الوقت المناسب ليسوي حسابه معه كاملا بسبب قلعة أكمولا وأشياء أخرى كثيرة. إنهم هناك مع الأغوات السلاطين يريدون أن يتعاملوا معه كالصيادين الذين يلاحقون صغار الذئب عند أول تساقط للثلوج. وسيكون على التعامل معهم على طريقة الذئب.

إن الذئب في مثل هذه الحالات لا ينتظرون وصول الصيادين. فحين يتجمع هؤلاء فإنهم يخرجون صغارهم إلى مسافة تستغرق عدة أيام لقطعها. وهذا ما يجب علينا أن نقوم به. فعندما تخرج القوات من أومسك نكون نحن في أورينبورج بين الجزء الأصغر. وسيكون هذا مفاجأة تامة للحاكم العسكري لأورينبورج. وحين يجمع قواته يكون الشتاء قد انتهى. وخلال هذا الوقت يمكن أن يحدث أي شيء. ويقولون أن القيادة في أورينبورج ليست بشراسة القيادة في أومسك. وربما يمكننا الاتفاق على شيء ما.

لقد ذكر بايتابين أنه هو وأوجار قد اقتادا المشية التي غنمها أجيباي. وأن أجيباي قد ذهب بنفسه إلى الأمام ليخبر بذلك.

- شكرا لك على هذا الأخبار السارة.

- وأصبح كينيساري في حالة مزاجية طيبة وسأله: وأين أوجارك؟

- لقد عرج في الطريق على إحدى القرى.

- لماذا؟



- لديه بعض الأمور هناك. إنه لم يخبرني. على ما يبدو يريد أن يعرف شيئاً من أجلنا.

ارتعد تايماس عندما سمع اسم أوجار وسأل بصوت عال، وصار وجهه غاية في الشحوب:.

- أي أوجار هو؟

قال أحدهم:

-- أوجار ابن كوبيت.

- وكيف ظهر هنا هذا الرجل؟

- لقد هرب من سجن أومسك، ثم جاء إلينا مع ابنة تايجان.

- وهل كان للمتوفي تايجان ابنة؟

قال كينيساري:

- نعم كان لديه ابنة. - لقد عملت كخادمة في أومسك. وهناك تزوجها أوجار

كصديق وزميل لوالدها.

- هكذا إذن!

- ما الذي يزعجك؟

- انها قصة طويلة يا كينيكى. سأرويها لك فيما بعد. ونظر تايماس ناحية رجال

ناوزيرباي وقال:

- وأين هي ابنة تايجان؟

أروه منزلها قائلين:

- هناك!. هذا اليورت الأبيض النائي..

- حسنا إنه شيء مذهل!

هز تايماس رأسه، ولم يحول عينيه عن هذا اليورت.

غربت الشمس. كان كينيساري واقفاً يتفكر في صمت وكأنه استيقظ من النوم.

توجه إلى الباتير الشاب وقال له مضيئاً إلى اسمه لقب الرامي البار:

- يا بايتابين ميرغين! - إنك تعبت من الحملة البعيدة. فإذهب واسترح قليلاً ثم عد إلي.

إننا بحاجة إلى التحدث معك عن شيء ما.

قال بايتابين باقتضاب:

- سأفعل.

ذهب كينيساري مع جميع حاشيته إلى القرية. وبقي بايتابين وحده على التل.



عاد كينيساري إلى القرية، وجلس مدة طويلة مع تايماس الذي قص عليه كل ما سمع في تلك الليلة بينما كان راقدا خلف جدار منزله. كان الباتير سيتين على حق وهو يكشف أوجار الذي غدر به.

قاما باستدعاء ألتينشاش ابنة تايجان وزوجة الخائن. تغلب تايماس على نفسه، وحكى لها بالتفصيل. لم تبك، ولم تنتحب، ولم تطلب منهما أي شيء. لقد ارتجفت فقط كأنها سقطت في ماء بارد، وانهمرت دمعان من عينيها. ولم تبك بعد ذلك.

جلست ألتينشاش مدة طويلة في صمت. ثم نظرت إلى جدار اليورت المتشابك، ثم قالت بصوت هادي:

- منذ مدة تسلل الشك إلى قلبي، ولكني طردته بعيدا عني.. الآن تأكدت جميع شكوكي، وهذا أمر جيد. وسوف يدفع زوجي الثمن أمامي عن وفاة والدي وعمي. أتوسل إليكما ألا تفعلوا معه أي شيء. فهذا هو حقي..

قال كينيساري:

- الانتقام هو أمر يخص الرجال. ولا يجب على المرأة أن تدنس يديها بدم الرجال لاسيما دم خائن. اترك لنا هذا الأمر..

صرخت وقالت:

- لا! - سوف يشعر هذا الرجل أمامي فقط أنه لن ينال العفو في العالم الآخر أو في هذا العالم.

شعرت كينيساري بروح تشبهه فقال.

- حسنا، فليكن على طريقتك. لكن إياك أن تخطئي..

جلس بايتابين مدة طويلة على قمة التل. وجالت برأسه مجموعة متنوعة من الأفكار والذكريات. وظهرت الأفكار واختفت كقمر خافت خلف الغيوم في ليلة عاصفة.

عادة لا يزوج التوريون بناتهم للعوام. ومن غير المعروف لماذا كسر هذه القاعدة الصارمة السلطان تلينشي الذي زوج ابنته داميتكين للرجل البسيط كوجا. ورغم كل شيء لكن بفضل والده الرجل الذي لا يعرف الخوف والكريم قضى طفولته في دفاء وغني. وعندما كان في العاشرة من عمره توفي والده.



ومنذ ذلك الحين كانت حياة بايتابين حافلة بالأحداث. ففي سن السادسة عشرة أصبح فارسا معترفا به وحليفا قويا لخاله الباتير جولمان. وهو الآن يبلغ ثلاثة وعشرين عاما، وخلف ظهره لا يوجد غير اشتباكات، ومطاردات، ومعارك دامية.

فما الذي يجعله في كل مرة يندفع بتهور نحو الموت؟ فعن ماذا يدافع - عن قطعانه الكبيرة، أو المراعي أو الأراضي؟ بالطبع لا فكل ثروته هي جواده الذي يمتطيه وسرجه. وهناك بعيدا عن هنا منزل يورت يغطيه السخام حيث تعيش والدته.

وقد حدد الآن لنفسه أنه هناك وراء ذلك سببان. لقد كانت أكبوكين أول هذين السبيين - فقد كان يخدمها كل تلك السنين. وإن لم يكن قد جلب لها الثروة فقد أتى لها بالمجد عند قدميها. لقد كانت أكبوكين تنتظر هذا، والآن تتحدث السهوب كلها عن بطولات الباتير الشاب.

- إنك تستحق قبل هذا وضعا حقيقيا كي يعرفك الناس. " هكذا كانت تقول له أكبوكين في كل مرة عندما كان يستحثها على الزواج به. فقد كانت تحلم بمجد بنات الخان.

لكنه في السنوات الأخيرة بدأ يفكر على نحو متزايد أنه من غير اللائق أن يخدم فقط نزوة أنثوية. وهل الحب الحقيقي يحتاج بالضرورة لأي تضحيات؟ إن من يحب حقا لا يحتاج إلى شهرة أو ثروة. إنها لا تحتاجه هو الفارس البسيط ولكن تحتاج إلى مجده.

فمتى فكر في ذلك لأول مرة؟.. لقد فكر في ذلك عندما رأى امرأة أخرى هادئة ذات عيون حاملة. حين كان يسير مع ناوريزباي، وكانت تجلس هي على عتبة منزلها الأبيض. إنه لا يحتاج إلى أي شيء منها. إنه سوف يحب هذه المرأة الجميلة من بعيد.

وما هو السبب الثاني؟ إنه أيضا يرتبط بامرأة فخورة سمراء ذات شعر فضي. لقد قدمت له في عيد ميلاده السادس عشر حصان والده كوجا المحارب العجوز وقالت له: - في ساعة محنة شعبنا لا يليق بابن الباتير كوجا أن يظل ممسكا بحافة رداء أمه. اذهب إلى خالك جولمان الذي يحارب من أجل السهوب الحرة، وكن ركيزة لشعبك.

لقد كان دائما ما يتذكر كلمات أمه. وكانت قضيتة الرئيسية طوال حياته هي النضال من أجل استقلال شعبه. من أجل ذلك سامح اليوم ناوريزباي. والآن بعد خيانة أكبوكين فهو حر. وقد بقي له شيء واحد وهو أن يموت في القتال من أجل شعبه، وليكون جديرا بثقة أمه. وإذا ما سألت دمعة واحدة من مآقي المرأة التي تدعى ألتينشاش فسيموت سعيدا.



وماذا عن أكبوكين؟.. ليس المثل الشعبي يؤكد أن حب الفتاة مثل الشعب الذي يومض في الأمام. فإذا لم تتمكن من الإمساك به من ذيله الزغبى فلا تلومن إلا نفسك.

من جديد ظهرت أمامه صورة أنثوية، وعادت أفكاره إلى ألتينشاش. لقد رآها مرتين فقط، ولكن كانت هاتين المرتين بالنسبة إليه كضوء في الظلام الحالك. وقد حاول إبعاد صورتها لأن التفكير في زوجة شخص آخر ذنب عظيم. لكن كان هذا فوق احتمالته. فبمجرد أن يختلي بنفسه تظهر أمامه من جديد كطائر من حكاية خيالية.

اندهش بايتابين فقد ظهر في قلبه هاجس سعيد. لقد نقل النسيم إليه لحنًا لطيفًا. وأدرك أنه في مكان ما في الأسفل تمرح الفتيات مع الشباب، ويتأرجحون على الأتتياكان أي الأراجيح الكازاخية. وعادة ما يغنون إزاء ذلك أغان خفيفة وممتعة. وكانت هذه الأغنية خاصة نوعًا ما، وبدا الصوت ودودًا لدرجة أنه ود أن يستمع إليه إلى الأبد.

- لماذا تجلس وحيدًا على التل بينما أنتظرك منذ مدة طويلة؟.. تعال بسرعة يا حبيبي..- لم يسمع الكلمات ولكنها ظهرت تحديدًا من لحن الأغنية. إنه صوتها وحدها الذي يمكن أن يكون هكذا نقيًا ومشرقًا مثل الحلم.. وقف بايتابين، وتوجه عبر الليل إلى هذا الصوت. لقد كان صوت ألتينشاش. فبعد الحديث الذي دار في خيمة كينيساري لم تستطع أن تعود إلى منزلها. وعندما سمعت جلبة المراجيح ذهبت إلى هناك. لقد تغلب الشباب فيها على كل الحواس الأخرى. فقد ذهب أوجار الوغد في غياهب الغدر والخيانة، وبقيت الأغنية وحدها.

وعندما اقترب بايتابين من الشباب المرحين، نزلت من على الأرجوحة، وتوجهت مباشرة إليه حيث أنه قد صاحب زوجها أوجار أثناء الحملته. وكانت على ما يبدو سعيدة بهذا اللقاء.

- أهنتك بسلامة الوصول يا باتير.

أشرق وجهها في الظلام. حول عينيه بصعوبة، وحاول السيطرة على صوته.

- كيف حالك يا ألتينشاش؟.. - لم يعرف ماذا يقول.. لقد جاء أوجار أغانًا معنا، ولكنه تأخر لشأن من شأنه في إحدى القرى على الطريق.

ضحكت ألتينشاش فجأة بصوت عال وقالت:

- لا تقلق بشأن ذلك أيها الباتير المحترم.. إنني سعيدة أنك عدت سالمًا. لقد انتظرتك، وكنت خائفة جدًا.

- لماذا؟

لم يفهم شيئًا. ونظرت ألتينشاش إلى مكان ما في الليل.



- كيف أفسر لك. لقد اتضح لي أن بعضا من رفقائك من الأشرار.

- أي واحد منهم؟

التزمت الصمت. ولم يلاحظ كيف ابتعدا عن المراجيح. ومس ريش العشب العالي ركبهم. توقفا معا، والتفتا إلى بعضهما البعض. وكان وجهها قريبا جدا. ثم تشابكت أيديهما، وسقطا في العشب.

سلطان سلطان سلطان

كانا يذهبان كل ليلة إلى السهوب، وكانت تجدهما هناك نجمة الصباح. ولم تقص عليه أتي نشاش شيئا عن خيانة أوجار لكنه شعر بحالتها. لم يشعر أنه مذنب أمام أحد.. ولم يعد أوجار. كانا يخرجان معا في العلن تقريبا، ولم يعرفا أنهما تحت المراقبة. فلقد عرف سامين الجاسوس السري لأوجار كل شيء عنهما.

وهكذا مرت عشرة أيام. وفي اليوم الحادي عشر انتظرها بايتابين كالعادة في المكان المعين. لكن ألتينشاش لم تذهب إلى هناك. لقد كان يعلم أن أوجار لم يعد بعد، ولم يدرك ما حدث. وفي الفجر ذهب إلى منزلها.

لم يكن هناك أي حصان أو أي أثر لأي وصول. ومع ذلك لم يدخل بايتابين. تمدد على الأرض بالقرب من جدار اللباد، وصار يستمع. وقد تنامى إلى سمعه بالكاد صوت أحد يتأوه. حينئذ وقف الباتير، وركل الباب برجله.

كان أوجار يقف في الظلام ووجهه إلى الحائط، وكانت أكمامه مطوية حتى مرفقيه. كان يمسك بخنجر حاد في يده اليمنى، وبجواره على الأرض سوط ثقيل بمقبض من إكليلية المروج رطب بالدماء. كانت ألتينشاش ملقاة على الأرض، وتشابك شعرها المحلول من الدم. وقد مزق ثوبها إلى أشلاء، وغطت الندوب الداكنة السميكة كل جسدها.

لم يتأخر أوجار عن بايتابين في الطريق بمحض الصدفة.. فقد عرف أنه حتما سيتقابل مع تايماس. ولكن هل سمع تايماس حديثه الليلي مع الباتير سيتين؟ ذلك ما لم يعرفه أوجار.. على أي حال فقد قرر أن يختفي في مكان قريب، ويستطلع الأمر. وكان سامين ينقل له الأخبار. وقد أخبره سامين الحذر كما الشعبان أن كينيساري وتايماس قد تحدثا مع ألتينشاش وبعد ذلك تواعدت مع بايتابين. ذهب إليه سامين في كوخه الشتوي المجاور حيث كان يختبئ، وحكى له كل شيء.



فر أوجار بسرعة إلى معسكر كونور كولدجا لكن التعطش للانتقام كان أقوى منه. لقد كان يريد أن ينتقم من زوجته أولاً. لذلك قرر التسلل إلى منزلها ليقتلها ثم يهرب من كينيساري. وعندما خلد الجميع للنوم في القرية، ترك أوجار حصانه في أخذود، وذهب إلى منزله السابق سيراً على الأقدام. وعندما دخل كانت ألتينشاش تستعد للذهاب إلى بايتابين.

اندفعت إلى السرير حيث كانت تخبيء السكين لكنه أطاح بها بركلة من قدمه، وأسقطها على الأرض. ففقدت ألتينشاش الوعي. وأدخل كمامة في فمها، وانتظر حتى استفاقت، وبدأ يحكي لها بالتفصيل كيف خدع والدها أولاً ثم عمها. ومن وقت لآخر كان يقطع القصة لكي يسخر منها. وفي كل مرة يذكر فيها اسم بايتابين كان يضربها بالسوط، ويضربها مع ابتسامة متكلفة، وينتقي بعناية أين سيضرب. والآن استعداد أن يذبح المرأة نصف الميتة، ولكن الباب طار مع المزلاج، ووقف على العتبة بايتابين. وركل بايتابين الخنجر من يد الخائن. وفي نفس اللحظة أمسك الباتيران بعضهما البعض من الحلق، وأصبحت أيدهما متحجرة من الإجهاد. وبعد دقيقة بدأت أصابعه تضعف، وسقط على الأرض مخنوقاً. ولكن ذلك لم يرض بايتابين فرفع الخنجر الذي سقط، وغرسه في صدر أوجار حتى مقبضه.

اقترب من ألتينشاش، وانتزع الكمامة من فمها، وانحنى بإذنه على صدر المرأة العاري. سمع بايتابين بالكاد دقات قلبها فهز رأسه برضا، ومشى ثم فتح الباب الذي كان قد أغلق. وعم الفناء صباح مشرق.

تسلل قرص الشمس من وراء الأفق ببطء كما لو كان يفعل ذلك على مضض. وابيضت أشعة الشمس التي كانت في البداية حمراء، واحترق العشب السهبي في الجوار بنار خضراء. وقد ملئ خوار الأبقار وثغاء الأغنام بضجيجها المعتاد المنطقته كلها.

وفي هذه الساعة المبكرة حمل بايتابين جسد ألتينشاش الدامي عبر القرية كلها أمام أعين الشعب الخائف إلى يورت كينيساري. وسار خلفهما كبار السن من الرجال والنساء والأطفال.

استيقظ كينيساري بسبب الضجيج في الشارع، وخرج دون أن ينتظر الحراس. ولم يكن على كتفيه شيء غير معطف السمور. لم يترك بايتابين ألتينشاش من يديه، وهوى على ركبتيه أمامه في التراب وصاح:

- يا سلطاني! - اقطع رأسي لأنني خنقت للتو بيدي الباتير أوجار. ولكن كان لدي من



الأسباب ما دفعني لذلك.

استغرق كينيساري للحظة واحدة في تفكير عميق. حسنا فعل هذا الباتير أن قتل الخائن، كما أنه الآن جاثيا أمامي على ركبتيه. ولا بد أن أجعله مدينا لي إلى الأبد.. - إنني أغفر لك هذا يا باتير! أنت لاتعرف الكثير، ولكنك فعلت الشيء الصحيح. نظر بايتابين مباشرة في عيني السلطان وقال:

- أشكرك على العفو يا سلطان.. واسمح لي أن أطلب منك معروفاً آخر. لقد عرضت على أن أختار للزواج أي فتاة من ساري أركا. وإنني قد اخترت هذه الأرملة، فاعطيني إياها! نظر الجميع إلى كينيساري منتظرين قراره. وسرت بين الناس شائعة عن خيانة أوجار. - خذها يا باتير!

لم يسأله كينيساري كيف تأتي له أن يتواجد ليلا في منزل زوجة لا تحل له. فوفقا للقوانين السهبية القاسية كان ولا بد أن يعاقب على ذلك.

بعد أسبوعين فقط تماثلت ألتينشاش للشفاء من الجروح الرهيبة وتمكنت من رفع رأسها. وسرعان ما غادرت السرير، وقام كينيساري بنفسه بالإعداد للزفاف. وحضر الزفاف العديد من الضيوف من كلا الجزئين. وقد شارك الفرسان الأبطال أجيباي، وجيكي، وجانايدير وكودايمندي، وبوخارباي في مسابقات الفروسية وفي المصارعة الكازاخية. وبعد أسبوع من الزفاف بدأ تساقط الثلوج. وفي ذلك الوقت جاء إلى كينيساري الذي كان يتابع باهتمام كل ما يحدث في الخانات الجنوبية رسول من عشيرة كونرات. لقد جلب خبرا مثيرا للاهتمام وهو أن ماديلي خان يريد أن يتزوج زوجة أبيه خانبادشايم. وقد وصف أمير بخارى الذي كان قد وضع عينيه منذ مدة طويلة على طشقند والأراضي الكوكاندية الأخرى بأن ذلك جريمة ضد الدين، وحرص العالم الإسلامي كله ضد ماديلي. ومن المتوقع أن تشب الحرب.

فليتقاتل المؤمنون أما كينيساري فسيحاول أن ينتزع خلال ذلك من الخانة الكوكاندية المجرى السفلي لنهر سير داريا حيث يعيش الكازاخ. وإذا كان حتى الآن لا يزال يفكر في جدوى مغادرته لساري أركا فإنه الآن قد حزم أمره. فمن الضروري أن يكون قريبا في هذا الوقت من ممتلكات كوكاند.

وفي اليوم التالي سرح كينيساري جيشه الكبير بمناسبة فصل الشتاء أما هو فقد ذهب مع خمسة من رفاقه الأبطال الأوفياء وثلاثمائة من حراسه وخدمه التولينجوت إلى تورجاي وإرجيز في أراضي الجزء الصغير



الجزء الثالث

I

استرخي الحاكم العسكري لمدينة أورينبورج الكونت فاسيلي أليكسييفتش بيروفسكي في كرسيه الوثير، ثم أغلق عيونه الزرقاء الثاقبة، ومسد جبينه العالي النظيف بيده اليسرى، واستغرق في التفكير. كيف تأتي له يعقد اتفاقا مع السلطان المتمرد؟ إن كينيساري هذا كان ذلك المركز الذي تجمع حوله من جديد المتمردون الخامدون من شواطئ تورجاي واليك وارجيز. ويتهمونهم في السماح بذلك. وفي الحقيقة إنه لم يتوقع أن ابن قاسم توري من القبيلة الوسطى سيجد بهذه السرعة لغة مشتركة مع العديد من قادة عشائر القبيلة الصغرى.

ومع ذلك لم تكن لمثل هذه التهمة أن تجبره على أن يبحث عن اتفاق مع المتمردين إن لم تكن هناك ظروف خاصة. فدائما ما تتزامن اضطرابات القيرغيز في السهوب أو الكازاخ كما يسمون أنفسهم مع أعمال الشغب التي يقوم بها الفلاحون الروس وقوزاق الياك. والآن يتحتم علينا أن نرسل مجموعة وراء مجموعة من أجل أن نجمعهم.

ويمكنه القول كمبرر أن السلطان كينيساري نفسه قد توجه إليه بطلب للصلح. وقد تم ذلك بشكل صادق وفق جميع الاحتمالات. ولكن أين الرسالة الأصلية؟..

مد فاسيلي أليكسييفتش بيروفسكي يده إلى ورقة سميكة من تلك الأوراق التي تستخدم عادة في المكاتب، وبدأ في القراءة، وهو يرفع حاجبيه من وقت لآخر. "عام ألف وثمانمائة وتسعة وثلاثون. عام الخنزير البري وفقا لتقويم القبيلة.. شهر مارس - ناوريز. منذ عهد جدنا أبلاي، فإننا كازاخ السهوب قد عشنا مع الروس في سلام ووثام كإخوة أشقاء ولكن بما إن حاكم سيبيريا لم يجعلنا نعيش في سلام فقد تحتم علينا أن نقاتل مع عدم رغبتنا في ذلك.. واسمحوا لي أن أبلغ سعادتكم أنه منذ دخولنا الأراضي الخاضعة لكم لم نرتكب قط أي عمل معاد ضد روسيا. ونرجو أن تبلغوا ذلك للسلطات العليا."



إن سلطان السهوب هذا قد طالب بالعدالة. وهل مهمة الإمبراطورية هنا تتمثل في إنتاج مزيد من الأعداء الزائدين عن الحاجة؟ خاصة مثل أولئك الأشخاص المؤثرين في القبيلة كحفيد أبلاي. ليس هناك شيء أسوأ من الصرامة العسكرية الغيبية للأمير جورتشاكوف. أليس هذا الكينيساري نفسه يحتاج إلى الحماية الروسية. أن يجعله هذا مواطننا أكثر ولاء ونفعا من أولئك الأغوات السلاطين الخبثاء الذين يحميهم الأمير؟ إن الأمر يتطلب قليلا من المرونة. وقد اقتنع بهذا أكثر من مرة. وعلى عكس الأمير فقد أرسل على الفور رسالته كينيساري إلى وزير الحربية الغراف تشيرنيتشيف ونائب المستشار نيسيلرودي. وقد أرفق بها رسالته الخاصة طالبا فيها العفو والمغفرة لكينيساري. وبهذه الطريقة فقط من الممكن وقف الاضطرابات، وجذب السهوب الى جانبنا.

ويدو أنهم قد أدركوا ذلك حتى في سان بطرسبرج. وفيما يتعلق بطلبه إصدار تعليمات إلى الحاكم العام في سيبيريا بعدم التدخل في شؤون الكازاخ الذين انتقلوا إلى إقليم الحاكم العسكري جاء الأمر المناسب من وزير الحربية. غضب الأمير، وكتب له رسالة سامة جدا.

ابتسم بيروفسكي قليلا بعد أن تذكر ذلك الخليلط للكبرياء المهان مع السذاجة الطفولية في الحياة السياسية التي تميز الجنود القدامى للمدرسة البروسية. "أود أن أبلغكم أيها الغراف أنه ليس لدي أي نية أن أحكم قيرغيزك الكسيك. فإن لدي من الأمور ما يكفي، وإن كل ما يهمني هو حماية محافظتي التي عهد بها إلى الملك من القبائل المتعطشة للدماء. إن التمرد الذي قام به السلطان كينيساري يشكل خطرا جديا جدا لأنه يغطي أعماله بوعود فارغة بإعادة بعض الحريات القديمة لذلك يتبعه الكثير فقط من أجل الكسب السهل والنهب."

لم يعدم الأمير بعض البصيرة، ولكن كان هناك الكثير من الأسباب التي دعت إلى حل سلمي للاضطرابات. ولكن للأسف كان هناك عدد قليل جدا من الناس الذين يدركون ذلك من المقربين من الأمير. ولكنه - بيروفسكي - والحمد لله حالفه الحظ هنا في أورينبورج. على الأرجح إن ما ساعده في ذلك أنه في الوقت الحاضر لا يقدر الأذكاء في العواصم. ويسعون أن يبعدونهم من هناك إلى حدود الإمبراطورية. وبسبب ذلك لم يخسروا الحدود تماما.

نعم لقد حالفه الحظ. إن أفضل العقول في روسيا يوجدون بين زملائه. وكثير منهم هنا، وأنهم يعملون الكثير ليضيفوا إلى مجد روسيا. إن فيليامين زيرنوف المؤرخ المستشرق المشهور، ودال اللطيف الذي ألف قاموسه.. هما أفضل من يدرك مدى الفائدة التي ستحدث لهؤلاء الكازاخ بسبب انضمامهم إلى روسيا؟ ولكن أن يكونا هما أول من سيبتعدون



عنه إذا سار في طريق الأمير جورتشاكوف الغبي، ويبدأ في إدخال التقدم بالرصاصة..

ولنأخذ مثلاً رئيس لجنة أورينبورج الحدودوية الجنرال جينز. إنه قد شارك شخصياً أكثر من مرة في الحملات العقابية، ولكنه لم يسمح قط باتخاذ تدابير متطرفة. وعلاوة على ذلك فقد فتح على نفقته الخاصة ملجأ للأطفال الكازاخ اليتامى، وعلمهم القراءة والكتابة، وعلمهم اللغة بنفسه. ويقولون أيضاً أن يكتب دراسة عن تاريخ واثوغرافيا القبيلة. وقد فعل ذلك بحب إنساني عظيم. وهذه هو الوجه الحقيقي لروسيا..

تذكر الغراف ما قاله له أحد المقربين منه وهو فيتكيفيتش الشاعر البولندي المنفى. لقد اكتشف قدرات كبيرة في القيروغيز الكسيك، وكذلك الإحساس البارع بالشعر، والموسيقى، والألوان. ويألها من معروضات رائعة جمعها في متحف منظم صديق الشاعر العظيم ميتسكيفيتشا يويتز توماش زاند..

نعم، يأتي مثل هؤلاء الناس مع مدافع وجنود الأمير جورتشاكوف. وهم يحددون المستقبل دون أن يسفكوا الدماء بشكل متبادل. فكلما سفكت دماء أقل كان ذلك أفضل. لذلك فقد أعطى حينئذ هذه الأهمية لرسالة كينيساري.

وماذا كانت نتيجة كل ذلك؟.. أصدر القيصر في عام 1838 م مرسوماً يقضي بأن "القرغيز المرسلين إلى فرق السجناء نظير الأعمال الإجرامية لا يعودون إلى القبيلة بعد انقضاء المدد المقررة لهم، ويرسل اللائق منهم والموثوق به إلى الجيش، ويرسل الآخرين إلى مقاطعة إيركوتسك ليقطنوا بها". وبعد أن علم القيصر من التقرير عن هدوء كينيساري، وتوقفه فعلياً عن الهجوم على تحصينات أورينبورج الحدودية، والقرى القوزاقية أصدر في الماضي في عام 1840 مرسوماً بالعفو عن كينيساري، وعفو ملكي عن كل جرائمه. وعلاوة على ذلك أعادوا له جميع أقاربه الذين قد تم نفيهم، وألغيت بناء على طلبه قضايا من هم قيد التحقيق.

لقد تحقق الهدف تقريباً. وبالمناسبة أطلقوا حينذاك وفقاً لرسوم القيصر سراح الابن الأكبر لوالي خان الذي نفي إلى سيبيريا بتدبير من زوجة الأب أيجانيم. وقد نفوا بناء على طلبها سارتاي شقيق زوجها الراحل. وقد فعلت ذلك لأنه كان يمكنهما المطالبة بالعرش الخاني بعد أن وقفا حجر عثرة في طريق أبنائها. إنه ليس من السهل أن نفهم هذه السياسة السهبية، وكذلك رأس الأمير جورتشاكوف "الذكية"..

لذلك لم يذهب جوبايدولا المطلق سراحه إلى زوجة أبيه في موطنه. ولم يذهب إلى أخيه جنكيز أغا سلطان كوشمورن، وإنما توجه فجأة إلى كينيساري. إن هذا السلطان الثائر لا ينتهج سياسة غبية. وأنه خليق بأن يسانده أكثر من الآخرين.



أيجانيم!.. ابتسم الغراف رغما عنه بعد أن تذكر شيء ما قديم وممتع! لقد كان ذلك قبل خمسة وعشرين عاما في الحفل الراقص لدي الامبراطور ألكسندر. فقد تنافس ضباط الحرس في التودد إلى زوجة الخان الشابة التي ظهرت فجأة في البلاط، وأنعشت الحاضرين. وقد قضى زوجها والي خان البالغ من العمر سبعين عاما الأيام والليالي عند الطاولة الخضراء يلعب الورق مع أعضاء مجلس الشيوخ الأكبر سنا. وحينذاك اعترف لها الشاب المتألق بيروفسكي ضابط الحرس بحبه لها..

وهاي الجميلة السابقة العصرية تحارب بوحشية من أجل النفوذ بين القبيلة!. اكتسبت أفكار الغراف بالتدريج اتجاهها أكثر قمامة. وقد تذكر استقبالا إمبراطوريا آخر أقل بهجة حدث في الآونة الأخيرة. وكان الإمبراطور شخصا آخر منذ مدة طويلة، وكانت نظرته كئيبة وثقيلة، ولم يكن هناك غير مرح قليل. وقد بدا هو نفسه للسيدات الرشيقات الجميلات مثل جنرال عجوز متصابي ومتنكر من مقاطعة حدودية بعيدة؟

وقبل فترة وجيزة من هذا وقعت حملته الفاشلة في خانية كوكاند. وقد سمح له بإذن ملكي أن يأتي إلى العاصمة لكي يستريح قليلا. وقضى هناك أكثر من أربعة أشهر، ثم فكر في العودة إلى مكان خدمته عندما دعوه فجأة إلى حفلة في البلاط الملكي. وهناك تقابل مع الإمبراطور نيكولاوي الأول وجها لوجه. وقد كتب على الوجه الملكي عدم الرضا بشكل واضح. وأوضحت الجميلة ما كيفسكايا المحظية الجديدة التي كانت تتنزه مع القيصر كل شيء.. نظرت بمكر إلى الغراف، ثم هتفت:

- أه يا صاحب الجلالة.. إن الغراف فاسيلي أليكسييفتش هو المذنب بشكل جزئي في عدم الوفاء بوعدكم.

نظر بيروفسكي إلى وجهها الضاحك دون أن يفهم شيئا. وكان من الضروري أن يقول شيئا ما.

- إذا وعدتم جلالتم شخشا ما بشيء ما فإننا نضحي بأرواحنا من أجل الوفاء بهذا الوعد..

في النهاية تم توضيح كل شيء. في تلك الفترة أصبح الحرير البوخاري من الأزياء السائدة في البلاط الملكي. وهاهي قافلة الحرير التي كانت تنتظرها سيدات سان بطرسبرج الأنقيات لحضور هذه الحفلة الراقصة قد نهبا في مكان ما بالقرب من طشقند رجال السلطان المتمرد كينيساري.

اندش بيروفسكي وقال:



- هذا مستحيل - فقد تلقيت رسالة بالأمس تفيد بأن السلطان كينيساري الواقع تحت إمرتي كان في مقر إقامته على ضفاف نهر تورجاي في الخامس من سبتمبر على مسافة ألف ميل من طشقند..

- إن الخانات الكسيك ليسوا كالجنرالات الروس الذين يحتاجون إلى شهرين لكي ينتقلوا من أورينبورج إلى بحر آرال - تحدث الملك بقسوة، ولم يرحم كبرياء الغراف الذي قاد الحملة الفاشلة. - ثم إن لصك هذا لم يحتج غير سبعة أيام لكي يكون مع أربعة آلاف من فرسانه تحت أسوار طشقند نفسها!

أحنى بيروفسكي رأسه وقال:

- عفوا يا صاحب الجلالة ولكنني في الحقيقة لا أعرف شيئا عن ذلك.

قطب نيكولاي الأول حاجبيه وقال:

- منذ متى يعلم الجنرالات في روسيا من القيصر ما يحدث بين رعاياهم؟ - اسمحوا لي فإنني أستطيع أن أبلغكم أن السلطان كينيساري الواقع تحت إمرتك قد أعلن نفسه في السابع من سبتمبر خانا للكسيك، وبعد أسبوع شن حربا ضد خان كوكاند.

همس بيروفسكي:

- مستحيل..

لقد تلقيت مؤخرا رسالة من جينز الذي يقوم بواجبات الحاكم العسكري في غيابه. وقد أبلغه جينز أن مساعده جيرن كان في مقر كينيساري حتى الأول من سبتمبر وأنه قد عاد لتوه من هناك. وأفاد بأنه ليس هناك شيء غير الصمت والهدوء، وأن الجميع ينتظر النتيجة النهائية للمفاوضات.

صنع القيصر علامة رفض بيده، وظهر على وجهه تعبير الاستهزاء والاحتقار المعروف جدا للجميع.

- لقد وصلتنا اليوم رسالة من خان كوكاند حملها إلينا رسول من عنده. ويجب أن تتذكر يا فاسيلي أليكسيفيتش أن علاقتنا الطيبة نحوكم لا تعني الموافقة على إعلان هذا الكينيساري إمبراطورا للسهوب. إننا لن نسمح بذلك في الإمبراطورية الروسية. وفي خلافكم مع جورتشاكوف فإنني الآن أميل إلى جانبه. بالإضافة إلى ذلك إنني لست من سيشرح لكم أنه حين تصادمت المصالح الروسية في جميع أنحاء آسيا مع مصالح التاج



البريطاني أكان من المعقول أن نقوض جميع علاقتنا التجارية الطيبة وجميع أنواع العلاقات الأخرى مع كوكاند، وبخارى أو خوارزم؟ إننا لن نسمح لأي حاكم في روسيا أن يطبق سياسته الخاصة. لذلك لا تبددوا وقتكم أكثر من ذلك مع هذا الكينيساري. ولقد أصدرت اليوم أمرا لشرنيشيف ليقوم بالجهود المشتركة لقوات أورينبورج وسيبيريا بالتخلص منه بشكل نهائي وإلى الأبد. وإذا كنت تعتقدون أيها الغراف أنكم لا تقدررون مع بالغ جهدكم تنفيذ هذا الأمر، إذن.

خض بيروفسكي رأسه الرمادية وقال:

- سمعا وطاعة يا صاحب الجلالة..

- حسنا اذهبوا إلى أورينبورج.

أشار القيصر له بالانصراف. فأحنى الغراف فاسيلي أليكسييفتش بيروفسكي رأسه أكثر. وعندما رفع الحاكم العسكري لمنطقة أورينبورج رأسه لم يرى الظهر المستقيم المبتعد للحاكم المطلق وتقريبا يتشبث به بشكل وثيق جسد رشيقي في ثوب من الحرير الصيني العادي. وتذكر الألوان الفجة الصاخبة لأطلس (نوع من الحرير) آسيا الوسطى ثم تنهد بعمق. وماذا يفعل الآن مقاتلو كينيساري المغبرين والمتعرقين مع هذا الأطلس الساتان؟..

لقد علم الغراف أن وزير الحربية تشيرنتشيف قد لعب دور القواد في قصة القيصر مع الجميلة ماكيفسكايا. وعلم منذ مدة أنه يسعى لتعيين قريبه البعيد الجنرال ميغور بالمدفعية أوبروتشيف مكان بيروفسكي. ولولا المحاباة غير المفهومة من جانب الملك نحوه ما تجرأ وزير الحربية أن ينصح مباشرة بإحداث التغييرات المناسبة. ويبدو أن تشيرنتشيف الماكر اقترب من تحقيق هدفه.

وفكر فاسيلي أليكسييفتش بيروفسكي لا إراديا أن العلاقات في البلاط الإمبراطوري الروسي لا تختلف كثيرا عن العلاقات بين السلاطين الكازاخ الذين يعضون بعضهم البعض من أجل السلطة والنفوذ. وإنهم بالتأكيد سوف ينسجمون مع بعضهم البعض أي هؤلاء السلاطين والحكام الروسي الحاليين.

بعد بضعة ساعات من حديثه مع الحاكم المطلق سافر فاسيلي أليكسييفتش بيروفسكي في فجر اليوم التالي إلى أورينبورج، ووصل إلى هناك بأقصى سرعة. وفور وصوله علم من جينز جميع التفاصيل. وكان عليه أن يتخذ على وجه السرعة التدابير



المناسبة للقضاء تمرد واستبداد كينيساري.

كإجراء مبدئي أرسل إلى جميع الأغوات السلاطين رسلا يطالبهم بسرعة الحضور إلى أورينبورج. وبالأمس وصل الجميع تقريبا، وكتب جينز تقريرا مفصلا عن الوضع في السهوب. وأبلغ معاون الشاب مشرق العينين الحاكم العسكري بوصول جينز.

لوح بروفيسكي بيده في ضجر وقال:

- دعه يدخل..

دخل الجنرال جينز وهو رجل طويل القامة ذو أنف معقوف، وشعر كستنائي مجعد قليلا. كان بنظراته ذات الإطار الذهبي أشبه بعالم منه إلى رجل عسكري. وكان هناك شعور بأن العلاقة بين الحاكم العسكري وبين مرؤسه رئيس اللجنة الحدودية خالية من تلك الروح العسكرية الشجاعة التي يعود تاريخها إلى عصر بافلوف والتي تم أحيائها بقوة جديدة في العهد الحالي.

كان مكتب الجنرال بروفسكي غرفة مربعة كبيرة جدا مع عدد قليل من الكراسي المنجدة بالمخمل الذهبي. وإلى جانب صورة الإمبراطور النمطية في كامل قامته علقت صور زيتية صغيرة لسوفوروف وكوتوزوف الذي كان الحاكم العسكري يكن لهما بالغ الاحترام منذ الطفولة. وعلى الحائط علقت خريطة كبيرة لمنطقة أورينبورج بأكملها مع الأراضي المجاورة لها والأراضي الأجنبية. وكما يلفت النظر وجود عدد هائل من الكتب. وقد كانت هذه الكتب تقف في خزائن كبيرة ذات لون أحمر داكن، وعلى الطاولة استلقت مجلدات سميككة في أغلفة جلدية منقوشة بالذهب.

سأل جينز بعد أن ابتسم بحزن:

- هل استرحتم من العاصمة يا فاسيلي أليكسييفيتش؟

- إنكم على حق بشأن العاصمة يا عزيزي جينز. إن بطرسبرج تتعب حقا. - فكر للحظة، ثم أغلق عينيه نصف إغلاق وكأنه قد تذكر شيئا ما ثم قال: - لكننا لن نضيع الوقت سدى. أروني الآن على الخريطة أين توجد حاليا القرى الموالية لكينيساري..

اقتربا من الخريطة، وشرع جينز يشرح مع قلم رصاص في يده:

- لقد جاءوا إلينا من أكمولا وكاراكالي مع كينيساري كامل بلدات ألكي بايدالي، وتانلي كاربيك، وتيوبو تيميش. وقد استقروا هنا على أطراف مال كاراكوم، وأكوم، وكذلك عند مصب أنهار جيلاندي، وتورجاي. وقد اندمجت بلدات كوزغان، وأيدابول، وكارجاس ومالاي كالكامان من منطقة بيان أوول، وكذلك جميع القرى



الأخرى تنالي كاربيك وتورياغير كيبشاك من منطقة أكمولا مع عشيرة باغنالي واستقروا على ضفاف نهركارا تورغاي. وتقع في الجزء العلوي من نهركارا تورغاي في منطقة أورداتيكين التي تعني "مقر الخان" قرية عشيرة كينيساري نفسه..

سأل بروفيسكي وهو يفكر:

- يعني أن قريته توجد هنا؟ أو ما جينز برأسه. ونظرا معا لبعض الوقت إلى بثرة صغيرة بين بحر من الورق الأبيض.

قال له بروفيسكي بهدوء:

- استمروا..

- وهنا استقرت قبائل وعشائر منطقة أتباسار التي كانت تسكن قبل ذلك أرغيناتا، وأوليتا، وترسكان، وكايراكتي، وشونديكول، وأكول. هذا أولا، ونفس هؤلاء التيوبوي تيميش وتنالي كاربيك، بالإضافة إلى هذه العشائر المتفرعة هناك أيضا كويليباي- ألتاي، وأيتكوجا كاربيك، وألتاي- ألكي، وألتاي بيدالي، وألشين- جاغالبايلي. واقد انضموا إلى تمرد كينيساري في عام 1838 م، وتبعوه في كل مكان. والآن يسيطرون فعليا على هذه الأرض الشاسعة.

وكان على جينز أن يخطو بعض الخطوات على امتداد الخريطة ليحدد تقريبا على الأقل حدود أراضي العشائر التي ذكرها.

- ولكن هنا، على ما أذكر، تجولت ألشين جاباس القوية.

- لقد تفاهموا معا، واندمجوا معهم جزئيا.

- تفاهموا معا؟ - كان في صوت بيروفسكي حيرة واضحة.

- نعم، لقد تفاهموا معا، يا فاسيلي أليكسيفيتش. وإذا أضفنا إلى ذلك أراضي المتمردين الذين تمردوا في أوقات مختلفة، وانضموا إلى تمرد عشائر القبيلة الصغرى مثل مثل تابين، وتاما، وشيكليك، وشميكا، وشيكتي، وتورتكارا، فانظروا - إنهم يشغلون جميع الأراضي شرق يايك على طول ضفاف أنهار جيم، وإيليك، وإرجيز وجيباندي، فضلا عن سفوح موغودجار. وهذا يعني أن كينيساري يملك أرضا تساوي أرض فرنسا، وجميع ممالك إيطاليا!..

- نعم هذا هو الوضع الآن. ووفقا للمعايير الأوروبية فإنه يمكنه أن يطالب باللقب.. -

لم يكمل بروفيسكي حديثه، ثم نظرت مرة أخرى إلى البثرة الصغيرة التي كانت تعني معسكر كينيساري. - أقول لك بصراحة إن هذا ليس ما يشغلني. إننا معا أفضل من



يدرك ما يحدث هنا. لذا كيف حدث أن الكازاخ كما يسمون أنفسهم والذين عادة ما يدافعون بقوة عن مراعيهم حتى من أقرب أقاربهم أدخلوا دون أي مقاومة إلى أراضيهم الأصلية كل هذه الكتلة من العشائر من القبيلة الوسطى الغربية والمعادية لهم منذ فترة طويلة؟ لماذا يعيشون معا بسلام في المراعي؟ أيكون هناك شيء ما غير عادي يحدث في السهوب ليس في مقدورنا بعد أن نفهمه بعد؟

نظر جينز إلى مكان في الجانب وقال:

- إن سياسة الأمير جورتشاكوف التي يميل إليها دائما القياصرة الروس بقدر غير مفهوم ستوحد في القريب العاجل السهوب كلها ضد روسيا العزيزة علينا. وليس هناك شيء يمكننا القيام به حيال ذلك هنا. إن الأمر أسهل بالنسبة إليك. ولكن لو حاولت أنا أن أمح بذلك فإن الوطنيين الزائفين الروس سوف يتذكرون في لحظة على الفور لقي غير الروسي. التزم الرجلان الروسيان اللذان كانا عاجزين عن تغيير أي شيء الصمت فترة طويلة.

قطع بروفيسكي الصمت وقال:

- إنني أفهم تماما الأهداف الشخصية لهذا الكينيساري.. إنها نفس الأهداف عند كل أبناء أبلاي. ولا يسع المرء إلا أن يعجب بأنه يستغل بذكاء غباء بعض مندوبينا الساميين الموكل إليهم السلطة. لذلك فقد تم تنصيبه خانا.

ابتسم جينز بسخرية، وهز رأسه، ثم قال:

- لقد أبلغوني ذلك الأمر بعد ثلاثة أيام. - وقد أرسلت بالنيابة عنك رسالة إلى كينيساري أستعلم فيها ما إذا كان هذا الأمر حقيقيا. فأجاب على الفور بالنفي، ووقع كمواطن مخلص يحمل لقب عقيد روسي. يا له من لص! ثم أدركت حقيقة الأمر. لقد قدم عرضا للكوكانديين فعرفوا على الفور أنهم رفعوه على السجادة البيضاء عن كل الأجزاء الثلاثة، وأقيمت على ضفاف نهر تورجاي بهذه المناسبة وليمة لم يسبق لها مثيل. وقد جلسوا بلا مبالاة، ثم وصلت دوريات كينيساري إلى سوزاك كأنهم ظهروا من تحت الأرض..!

ابتعد بروفيسكي عن الخريطة ودار حول المنضدة ثم قال:

- إذن هل هو يعتبر نفسه خانا أم لا؟ - وإذا لم يكن كذلك فلماذا تحرك دون مشورتنا إلى سوزاك؟

- ويوضح حاكم تورجاي أحمد جانتورين أن عشائر شوميكي، وتورتكارا، وتابين والذي يعيش جزء منهم في المجرى الاسفل لنهر سير داريا قد طلبوا من كينيساري ذلك..



لقد ثاروا ضد هيمنة كوكاند، وطلبوا منه المساعدة. نفس الشيء تقريبا يقوله رئيس جمارك سييريا. وعلى حد قوله فإن كينيساري قد ذهب إلى هناك ليعيد إلى أرض الأسلاف القبائل الكازاخية من أصحاب الجنسية الروسية الذين نقلوا في أوقات الحرب الأهلية إلى خانية كوكاند. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الطشقندي كوش يبجي قتل إخوة كينيساري وأبيه فإنه ليس هناك ما يدعو للعجب حيال ذلك.

- لكن لم يعد هناك الآن أولئك الذين تسبوا في وفاة والده وإخوته. كما أن كوكاند يحكمها الآن شيرالي خان، وكما تعلمون فإنه رجل سلام، وصديق لنا. فهل نسبح لكينيساري الذي يعد من رعايانا أن يثير حربا مع كوكاند؟ كما أنه سيتعين علينا أن نتعامل معهم في المستقبل، وليس هناك سبب يدعو لأن نعقد الأمور معهم مقدما!

كان بروفيسكي يقصد الأحداث التي جرت في الأونة الأخيرة. لقد تزوج ماديلي خان الذي فقد عقله تماما من زوجة أبيه رسميا بعد عام من اللقاء في طشقند. فأعلن أمير بخارى الملقب بنظير قسوته التي لم يسبق لها مثيل "بالجزار نوراسولا" أنه مرتد، وجاء إلى كوكاند على رأس جيش ضخم. وقطع رأس الفاسق مايديلي خان، وصب على مكان الإنجاب لدى الجميلة خانبادشايم فضة مصهورة.

هز جينزكتفيه وقال:

- إن كينيساري يريد بالطبع استغلال العداوة بين بخارى وخانية كوكاند لتحرير وضم كازاخ سيرداريا. والآن هو الوقت المناسب لعمل ذلك، وإن أفعال كينيساري تتوافق تماما مع هذا السنياريو. إنه من الممكن فهمه. وبالطبع إنه لن يقبل أبدا أن يكون تابعا لحكام خوارزم وبخارى وكوكاند لأنه يدرك سياساتهم جيدا. وإذا كان يحتاج إليهم فلن يكونوا بمثابة حاجز متحرك ضد روسيا. أتذكرون كيف رد بحدة قبل ثلاث سنوات على مغازلة وهدايا الأكلول: "وإذا تحتم علينا أن نخدم أحدا فالأفضل أن نخدم أسدا وليس ابن آوى..!" لقد أبلغنا على الفور الغراف نيسيلرودي بذلك. ومع الأسف فإن أمور الأسود في كثير من الأحيان يديرها الحمير.

انحنى بيروفسكي متعبا في كرسيه، والآن فقط لاحظ جينز كيف أن الغراف قد هرم خلال إقامته في بطرسبرج.

قال بيروفسكي:

- إن كينيساري لا يريد أن يدعن لأحد بما في ذلك الامبراطورية الروسية. وليس هناك شيء يمكننا فعله حيال ذلك. إن هدفه الرئيس هو توحيد جميع الكازاخ تحت سلطته



حيثما كانوا في الوقت الراهن. إنه يريد إعادة إنشاء خانبة كازاخية عظيمة غير راغب في أن يفهم استحالة هذا المشروع في الوقت الحاضر. وبغض النظر عن الكيفية التي نتعامل بها معه علينا أن نضع حداً لأحلامه وآماله. ماذا نصنع، إننا لسنا أول أناس في التاريخ تصنع مثل هذا العمل.

حول جينز رأسه إلى الخريطة متفكراً وقال:

- حتى الباتير السيرداري جانكوجا قد وجد معه لغة مشتركة... - والإلم تمكن كينيساري من اقتحام سوزاك التي يدافع عنها خمسة آلاف جندي.

- ولكن تم إبلاغ الإمبراطور أنه قد ذهب إلى هناك مع أربعة آلاف من المقاتلين. وهؤلاء ليسوا سكان المدينة المدللين.

- لكنهم أصيبوا عند بئر شونكور كودوك بالدوستناريا، وكان عليه أن يترك هناك النصف الأفضل من جيشه. لذلك إن لم يكن جانكوجا مع محاربيه قد قدموا له يد المساعدة لما تمكن من محاصرة سوزاك..

- وكيف تسير الأمور هناك؟

- إن الهجوم مستمر منذ عشرة أيام. ويبدو أن الأمور تقترب من نهايتها.

- لا يمكن أن يقدم على مثل هذا الهجوم غير شخص يائس.

- إنه لا يعرف اليأس أبداً. إنكم تعرفون هذا اللص. ونحن أيضاً لا نشك في مواهبه العسكرية. مثل هؤلاء الناس يجب جذبهم نحوروسيا وليس كل نذل صغير من يحيطون بجورتشاكوف. ولكن مع الأسف لا يسمحون لنا بفعل ذلك. فكل شيء يجب أن ينحني أمام صولجان واحد - من الصخور الفنلندية الباردة إلى كولشيس النارية.. إنه سيأخذ سوزاك، فلا يمكن عندكم شك في ذلك. وحسب معلوماتي فإنه قد أعد مائة سلم للاقتحام ولديه من الرجال من يستطيعون التسلق عليها.

وضع بيروفسكي يده على الخريطة وقال:

- لكن كيف تمكنوا من اجتياز السهوب الجائعة خلال أسبوع؟

خفض جينز صوته تقريبا حتى أصبح أقرب إلى الهمس وقال:

- ليس خلال أسبوع يا فاسيلي الكسيفيتش.. بل في خمسة أيام! إنني لا أعرف ما إذا كانوا قد نصبوه خانا عند قبر سلفه الألاش أم لا ولكنه كان هناك دون شك حتى السابع من سبتمبر مع جميع مؤيديه من الشيوخ والبكوات. إنه يوجد بالقرب من أوليتاو. وفي



الثاني عشر من سبتمبر ذهب مع نصف جيشه إلى أسوار سوزاك. وحدها الطيور فقط هي القادرة على مثل هذه الرحلات!

- كيف ذهب إلى هناك؟ إذا كان قد ذهب عبر الصحراء فإنه كان يحتاج الإبل وليس الخيول.

- لقد سار بالمناسبة عبر الطريق الذي من المفترض أن الأش هذا قد بسطه قبل أربعمائة سنة مضت. لقد حكى لي عن ذلك بالتفصيل الجندي الذي سلم الرسالة بالأمس. والتفت جينز إلى الخريطة ثم قال: هذا هو طريقهم.. كارا كنجير حيث ضريح الأاش، ثم وادي كاراجال الذي يبعد عن أوليتاو مسافة مائة وثلاثين ميل. وبعد اثنين وعشرين ميلا على شاطئ نهر ساريسو قبر الباتير تايماس، وبعد أربعة وخمسين ميل ما يسمى "قبر العذراء"، حيث أعطوا الخيول قسطا من الراحة.

- وبقدر ما أتذكر هناك عشب شحيح وماء قليل جدا.

- هذا بالنسبة إلى خيول جيشنا أما بالنسبة للخيول الكازاخستانية فإنها تحصل على طعامها في أي مكان. وهذا هو مسارهم القادم. بعد سبعة وعشرين ميلا سيعبرون إلى تاس أوتكل، ثم بيتون أسفل قبر سارت. وفي الفجر سيجتازون ثلاثين ميلا على امتداد الضفة اليسرى من ساريسو حتى قبر كارا كيبشاك. وهنا سوف يطعمون خيولهم في وقت قصير، ثم يلي ذلك أصعب ممر عبر الرمال المتحركة والتي لم يتجرأ علي اجتيازها حتى أكثر قادة القوافل خبرة. للوهلة الأولى تري رمالاهشة خامدة ليس بها أي مظهر من مظاهر الحياة. غير أنه ينمو بين الكثبان القصب الشائك شينجيل، والشجيرة الجافة باليايش التي تغطيها الرمال حتى المنتصف، وأحيانا تري أشجار الصبار، والأثل. ويجب على المرء فقط أن يتعلم رؤية كل هذا. حتى شجرة جدة تنمو في الأماكن المحمية بين التلال الرملية. وهناك ما يكفي من الأرانب والغزلان لإطعام الناس. وهناك حيث يهلك جنودنا في غضون يومين يجد الزحل كل شيء كالمياه والعلف والغذاء. ويجب علينا أن نتعلم ذلك أيضا.

قال بيروفسكي:

- هناك ظهر أول حصن كوكاندي على خرائطنا.

- نعم، جامان كورغان، استراحة على مسافة ثلاثين ميلا من كارا كيبشاك. وهي عبارة عن سور مغلق رباعي الأركان من النوع المحلي سمكه أرشين ونصف وارتفاعه أربعة أرشينات. وقت بنيت هذه الاستراحات لحماية القوافل من هجمات الكازاخ الأحرار وكقواعد لشن هجمات في المقابل على القرى الكازاخية. وبعد ذلك، كيزيل.



دجينغيل، المقر الشتوي للباتير باتيش ذاك الذي غادر كارا كينجير بسبب العداوة مع ساندباي. ثم أربعين ميلا على امتداد المجرى الجاف لنهر بوكتيكارين حتى بحيرة إينامكول. وتوجد هذه البحيرة في الغابات النهرية السميكة. وهذه هي المحطة الخضراء الأخيرة قبل السهوب الجائعة.

سأل بيروفسكي:

- وأين أصيبوا بوجع البطن؟

- بين جامان كورغان وكيزيل دجينغيل المقر الشتوي للباتير باتيش. هناك ثلاثة آبار تسمى شونكور كودوك. لقد شرب من هناك رجال بايتابين الذين لا يعرفون هذه الأماكن، وتقريبا مرض الجميع. وقد ترك كينيساري المرضى في قرى عشيرة باغانالي من نايمان الذين كانوا هناك في المقر الشتوي.

- وماذا كانوا يأكلون في السهوب الجائعة؟ وأين كانوا يحصلون على الماء لأنفسهم،

والأهم من ذلك لحيادهم؟

- إن السهوب الجائعة للجاهل بها مكان رهيب. خاصة أول سبعين ميل من الرحلة. إنها أرض طينية حمراء بنية متصدعة دون وجود للون الأخضر تماما. ولكن عند غور ترسكان يوجد وادي أيدارلي وبه بئر سري شينيراو الملى دائما بالماء. وهناك بعض الشجيرات حوله، وعلاوة على ذلك يطعمون الخيول المتعبة حسب التقليد التركماني دهون ردف الأغنام. وفي رحلتي العلمية الأولى تعلم القوزاق التابعين لنا هذا هناك.

- وهل تأكلها الخيول؟

- تأكلها وتزداد قوتها إلى الضعف. وباختصار يقطعون مائة ميل عبر السهوب الجائعة، ثم يعبرون نهر تشو عند بيس كولاني، والبحيرة المالحة أكجايتكان، وواديان إيني، وكولان كابان، والبئر المالح كوس كودوك.. ومرة أخرى عشرين عبر الكثبان الرملية، وبئر جامان كودوك نصف المالح. ووحدها الإبل من تستطيع أن تشرب من مائه. و فقط بعد عشرين ميلا عند قبر بيردي بك يكون الماء صالحا للناس والخيول. ويطلقون على المكان الذي يوجد فيه قبر بيردي بك اسم كول. وهناك منذ المساء سمح كينيساري للجميع بنيل قسط من الراحة، وعند الفجر كان عند الأسوار.

وكاد حاكم سوزاك بابادجان، أو كما يسمونه بلغتهم، داتكا، أن يجن عندما رأى ذلك. ويقولون أنه عندما أيقظوه، طرد أولا الحارس المناوب، وقال لا يمكن أن يكون العدو على الأبواب. ليس هناك عدو غير كينيساري، وكينيساري يحتفل بتنصيبه خانا على مسافة ستمائة ميل من هنا! "هاهو كينيساري!" - أروه كينيساري من السور فشرع في البكاء.



- ليس بابادجان وحده من لم يصدق هذا، بل إنني نفسي حتى الآن لا أصدق هذه الرحلة.

نظر جينز إلى بيروفسكي بابتسامة خافتة، وقال:

- ومع ذلك فقد فعلها. - أتعرفون يا فاسيلي أليكسييفيتش لماذا سموا المعبر على نهر تشوببس كولان والتلال باباني وكابان؟

كان ذلك لجينز العالم الأثنوغرافي العظيم أولا والجنرال ثانيا هو الحياة نفسها. لقد كان بيروفسكي يعرف ضعف صديقه. وكان عليه كي لا يغضبه أن يستمع إلى حكاياته ساعات طويلة. ولم يلحظ الحاكم العسكري أنه أصبح عالما حقيقيا بالمنطقة كونه كان بجانب هذا الرجل. وأن هذا كان ذا نفع له له بعد اثنتي عشرة سنة عندما قمع روحه، وأحنى رأسه للأمر الواقع، وللإمبراطور واستولى على مدينة أك ميتشيت، وقمع بوحشية كل محاولات النضال الوطني التحرري في السهوب.

والآن يحكي له جينز أسطورة كان قد كتبها حين كان يزال ضابطا شابا قبل ثلاثين عاما.

قال جينيز بحماس ككل مرة يحكي فيها:

- لقد قيل شعري كل تله هنا وعندما تبدأ في التنقيب عن المصادر فسوف تصل إلى الإسكندر المقدوني نفسه! - وهكذا مع بيس كولان. يزعمون أن ابن الخان الأش المفضل قد داسه قطيع من الحمير البرية. أي كولان. وأصبح لأش في محنة عظيمة، وأمر بقتل كل حمار بري في السهوب. وقد وعد الخان الأش الرجل الذي يقتل أخر كولان (حمار بري) بكنوز لاتحصى، وبتزويجه من أجمل بناته.

وعد الباتير دومبولاك بتنفيذ أمر الخان. أخذ معه اثنين من الخيول الرائعة واللذان يتسميان باسمي إينيي، وكابان لقتل الحمير البرية، وعندما بقيت في السهوب خمسة منهم فقط دفعهم دومبولاك في عمق الرمال. وقد وجدوا وهم يفرون منه مخاضة (مكانا للعبور) على نهر تشو، ومنذ ذلك الحين تسمى هذا المكان ببيس كولان وهو ما يعني "خمسة حمير برية". ونفق الحصانان الرائعان، ولم يلحقا بالحمير البرية، وتسمى مكان موتهما بأسمائهما.

ولا يزال الكازاخيون يعتقدون أن التل القريب هو قبر الباتير دومبولاك. والقبر هناك بالفعل قديم جدا، وكذلك موضوع الأسطورة يعود إلى عهد الملك كير منذ عدة قرون.

عضد بيروفسكي الحديث بدبلوماسية فقال:



- لا يوجد على الأرض مثل هذه القبور! - إن التاريخ معلم الحياة، وحسنا يفعلون أنهم لا ينسون أسلافهم. وهل سيسمون أي من الوديان هنا بأسمائنا؟.. حسنا دعنا نعود إلى العمل.
- نعم، سعادتكم.

قال بيروفسكي بصوت حاد على الطريقة الجنرالية:

- لقد عهد لي جلالة الإمبراطور بمهمة تصفية حركة كينيساري غير المرغوب فيها الآن لروسيا.. قبل كل شيء يجب أن نسأله لماذا تدخل دون إذن الإمبراطور أو إذن منا في سياسة آسيا الوسطى. أعني الحرب بين بخارى وكوكاند. إن أعمال كينيساري غير المصرح بها أضرت بالعلاقات التجارية للإمبراطورية الروسية في آسيا ناهيك عن الأفاق السياسية. ويجب أن نأمره بوقف الأعمال العدائية في جميع أنحاء أراضي خانية كوكاند، والعودة فوراً إلى الأرض المخصصة له.

- هل يستطيع أن يجبر نفسه على طاعة مثل هذا الأمر؟ إنكم تعرفونه. خصوصاً وأن محاربيه يقفون الآن عند أسوار سوزاك.

- سيفعل ما يراه مناسباً.. هذا سيكون أول شيء مفيد لكينيساري نفسه. ولا يجب أن يعتقد أن الانضمام الطوعي لروسيا يترك له الحق في حل أي مشاكل سياسة خارجية مهما كانت له صلة بها.. إن الخضوع لروسيا يعني القدرة مع الحماسة المناسبة على تنفيذ قدر صاحب الجلالة الإمبراطور. ولا شيء غير ذلك.

كان بيروفسكي يصيح تقريبا. وكان جينز يستمع في صمت وقد أحنى رأسه. ثم سلم الحاكم العسكري بصمت ورقة ما.

سأله بيروفسكي:

ما هذا؟

- رد كينيساري على رسالتي.

استمرت هذه القصة فترة طويلة. وواصل الأمير جورتشاكوف وهو يعلم جيدا بشأن الاتفاقية بين الغراف بيروفسكي وكينيساري النظر إلى القرى التي انضمت إلى كينيساري كقرى معادية، وتعامل معها وفقا لذلك. وقد كتب الأمير الذي جرحت كرامته بسبب رضا نيكولاوي الأول عن بيروفسكي وسياسته الشرقية في الفترة السابقة إلى وزير الحربية تشرنيشيف: "إن اللصوص - أبناء قاسم توري - يخدعون روسيا وهم يؤكدون لنا ولائهم، ولكنهم في الواقع يعززون أعمالهم الإجرامية ضد صاحب الجلالة الإمبراطور" وكتب لبيروفيسكي بصراحة: "إما أن تبعد كينيساريك عن حدود سيبيريا، وإما إن



تسمح لي بالتخلص منه في مخبأه!..“

ورد بيروفسكي بدوره على جورتشاكوف قائلا: ” إننى لا أجد كينيساري الذي يقع تحت ولايتي مدانا لأنه منذ تبعيته للحكم العسكري في أورينبورج لم يرتكب أي أعمال عدائية تثير سخط رعايانا. وتستند الرواية حول قيامه بالسرقة على شهادة بعض الكسياك من بين خصومه. وهذه الأدلة المشكوك فيها لا يمكن أن تثبت إدانة كينيساري.“

الإ أن رئيس لجنة حدود أورينبورج الجنرال جينز أرسل إلى كينيساري رسالة خاصة استثنائية للتحقق من بعض النقاط التي وردت في رسالة جورتشاكوف. وكان الخطاب الذي جاء به هو رد السلطان الثائر على هذا التحقيق.

بدأ بيروفسكي القراءة بصوت عال:

- منذ أن أنعم علينا صاحب الجلالة الإمبراطور بالعفو لم أرفع يدي ضد روسيا. والله الواحد لجميع البشر هو الشاهد على أنني برئ. إن أعدائي يريدون تشويه سمعتي أمامكم، وإذا شئت فأنني على استعداد لإثبات إخلاصي فعليا لروسيا. إن أعدائي يكرهونني بشدة، ولا يطيقون فضلكم نحوي.

أعاد بيروفسكي الرسالة إلى جينز وقال:

- بالطبع إنه يقول الحقيقة. على كل حال فإن لديه الكثير من الأعداء الذين سوف يجعلونه مذنبا دون ذنب. والأمير جورتشاكوف بطبيعة الحال خير من يفعل ذلك، ولكن أوائل الواشين هم السلاطين الكازاخ أنفسهم.

- ثمانية منهم يراهم كينيساري ألد أعدائه. ولقد حذرنا منهم في إحدى رسائله الأولى.

- من هم؟

- من التابعين لجورتشاكوف كونور كولدجا كودايميندين، وكولجان كوتشوروف، وأكوشكار كيشكنتايف، وأيضا جاوغاشار. ومن التابعين لنا أحمد جانتورين، وبيك عشيرة جاباس خورو نجي جنغابيل، وبيك عشيرة جاغالبايلي كوكير، وأخيرا، حاكم سوزاك بابادجان.

- هذا يعني أن لديه أعداء في جميع الأجزاء والدول.

- يبدو أن هذا كذلك. وبالإضافة إلى النزاعات القبلية المعروفة في حالتها الراهنة، فإنه يتهمهم أيضا بفقدان الكرامة أمام روسيا وكوكاند واضطهاد العشائر الأخرى. وعلى الرغم من أنه هو أوزة جيدة لكن هناك الكثير من الحقيقة في رسائله. أسوأ شيء هو أن



كل هؤلاء الأغوات السلاطين يسرقون بني عقيدتهم وهم يختبئون تحت اسمنا وجنودنا. وفي المحصلة تكون روسيا وحدها هي المذنبة في كل شيء!..

وصمتا معا مرة أخرى.

بسط جينيز ذراعيه وقال:

إن أعدائه الرئيسين هما كونور كولدجا وأحمد جانتورين التابع لنا.. إنه لن يهدأ له بال حتى يقطع رأسيهما.

- أوهما من سيقطعان رأسه.

فقط بأيدينا. أو بأياد آخرين. والحقيقة سواء أردنا ذلك أم لا أن أغلبية الكازاخ اليوم يعدون الأغوات السلاطين الذين يمثلون القيصر خونة أما كينيساري فهو الزعيم بالنسبة إليهم. إن جورتشاكوف وأصحاب المنهج المتشدد يساعدون على هذا الفهم. لذلك لن يستطيعوا التخلص من كينيساري دون مساعدتنا. إنه ليس من قبيل الصدفة أن فرسانه يضحون بحياتهم من أجله. حتى هذا الباشكيري الباتير مارات وضع نفسه مؤخرًا تحت ضربة السيف الموجه لكينيساري!.. وليس من قبيل العبث أن الحكام السلاطين يخافون منه خوفهم من النار!..

دخل مساعد بيروفسكي وقال:

- جاء السلطان الحاكم أحمد.. ويطلب المقابلة.

تبادل بيروفسكي وجينيز النظرات.

- دعه يدخل!

كان السلاطين حكام الشاطئ الشرقي لنهر جايقا أحمد جانتورين، وإريستان جانتورين، وببما غامبيت إيشواكوف هم الأقرب إلى بيروفسكي. وتحديدًا من خلالهم حاول أن يطبق سياسته في السهوب. لقد ناشدوه مرارًا أن يطرد كينيساري من الأراضي التابعة لمقاطعة أورينبورج. كان بيروفسكي يضحك لأنه كان يدرك الدافع الحقيقي وراء طلباتهم. في المحصلة لا يهم الإمبراطورية الروسية التي يمثلها أي سلطان يحكم الكازاخ: أحمد جانتورين أم كينيساري قاسيموف. الشيء المهم هو تهدئة السهوب، وإرغام جميع الأشخاص المؤثرين بما في ذلك كينيساري باستخدام سياسة مرنة على خدمة المصالح الروسية. والآن ساد رأي آخر في سانت بطرسبرج.



دخل أحمد جانتورين وهو رجل طويل القامة وشديد سمار اللون حتى لشخص من أهل السهوب وذو أنف واسعة وعيون غائمة كعيون الثور. كان يرتدي زي ضابط برتبة مقدم في الجيش الروسي وليس فقط لأنه كان أغا سلطان. فقد تخرج في وقت سابق في مدرسة أورينبورج العسكرية، وخدم في الحامية العسكرية. وعندما دخل أحمد أدى التحية العسكرية بشكل متقن وقال:

- سعادتك، المقدم جانتورين جاء بناء على طلبكم!

سلم عليه بيروفسكي ودعاه إلى الجلوس.

- هل تعلمون ياسلطان أحمد أن كينيساري الآن يحارب الكوكانديين؟

- نعم، أعلم، سعادتك.

- ولماذا أقدم على ذلك؟ ربما قد فعل ذلك بتحريض من الخوارزميين من أجل إضعاف

بخارى وخانية كوكاند؟ ماذا سمعتم عن هذا؟

ابتسم أحمد جانتورين بحفاة شفثيه وقال:

- سمعت شيئاً ما... بالطبع كينيساري ليس أحقما كما يعتقد البعض. لقد بدأ

كينيساري في إجراء معادئات سرية مع خان خوارزم بعد أن قتل الجزار نوراسولا الخان

ماديلي، وأذل كوكاند، ووعده بأن يسترد له بالحرب الأراضي الكازاخية في سيرداريا

الغاضعة للكوكانديين.

- ولماذا يفعل ذلك؟

- لكي لا يجعل أمير بخارى نوراسولا يزداد قوة. كما أن خان خوارزم الأكل أرسل

إلى كينيساري كهديته جوادارائعا وسرجا ثمينا، وخمسة عشر بندقية خوارزمية

مزخرفة بالفضة. ولاعتقاده أنه حصل على دعم كينيساري الكامل فقد أعلن الحرب

على بخارى. وأنتم تعرفون أن كوكاند وحدها قد استفادت من هذا. فبينما كان خان

كوكاند يحارب أمير بخارى ثار سكان كوكاند ضد الأمير، وأعلنوا شيرالي الهادي

الثقي قريب مايديلي خان المقتول خانا. استغل كينيساري ضعف خانية كوكاند فقرر

أن الوقت قد حان لضم سبعة آلاف سبعة آلاف أسرة كازاخية تابعة للطشقندي كوش

بيجي. ووفقا للمعلومات التي تلقيتها فقد استولى على يانا كورغان، وجوليك، وأك

ميتشيت. والآن يخوض حربا من أجل الاستيلاء على سوزاك. وفي الوقت نفسه بدأت القرى

الكازاخية التي حررها كينيساري في الهجرة إلى حدودنا.



نظر بيروفسكي إلى جينز بحيرة وقال:

- وما السوء في ذلك بالنسبة لنا؟.. إذا كان سارجان ابن قاسم توري قد انتزع من روسيا في عام 1834 م أربعين ألف أسرة من السكان الكازاخ فاليوم يعيد ابنه الآخر جزءاً منهم. ألا يعني ذلك نجاحاً للسياسة الروسية؟

قال أحمد جانتورين وقد أصبح أكثر قتامة:

- لا، هذا يعني انتصار كينيساري.. الآن تحت سلطة كينيساري الغالبية العظمى من عشائر نيمان بغانالي، وأرجين، وتابين، وتاما شكتا، وشوميكي، وبيباكتي، وكثير من الناس من العشائر الأخرى. كل هذا هو خمسة آلاف قرية، أو مائتين وخمسين ألف أسرة. وإذا أضف إليهم سبعة آلاف أسرة أخرى مدينة له بالتححرر من نير كوكاند فإنه سيصبح أقوى. وطالما بقى كينيساري على قيد الحياة فإنه لن يخضع لأحد بما في ذلك روسيا. إنه يريد أن يحكم السهوب كلها!..

- يا له من سعي غبي نحو السلطة.. لماذا يحتاج إلى ذلك؟!

وهنا نظر أحمد جانتورين بدهشة إلى الغراف بيروفسكي. وكان في نظرتة عدم ثقة بشكل مخلص. هل الحاكم العسكري يتظاهر أم بالفعل لا يفهم حلاوة السلطة المطلقة.

- إنه يحلم بعهد أبلاي، ويريد أن يصبح خان الكازاخ المطلق.

- حسناً، هذه رغبة طبيعية عند جميع أبناء أبلاي.. مسح جينز جبينه، وقام، وتجول في المكتب. - ألم يرد هذا كل شخص من أتباع روريكوفيتش خلال فترة التشردم؟ وهل سالت دماء قليلة من أجل تحقيق هذه الرغبات؟.. لقد قلتم للتو إن تحت سلطة كينيساري يوجد حالياً مائتين وخمسين ألف أسرة كازاخية. إذا كان في كل يورت (منزل) أربعة أشخاص، فإنه يبلغ عددهم مليون شخص. لذلك أسأل نفسي سؤالاً: هل يقاتل مليون شخص فقط من أجل جلوس المدعو كينيساري على العرش الخاني؟ لا، لم يحدث هذا في التاريخ. المسألة هنا أكثر خطورة بكثير. هنا الشعب كله غير راض عن القواعد التي نقدمها له. كل أمة تريد دائماً الحرية، وأناس مثل كينيساري ينضمون إلى هذه الحركة. وهم ينتصرون إذا لم يفقدوا رؤوسهم.. وفي معظم الأحيان تحدث صفقة على حساب الشعب.

- لا، إنه لن يفعل ذلك.

- لماذا؟!



قال أحمد جانتورين دون أن يفكر لحظة:

- بسبب الفخر.

- حسنا، سيكون علينا أن نكسر كينيساري. ولكن ما ذنب الكثير من الكازاخ البسطاء الذين رأوا فيه زعيما لهم، وهرعوا خلفه؟ كم من الدماء البريئة سوف تراق في هذه السهوب التعيسة!

- يجب عليهم أن لا يذهبوا إلى مكان لم يدعوا إليه!

كم كان من الحقد السافر في حديث السلطان الحاكم جانتورين حتى أن جينز توقف في منتصف الجملة. إنه وهو الذي لا علاقة له بهذا الشعب يهتم بأمر الكازاخ البسطاء، ولا يرغب في السفك الأخرق للدماء. وهنا هذا الكازاخي نفسه على استعداد لإراقة بحر من دم الأبرياء، فقط من أجل أن يسحق عدوه الشخصي!.. الآن نفهم لماذا يكره الناس أغواتهم السلاطين الذين يختبئون وراء حرابنا. لا عجب أن الده - جانتورا العجوز - قد ذبحه أمام الجميع رجل كازاخي بسيط. ولا بد أن مثل هذا سيحدث مع الابن!..

وضع بيروفسكي راحة يده اليمنى على الطاولة وقال:

- لقد حاولنا منذ فترة طويلة تهدئة كينيساري دون إراقة دماء. ولكن بما أن هذه الفرصة مستعدة فإننا مصممون على استخدام القوة العسكرية فقط كفرقة مساعدة لقوات السلاطين المواليين. هل لديك القدرة على هزيمة تمرد كينيساري قاسيموف والقضاء عليه تماما؟ أومضت عيون السلطان الحاكم أحمد جانتورين من الفرح.

بدأ يثني أصابع يده اليسرى ثم قال:

- إن لدينا من القوات ما يكفي.. إذا كان لدي كينيساري الآن ثمانية آلاف فارس على جيادهم فإننا سنقوم بجمع أكثر من ذلك. - إنني وأريستين أبناء النبيل جانتوري سنقدم ثلاثة آلاف محارب. وسيقدم معنا السلطان الحاكم بيماغامبيت ألفي فارس. وسيقدم كل واحد من بكوات عشائر تورتيكار، وجاغاليلي الذين يعيشون على ضفاف نهر أوروي ولم ينضموا إلى التمرد وكذلك النبلاء جانغبييل جيباس أوغلي، وكوكور، وبيغاجان ألف رجل قوي. وإذا قدم البك الكيشاكي بالغوجا الذي يكره كينيساري ألف مقاتل فكم سيكون ذلك؟.. ونأمل بالطبع من سيادتكم أن تمدونا بكتيبة أو كتبتين من قواتكم الباسلة!.

انحنى أحمد جانتورين للأمام في كرسيه، وتفحص وجه الحاكم العسكري. ومن خلال ضباب عينيه أشرق دهاء بدائي منتصر. عبس بيروفسكي رغما عنه، ووضع يده



على الطاولة مرة أخرى وقال:

- حسنا..

- نعم، سعادتك، مع حلول الخريف سنخنقهم دون مساعدة قوات سيبيريا الحدودية!
- إنه يعرف كل شيء، ولم يخف ذلك. - إننا سنسحق العدو بقواتنا وحدها، وستتمكنون
سعادتك من إبلاغ الإمبراطور شخصيا بهذا النصر الكبير.

تحدث أحمد جانتورين بتلك الحماسة "الوطنية" التي راجت في بلاط الإمبراطور
نيكولاي مع شعار "الأرثوذكسية، والأوتوقراطية، والشعبية". ويا للسرعة التي اشتهم بها
السلطان الكسياكي الحاكم هذه الروح! في حين لا يزال الضباط الروس في أورينبورج
يشعرون بالحرج في أن يظهروا أنفسهم بمثل هذا الولاء...

قال بيروفسكي بسرعة:

- حسنا! - ليأتي في المساء السلاطين الآخرون، وحينئذ سنقرر.

حياه أحمد جانتورين، ثم التفت بشكل متقن، وخرج.

هتف الحاكم العسكري بمسحة من الإعجاب ما إن أغلق الباب وراءه:

- يا له من نذل! - إنه شخص يبيع أمه، أما نحن فنحاول أن نبني عليه رفاهية الإمبراطورية
الروسية! لا، إنني أفضل التعامل مع كينيساري!.. ولكن ما هذه السهولة التي يتعامل بها
جانتورين هذا مع شعبه. إنه يتعامل معهم كخراف في سوق!..

احتج جينز قائلًا:

- وهل نحن أفضل منهم حاليًا يا فاسيلي ألكسيفيتش؟! - أما ما يتعلق بالشعب
الكازاخي فهو شعب عظيم، ولكنه تعس للغاية.

هم جينز بالخروج، لكن دخل المعاون أحمر اللون مشرق العينين وقال بنبرة غامضة:

- هناك، سعادتك، فتاتان قيرغيزيتان على قدر كبير من الجمال لدرجة أن الحامية
بأكملها جاءت خلفهما.

سأله الجنرال بيروفسكي وقد اتخذ رغما عنه هيئةً نشيطةً ومهمةً ولف شاربه:

- ولماذا جاءتا إلى هنا؟

- تريدان أن تتقابلا مع سعادتك. وتتكلم إحداهما باللغة الروسية بطلاقة مثلنا
تماما.



تبادل بيروفسكي وجينز النظرات ثم قال:

- حسنا، أدخلهما ..

دخلت امرأتان صغيرتان وبالفعل جميلتان حتى أن الجنرالين وقفوا لا إراديا. وكانت إحداهما تغطي رأسها بساوكيلي (غطاء للرأس) مما يعني أنها تزوجت منذ فترة قريبة. لم تكن ملبسهما باهظة الثمن، ولكن كان لهما ذوق يعرف جميع الملابس غير المألوفة للعين. وكانت كل واحدة منهما ترتدي سترة بلا أكمام مخملية ذات لون خمري تناسب مقاسها تماما، ومن تحتها يري فستان ذو أهداب مزدوجة من نفس الحرير الآسيوي الذي أصبح موضوعا للحديث مع القيصر. وكانتا تنتعلان أحذية جلدية عالية الرقبة عالية الكعوب ذات لون برتقالي فاتح. وتنتمي الفتاة الثانية أيضا طبعا لقبعة الثعلب ذات الريش وحزام الفضة إلى كازاخيات ساري أركا.

- مرحبا أيها السادة!

قالت ذلك أولاهما بصوت رنان بلغة روسية لا تشوبها شائبة وبسهولة لدرجة أن الجنرالين لم يعرفا كيف يتصرفان. وعلى ما يبدو أن الأخرى لا تتحدث باللغة الروسية لذلك فقد انحنت، وضغطت بكلتا يديها على قلبها وفقا للعرف السائد في ساري أركا.

توجه جينز إلى تلك التي لاتعرف اللغة الروسية وقال باللغة الكازاخية:

- هل أنتما بصحة جيدة يا عزيزاتي؟ - من أين أنتما، وماهي أسمائكما؟ ومن أي عشيرة أنتما؟

تفاجأت المرأتان. إن الجنرال الروسي يتحدث اللغة الكازاخية مثلهم تماما. ونظرت أكبرهما سنا إلى الحاكم العسكري، وأدركت أنه لا يفهم اللغة الكازاخية، وتحدثت مرة أخرى باللغة الروسية:

- اسمي ألتينشاش، وهذه الفتاة تدعى كوميس.. نحن من قرية كينيساري.

أومضت لدى بيروفسكي فكرة حول أنه على ما يبدو لم يكن مخطئا في أصل الحرير الذي حيكت منه فساتينهما. إن هذا الحرير سوف يكلف كينيساري الكثير. ومع ذلك فإنه يناسبهما بدرجة لاتقل عن المحظية ماكيفسكايا. يقولون إنه ظهرت في هذه الأيام لدى القيصر عشيقة جديدة. وسيكون من الطريف أن نعرف ماهي أذواقها في الملابس.



سأل جينز بشعف:

- أين تعلمت التحدث باللغة الروسية بهذا القدر من الإجادة؟

قصت ألتينشاش بدقة وبالتفصيل قصة حياتها، ولم تخفي حتى قصة خيانة أوجار. وعندما علم من يكون أبوها تعجب مرة أخرى من نطقها النقي وسألها بدوره:

- ماذا تريدن أن تطلبين مني يا طفلي؟

مسحت دموعها التي انسابت رغما عنها وقالت:

- يا سيدي لقد جئت إليكم بعد أن سمعت عن عد التكم. - إنكم قد حصلتم في العام الماضي من جلالة الامبراطور على عفو عن جميع أقارب السلطان كينيساري والمقربين منه. إنني لا أجزؤ على طلب مثل هذه الرحمة السامية لإخوتي وأخواتي المنفيين إلى تورينسك. إنني أتوسل إليكم أن تساعدوني على الأقل في أن أعرف أي شيء عن حالتهم الصحية!

حول جينز وجهه غير قادر على كبح جماح الشفقة الحادة تجاه هذه المرأة النبيلة الباكيتية. وجاءت غصّة مريرة في حلقه.

سألها بيروفسكي:

- وماذا تريد هذه الفتاة التي معكم؟

قال ألتينشاش:

- إنها أيضا تناشد عد التكم! - إنني نشأت بين الروس وأعلم أن الشخص الروسي الحقيقي لا يمر أبدا بشكل غير مبال بجوار بلية شخص آخر. لقد جاءت إليكم بشكوى ضد الوحش المعتصب كونور كولدجا. إن الأغا سلطان كونور كولدجا كودايمندين الذي يرتدي زي ضابط روسي، إلي آخره، هو قاتل والدها!

لقد انفعلت، ولكنها حكّت قصة كوميس كلها بدءاً من الاغتصاب القذر الذي ارتكبه بحقها كونور كولدجا في بيت أبيها.

صاح جينز باللغة الفرنسية:

- ماهذه الهمجية!

بسط بيروفسكي ذراعيه جانبا، وقال أيضا بالفرنسية:



- قانون السهوب.

- ولكننا ألبسنا هذا الوحش زي ضابط روسي. هذه المرأة على حق!.

- أوه يا عزيزي جينز إنكم لم تذهبوا إلى بلاط الملك قط!..

لقد خرج هذا الكلام من بيروفسكي رغما عنه، ونظر بقلق إلى ألتينشاش. ويبدو أنها فهمت ما قاله.

سألها بيروفسكي:

- هل تفهمين الحديث باللغة الفرنسية؟

نظرت في عينيه، وهزت رأسها بالنفي. لم تستطع ألتينشاش أن تشرح لماذا فعلت ذلك. ربما قد شعرت بالأسف حيال هذا الرجل الخائف من كلماته بهذا الشكل. وأدركت أيضا أن الأمر برمته ليس في يده. وضغط شيء ما رهيب وثقيل على الجميع هنا حتى هؤلاء الجنرالات بكتافاتهم اللامعة. شيء سحق والدها وعمها، وقدم لها زوجها الخائن. إنها تفهم الفرنسية لأنها نشأت في منزل الجنرال السيبيري فوندرسون. وهناك كانوا يتحدثون فقط بالفرنسية حتى مع الخدم.

كان بيروفسكي لا يزال ينظر إليها بعدم ثقة، ولكن ألتينشاش أخذت في يديها بتلايب نفسها.

سأله جينز باللغة الفرنسية كأنه لم يشك في تعاطف بيروفسكي مع بليية هاتين المرأتين:

- ماذا يمكننا أن نفعل لهما؟

- يمكننا أن نعرف مصير أقارب هذه المرأة اللطيفة بإرسال إستعلام إلى السلطات المختصة. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل لكونور كولدجا؟ إنه رجل الأمير جورتشاكوف. والله وحده يعلم ما الذي يحدث عنده في سييريا، ومع الروس. ولعلكم تعلمون بشأن الشائعات التي تدور حول ذلك. وليس من الضروري أن نتكلم بشأن هؤلاء الأجانب. يجب أن نطمأنها على نحو ما، ونعدها بحل هذه القضية.

- وهل ستتاح لهما الفرصة للمقدوم إلى أورينبورج مرة أخرى.. أئن يعتقدا طوال حياتهما

أننا قد خدعناهما ببساطة؟



ابتسم بيروففسكي بحزن وقال:

- الخداع من أجل المواساة ليس بخداع. وهذا سوف يهديء أرواحهما في الوقت الحالي، ثم ستدر كان بأنفسهما أنه لم يكن بوسعنا أن نساعدهما. - وسوف يتعين عليهما أن يفكرا فينا بشكل سيء، فليتعودا على ذلك من الآن.

قال جينز بحزم:

- لا، لن أستطيع أن أوافق على ذلك فاسيلي أليكسييفيتش. - إنني ما زلت جنرالاً روسياً. إنهما جاءا إلينا يحدوهما الأمل. بأي شيء آخر نستطيع أن نخدم روسيا، إذا كان الشيء الأكثر عظمتة ليس في مقدورنا. فليعلموا في السهوب أنه ليس جميع الجنرالات الروس مثل جورتشاكوف. إنني يحدوني الأمل أن هذا الشعب الصغير النبيل لن ينسى على الأقل الشيء القليل الذي سأفعله من أجله.

- وماذا تعتزمون أن تفعلوا؟

- سأحاول في البداية من خلال إدارة الشؤون الآسيوية أن أعرف أين أقارب هذه المرأة. أما النذل كونور كولدجا فسوف أطلب بتقديمه إلى المحاكمة.

هز بيروففسكي رأسه بحزن وقال:

- هل ما زلت غير مقتنعين بالحماسة الكبيرة والسرعة لمكتبنا الروسي؟ حينما يأتي الرد سيكون لديهم الوقت ليكبروا ثلاث مرات، وسيرقدون في القبر مع أمالهم.

- لن يعودوا مرة أخرى إذا ما رجعوا إلى السهوب. وإن ما سيبدأ هناك الآن فإنكم تعلمونه كما أعلمه. دعهم يعملون في ملجأ الأيتام لخير شعبهما. وإنني من جهتي سأحاول أن أستعجل السلطات.

- فليكن الأمر كما تشاء.

ابتسم بيروففسكي رغماً عنه مدركاً فكرة جينز. فقد افتتح جينز بموارده القليلة ملجأ للأطفال الأيتام الكازاخ، وكان يبحث منذ فترة طويلة عن مربيات له يجدن اللغة الروسية واللغة الكازاخية.

التفت جينز للمراتين، وبدأ الحديث باللغة الكازاخية:

- بناء على طلبكما سيكون علينا أن نعمل استفسارات في مدن أخرى. وهذا سوف يستغرق وقتاً طويلاً. ولكن انتظارا للرد سيكون عليكما أن تسكنا في مكان ما، وتعملا شيئاً ما. لدي الكثير من الأطفال الذين فقدوا آبائهم والذين يحتاجون من يرعاهم، ويعلمهم. هل توافقان على تحمل هذه المهمة الصعبة؟



كانت السهوب كلها تعرف الجنرال الروسي الطيب الذي جمع الأطفال الكازاخ الذين فقدوا آباءهم في هذا الوقت الصعب وأعطاهم المأوى. لقد سمعت ألتينشاش حتى وهي تعيش في أومسك عن هذا الرجل. فكرت قليلا، وأومات برأسها وقالت:
- حسنا.

إنها أيضا لا تريد خداع هذا الرجل النبيل. ولكنها ابنة الباتير تايجان الذين أعدموه، وهناك بعيدا في السهوب يقاتل زوجها بيتابين، وأولئك الذين أصبحوا قربين منها. كان على ألتينشاش أن تبلغهم أنهم يتأرون ضدهم هنا. حتى رفيقتها كوميس لم تكن تعرف شيئا عن ذلك.

في نفس اليوم أخذهما الجنرال جينز إلى ملجأه للأيتام، وعرفهما على الأطفال. وكان هناك الكثير منهم ومن مختلف الأعمار. انفجرت ألتينشاش في البكاء وهي التي نشأت دون حنان الأم عندما رأت هؤلاء الأطفال، ولم تستطع أن تبعد عنهم حتى حلول الليل.

في مساء اليوم نفسه أرسل جينز جميع الرسائل اللازمة بشأن المرأتين. وبناء على تعليمات شخصية من الحاكم العسكري بيروفسكي كتب رسالة إلى كينيساري مع أمقاطع بالوقف الفوري لجميع العمليات العسكرية ضد خانية كوكاند والعودة مع جميع المواطنين إلى حدود الإمبراطورية الروسية.

تلقى كينيساري هذه الرسالة في يوم الاستيلاء على سوزاك. وعلى الرغم من الهجوم الثامن عشر فقد كان يستعد في اليوم التالي للهجوم على طشقند. إن المزاح مع روسيا أمر سيء. ولم يبق لديه الآن شيء يفعلهُ سوى عقد صلح مع خانية كوكاند والعودة إلى الحدود الروسية. واحتدم الغضب الشديد في قلب كينيساري على جنرالات أورينبورج الذين دمروا خططه بضرية واحدة من القلم.



II

لم يكن يسيركيجين شابا عنيفا أو متهورا كـ بعض أبناء البكوات في مدرسة سيميبلاتينسك الروسية. وقد أصبح خريجو المدرسة في المستقبل ضابطا، وموظفين، وأغوات سلاطين، وكانوا موالين للسلطات القيصريّة روجا وجسدا. إلا أنه تبين أن الأكثر ذكاء منهم وقدرة قد استوعبوا اللغة الروسية والثقافة، ثم تشربوا ذلك الجوهر الثوري التقدمي الذي كان يميز هذه الثقافة حتى في الأوقات الصعبة من استبداد الإمبراطور نيكولاوي. وكان يسيركيجين أيضا وحدا من هؤلاء الطلاب.

لقد كانوا يتحدثون فيما بينهم في كل شيء. وكانت كل الأحاديث تؤدي إلى شيء واحد. لقد كان يزعجهم أمية وبؤس وعجز شعبهم الذي وقع تحت سيطرة أغوات سلاطين وبكوات جهلاء وجامحين، وأوغاد من كل صنف. لقد كانوا يفكرون في المستقبل.

وتحولت أفكارهم عن غير قصد إلى الشعب الروسي. وكان من الضروري تعويض ما فات، وإحداث تغيير جذري في نمط الحياة والعادات السائدة في السهوب رغم ظلامية العصور الوسطى الإقطاعية. وقد أدركوا بالفعل أنه من أجل ذلك ينبغي تغيير طريقة الاقتصاد. لقد كان الكازاخيون يجوبون السهوب مثل أسلافهم منذ آلاف السنين. ومع أسلوب حياة الترحال لم يكن هناك مجال للتفكير في اللحاق بركب الشعوب والبلدان المتقدمة. إن تاريخ روسيا وخاصة عصر بطرس الأكبر قد فتنهم، وأوضح الكثير. وكان من الضروري التعلم من الشعب الروسي. من الشعب تحديدا وليس من رجال درك نيكولاوي وجلاديه.

تجول يسيركيجين في ضواحي سيميبلاتينسك، وتحدث مع المستوطنين من الفلاحين الروس، وسرعان ما تعرف على الروس المنفيين. وقد كانوا يتوافدون بكثرة إلى السهوب، وكانوا أشخاصا حقيقيين يدركون بلية شعبه. وقضى مع أقرانه ليالي الشتاء الطويلة في شقق بعض المنفيين، واستمعوا إلى المناقشات الساخنة التي لا تنتهي عن مستقبل روسيا، وبدأوا يدركون أنه يرتبط ارتباطا لا انفصام له مع مستقبل شعبهم. وأدركوا بالفعل أن القيصريّة لا يمكن هزيمتها بخطابات متناثرة منفصلة، وأن النصر لن يتحقق إلا في تحالف وثيق مع الشعب الروسي.



وكان يسيركيجين يستيقظ أحيانا بالليل، ويفكر في كل ما سمعه في اليوم السابق. إنه لم يخرب أحد من الغزاة على الأرض الكازاخية مثلما خرب الصينيون والخوازرزميون والبخاريون والكوكانديون والجونغاربيون. ولكن مهما خربوا فقد وجد الشعب في نفسه القوة للقيام من الدم والرماد مثل الطائر الخرافي. ومهما كانت صعوبة العقوبات والاضطهادات القيصريّة والسلطانية فقد كان يسيركيجين يري بوضوح اليد الشقيقة للشعب الروسي الذي يعاني من كوارث مماثلة بسبب الحكم الاستبدادي القيصري.

مع الشعب الروسي ضد القيصر.. وقد ولدت أخوة المضطهدين هذه في عصري رازينسكي وبوجاشيف. وفي الوقت نفسه ظهرت اتحاد القيصر الروسي مع ميرزات وسلطين السهوب الذين أصبح الاستبداد بالنسبة لهم أفضل حماية من الشعب. لا يوجد طريق آخر. وهل يفهم ذلك كينيساري أو الباتير أجيبي الذي أصبح بالنسبة ليسيركيجين رمزا لشعبه؟

تخرج في مدرسة سيميالاتينسك بامتياز، واستعد للالتحاق بالفيلق الإمبراطوري العسكري بسان بطرسبرج. ذهب يسيركيجين لقضاء الصيف كالمعتاد في قريته. ذهب هناك في عام 1841 أو عام البقرة باللغة الكازاخية..

أصبح يسيركيجين شاحبا ونحيفا إما بسبب أنه كان يفكر كثيرا في المستقبل - مستقبل وطنه ومستقبله الشخصي، وإما أنه كان متعبا بسبب دراسته وامتحاناته. رأى هذا على الفور الرجل المسن ماسان الذي كان قد تجاوز الثمانين عاما، وأدرك أن الشاب يعاني من مرض سري. ووفقا لعرف السهوب لم يبدأ الحديث مع حفيده على الفور. لكن فقط عندما استراح من الطريق، وتعافى قليلا دعاه ماسان بك للجلوس معه وقال:

- حفيدي العزيز إن الحزن البشري مثل قرون إسكندر. - عندما تخفيه ينمو بقرونه إلى الداخل ويجرح الروح بعمق. وإنك سوف تجف بسببه. وإذا كانت لديك القدرة على أن تفتح أفكارك أمام رجل عجوز فتحدث. إن يداي ضعيفة لكن عقلي لم يكسل في يوم من الأيام.

أراد يسيركيجين منذ مدة طويلة أن يصارح جده بما في نفسه، ولم يخفي عنه أي شيء.

- لقد قلت الحقيقة، يا أتا، إن الحزن يضني. إنه ليس حزني الخاص ولكن حزن جميع الكازاخ.



نظر إليه ماسان بك فترة طويلة وباهتمام قبل أن يتحدث ثم قال:

- حزن الشعب؟.. لقد لمست روحي. لقد كنت أخشى دائما الأيكون عندي وريث دون قلب كبير. فغالبا ما تظهر في العالم النفوس الصغيرة. إن الله قد أشفق علي قبل أن أموت!.. تكلم...

- لقد درست يا جدي لمدة أربع سنوات. ربما قد ولدت هكذا غير هاديء، ولكنها قد بدت لي أطول من أربع حيوات. ولو كانت الأفكار مياه لكنت قد اختنقت منذ مدة طويلة في ذلك المحيط الذي يحيط بي. إنني أريد أن أتوقف عن التفكير وأبدأ في العمل.

- هكذا. هكذا.. ولكن بأي شيء يمتليء هذا المحيط؟ أخبرني.

- إنه محيط دموع الشعب.

- حسنا، إنني أرى هذا المحيط منذ ثمانين عاما. هل وجدت شيئا يمكن أن يجففه؟

- لقد توصلت إلى أننا لن نقدر أن نفعل ذلك بأنفسنا. إن محيط الحزن الشعبي يستمر حتى خارج حدود سهوبنا. إن البسطاء من الناس دائما ما يعانون في كل مكان مهما كانت لغاتهم وأديانهم وعاداتهم. ولن نحقق أي شيء في كفاحنا ضد الملك الأبيض مالم نندفع في السهوب كظباء السيغا البرية. إن الروس مختلفون، وإنك قلت ذلك أكثر من مرة. يجب علينا أن نتعلم من الروس الذين يعرفون أكثر منا، وأن نسير مع أولئك الذين يناضلون ضد ملكهم. إنهم يتزايدون، وهم من يملكون المستقبل.

اشتعلت عيون العجوز في لحظة بنار غير طيبة والتي ما لبثت أن خمدت على الفور وقال:

- وماذا نفعل مع الجلادين؟- بالطبع إن كل صقري يعد نفسه حاكما في واديه. إن الزمن اللعين والدموي يلد أفكارا دموية. على الأرجح أنت على حق. ولكن ماذا سيقولك شعبك عندما تعرض عليه هذا؟ وهل هو دائما يأخذ بعين الاعتبار ما هو حسن أو ما هو سيء بالنسبة إليه؟ ومع ذلك فلهذه مثل شائع: "فلتجف أيادي من لا يهتم بأقربائه من الدم!" إن شعبك صغير ويندفع عبر السهوب مثل الظبي الخائف. ولكن حذار أن تصيبك لعنته.

- وهل الشعب محق دائما في لعناته؟ فهالك كينيساري على سبيل المثال. بعض الناس تلعنه، وبعضهم معه.

- نعم هذا صحيح. الحياة ليست بهذه البساطة بحيث يكون كل شيء فيها إما أبيض فقط أو أسود فقط. لقد عشتها لكنني لا أفهم أشياء كثيرة فيها.

إنني بحاجة إلى تحديد كيفية التعامل مع كينيساري. صمت يسير كيجن. - إن الصيف ينقضي بسرعة. ومع هطول أول ثلوج يجب على أن أكون في بطرسبرج.



ويسافرون إلى هناك عن طريق أورينبورج.

- هل تريد أن تذهب من هنا مباشرة إلى أورينبورج؟

- نعم. من منطقة كارا أوتكيل إلى أتباسار، ومن هناك من خلال كاراكوين كاشيرلي أذهب إلى إرجيز. وهناك قرى كينيساري، وأود أن أبقى هناك لفترة قصيرة.

- حسنا إنه ليس من الصعب أن تعرف من الطريقة التي تحيا بها المنطقة روح وأفكار حكامها. إنه عمل محفوف بالمخاطر. ومن غير المرجح أن يتركك رجال كينيساري على قيد الحياة عندما يعلمون أنك قريب الأغا سلطان جامانتاي.

قال يسيركيجن بحزم:

- ومع ذلك سأذهب.

قال ماسان بك:

- بالطبع.

لقد قرر الشاب منذ فترة طويلة السفر عبر قرى كينيساري بمجرد أن تقررت رحلته إلى سان بطرسبرج. لقد كان لديه هدف سري آخر. فقد أخبروه منذ الصيف أن عائلة التولينجوت السابق أبدوفاخت قد اتخذت جانب كينيساري.

وهناك ربما يتمكن من أن يرى كوميس. وحتى إن كانت غير مكترثة به أو تحتاج فقط إلى مساعدته فإنه لن يدخرو سعا في مساعدتها. إن الاغتصاب القذر الذي مارسه ضدها كونور كولدجا قد أقض مضجعه.

سافر ثلاثة من الفرسان جنبا إلى جنب عبر السهوب. كان أوسطهم يسيركيجن فارس أبيض اللون رشيق القد يمتطي جودا كستنائي اللون. كان يرتدي لباسا على طراز القرية: قبعة من فرو ابن عرس، ومعطف من القماش مع طوق من فرو القضاة، وحذاء جيد. وكان رفاقه يختلفون عنه في الشكل تماما: كان أحدهم شابا أصهبا نحيفا، أما الآخر فكان شاب أسمر اللون قوي البنية، وكان كل واحد منهما يرتدي معطف تشيكمني مهترئ بأكمام واسعة، وأغطية رأس من جلد الخراف المعروفة باسم تيماسكي. ومن بعيد من الممكن أن نقرر أنهما اثنين من الحرس الشخصي يرافقان فارسا من عائلة ثرية إلى مكان ما.



وعلى الرغم من ملابسهما المهترئة فقد كان رفاق السفر معروفين جدا في السهوب: كان الأصهب معروفا بأغانيه والأسمركمصارع لا يهزم. لقد اتفقوا مسبقا على أنهم عند لقاء محاربي كينيساري سيقولون أنهم ذاهبون إلى أقارب الفارس الشاب في جبال أوليتاو. وكان عليهما أن يرافقا يسيركجين إلى أورينبورج، ويعودا إلى كاركارالي في الشتاء.

مرت عدة أيام منذ أن غادروا كاركارالي. كان الكازاخ الكرماء يحبون أولئك الأشخاص الذين يتوجهون إلى مثل هذه المسافة البعيدة لزيارة أقاربهم. وبعد أن اجتازوا جبل أرجنات حيث تحول الطريق بشكل حاد إلى الغرب كان ينبغي عليهم أن يقولوا أنهم من عشيرة تاما، وأنهم ذاهبون إلى نهر إرجيز لزيارة أقاربهم. وكان من الواضح أنهم ليسوا لصوصا أو متشردين سهيين، وكان الناس يصدقونهم، وكان العجائز في القرى يقولون وهم يهزون رؤوسهم بالموافقة "إن ابن الأخ الجيد يجب أن يزور أقارب والدته مرة واحدة على الأقل في السنة!"

وبدلا من عشب الخريف المصفر قليلا بساري أركا شاهدوا في طرقهم عشب القمح باهتا حد البياض، وأعشاب تشي، وشجيرات شائكة. وتغير الطقس أيضا، وكانت زوابع الرياح الباردة تضرب وجوههم. وعلى الرغم من ذلك فقد غنى رفيقه الأصهب أغانيه البسيطة بصوت عال: وكانت أغانيه أحيانا هزلية وأحيانا حزينة تمس شغاف القلب. أما يسيركيجن فقد كان في محطات التوقف يخرج كراسته من حقيبة سفره، ويكتب فيها كل ما غناه رفيقه.

وفي كل مرة يسأله رفيقه الآخر وهو يلقي نظرة عابرة في كراسته:

- لماذا تفعل هذا؟

- لكي لا ينسى أحفادنا أغاني أجدادهم! - قال ذلك يسيركيجن وغني المغني الذي ألهمته هذه الكلمات بما أوتى من قوة:

الخلافات التافهة تدمر شعبي

وعند الحاجة إلى العقل يطلقون الرمح.

وماذا ستجلب لنا، أيها الإخوة، مشاجراتنا؟

غير الخراب والمحن؟

فكروا مرة أخرى، يا أبناء!

كفي قتل الأشقاء.



فهل نحن كثيرو العدد على الأرض؟

فمن تريد أن تخيف، أيها الكازاخي؟

دم الأخ على يديك

والعنق في حبل المشنقة.

أصبح وجه يسيركيجن أبيضاً كقماش الشارع وسأله:

- لمن هذه الأغنية؟

-- أكين ريم من عشيرة أتيجاي..

- متى ولماذا ألفها؟

- منذ حوالي ثلاث سنوات، عندما تقاطلت عشائر أتيجاي، وكاراؤول، وتوكا فيما بينهم بسبب المراعي. وهلك كثير من الناس.

توقف يسيركيجن عن طرح الأسئلة، وعن كتابة هذه الأغنية. فلقد كانت الأغنية ترن بالفعل في أذنيه. ولكن من هو أكين ريم هذا؟ فلم يسمع أحد عنه شيئاً في السهوب. على ما يبدو أنه ليس من أولئك الذين يؤلفون قصائد الثناء للبكوات والسلاطين ويعيش على صدقاتهم. فهناك الكثير من هؤلاء الناس الذين يسافرون إلى القرى من حفل زفاف إلى آخر. إنه لأمر جيد أن يوجد بالفعل بين الكازاخ أشخاص يدركون العواقب الوخيمة للصراع الداخلي.

وهاهو أيضاً هذا الرجل بعني: "والعنق في حبل المشنقة". سيكون من الصعب أن يشرح للشعب أن خلاصنا سيكون تحديداً في الاتحاد مع الشعب الروسي المتقدم. ومع ذلك فإنه سوف يفهم هذا عاجلاً أم آجلاً.. واننا سوف نمزق معا حبل المشنقة القيصري من عنقنا!

قطع المصارع حبل أفكاره عندما قال:

- ها نحن قد وصلنا إلى قرية. - إننا سنقضي ليلتنا اليوم هاهنا.

كانت القرية تقع على شاطئ البحيرة السهبية، وكان يوجد بها حوالي ثلاثين منزل يورت. إنهم أحد فروع عشيرة تابين الذين يتجولون من هنا إلى شواطئ أتيراو كما يسمى الكازاخ بحر قزوين. وفي هذا العام لم يستطيعوا الترحال، وقضوا الصيف في وادي كزِيل دينجيك على حدود الجزء الأصغر والأوسط.

سأل يسيركيجن الرجل العجوز ذي اللحية التي تشبه المجرفة صاحب يورت الذي حلوا

به:



- لماذا لم ترحلوا في الوقت المناسب؟

- عندما تجولنا هناك في الصيف الماضي سلب جنود خان خوارزم منا نصف ماشيتنا. وبحلول فصل الشتاء اختطف جنود خان كوكاند النصف الآخر. ولم يبق لدينا شيء تقريبا نتجول معه.

أحنى الرجل العجوز رأسه خجلا أنه لا يملك شيئا يضيف به زواره غير حليب مائي حامض وهو العيران والإريمشيك. إذ لا تملك هذه الأسرة غير بقرة واحدة عجفاء وثلاث عنزات.

قال الرجل العجوز بصوت خافت:

- من الواضح أنكم قد جئتم من بعيد. ويتحتم علينا أن نذبح خروفا من أجلكم.

سقطت الدموع من عيون يسيركيجين وقال:

- لا تقلق علينا أيها الشيخ. إننا ممتنون جدا لكم على ضيافتكم المقدسة!

تنهد الرجل العجوز وقال:

- لا بد أن نفعل ذلك ولن تلحقنا ولو كنت تمتطي صهوة أسرع حصان.. - لن يكون من السهل على قريتنا أن تنهض من جديد بعد كل هذه الكوارث الكثيرة. والمضروب دائما ما يبدو مرهقا. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل، يجب علينا أن نتحمل ضربات القدر. ومن أعطاه الله الروح فلن يتغلى عنه الله أبدا برحمته.

وفي الفجر عندما عزموا على الرحيل، اعتذر لهم الرجل العجوز مرة أخرى على الوجبة الهزيلة وقال لهم:

- لا تلومنا، يا أبنائي. فلقد أدركتنا هذه الأوقات. إذا ذهبتم بسرعة فسوف تصلون إلى قرية ألتاي في موعد الغداء. إنهم أغنى قليلا منا.

وعندما غادروا القرية، اقتنعوا مرة أخرى كم هي فقيرة. لقد كان بالقرية كلها من الكائنات الحية حوالي اثني عشرة بقرة عجاف، وجمل واحد رث لم يأخذه من هؤلاء الناس فقط لكبر سنه، وبعض الماعز. حتى لدى الكلاب الراقدة بصمت أما المنازل سقط الشعر من سوء التغذية، وكانت ذيولها مضغوطة.

وحدها القوة الروسية من تستطيع الآن حماية شعبه من الانقراض الكامل. إن الخوارزميين والكوكاندين غالبا ما يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم. لكن عندما يرمي الإمبراطور الصيني شبكته فلن يخرج منها حيا سوى عدد قليل. فقد ذبح في عام ألف وسبعمائة وستة وخمسين أكثر من مليون من التورغوت الذين سكنوا السهوب بين



أرال وإرتيش الأسود. وهل يمكن أن نشق في أن مثل هذا العام لن يأتي للكازاخيين؟ وهل سيشفق أباطرة الصين الذين يكون لنا منذ زمن سحيق كراهية شديدة على شعبنا العزيز؟ لن يكون عندهم أي تردد أو رحمة. وهنا أيضا تكون مساعدة روسيا مهمة. فالإمبراطور الصيني لا يخاف من أحد أخر سوى الروس. وربما لاتزال كوكاند، وخوارزم، وبخارة باقين إلى الآن بسبب مجاورتهم لروسيا. هذا هو منطق التاريخ الذي علمه إياه الرجل الديسمبري المنفي في مدرسة سيميالاتينسك.

ارتفعت الشمس فوق الأفق. ولم يري أي شيء حي في السهوب الصحراوية التي لا نهاية لها. وبحلول الظهيرة هب النسيم، واشتموا فجأة رائحة كريهة.
قال المصارع وهو يستنشق:

- ماذا يعني ذلك؟.. هل هناك شخص ما يذبح الماشية؟ إن هذه الرائحة تشبه رائحة الدم. كانت هناك تل في الأمام. صعد يسيركيجين عليه بعد أن ألهب حصانه بالسوط، وتوقف الحصان من تلقاء نفسه وهو يرتجف ثم جثم على رجليه الخلفيتين.

كانت القرية الكبيرة أمامه. وبالأحرى لم تكن قرية ولكن ما تبقى منها. وقد بثت الرعب هياكل المنازل المتفحمة والتي كان لا يزال ينبعث الدخان منها. وكانت القباب الخشبية المعروفة باسم شانراكي في معظمها ملقاة على الأرض. وكانت جثث الناس ملقاة في كل مكان، وكانت النساء يبكين ويصرخن. وكان الملا بعمامة البيضاء يصلي على الموتى في وسط القرية. وكان بعض الناس يحفرون القبور تحت التل مباشرة. لقد كانوا شيوخا ومراهقين، ولم يكن هناك رجال أو نساء.

مع صرخة الحزن التقليدية هرع يسيركيجين إلى القرية المدمرة وقال:

- أه يا أقرائي!.. وبعد أن سمع مرافقه صرخته الحزينة ركضا خلفه على جيادهم.

وقد مكثوا في هذه القرية يوما وليلة يساعدون في دفن القتلى، ويطمئنون الأيتام الباقين بكل ما أتوا من قوة. وقد حلت هذه الكارثة فجأة عندما كانوا لا يزالون نائمين. وأيقظت طلقات البنادق الناس في منتصف الليل، فاندفعوا بين منازل اليورت غير قادرين على فعل أي شيء.

وقد قص الشيخ كاريباي على يسيركيجين كيف حدث ذلك. لقد جاءت إلى هنا قرية عشيرة ألتاي من ساري أركامع كينيساري. لقد كانوا يعيشون قبل ذلك عند مصب نهر جايبا - حيث هناك يصب في نهري سيل. ولكن عندما بدأوا يبنون على أراضيهم بلدة أتباسار لم يكن لديهم خيار سوى المغادرة.



وعلى الرغم من أنهم غادروا مع كينيساري إلا أنهم لم يقدموا له دعماً عسكرياً، وودعوا فقط الرسوم المقررة عليهم، وقدموا اللحوم والأعلاف. و فقط في ربيع هذا العام انضمت مجموعة صغيرة من فرسانهم إلى فرقته. وقد وشت بهم بعض العشائر المعادية لهم، وقالوا أنهم حلفاء أقوياء لكينيساري. فدفع السلاطين الحكام التابعين لجورنشاكوف بأكثر حراسهم التولينجوت قاطعي للرؤوس خبرة، وأرسل قائد قلعة أورسك مفرزة من القوزاق الحدوديين لمساعدتهم. واستعرت النار طوال الليل، وتم اغتصاب النساء، وارتكبت جرائم القتل والنهب.

وفي الصباح غادر الجلادون بعد أن أخذوا معهم الشبان والشابات. والآن ذهب إلى كينيساري رسول من القرية لكن كينيساري الآن بعيد، ومن غير المرجح أن يرسل أحداً لمطاردتهم.

قررروا التحول إلى الشمال والسفر إلى أورينبورج والابتعاد عن قرى كينيساري. وعندما وجد يسيركيجين نفسه مرة أخرى في السرح سقط إلى تفكير عميق. كما صمت الرفقاء أيضاً حتى الرفيق الأصهب قد ترك أغانيه. ومن أي شيء كان يمكن أن يفرحوا بعد كل ما رأوه؟..

تهد يسيركيجين بعمق. ربما هو لا يفهم شيئاً، وأن لدى الجنود الروس البسطاء نفس الأهداف التي لدى الإمبراطور نيكولاي؟ لا، لقد رأى الكثير من الأشخاص الروس الطيبين لكي يصدق ذلك. أما نيكولاي فيسميه الجنود البسطاء "بالكين". لقد سمع ذلك بنفسه!.. ورأي أيضاً أعين الشعب الروسي عندما كانوا يضربون بالعصي حتى الموت في ساحة العرض بناء على أوامر من جورنشاكوف أحد الجنود الروس الذي أطلق سراح متمرّد كازاخي مسجون.

حتى أصابع اليد لدي الإنسان غير متشابهة. وهل يمكننا أن نعد جميع الروس متشابهين؟ إن هناك فرعين من نفس الجد أبلاي لكنهم أعداء دمويين.. ولكن لماذا لا يفهم هذا كينيساري؟ أم أنه مثل نمر جريح يريد أن يموت في المعركة؟..

إن الانضمام سوف يجلب ثماراً كبيرة في المستقبل!.. ورغم كل شيء فإنه سوف يناضل من أجل ذلك.

الآن فقط لاحظ يسيركيجين الذي كانت تمزقه الشكوك أن الشمس بدأت في الغروب. وتطلع حوالبه. إنها نفس السهوب الميتة المنبسطة حوالبه، وهبت رياح باردة



فضغطت العشب الذابل على الأرض.

أشار المصارع بسوطه إلى الجانب وقال:

- في مكان ما هنا لابد وأن توجد قرية!. لقد تعبت الخيول.

قال يسيركجين بهدوء:

- ليس الخيول فقط... إن روحي تؤلني.

وللمرة الأولى منذ أن تركوا القرية المدمرة أجاب على زملائه المسافرين.

تحولوا إلى اليسار، وتوجهوا إلى سلسلة تلال منخفضة. وبعد أن ساروا قليلاً رأوا المنازل القاصية لقرية ما. وكان مظهرها أيضاً غير عادي. ويبدو أنها لم تكن قد وصلت لتوها إلى هنا أو أنها ترمع الرجيل الآن. وقد انطلقت الكلاب حول الإبل المحملة بالأثقال. وفي ثلاثة منازل يورت بيضاء مفككة والتي علققت بجوارها على أعمدة ذيول خيول شدت السقوف المتقاطعة بقماش سجادة أسود كعلامة على الحداد.

قال المصارع بحزن:

- لقد حلت بهذه القرية مصيبة. - دعونا نبتعد عنها.

هتف يسيركجين وحفز حصانه:

- إلى أين ستهرب من مصائب شعبك!.

انفصل عدة أشخاص عن مجموعة فرسان مسلحين على حافة القرية، وانطلقوا نحوهم.

- من أنتم ومن أين أتيتم؟ صاح فيهم محارب ذو شارب أسود بصوت عال غير عابيء بتحياتهم. وكان حصانه الرمادي يتلوى تحته، ويرقص.

- إننا منكم. أجاب يسيركجين ولاحظ فجأة شريط القماش الأزرق الخاص بكينيساري على صدر الرجل ذو الشارب الأسود.

- ماذا تعني بمنكم؟.. أتريد أن تقول أننا من نفس الأب والأم؟ قل بسرعة من أنت إذا كنت لا تريد أن تجرب السياط.

تحدث يسيركجين بكرامة هادئة:

- لا جواب بدون تحية.. لماذا تهاجموننا حتى دون أن تلقوا علينا التحية؟.. نحن انطلقنا من ساري أركا، ونتوجه إلى إلى ضفاف إرجيز لزيارة أقارب والدتي من عشيرة تابين.

- ومن أي جزء في ساري أركا؟



- من منطقة كاركارالي.

- إذن أنتم من كاراكسيك أليس كذلك؟

- نعم..

- إذن هل أنتم من كاراكسيك حيث لم يبق في عروق الناس هناك دم حقيقي ولم يبق في القبيلة رجال حقيقيون.

- استشاط يسيركيجن غضبا من هذه الإهانة، لكنه سيطر على نفسه، وروض غضبه ثم ابتسم وقال:

- هذا يعني أنه يوجد بين الكازاخ أناس لم يسمعوا عن كازبيك ذو الفم الذهبي!

اشتعلت عيون المحارب ذو الشارب الأسود غضبا مسعورا وقال:

- إن كاراكسيك يتميزون دائما بحدة اللسان. هل أنت من أحفاد كازبك بيك؟

- لقد خمنت بطريقتهم صحيحة!

- إن سمكة الشبوط الزلقة قد سقطت في أيدينا. والآن اتبعونا!..

الآن فقط أدرك يسيسركسجين أن غضب رجال كينيساري على الأغا سلطان جامانتاي يمكن أن يقع عليه. لكنه لم يجادل، وذهب خلف الرجل ذو الشارب الأسود. ورافقهم اثنا عشر فارسا يحملون الحراب والهروات على أهبة الاستعداد إلى منتصف القرية. لكن عند دخولهم سمعوا بكاء من اليورتا البيضاء القاصية. وكان من عادة الكازاخ منذ العصور القديمة عند سماع ذلك أن يدخلوا بيت الميت ويصلوا عليه. ترجل يسيركيجين عن جواده، ولم يمنعه رجال كينيساري.

عندما دخل اليورتا رأي أول مارأي أناس يرتدون قبعات فراء ممزقة ومعاطف تشيكميني رثة، وكانوا يبكون وينتحبون بطرق مختلفة. وعلى الجانب الأيسر من اليورتا كان يرقد شاب أقرن الأنف، وزغب لا يكاد يرى بدلا من الشارب. لقد كان أشبه بالنائم منه إلى رجل ميت. وعند رأسه جلست امرأة صغيرة ذابلة ذات شعر رمادي مفكوك. لقد خدشت بأظفارها خديها الهزلين حتى انبجس منهما الدم، وصرخت قائلة:

لتكن ملعونا يا كيني ثلاث مرات.

ولتفنى عائلتك أيها الشيطان.

ماذا تفعل بانسة مثلي

دون ضوء عينيها..



بجانبيها جلست امرأة شابة جميلة ربما كانت زوجة القتل أو شقيقته. وكانت عيونها السوداء الكبيرة تحدد بلا حياة في جدار اليورت. وبعد أن صلى يسيركيجين على الميت غادر اليورتا.

اقتادوهم إلى منزل يورت آخر كبير في وسط القرية. وقد ربط الحصان الأبيض عريض الصدر الذي كان يوازي جملاً جيداً في الحجم بالحبل الذي كان مشدوداً حول المنزل. وفي المنزل مقابل الباب كان هناك رجل طويل القامة جداً يجلس متكأً. وما إن رأى الداخلين حتى رفع رأسه عن الوسادة. وكان هذا الرجل الغريب الأسود يشبه صخرة ضخمة مربعة. قال المحارب ذو الشارب الأسود:

- لقد قبضنا يا أجيباي أغا على هؤلاء عند حافة القرية. واتضح أنهم من قرية جامانتاي. ويقولون أنهم كانوا في طريقهم لزيارة أقارب أمه والتي كما يقولون تعيش في إرجيز. نظر الرجل الصخرة بفضول إلى يسيركيجين. فوجئ يسيركيجين لدى سماعه اسم الباتير أجيباي أحد أهم رفقاء كينيساري. إن هذه القرية لا تتعاطف معه كثيراً. ومع ذلك لم يعد يسأل عن شيء، ولكنه فقط انحنى انحناءً عظيماً لهذا الشخص المجيد وقال:

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام يا بني، ونظر أجيباي في عيون يسيركيجين بامعان وقال: وماهي علاقتك باللص الوغد جامانتاي؟

أشرقت في نظرة الباتير بالرغم من صرامته طيبة بريئة كان من المستحيل معها أن يخدعه.

- إنني حفيد ماسان بك، وهذان الشابان الطيبان يرافقاني في السفر.

- إنك ولدت تحت نجم سعيد. إنك لست قريباً جداً لجامانتاي. والرجل المسن ماسان ليس برجل سيء. كيف حاله في حضن الملك الأبيض؟

- مازال جدي على قيد الحياة وبصحة جيدة..

تنهد أجيباي بصعوبة وقال:

- نعم هذا ما ينبغي أن يكون.. إن الحياة على أي حال أفضل لمن لم يبرحوا ديارهم أما نحن فنتجول في جميع أنحاء الأرض مثل الذئاب القلقة..

- ربما لم يكن عليكم أن تتركوا وطنكم.

تلاقى حاجبا أجيباي بطريقة مهددة على جسر أنفه وقال:



- هل تريدني أن أصبح خادما يلحق أطباق الآخرين كما يفعل جامانتاي؟ يجب على حفيد الحكيم ماسان أن يكون أكثر ذكاء. لا يجب عليك أن تخدش المكان الذي أحك فيه. إلى أين أنتم ذاهبون؟..

لم يجرؤ يسيركيجن أن يقول الحقيقة كاملة، وكرر قصة ذهابه إلى أقارب أمه.
قال الباتير:

- إذن فأنت ذاهب إلى أحفاد بوكي. - حسنا إنه ليس خطأك أن جدك كانا خاطبا للنسل السلطاني. أفضل من ذلك قل لي هل عرجت على قرية شيخ كاريباي..

- نعم لقد عرجت على هذه القرية.

- إذا كنت قد عرجت فقد رأيت ما فعلوا هناك؟

- نعم رأيت.

إن هذا عمل أيادي أناس من أمثال قريبك جامانتاي! إنهم قد خصصوا لذلك العمل الأسود أكثر ما لديهم من العبيد التولينجوت وحشية. وقد استدعى الجلادين بعض من شيوخ هذه القرية.

يبدو أن الباتير أجيباي كان يبرر لنفسه ما يفعله. وسرعان ما أدرك يسيركيجن حقيقة الأمر. فعندما انتقل الجنود إلى قرية كاريباي عبر القرية التي هم فيها الآن لم يرسل أحد من هنا أي رسول إلى كينيساري. وكان كينيساري قد طلب منهم بشدة قبل ذلك أن يبلغوه علي الفور بجميع تحركات الجنود وفصائل التولينجوت التابعين للحكام السلاطين. علاوة على ذلك خدع أهل هذه القرية الخائفين من التولينجوت العابرين التابعين للأغوات السلاطين كينيساري نفسه عندما قالوا أنهم لم يروا أحدا. وعندما علم كينيساري الغاضب بذلك هجم على هذه القرية على رأس خمسمائة مقاتل، وأمر بربط ثمانية شيوخ من هذه القرية في ذيول الجياد. وقد جروهم على طول الطريق حتى أسلموا أرواحهم. وقد حاول الشاب الذي كانوا يبكون عليه الآن أن يتشفع لكبار السن لكنهم داسوه بالخيل. واقتاد كينيساري خمسين رجلا وثلاثين فتاة كرهائن، وأمر أجيباي ومقاتليه بأن ينقلوا القرية إلى الأراضي الخاضعة لسيطرته.

ومرة أخرى انكمش قلب يسيركيجن من التعاطف مع هؤلاء الناس البؤساء. فأنهم إن أطاعوا جانباً يعاقبهم الجانب الآخر وينتقم منهم. وإذا خضعوا لكينيساري سوف يدوسهم الجنود وتولينجوت الأغوات السلاطين. إن من يقوم بالقتل ليست خوارزم، أو بخاري، أو



كوكاند أو القوات القيصرية، وإنما مواطنينا هم من يبيدون بعضهم البعض. وماذا يمكن أن يكون أكثر ألماً للشعب من هذا؟

قال يسيركيجين بصوت مرتجف:

- ربما كان الشيوخ الذين أعدموا بقسوة مذنبون أنهم لم يبلغوا عن الجلادين.. لكنهم فعلوا ذلك خشية الانتقام من جانب السلطات. ولكن ما ذنب بقية الناس؟

خفض الباتير أجيباي عينيه وقال:

- إن سلطاننا كينيكي لا يفكر هكذا. إنه لا يريد أن يصدق أن القرية بأكملها ليس بها رجل حقيقي واحد كان يستطيع أن يخبره بشأن الجلادين. لذلك فهو يرى أن القرية بأكملها صغارا وكبارا أعداء له. وعلاوة على ذلك فقد أراد أن لا يتعود الآخرين على ذلك. هكذا دائما ما يفعلون في السهوب.

صاح يسيركيجين:

- ولكن بهذه الطريقة من الممكن إبادة الشعب كله بشكل سريع.

- يجب إبادة الأعداء سواء كانوا من الكازاخيين أو من غيرهم.

شعريسيركيجين بعدم اليقين في كلمات الباتير فسأله بفارغ الصبر:

- وما رأيكم أنتم؟-

- إنني لم أرفع سوطي على رجل فقير أو بسيط. ولكن بعض البكوات وبعضا من التوريين أيضا يتذكرون مذاقها.

- لكن كينيساري أيضا من التوريين!

قال أجيباي: - إنه ليس توريا كالآخرين.. كينيساري.. لا! لا!

بدا الباتير وكأنه يجادل نفسه.

لقد بدأ هذا الأمر منذ فترة طويلة. كان الباتير أجيباي والباتير بيتابين يرفضان قساوة كينيساري التي لا معنى لها. وكان كينيساري يعلم ذلك فيوكل إليهما خصيصا القيام بغارات عقابية. كان أجيباي يلتزم الصمت أما بيتابين الشاب الساخن فكان يتكلم بصوت عال. كان أجيباي يعرف طابع كينيساري لذلك كان قلقا على مصير الباتير الشاب.

قال أجيباي بحزن ليسيركيجين الذي ينتظر الجواب على سؤاله:

- يا بني إنك تسألني سؤالا صعبا..

دوى صوت شخص ما من المنزل شبه المظلم:



- إن الصبي تكلم بشكل صحيح! لقد أصبحنا في منتهى القسوة مع الناس في الآونة الأخيرة. نقول أن كل هذا من أجل سعادتهم، بينما نسفك دمائهم. من تخدع بهذه السعادة؟..

استدار يسيركيجين بخفة، ورأى فارسا نحيفا أزرق العينين. وعلى الرغم من ملابسه الكازاخية فقد كان من الواضح أنه لم يكن كازاخيا. لقد كان يوسف جيربروت.

سأله يسيركيجين باللغة الروسية:

- هل حضرتك روسي؟.. لقد سمع أنه يوجد بين مقاتلي كينيساري بعض الروس الهارين.

ابتسم يوسف جيربروت وقال:

- على أية حال إنني قريب الروس. - إنني بولندي.

- كيف جئتم إلى الكازاخ؟

- اذا حكمنا من خلال لهجتكم الروسية النقية فإنكم تفهمون بسهولة كيف جئت إلى السهوب الكازاخية. لقد جئت إلى كينيساري للنضال من أجل نفس المثل التي يوجد مثلها في وطني. والآن يبدو لي أن الحقيقة والشراسة لا تتفقان.

صرخ يسيركيجين بحماس:

- وأنا أيضا أعتقد ذلك.

- دعونا نأمل أنه مع مرور الوقت سيبدأ المزيد من الناس في التوصل إلى هذا الاستنتاج.

استمع الباتير أجبياي إلى الطريقة التي تكلم بها يسيركيجين باللغة الروسية فانغلق الشك في روحه. ولكن بعد أن تذكر أعمال كينيساري الانتقامية، أطلق سراح الفتى.

غير أن يسيركيجين لم يرحل على الفور. لقد تحدث طويلا مع يوسف جيربروت وهو خارج إلى ضواحي القرية.

وبعد أن سمع يوسف جيربروت حديث يسيركيجين عما رأي في الطريق وعن الشكوك التي ظهرت لديه قال بحزم:

- ليس لدي الكازاخ الآن طريق آخر. إنهم أصبحوا جزءا من روسيا، وليس لديهم طريق آخر لمحاربة القيصرية سوى أن يكونوا بجانب الروس. لقد أجبت لنفسك بشكل صحيح على هذا السؤال الأكثر صعوبة.

سأله يسيركيجين فجأة:



- هل تحدثتم مع كينيساري عن ذلك؟

قال يوسف جيربروت بهدوء:

- نعم. - لقد بدأت أفهمه بشكل أقل. وأخشى أن يحدث نفس الشيء مع الشعب.

مضى يسير كيجين في طريقه، وتوجه مباشرة إلى أورينبورج. وطوال الطريق لم تخرج من رأسه صورة القرى المنهوبة والفقيرة، ولم يغادر البكاء واللعنات أذنيه. ولم يعد يهم ممن يبكي الناس - من الخوارزمين أم الكوكانديين أم من جلادي القيصر أم من محاربي كينيساري.

في أورينبورج علم بالصدفة من أحد الرجال أن كوميس تعيش هنا في منزل الجنرال جينز.

قال الرجل:

- إنه جنرال غريب الأطوار. - إن جنوده يشعلون القرى، أما هو فيجمع الأطفال اليتامى ويطعمهم، ويعلمهم القراءة والكتابة. إن هؤلاء الروس أناس هزليون!.. أما كوميس بالنسبة لهؤلاء الأطفال فهي كمربية أو أم.

كان هذا الرجل من رجال تيماس الذي حافظ على اتصال سري مع أتينشاش. وأشار إلى الطريق إلى بيت جينز.

لم تكن كوميس في المنزل. لقد أخذت الأطفال مع أتينشاش للنزهة خارج المدينة. ولكن في الممر رأي صاحب المنزل جينز يسير كيجين، وأصبح يهتم به بعد أن علم أنه سيسافر للدراسة في بطرسبرج. وقال له ويمسح على رأسه:

- تعلم أيها الفتى. - إن شعبك لا يحتاج إلى أي شيء الآن قدر حاجته إلى المتعلمين. وعد سريعاً لأننا نحتاجك هنا مثل الهواء للتنفس!..

شعريسير كيجين فجأة بثقة غير عادية تجاه ذي العيون الطيبة والذكية. فقص عليه بأنفاس متقطعة كل ما رآه في الطريق إلى هنا.

هتف قائلاً:



- من يدري هل سيجعلونني في سان بطرسبرج كالضابط القاسي الجلاد النقيب
ليبيديف أو كسلطينا العقداء والرواد؟

استمع الجنرال جينز إليه بوجه مستنير وقال بثقة راسخة:

- لا، أيها الفتى إنهم لن يستطيعوا أن يجعلوك ذاك الشخص! - إن في سانت بطرسبورج
لا توجد ثكنات عسكرية فقط. سوف تجد هناك بين الناس التقدميين روسيا الحقيقية،
وستشعر على الفور أن شعبك ليس وحده من يحتاجك بل هي أيضا ستكون في حاجة
إليك!..

كان جينز يتكلم بطريقة احتفالية، لكنه سمع في حديثه قناعة راسخة لدرجة
كان من المستحيل معها الأي صدقه. وتحدثا لفترة طويلة عن التاريخ. وأدرك يسيركيجين
أنه لو فكر جميع الجنرالات الروس مثل ما يفكر بعض الجنرالات الجلادين مثل
جورتشاكوف ما بقي في السهوب منذ أمد طويل "أجنبي" واحد. لكن الغالبية العظمى من
الشعب الروسي تقاوم الاستبداد قدر الإمكان، وعاجلا أم آجلا سيندحر التعسف والخروج
على القانون. نعم سوف تراق كثير من الدماء في السهوب. ولكن يجب علينا أن نسعى
لتقلل من إراقتها قدر الإمكان.

فجأة تحول الجنرال جينز إلى اللغة الكازاخية، وفرح بذلك يسيركيجين.

قال الجنرال:

- يوجد في السهوب مثل جيد. يقول هذا المثل "لا ترم معاطف الفراء في النار إذا غضبت
من القمل"! لذلك يجب على الكازاخيين أن لا يجعلوا المسؤولين التافهين القساة غير
الأذكياء والشعب الروسي في سلة واحدة.

قطع حديثهما مع عودة ألتينشاش وكوميس مع الأطفال. عندما رأى يسيركيجين
كوميس لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة بسبب بعض الإثارة غير العادية. أما هي
فكانت سعيدة جدا بقدمه حتى أنها احتضنته بقوة من عنقه ولسبب ما بدأت في
البكاء.

لم يستطعا أن يتكلما عن الشيء المهم الذي كان يشعران به. وفي صباح اليوم
التالي ذهب إلى سان بطرسبرج.



III

في عام 1841 م أو في عام البقرة، في اليوم السابع من شهر سبتمبر تجمع قادة الأجزاء الثلاثة عند قبر أباش. وبعد أن لفوا كينيساري في السجادة البيضاء رفعوه فوق الناس وأعلنوه خانا لجميع الكازاخ.

أدرك يوسف جيربروت الذي كان في هذا الوقت في تورجاي أنه من الآن فصاعداً ستبدأ مرحلة جديدة في الحركة. لقد حقق كينيساري هدفه الشخصي، وينبغي على الناس من الآن فصاعداً أن يناضلوا من أجل الخان كينيساري وليس من أجل الحرية، ولكن بعد أن تلقى السلطة المكرسة من قبل التقاليد القديمة فإنه سوف يستخدمها كما يشاء وبالقسوة المتأصلة فيه. أي أنه ستحل مرحلة الاستبداد العادي التي تصل إليها بشكل حتمي جميع هذه الحركات. وهل مثل هذا يحدث في السهوب الكازاخية فقط!

” كينيساري!.. كينيساري!..“ أصبحت هذه الصيحة تدوي على نحو متزايد في المعركة وفي الاحتفالات، وتحل محل جميع النداءات الأخرى. وقريباً، قريباً جداً ستبقى هي فقط، وسيدأ الناس في الابتعاد عن الخان. وسيصبح المزيد والمزيد من الناس غير راضين، وسيتمتعين على كينيساري أراد ذلك أم لم يرد أن يزيد في الإرهاب. وبسبب ذلك لن تبقى له قضية. وسيولد الإرهاب بدوره ساخطين جدد. وسوف تغرق هذه الحركة في الدم الذي أطلقته هي نفسها..

إن العرش الخاني أو الإمبراطوري أو أي عرش آخر يصبح على الفور مكاناً يتوقف الناس منه عن رؤية الأشياء في شكلها الحقيقي. لكن يوجد في بطانة كينيساري أشخاص أذكىء. تايماس أو سيداك خودجا. فلربما يتحدث معهم؟

لقد عاش يوسف جيربروت مدة عشر سنوات بين الكازاخ، وأصبحوا له كالأقرباء. وقد لاحظ في بعض الأحيان أنه يفكر حتى على الطريقة الكازاخية. وقد فهم الآن عدم جدوى الحرب القادمة، وعرف التطلعات الدموية لكينيساري لكنه لم يستطع أن يترك معسكره ببساطة.

ولكن فيما يخص قراره بالتحدث مع مستشاري كينيساري لم يأخذ يوسف جيربروت في اعتباره العلاقات التي تشكلت في السهوب على مر القرون. والحقيقة هي أن



كينيساري، كما حدث كثيرا في تاريخ الكازاخ تمكن من حشد العديد من المحاربين القبليين المشهورين وأقاربه التوريين حوله. لقد اعتمدوا عليه ووكانوا أوفياء له حتى آخر قطرة من دمائهم. ولم تكمن قوته فيهم أنفسهم، ولكن في أن وراء كل باتير أو توري أيضا كانت تسير بتفان قرية كبيرة أو عشيرة بأكملها. إن الكازاخيين المربوطين من أيديهم وأرجلهم بالقوانين غير المكتوبة للنظام القبلي لا يعرفون ببساطة أية علاقات أخرى...

ومما زاد في هذه المأساة أن الكازاخ لم يعرفوا أشكالا أخرى للدولة، ولم يكن لديهم حتى أي تصورات عنها. وكانوا كثيرا ما يتقبلون قوة الخانات كرمز لدولتهم وسلامتها الإقليمية والقانونية. لكنهم لم يفهموا بعد أن حركة كينيساري تحولت بسرعة إلى صراع دموي عادي على العرش الخاني بين عدة مجموعات إقطاعية كبيرة. وكان كينيساري الذي تمكن من استغلال حركة وطنية قوية أكثر ذكاء وأبعد نظرا من الآخرين.

نعم، بالطبع إنه كان رجلا غير عادي، وفهم يوسف جيربروت مأساته الشخصية. وفي المنعطفات العادية من التاريخ عادة ما تظهر هذه الشخصيات. لكن كينيساري الآن كان يجرح حلفه شعبا كاملا إلى الهاوية. ولا بد أن تراق على هذه الأرض التعسة أنهار جديدة من الدماء والدموع!

لم يتمكن يوسف جيربروت من التحدث مع تايماس، أو أبيلغازي أو سيداك خوجا. كان عليه أن يجتمع مع كينيساري نفسه مرة أخرى.

بعد أن عاد كينيساري بناء على أوامر بيروفسكي في خريف العام الماضي من حملة كوكاند حل جيشه وسمح لقواته بأن يقضوا فصل الشتاء في ديارهم.. وقضى هو فصل الشتاء مع عدد قليل من قري التولينجوت في الروافد العليا من تورجاي. وطوال فصل الشتاء الطويل لم يتعامل ولو لمرة واحدة مع بيروفسكي أو جينز والذي اعتبرهم حائثين بالعهد. فقط سافر بيتابين فقط خلال هذا الوقت إلى أورينبورج لرؤية ألتينشاش.

جلب بيتابين أخبارا غير سارة حول إقالة بيروفسكي، وتعيين أوبروتشيف حاكما عسكريا. كان بيروفسكي في رأي الامبراطور شديد الليبرالية في علاقته مع لأجانب. وكانت تنتظر الجنرال جينز أيضا مشاكل كبيرة والتي بدأت السلطات تحقيقا بشأنه.



وشعر كينيساري على الفور بما يتهدده. وقام فوراً بإرسال الرسل إلى جميع قرابه حتى تتجمع قواته قبل موعدها المعتاد دون انتظار ذوبان الثلوج عند قبر الأَش في كارا كنغير. لقد علم من تقرير ألتينشاش الذي نقله بسرعة رجل مخلص أن الجنرال أوبروشيف لا يثق في ولاء كينيساري. وهذا يعني أن جورتشاكوف الذي كان مقيداً إلى الآن باتفاق بيروفسكي مع كينيساري من المرجح أن يبدأ عملياته قريباً إذ أن يديه الآن غير مقيدة.

في شهر كوكيك - أبريل 1842 - عام النمر - ذهب كينيساري مع العديد من المحاربين الأبطال للصيد في جبال أكساكال تيوبي بالقرب من المخيم الشتوي لزوجته الصغرى. استغل الكابتن سوتنيكوف غيابه، وهجم تنفيذاً لأمر الحاكم العام في سييريا على قرية أجداده وأخذ معه زوجته كينيساري الأكبر سناً كونيمجان وطفلين صغيرين وبعض أقارب الخان. وبالإضافة إلى ذلك سرق كل الماشية.

وعندما عاد كينيساري إلى قريته بدأ بالبحث عن سبل لإطلاق سراح كونيمجان والأطفال. ولكن في ذلك الوقت هاجم سوتنيكوف على رأس القوزاق وتولينجوت الأغوات السلاطين قرية زوجة كينيساري الأصغر سناً في أكساكال تيوبي وقريتي الراحلين سارجان ويسنجيلدي. في هذه المرة وقع اشتباك خطير فقد قتل أكثر من مائة شخص، وأخذوا خمسة وعشرين شخصاً كرهائن، وسرقوا ألف جمال، وثلاثة آلاف ونصف ألف من الخيول، وعشرة آلاف من الأغنام.

لم يذعن كينيساري الذي كان في قمة غضبه، لكنه قرر أن ينتقم بضراوة. وفي تلك اللحظة رأى يوسف جيربروت.

قال له كينيساري:

- غدا سيكون هناك تجمع عام عند قبر الأَش خان. تعال معي!

وانطلقوا في الصباح التالي. كانت نهاية شهر أبريل، وغمرت المساحات الخضراء المورقة السهوب. جذبت القمم الزرقاء السماوية بجبال أرجينات، أوليتاو، كيتشيتاو، وإيرتاو لأنفسهم بعض النقاء البكر.. هنا كان مكان محمي لم يمسه إنسان. كان الهواء سكراناً، وملاً القلب بالفرح.

فقط لم يشعر كينيساري بهذا. لقد صار بعد أن فقد كونيمجان وطفليه تماماً مثل الذئب الذي فقد أطفاله. وعلاوة على ذلك لقد أحس، وكان من غير الممكن الأيشعر بقلبه الذئبي بالنهاية الحتمية القادمة. وهذا ما كان يشير إليه كل شيء فقد تلقى رفضاً مباشراً للدعم من بعض زعماء القبائل في الجزئين الأوسط والأصغر، ورحيل عدد من القرى من الأراضي الخاضعة لسيطرته، والغارات المتكررة للمفارز العقابية.



لكن كينيساري لم يغير سياسته. لقد واصل الغارات على تلك القرى التي لم تنضم إليه، واختطف الماشية، ونهب الممتلكات في حين أنه لم يمس المواقع المحصنة الخاضعة لحاكم أورينبورج العسكري وقرى القوزاق. وفي كل مرة أصبحت هجماته أكثر دموية. واصطدم محاربوه على نحو متزايد بالمقاومة المتنامية لعامة الناس. فلقد تعبت البلاد من الاضطرابات.

لقد أثر على مزاج كينيساري أيما تأثير تبادل الرسائل مع البك الكبير من الجزء الأوسط بالغوجا الذي لم يرغب في دعم كينيساري على الرغم من التهديدات والوعود. وكانت الرسائل حسب العادة السهوية القديمة تتألف من أبيات غنائية. وبالنيابة عن كينيساري كتب سيداك خودجا رسالة إلى بلغوجا:

يا كبير العشيرتين

يا أحكم الحكماء

لوقطعنا قمصان بعضنا البعض

ألن نتعب في النهاية؟

أحقا أعدائنا الآخرين

لأنراهم حتى الآن؟

الوادي أخذته كوكاند

والقيصر الروسي أخذ سفح الجبال

والأجانب يضطهدوننا

ويهددوننا من المدن

وحرية الكازاخي

هل يستعد أن يضحى بها؟

دعونا نعقد السلام

بين جميع القبائل

وليحكم البلاد

الباتير كينيساري.



ولكن البك بالغوجا الذي كان يعتمد على قلعة تورجاي لم يكن خائفا من كينيساري. وفي العام الماضي أراد كينيساري الغاضب أن يجلب له العار بسبب رفضه المتكرر مساعدته فأرسل إليه في ممتلكاته شقيقته المحاربة بوباي مع مفرزة لها. وقد اختطفت هذه كل ماشية البك العنيد لكنه لم يقدم أي تنازلات. وكان رده على نداء كينيساري ساخرا:

عاجلا أم أجلا

ستقع في الفخ

ولن تخرج منه مهما حاولت!

أنت لم تغضب الروس فقط

لا يا سلطان إن أعداءك في كل مكان.

القفص موجود، والفأر جاهز

ولن تخرج منه مهما حاولت

تب أو ستفقد أنت

رأسك الخاصة بك.

الأ ترى على اليمين أن كوكاند تنتظر

إن العبودية تنتظرك فتعقل

وعلى اليسار فخ آخر:

عشيرة ويسون فتعقل

وانظر أمامك ستري بخارى

بقوتها الرهيبة

وعلى الجانب عشيرة قيرغيز الجبلية

تنتظر بفارغ الصبر فتعقل

لذلك لا تسخن

فليس لديك أي أصدقاء

وإذا كنت تريد البقاء على قيد الحياة

فانحن للروس على عجل!

كان كينيساري يعرف كل هذا دون تذكر من البيك بالغوجا.



قال كينيساري في نفسه: "حسنا، يا بلغوجا! - إنك تتوقع لي الموت الوشيك، وهذا صحيح. ولكن موتك سيأتي قبل موتي!" في تلك الليلة نفسها أرسل خمسمائة مقاتل مختارين بقيادة الباتير جانايدار لكي يسوا بالأرض قرى بلغوجا، أما هو نفسه فيجروه مقيدا في ذيل الحصان.

غير أن الباتير جانايدار لم يستطع أن يتغلب على نفسه، وتوقف في الطريق ليلة واحدة من أجل أن يري بوباي التي كان يحبها طوال حياته. أما بلغوجا الذي حذره رجاله من معسكر كينيساري فقد تمكن من الانسحاب والرحيل صوب قلعة أورسك. واصطدمت فرقة الباتير جانايدار مع مقاتلي السلطان الحاكم أحمد جانتورين وعاد إلى الورا. وفي الطريق تمكن من نهب قرية البك كوكير، وتوجه إلى سير داريا، واقتاد الكثير من المشية..

لم يعرف كينيساري سبب عدم امتثال الباتير جانايدار لأمره. لم تعط رسالة البك بالغوچا التي لم ينتقم منها السلطان الراحة، وفهم يوسف جيربروت ذلك.

وعندما وصلوا إلى الضفة المنخفضة لنهر كنغير حيث يرقد رفات ألش خان اتضح أن العديد من الأبطال وقادة العشائر لم يجتمعوا بعد. وبدأوا في الوصول في اليوم التالي مع القوافل المحملة بالطعام. وكان أول من وصل إيمان باتير من تورجاي، وجولمان باتير، ثم أجيبي، بوخارباي، وجيكي باتير توليباي، وكودايمندي. وكان آخر من جاء من جانايدير وبوباي.

ومثل خيمة بيضاء في وسط بحر السهوب عديم الضفاف وقف مزار الخان ألش ذلك الضريح العال المكعب المبني بطوب الكوارتز والمزين بالصقيل. وتوج رأسه قبة زرقاء ضخمة مع أربعة أبراج بيضاء على الحواف. وكان القبر نفسه يتكون من غرفة فسيحة مع ارتفاع صغير في الوسط مكتظة بقصاصات من قماش بال، وجماجم خيل وذيول. وتناثرت هنا أيضا على الأرض أنصال سهام، ورماح، وشفرات صدئة.

بالقرب من قبر ألش خان الذي بني في القرن الخامس عشر كان هناك مقابر اثنتين - مزارى أمبولاك خان، وجوسا خان أول حكام الغانات الكازاخية بعد ألش. وحول هؤلاء الثلاثة كانت تدور العديد من الأساطير بين الناس. ولم يختار كينيساري هذا المكان مصادفة لعقد اجتماع فقد كان هذا المكان هو الأنسب لتلاقي ممثلي الأجزاء الثلاثة.

ولدى وصوله إلى قبر ألش خان ازداد غضب كينيساري. إنه لم يقل كلمة واحدة إلى أي من الأبطال الذين جاءوا إلى هنا، لكنه كان يذهب إلى المزارات برفقة كارا أوليك فقط.



قبل عشرة أيام علم كينيساري أن عصابة من الصيادين الروس انتقلوا إلى بحيرة السهوب بين جبل كوكيوك كينيساري وكوستانى الواقعة في أراضي البيك بالغوجا. ورغبة منه في إحداث وقیعة بين القيادة الجديدة لمدينة أورينبورج وبين الغوجا بعث كينيساري فرقة طيارة يقودها بيتابين من أجل قتل هؤلاء الناس سرا والقاء اللوم على تولينجوت (عبید وحراس) البك. وعادت الفرقة يوم أمس، وأفاد بيتابين أنه لم يفعل ما طلب منه.

سأله كينيساري:

.. لماذا؟

جثا بيتابين على ركة واحدة وقال:

- يا سيدي الخان. إنهم أناس بسطاء وفقراء. إنهم مع زوجاتهم وأطفالهم يصطادون الأسماك التي لا تأكلها. فبأى ذنب نعاقيهم؟

لم يقل كينيساري شيئا لبيتابين. وتذكر كيف تشفع بيتابين مؤخرا لأشخاص من قرية معادية كانوا يعاقبون بأمر كينيساري. ويمكن أن يعزى ذلك إلى التعاطف مع بني وطنه، ولكن هؤلاء بعض الصيادين الأجانب!.. "حسنا، سوف أختبره للمرة الأخيرة!" كان كينيساري مازال يفكر ثم رأى في تلك اللحظة يوسف جيربروت جالسا بالقرب من المزار. لم يغادر البولندي المباني الرائعة وهو يتعجب من جمالها غير العادي ومن تناسب أبعادها. وكان هذا بالنسبة له سر آخر لشعب من الرحل صغير العدد ذو ماض عظيم.

جلس يوسف جيربروت، وهمس بأبيات من الشعر بلغة وطنه البعيد - لقد كانت كلمات هادئة وحزينة عن معاناة أولئك الذين أصبحوا بالنسبة إليه بمثابة الأقرباء. وفجأة رقدت يد ثقيلة على كتفه. ارتجف ثم التفت ورأى كينيساري. وكان يقف بجانب كينيساري رجل يثير منظره فقط الرعب والاشمئزاز.

- لا تخف. إنك لست متهما بشيء حتى الآن.. قال كينيساري ذلك، وأشار بيده لكارا أوليك ليتركهما وحدهما. فنفذ ما طلب منه.

- هل تفتقد وطنك يا جوسوب؟

أوما يوسف جيربروت برأسه وقال:

- نعم أفتقده. لو لم يكن بعيدا هكذا لفررت إليه!

- إنك لم تقل مثل هذه الكلمات من قبل. لقد قلت أن أفكارنا هي الأقرب إليك. إنني أتذكر كلماتك جيدا.



- نعم لقد بدالي حينذاك أن حركتك طاهرة من دنس الأنانية والقسوة.. - تحدث يوسف جيربروت كأنه في حلم. - نحن البولنديون أناس غريبي الأطوار.

تحدث كينيساري بصوت غير مبال وسأله:

- وهل تعتقد الآن خلاف ذلك؟..

نظر يوسف جيربروت مباشرة في عيني كينيساري وقال:

- نعم يا كينيكي.. إنك سعت طوال عمرك إلى السجادة البيضاء التي رفعك الناس عليها. والآن يبتعد عنك أولئك الذين ثاروا من أجل حرية الشعب واستقلاله دونما أية حسابات. وأصبح الأقرب منك أولئك الذين يقولون الأشياء الممتعة فقط. لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

اشتعلت للحظة في عيون كينيساري البراقة نار مستعرة وقال:

- لا عجب أنهم يقولون: من لديه دم أجنبي تكون لديه روح أجنبية... - لكنني سأخبرك. إن روسيا نهر كبير، أما نحن مجرد نهر صغير. وأنا أريد لهذا النهر أن يتدفق بمعزل عن النهر كما تدفق من قبل من قرن إلى قرن. وإذا كان أجداد الكازاخيين الحاليين قد خضعوا للغان أبلاي، فليخضع أحفادهم لحفيده..

- وكيف ستحكم الناس؟ إنهم ما إن يفقدوا الماء والأرض سوف يقتنعون في الغد أنه لا يمكنك إعادة المفقود. ولن يوافقوا على أن يقاتلوا بشكل لانهائي فقط من أجل عرشك الغاني.

أمسك كينيساري بمقبض سيفه وقال:

- إنك محظوظ أنني أعرفك منذ مدة طويلة.. تسألني كيف سأحكم بلدي. سأحكم مثلما يحكم الملك الأبيض. "بواسطة العصا للعصاة". ومن لا يذعن سأدوسه بالخيول كما فعل أسلافي. كل ما عدا ذلك هراء - إن الناس تنصاع فقط للسيف والسوط!

هز يوسف جيربروت رأسه بحزم غير موافق على هذه الكلمات:

- أنت رجل ضعيف أيها البولندي وأنت لا تعرف ما تلد السلطة!

- إن الدولة التي تبنى على الدم لا تعيش أبدا فترة طويلة. والشعب في مثل هذه الدولة لا يكون سعيدا. وينبغي أن يكون هناك معيار في كل شيء، وفي العنف قبل كل شيء! ويجب أن يكون في العنف مغزى!

ضغط كينيساري سوطه حتى ظهر البياض في أصابع يده ثم قال له:



- أنت مخطيء! - إنني أقود الناس، وأملك الحق في أن أفعل ما أريد.. إن كل شيء في بلدي يخضع لي، ومن لا يريد أن يفعل ذلك سيلقى حتفه! وسأبدأ بعشيرة جاباس! التزم يوسف جيربروت الصمت. لقد أصبح هذا الرجل يكثر من قول "بلدي"، و"شعبي". ولكن لماذا ذكر تحديدًا عشيرة جاباس؟ إنهم مجرد رعاة بسطاء.

لقد كان اثنان من بكوات عشيرة جاباس وهما ألتينباي كوبيكوف وجانغابيل تولجينوف غير راضين عن مجيء كينيساري إلى تورجاي الأمر الذي قلص من مساحة مراعيهم. فقادا خيولهما إلى موغاد جاري، وأبقيا الأغنام على حدود أومسك المخصصة للقوزاق. وودع كل واحد منهما كينيساري بالقول، ولكنهما سببا له الضرر بكل الوسائل الممكنة، ورفض دفع الرسوم المقررة المتمثلة في الزكاة. وعلم كينيساري مؤخرًا أن بعضًا من رجال ألتينباي قد شاركوا في مذبحته قريته زوجته الأكبر سنا كوزنيمجان. سأله يوسف جيربروت:

- وهل يجب على العشيرة كلها أن تدفع الثمن جراء ما فعله أحد البكوات؟ - إن الناس لاتعرف عن ذلك شيئًا. وبالإضافة إلى ذلك فقد تضاءلت مساحة مراعيهم لدى مجيئنا.

- ولماذا لا يعاقب الأبرياء المذنبين؟ إنهم هم جميعًا رجال ألتينباي بك. وحيثما يذهب التيس يتبعه القطيع. سوف أعاقب عشيرة جاباس لتفكر عشيرة شكتان جيداً قبل أن تخونني!

- ولكن ما ذنب النساء والأطفال؟

- الناس لا يشعرون بالأسف تجاه أنفسهم ولكن تجاه أسرهم. وسيجبرهم الخوف من فقدان أئمن ما لديهم بما في ذلك الذريرة على المضي خلفي. إنك بولندي ولن تفهم هذه الحكمة. أنا أفعل ذلك من أجل مصلحتهم..

نظر يوسف جيربروت باهتمام إلى كينيساري. إن هذا الرجل يؤمن إيماناً شديداً بقدره، ولا يمكن نزع هذا الإيمان منه إلا بقطع رأسه. وليس هناك شيء أكثر خطورة من هؤلاء الناس!

- اسمحوا لي أن أسألكم إذن يا كينيكي. إذا كان يجب إبقاء الناس في خوف حسب رأيكم فلماذا لم ينضم إليك البيك بالغوجا على الرغم من أن قراه قد احترقت؟

- إنه مثل الضبع، ويخاف من الروس. إن الرعاع الكازاخ دائماً جبناء. وعلى الرغم من أن بلغوجا أحد البكوات إلا أنه نسبه يرجع إلى "العظام السوداء"!



- والى من ينتسب أشجع محاربيك يا كينيكي، وماذا كنت ستفعل بدونهم؟.. الآن كنتم تفكرون في إبقاء الناس معكم بقوة الخوف. ولكن الناس يمكن أن يتعد عنكم. أقصد أفضل الناس. وماذا ستفعلون بالتوريين وحدهم؟..

اكتأب كينيساري فجأة، ولم يحاول إخفاء مزاجه المتعكر وقال:

- على الرغم من أنك غريب بيننا إلا أنك تفهم بعض الأشياء أفضل من تايماس وأبيلغازي. رأي يوسف جيربروت للمرة الأولى خلال السنوات الطويلة من تعارفهما كيف أن كينيساري يجلس ببساطة بجانبه على أنقاض حائط.. ماذا بقي لي غير أن أجمع الناس تحت رايتي بتهديدهم بالخوف من الموت؟ إن العشرة الآلاف مقاتل الذين في حوزتي لن يهزموا خان كوكاند.

إن لديه الكثير من الحصون مثل إرمازار، نامانغان، أنديجان، أوش، تختي سليمان، شهريا، أنغارا، الكوراش، خوجنت، أورا تيوبي، طشقند!

استمع إليه يوسف جيربروت بدهشة متزايدة. إن هذا الرجل لا يزال يحلم بحرب كبيرة!

واصل كينيساري حديثه فقال:

- إن سلطات أورينبورج اهتمتني بناء على تقرير من أحد الأشخاص بأنني قبلت دون إذن منها الهدية الخوارزمية وهي عبارة عن خمسة عشر بندقية وحصان.. لقد أخذتها من الخان الأكول. وبعد موته أرسل لي ابنه الخان رحمانكول ثلاثة جياد، ومرة أخرى بنادق وذخيرة. إن لدى الخوارزمين بنادق جيدة، وأفضل جياد في العالم. ولكن لماذا يعتبر جنرالات أورينبورج كينيساري شخصا ضئيلا جدا؟ إذا قبلت الهدايا، وأعطيت خان خوارزم بعض الضمانات غير الملزمة فإنها هذا لا يعني أي شيء. إنه لا يزال يقفز على صوت طبلي، ويتشاجر مع الأمير. ولندع خان كوكاند و خان خوارزم يتشاجران معا ضد أمير بخارى ربما نحصل على شيء ما. الآن سيبدأ كل واحد منهم اللعب معي لكنني لن أرضخ لهما: لا للخان ولا الأمير. من الأفضل أن تخدم الأسد وليس أبناء أوى! ولكن الأسد الروسي يريد أن يجعل من الذئب كينيساري خروفا أبكما. ماذا حققت أنا من خلال التفاوض مع أورينبورج؟ لاشيء غير أنهم أخذوا مني أطفالا وزوجتي كونيمجان. - تحول كينيساري إلى اللون الأرجواني، ولأول مرة يصرخ قائلا: "لا، إنني لست خروفا كي أصمت تحت السكين!" أنا سأعوي كذئب للمرة الأخيرة حتى أن طبلت أذان بعض الناس ستنفجرا! سأجعلهم يحسبون لي ألف حساب، وإن لم يكن، فعلى الأقل أموت كما تموت الذئب!..



شعر يوسف جيربروت فجأة بالأسف لهذا الرجل الأعمى الرهيب في كراهيته الشرسة،
وسأله بهدوء:

- ألم تقتنع بعد بأن كل هذا لا فائدة من وراءه؟

قال كينيساري بصوت خفيض بعض الشيء:

- لا، لم أقتنع.

وقف كينيساري، ونظر إلى السهوب فترة طويلة. وكانت عيناه مرة أخرى خاليتين من
العاطفة.

والآن تكلم بهدوء كما كان يتكلم دائما فقال لمحدثه:

- لقد قلت الحقيقة. - إن الكازاخ سيبدأون في الهرب عندما يرون أنني لا أستطيع أن

أعيد لهم مراعيهم. لكنني لن أدعهم يذهبون.

- لكن كيف؟

- إنني لست بحاجة إلى أولئك الذين لا يرغبون في القتال تحت راية أبلاي!

لقد قال ذلك ببساطة حتى أن يوسف جيربروت قد أخذته الرجفة. فقد كان يعلم أن
هذا الرجل يفعل ما يقول. ثم فكر الشاعر البولندي المنفي أيضا أنه إذا كان جينكيز
خان أو تيمور الأعرج يشبهون السيوف الفولاذية التي لا ترحم فإن سليلهم الحالي يشبه
قطعة من سيف اخشوشنت في الدم البشري. فهل بالفعل سيظهر ميراث الشر بعد كل هذه
القرون العديدة؟ لم يكن هناك شك في أن كينيساري الذي لم تطرف عينه الآن سوف
يغرق بعض القرى في الدم.

وهذا هو ما حدث. ففي خلال التمرد وفقا لإحصاءات الحكومة القيصريّة نهب
كينيساري وأحرق مائة وخمسة وسبعين قرية، وقتل أكثر من خمسمائة مواطن. وقد
ارتكبت كل هذه السرقات، وجرائم القتل تقريبا في السنوات الأخيرة من حياته.

قرر يوسف جيربروت الاقتراب من الجانب الآخر ثم قال:

- ولكنك إذا أغرت على قرية ألتنباي قد يلجأون إلى كافة التدابير الممكنة من أجل

الانتقام منك. ولا تنسون أن كونيماج وطفليك في حوزتهم إذا ما قررت أن تسفك الدماء
في قرية ألتنباي.

صنع كينيساري علامة رفض بيده وقال:



- هل تريد أن تقول أن أرشابوك وأوبريش سيقتلون زوجتي وأولادي؟ لقد نطق أسماء جورتشاكوف وأوبروتشيف باللجة الكازاخية.. لا، انهم لن يفعلوا ذلك. وحتى لو فعلوا، فلدينا أيضا أسراهم. وبالإضافة إلى ذلك إنهم لا يشعرون بالحزن الشديد عندما نقاتل بعضنا البعض. وإذا ما حدث ذلك، فليكن.

- يكن ماذا؟

- لم يفهم يوسف جيربروت في البداية ما كان يتحدث عنه كينيساري. وعندما فهم أصبح كل شيء واضحا له. وتذكر كيف أن هذا الرجل قد اختبر قبل ثلاث سنوات شجاعة ابنه الصغير سيزديك. وقد تعرض هو نفسه في وقت ما لهذا الاختبار. والآن تحول في فخره غير العادي إلى حجر بارد، ودفن في روحه نفسه، وأحبائه، وكل شيء حوله. بدا كينيساري وكأنه قد قرأ أفكاره فقال:

- إن الحزن والأسى يشوشان أفكار المرء، ويجردانها من النقاء. لذلك يجب أن تنتزعهما من القلب مع اللحم. حتى العقرب البائس يجد في نفسه الشجاعة أن يقتل نفسه بسمه! ومع ذلك قرر جوزيف هيربروت أن يقنعه فقال:

- هناك شائعات تقول أنهم قد نقلوا كونيمجان خانوم، والأولاد من أومسك إلى أورينبورج. لماذا لا تكتب رسالة إلى الحاكم العسكري تعرض عليه أن يبادلها بالضباط المحتجزين؟

أخيرا حول كينيساري رأسه إليه وقال بصوت غير مبال:

- فلنحاول.. - إن لدينا حوالي عشرين ضابطا محتجزا من بينهم البارون اويلر والكابتن القوزاقي. سنفرج عنهم مقابل خمسة وثلاثين شخصا من قريتي مع كونيمجان والطفلين. أكتب لهم بهذا!.. وأكتب أيضا يا جوسوب.

- ماذا أكتب أيضا يا كينيكي؟

- أكتب أنه منذ مجيء أوبريشا فقد تدهورت علاقتنا مع أورينبورج تماما. وعلى الرغم من أن سلطات أورينبورج لا تزعجنا فإن مفازرز أومسك تأتي إلى قرانا دون علمهم. وإذا ما أبعدها جينز نهائيا فإن أورينبورج سوف تتولى أمرنا بشكل وثيق. سنكتب إلى أوبريتش نفسه، ونجرب حظنا للمرة الأخيرة.



سحب يوسف جيربروت بسهولة الدفتر من سوار القميص وقال:

- ماذا أكتب إلى أوبريتش؟

- أكتب التالي. "قبل عامين أصدر الحاكم العسكري بيروفسكي والجنرال جينز نياطة عن صاحب الجلالة بياناً بالعفو عنا، وغفر كل خطايانا، ومنذ ذلك الحين أوقفنا جميع أشكال المقاومة ضد الملك الأبيض. وفي هذا العام في اليوم الحادي والعشرين من الشهر نوريز - مارس عندما كنا في رحلة صيد مع رجالي اقتحمت مفرزة عسكرية من أومسك تحت قيادة الكابتن سوتنيكوف قريتنا، وأخذت كل ما لدينا من الماشية والممتلكات، كما أسرت زوجتنا كونيمجان واثنين من أطفال الصغار. وقد أقنعنا هذا بأننا لن ننتظر أية رحمة من القادة القيصريين، وإننا من الآن فصاعداً لن نعتمد إلا على الله فقط.. "اكتب فقط هكذا لكي لا يعتقدوا أننا نتوسل إليهم". ومع ذلك قم بالتلميح أنه مازال يحسدنا الأمل في إقامة علاقات سلمية.

- سأحاول أن أكتب مثل هذا.

- وإذا ما رفضوا أن يتحدثوا معنا..! شح لونا كينيساري مرة أخرى، وضم قبضة يده.

- ربما لا زالت هناك فرصة لتسوية كل شيء.

- بالإضافة إلى ذلك اكتب رسائل إلى جميع البكوات الذين يهزون ذبولهم. وسوف أسميهم لك. أولاً وقبل كل شيء زعيم عشيرة نزار - وشيوخ بايتوري وكاركوشيك.

- ماذا أكتب لهم؟

- يجب أن يعترفوا بي خانا!.. وعلى الرغم من الإساءات القديمة فسوف أصبح لهم سندا. ولكن إذا لم يطيعوا. اكتب أنني سوف أنتظر جوابهم لمدة ثلاثين عاماً، ولكن خلال السنوات الثلاثين التي تليها سوف أنتقم منهم!.. واكتب مثل هذه الرسالة لبكوات عشيرة جاباس!..

- سأكتب.

أدرك يوسف جيربروت أنه لا جدوى من الحديث عن أي شيء الآن مع هذا الرجل.

فجأة سمعا خطوات مسرعة لشخص ما قادم نحوهما. أقبل عليهما تايماس مسرعا وقال:

- يا كينيكى لقد جاء رسول من أورينبورج. من عند طفليك..

- هل جئت بأخبار جيدة أم سيئة؟

- سيئة!..



لم تتحرك عضلة واحدة في وجه كينيساري وقال:

- من الصعب أن نتوقع أنباء طيبة الآن. ماذا تقول ألتينشاشن؟

- ذكرت أن أوبروتشيف يتشاجر مع الجنرال جينز ويمكننا أن نتوقع شيئاً سيئاً بالنسبة لنا.

- أو تسمي هذا أخبار سيئة؟

- عندما يحتك جملان ببعضها البعض تموت الذبابة بينهما. الأنشبه نحن هذه الذبابة؟.. منذ أن رحل بيروفسكي لا يمكننا أن نتحدث مع أحد غير جينز.

لوح كينيساري بيده وقال:

- وهل كنت تنتظر منهم شيئاً آخر؟

رد تايماس بالمثل الذي يقول: " لا تضع أملك على الشيطان مهما كان الأمر".

- يجب علينا أن نذهب الى أورينبورج.

سأله كينيساري بشكل رهيب:

- أنت تقترح علي أن أذهب، وأخلع قبعتي الفرو، وأجثو أمامهم على قدمي؟ - وما الذي سيمنعهم حينئذ من قطع رأسي؟

- إنني لا أقترح عليك هذا. إذا كنا نحن الجسد فأنت الرأس. وهل يعيش الرأس طويلاً دون الجسد؟ وكما يقولون لدينا إذا فكرت سيشتعل الثلج!

- حسناً. وماذا هناك أيضاً من أخبار؟

- طلب الحاكم العسكري من بطرسبرج أموالاً إضافية بمقدار أربعة عشر ألف روبل لقمع ثورتنا. وثلاثة آلاف أخرى.

خفض تايماس فقال كينيساري بلهجة امرأة:

- تكلم!

- وهذه سوف تدفع للشخص الذي سيجلب رأسك يا كينيكي.

ابتسم كينيساري وقال:



- من الجيد أنهم على الأقل قد قدروا سعري على نحو ما. ولكن هل أنا حقاً أساوي مئة من الجياد؟ إذا قدرنا ثمن الحصان الواحد حتى بخمسة وثلاثين روبل. إن أرشابوك نفسه كتب إلى بطرسبرج أنه قبل عامين فقط قد كبدت التجارة الروسية خسارة تقدر بمائتي وثمانين ألف روبل. إذا كان هذا صحيحاً فإنه يريد أن يثري على حسابي.

- سواء كان هكذا أم لم يكن ولكن إذا كانت ثورتنا قد حدثت في منتصف النهار، وجعلناك خانا وقت متأخر من بعد الظهر. يجب عليك أن تفكر قبل أن تغرب الشمس. وتذكر القول المأثور الذي يقول أنه ليس هناك عدو أسوأ من غضبك!..

- حسناً، سنفكر. هل هناك شيء آخر؟

- لقد أبلغنا التجار المسافرين أن جافريلوف الجندي الهارب من طاقم حراستك قد وعد بأن يأتي برأسك إلى أورينبورج. وقال إنه من السهل القيام بذلك في فصل الشتاء. وكتب الجنرال أوبريتش رسالة إلى بطرسبورج يطلب منهم العفو عن جافريلوف إذا وفي بوعده. صاح يوسف جيربروت:

- الخونة دائماً يستحقون الإعدام.

فكر كينيساري لمدة دقيقة، وقال:

- يجب أولاً التحقق من ذلك. وإذا تأكد هذا الأمر فسيتعامل معه كارا أوليك بنفسه. لا يجب علينا أن نخيف الفارين الآخرين.

ذهب ثلاثتهم إلى منازلهم. وفي الطريق ذكر تايماس خبراً آخر غير سار. لقد قتل الباشكيري دافليتشي عند اختبار المدفع المصوب. إما أن الحديد الزهر لم يتحمل، أو أنهم وضعوا البارود بإفراط فأنفجر المدفع. وربما كان هذا أكثر ما أحزن كينيساري الذي كان يعول كثيراً على هذه البنادق.

قال كينيساري:

- فلتغطي سهوبنا جسده بالحريير الناعم.

ولمدة ثلاثة أيام ناقش الأبطال، والسلاطين، والشيوخ، والبكوات كيف يجب أن تكون الخانية التي أعيد إنشاؤها. ولقد توصوا إلى رأي مشترك يتعلق بأربع نقاط.

كانت النقطة الأولى هي الأهم والتي تتعلق بالجيش. لم يكن مع كينيساري حتى ذلك الحين سوى ثمانية آلاف من الفرسان والذين يذهبون إلى قراهم في فصل الشتاء. ولم يبق مع كينيساري في الشتاء الماضي سوى خمسمائة محارب. تقرر زيادة الجيش الرئيسي إلى عشرين ألف محارب، ويبقى منهم في مقر كينيساري طوال فصل الشتاء خمسة آلاف.



ويجب على كل زوزباشي ومينباشي - أي قائد مائة وقائد ألف من الجنود أن يتعلم الفن العسكري الروسي ويعلمه لرجاله. ويجب على السارياز (المحارب) العادي أن يحمل على صدره ثلاثة أشرطة خضراء، وعلامة خضراء مميزة على ظهره، أما الزوزباشي والمينباشي فيعلقون أشرطة حمراء، أما كينيساري نفسه فيرتدي زي عسكري أزرق مع كتافات عقيد روسي.

ويعين لمنصب مينباشي الأبطال الأكثر شهرة، ولا يملك أحد الحق في تعيينهم سوى كينيساري نفسه. كما تم أيضا إنشاء مفرزة منفصلة للرماة من ألف رجل تحت قيادة بيتابين..

وقد أولي اهتماما خاصا بالطاعة. ومن الآن فصاعدا سيتم تطبيق العقوبة القديمة "شيك" وهي إحداث شق على الوجه بالسيف أو الرمح نظير أي مخالفة. ولا يغسل العار سوى التميز في القتال، ويقدم المقاتل الذي على وجهه شقين إلى محكمة البكوات، ويعاقب بغرامة كبيرة من صنف الماشية، ويبعد عند أسرته مدة عام، أو يجبر على رعي الأغنام. وإذا تحصل المحارب على ثلاثة شقوق في وجهه يحكم عليه بالموت.

قال كينيساري:

- إن الخانات الكازاخ كانوا في وقت من الأوقات يبقون دائما ربيع الشعب الخاضع لهم على الخيول، لأن الكازاخ والمحارب شيء واحد! وحتى لا نصبح غنيمة مغرية لأعدائنا يجب أن نأخذ العبرة منهم، ومن المليون شخص التابع لنا يجب أن نبقى على الخيول على ما لا يقل عن عشرين ألف شخص.

لم يعترض أحد على ذلك، وحصل كينيساري على جيش قوامه عشرين ألف شخص. وكانت النقطة الثانية تتعلق بتزويد القوات بالمواد الغذائية والإمدادات العسكرية. قرر مجلس خان جمع ضريبة خاصة، قسمت إلى قسمين: الزكاة على الماشية والعشور على المحصول. ولا يخضع لتلك الضريبة من لا يملكون أقل من أربعين رأسا من الماشية. وأولئك الذين يمتلكون عددا كبيرا من الماشية يدفعوا ضرائب متصاعدة. ويجب على الذين يزرعون القمح أن يقدموا عشر المحصول.

وفي هذا الشأن نشأت خلافات في الرأي. فقد طالب كينيساري أن يشتغل بشكل إلزامي جزء من الكازاخ القاطنين ضفاف أنهار تورجاي، وإرجيز، وسيرداريا، وساريسو، وإيلي والبحيرات السهبية العديدة بالزراعة.. والحقيقة أن جميع حكام أورينبورج العسكريين مثل الكونت سوخوتيلن، والكونت بيروفسكي، وأوبروتشيف كانوا ضد اشتغال الشعوب السهبية بالزراعة معتبرين ذلك بأنه عمل غير منتج وغير مربح



للإمبراطورية. وفي تقريره إلى وزير الحربية كتب الجنرال أوبروتشيف: "كان سلفي الجنرال بيروفسكي من المعارضين المتحمسين للقرغيز الذين يعملون في الزراعة، وانتقلوا إلى أسلوب حياة مستقر. وفي الوقت نفسه كان يستهدف أن يشتري هؤلاء القمح منا بدلا من أن يزرعوه بأنفسهم ليظلوا بالتالي تابعين على الدوام لروسيا"

وانطلاقا من هذه التصورات سعى الغراف سوخوتيلن ومن بعده بيروفسكي إلى تدمير القرى الكازاخية المستقرة التي ظهرت بجوار القرى الروسية على أراضي الحاكم العسكري. لكن كينيساري كان يحتاج القمح من أجل الجيش لذلك قرر دعم المزارعين.

وعادة ما كان يجمع البكوات وقادة العشائر الضرائب في القرى الكازاخية للقيصر أو لخان كوكاند. واقترح أن يجمعها من الآن فصاعدا بعض ضباط كينيساري الأمر الذي سيدعم بقوة سلطة الخان.

وقد خصصت النقطة الثالثة للمحاكمات التي كان يقضي فيها حتى ذلك الوقت البكوات والشيوخ.. والآن سيتولي أناس يعينهم الخان الحكم في قضايا الميراث، وسرقات المشية والمشاكل الأخرى، أما النزاعات بين العشائر فيتولى كينيساري حلها بنفسه.

وكانت الخلافات بين الكازاخ التابعين لكينيساري وأولئك الذين يعيشون في أراضي السلاطين الحكام يحلها الأغوات السلاطين. لم يكن كينيساري يريد بوضوح أن يكون لديه خلافات حادة معهم، على الأقل مع بعض منهم. وكان القانون على وجه الخصوص موجه ضد سرقة المشية - باريمتا التي دمرت بشكل جذري وحدة العشائر والقبائل. وإذ أدرك كينيساري أن معظم أفراد جيشه من عامة الناس، أصر على بعض التخفيف لحياة العبيد. وأصبحوا على الأقل يفرضون غرامة بسبب قتل العبد.

والنقطة الرابعة حلت مشكلة التجارة إلى حد ما. وإذا كان سبق لرجاله أن هاجموا القوافل ببساطة، ونهبوها فإنه الآن على غرار الدول الأخرى تقرر فرض رسوم من أجل المرور عبر السهوب والحراسة في الطريق. ولكن الرسوم لم تكن موحدة وكانت تعتمد على علاقة الدولة أو العشيرة التي تنتمي إلى القافلة، وبكينيساري نفسه.

قرر مجلس الخان وقف جميع الاشتباكات غير المبررة على طول الحدود مع المستوطنات الروسية، أما شراء الحبوب فيها، والعمليات التجارية مع خوارزم وبخارى فيتولاها موظفو الخان فقط.. وبعد أن حقق كينيساري كل ما كان يصبو إليه انتزع من قادة القبائل والعشائر التي انضمت إليه حق هام آخر يتعلق بمجلس الخان. وإذا كان في عهد نورالي ابن أبو الخير - لم يكن الخان يستطيع أن يحل القضايا الهامة دون موافقة مجلسه، فإن



كينيساري تعهد فقط بالتشاور معه. وبعد أن يتخذ الخان أي قرار فإنه يصح قانونا. ويجب إطاعة أوامر كينيساري دون تردد.

وبعد أسبوع عاد كينيساري إلى مقره على نهر كارا تورجاي. وسرعان ما بدأ الأبطال المينباشي مع رجالهم في التوافد عليه. وبدأ التدريب وفقا للقانون الجديد.

ركز كينيساري على الفور القوة في يديه، ثم بدأ في شن غارات قاسية على القرى المعادية له والمتردة. ودون أن يمسه حصون أورينبورج ومستوطناتها، كان يزعج باستمرار حد سيبريا، الذي كان يعتبر نفسه معه في حالة حرب. وفي كل يوم يزداد عدد الضحايا من الجانبين.

في بداية فصل الصيف نفذ كينيساري اعتداء قديم التخطيط على قري عشيرة جاباس اللاتي انتقلن للتو إلى المراعي الصيفية في تورجاي. وجرك كينيساري السلطان التينباي بضعة أميال وهو مقيد في ذيل الحصان، وزوج بنتيه لمحاربين بسيطين تميزا خلال هذه الغارة. وسرعان ما توفي التينباي والذي أوصى ابن أخته الكبير جانغابيل أن ينتقم من أبناء قاسم توري بسبب العار الذي لحق به.

بدأ جانغابيل الذي حافظ في روحه على العداة لكينيساري في البحث عن سبل للانتقام. ولم تكن قوته كافية للهجوم على قرى كينيساري، وقد زار قيادة أورينبورج الجديدة عدة مرات طلبا للمساعدة. غير أن الحاكم العسكري لم يرى أن الوقت مناسب لبدء العمليات العسكرية بسبب التينباي هذا، وأمره بالانتظار. لقد كان يستعد للقيام بعمل عسكري واسع النطاق ضد كينيساري في المستقبل، ولا يريد الكشف عن خطئه الآن. ولخداع يقظته المتمردين فقد حسن وضع زوجة كينيساري الكبرى كونيمجان، أما أطفاله فقد ألحقهم بمدرسة روسية.

وتلك الأيام قتل الجندي الهارب جافريلوف عن طريق الخطأ. لقد ذهب مع كارا أوليك لإعداد الحطب، ووقع تحت شجرة ساقطة. وقد تفتت فقرات عنقه. شارك كينيساري نفسه في جنازته. وقد لفوا المتوفي في كفن أبيض، وأنزلوه إلى قبر بمهابة بإجلال يحسد عليه.



وجاء عام 1843 الدموي. وفي بدايته سرت عبر السهوب شائعة غير طيبة عن عزل جنرال أورينبورج جينز من منصبه. وحل محله الجنرال لود يجينسكي. وقد جلبت هذا الخبر لكينيساري ألتينشاش نفسها التي ودعت جينز الطيب بالدموع.

فقط لم تعد كوميس إلى السهوب. لقد استحقت بعملها الصادق ثقة واحترام أسرة الجنرال جينز، وذهبت معها إلى سانت بطرسبرج. وقالت إنها لا تريد العودة إلى بلدها بعد الاعتداء الذي حدث لها. وفي وقت لاحق كان نفوذها أحد أسباب خلع السلطان الحاكم لمنطقة أكمولا كونور كولدجا كوديمنديين من منصبه.



VI

في عام 1843م أي في عام الأرنب، السابع والعشرين من شهر ماوسيم - يونيو أمر القيصر نيكولاي حاكم أورينبورج العسكري بإرسال حملة عقابية كبيرة ضد السلطان المتمرد، والإنفاق عليها من ضرائب المزارع في الإقليم. ومنها أيضا يدفع مبلغ ثلاثة آلاف روبل مقابل رأس كينيساري.

لقد علم الجنرال أوبريتشيف الذي يمت بصلة قرابة لوزير الحربية هذا الموضوع مسبقا، واستعد جيدا للحملة المقبلة. قبل ذلك بفترة طويلة أرسلت مفرزة استطلاع مكونه من ثلاثمائة فارس تحت قيادة النقيب ليبيديف إلى كارا تورجاي. التقى به كينيساري في الروافد العليا لنهر إريجيز، وحيث أنه لم تقع أي عمليات عسكرية منذ مدة في منطقة أورينبورج أرسل إليه بعضا من رجاله برئاسة أبيلغازي من أجل إجراء المفاوضات. وقد أكدوا لليبيديف أنهم يخضعون دون تردد لأوامر حاكم أورينبورج العسكري، وأنهم على استعداد إذا اقتضت الضرورة الانتقال للعيش بجوار الحدود. أرسل ليبيديف فورا رسولا إلى أورينبورج.

من أورينبورج سرعان ما تلقى تعليمات بعدم البدء في أي عمل عسكري ضد المتمردين لكن عليه أن يبقى مع مفرزته على ضفاف نهر إريجيز. كان الحاكم العسكري الجديد المعارض بشدة لأية مفاوضات مع كينيساري يريد فقط أن يكسب الوقت. وحين سافر الرسل، وأعدت الرسائل والتقارير تم البدء في حصار المتمردين.

وفقا للخطة المعدة سلفا قدم كل واحد من السلاطين الحكام أحمد، وأريستان، وباي محمد ألف محارب، واضطروا إلى انتظار الأمر بالهجوم. وكان على أحمد أن يتحرك من توبول أما أريستان وباي محمد فينضمنا عند قلعة ساخارنايا إلى مفرزة العقيد بيزانوف المكونة من ثلاثة آلاف جندي ويحكما إغلاق الدائرة حول كينيساري من الجنوب والغرب. وإذا ما حاول كينيساري الذهاب بسرعة إلى أوليتاو وأرجيناتا فسوف تلتقيه هناك القوات النظامية الخارجة من أومسك، وبيتر وبافلوفسك، وكاركارالينسك.

قاد تيماس استطلاع كينيساري، وعلم الكثير عن طريق ألتينشاش التي جاءت إليهم. وأرسل إلى فوج بيزانوف الفارس الشاب توليباي الذي أبلغهم بجميع تحركات الفوج.



وفي كل قرية من قرى السلاطين الحكام أيضا اندس رجاله. وبعد أن علم كينيساري بمواقع القوات المعادية له تحرك مع فرقة قوامها ألف جندي لملاقاة النقيب ليبيديف.

وفي هذه المرة أيضا لم يغير تكتيكاته. وقد قبل كينيساري التحدي بعد أن اقتنع أن العمليات الحاسمة قد بدأت ضده. وكان التجديد الوحيد أنه قسم قواته إلى خمسة أجزاء بحيث أنه في حالة هزيمة أحدهم يظل الأساس لاستعادة الحركة.

وقاد نوريزباي مع الباتير أجيباي كمستشار له مفرزة قوامها ألف جندي ضد العقيد بيزانوف. وذهب لملاقاة الفصائل العقابية الثلاث للحاكم العام في سيبريا ثلاثة الآلاف بقيادة جيكي باتير، وإيمان باتير وبوخارباي. وكان المستشارون معهم على التوالي الباتير كودايمندي، وجانادار، وتاوكي. وتحرك كينيساري نفسه على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي بينهم ألف من الرماة المهرة بقيادة بيتابين من الوادي إلى جبال موغود جاري.

في حالة الضرورة كان كينيساري يستطيع أن يجمع بسرعة جميع وحدات جيشه. وسمح له الفصل المؤقت بالمناوره. وإذا لم تتمكن الكتائب القيصيرية من العمل بشكل متناغم سيكون من السهل عليه مهاجمتهما، وتدميرها كل واحدة منها على حدة. الأهم من ذلك إن يظل بعيد المنال للأعداء. وكان أشد ما يخشاه هو أن يتمكنوا من تطويقه..

كان سعيدا أن المفاوضات قد طالت مع النقيب ليبيديف حتى انقضى شهر شيلدي - يوليو. وإذا هاجمته القوات النظامية في شهر تميز - أغسطس فإنه سوف يصمد أمام هجماتهم شهر ونصف. ومن بعده يأتي شهر كازان - أكتوبر بأطوار طويلة ورياح قوية.

إن الخريف الكازاخي السهبي بطينته الباردة سوف يعذب الجنود أكثر من الشتاء الأكثر شراسة. وعندما تهطل الأمطار المرهقة الصغيرة دون توقف ليلا ونهارا لن يستطيع شخص أن يتحمل ذلك عدا من نشأ هنا. وسيضطرون إلى التوقف عن الملاحقة الذئبية ضده، العودة إلى قلاعهم. وحينها فقط سوف يبدأ في التصرف معهم!

لم يفكر كينيساري في مهاجمة الحصون أو المدن الحدودية. لقد أدرك بالفعل أنها ليست حربه. لكن قرى للسلاطين المعادين العارية سوف تشعر بيده. وستكون يده في الدم حتى المرفق. سيبيد الناس، ويسرق المشية!

وقد ثبت أن حسابات كينيساري صحيحة. فقد وصل السلطان الحاكم أحمد مع إلى النقيب ليبيديف الذي لم يتحرك من ايرجيز قواته فقط في أواخر يوليو. وجمع أريستان



وباي محممد بالكاد نصف القوات التي خططا لها ولم يتمكننا من تقديم دعم جدي للعقيد بيزانوف. وقد اضطر الى أن يطلب المساعدة من أومسك. وعندما جاءت كان تحت تصرفه حوالي خمسة آلاف جندي وتولنجوت. لكن الوقت قد ضاع.

أصبحت مفرزة العقيد بيزانوف بهذا الشكل هي العدو الأقوى. وكبداية أرسل كينيساري إليها مفرزة صغيرة يقودها نوريزباي الذي بدأ القتال.

وفي منتصف أغسطس حلت حرارة ما قبل الخريف المنهكة. وتعبت المفرزة التي قوامها خمسة آلاف مقاتل التي جمعت من مختلف قوات العشائر ومن قرى الأغوات السلاطين البعيدة بسبب سيرها لمدة يومين من قلعة ساخارنايا. وفي المقدمة على الخيول السوداء سار العقيد بيزانوف ممتلئ الجسم عظيم الشارب والحكام السلاطين أحمد وباي محمد وهما يحملان أيضا كتافة العقيد. وذهب في الصباح الأغا سلطان الثالث أريستان مستغلا معرفته بهذه الأماكن إلى قرية بعيدة. ووعد بأن يلحق بهم في المساء..

اتخذت المفرزة مكانا لها عند بحيرة سهبية صغيرة من أجل الراحة. وقد أحرقت شواطئها من الحرارة، وكانت السهوب كلها ملساء مثل لوح مستو. ومع ذلك فقد انطلقت الدوريات في اتجاهات مختلفة، وفحصوا الوديان، وأدنى الفتحات. لم يكن هناك أحد الجوار، وسقطت السناجب في جحورها عندما اقتربوا منهم. ثم من سيجرؤ على مهاجمة مفرزة كبيرة وقوية كهذه في وسط السهوب؟ لذلك لم يرسلوا أي دوريات إلى موغودجار التي كانت تلوح في الأفق من مسافة ليست بعيدة. كل كل شيء كأنه على كف أيديهم.

ترجل الجنود والتولينجوت عن خيولهم، وبدأوا يستعدون للنوم. أطلق أحد الضباط النار من بندقيته على البط الذي كان جاثما على سطح البحيرة. ثم وضعوا البنادق في صناديق، وبقي الحراس وحدهم متيقظون.

ولكن ما أن خلد إلى النوم الناس المتعبون من عناء يوم كامل حتى دوت من بعض جنبات المخيم الضخم صرخات تمزق الروح: "إنذار! كينيساري! كينيساري!.." واندفع فوق النائمين سيل عارم، وهوت ضربات ثقيلة فوق رؤوس الجنود القافزين في فزع. وقبل أن يتمكنوا من استجماع قواهم هوى على المخيم سيل ثان وثالث.

- أبلاي!.. أبلاي!..

- أجيباي!..

- كينيساري!.. نوريزباي!..

لقد استمر هذا عشر أو خمسة عشر دقيقة فقط، وفجأة حل الصمت. واختفي فرسان الليل كأنهم ذابوا في الضباب. ولم ينبأ عما حدث سوى صراخ وأنين الجرحى.



قام بهذه المذبحة الليلة في صفوف مفرزة العقيد بيزانوف المشتركة رجال نوريزباي الذي أرسل إلى الأمام. لقد وصلوا إلى سفح موغود جار قبل يومين وهم يعلمون أن مفرزة بيزانوف ستمر تحديدا من هذا الطريق. استغلوا أصغر الحفر، وشجيرات شيا والأخاديد، والجداول الجافة التي توجد على مسافة مناسبة من البحيرة، وتمكنوا من الاختباء لدرجة أن واحدة من رحلات دوريات الجنود مرت فعليا خلال مئة فارس، ولم تر شيئا.

مع بداية الظلام أمر نوريزباي رجاله بالخروج من المخابئ، وعمل إحماء لإزالة خدر اليدين والقدمين. وكان الخيول أدركت أهمية الصمت فنفضت عن نفسها الغبار بحذر. ألبسهم أحذية لباد مخيطة ثم نزعوها منها وهم يقفون على مسافة مائتي خطوة تقريبا من نار المخيم المتوهجة.

وقد قسم نوريزباي وأجيباي الألف مقاتل إلى عشرة صفوف هجومية. وتقدمما هما الجميع على حصانيهما الشهيرين أكوز وأكيل، وقد خفضا رمحيهما الثقيلين. وحافظ كل قائد مائة - جوزباشي - على الفواصل بين المئات وهو يعد حتى المائة. ولكي لا يحدث في الظلام خلط بين رجالهم والأعداء تقرر بعد الهجوم الانطلاق دون توقف صوب رمال أيرتاوسكي.

عندما اندفعت المئة الأولى إلى المخيم، ودوت صيحتها الحربية بدأت هناك مثل تلك الفوضى التي يبدو أنها ستحل يوم القيامة. وقد تكبدت آخر المئات وهي تصطدم بالخيام الساقطة والناس المسرعة بعض الخسائر.

وعلى الرغم من الهجوم المفاجيء فإن مفرزة بيزانوف التي كانت منتشرة لمسافة ميل ونصف الميل على طول الساحل لم تتعرض لخسائر كبيرة. فلم يصب أحد من النائمين في الخيام أما من اندفع إلى الخارج فقد داسته الخيول أو تعرض لضربات الهروات والصولجانات المغطاة بالحديد. ولم يقتل منهم سوى مئة جندي وتولنجوت وجرح أكثر من ذلك بقليل.

وبحلول الفجر حفروا مقبرة جماعية ضخمة حيث دفنوا الجنود الروس والتولنجوت الكازاخ معا. وبأمر من العقيد بيزانوف أطلقوا وابل متنافر من الرصاص على تل جديد آخر، وأغلقت صفحة مأساوية أخرى من هذه الحرب. وفتحت الصفحة التالية.

في ذلك الوقت جاء السلطان الحاكم أريستان الذي غادر البلاد، مع خمسمائة من الرجال المرتاحين. أمره بيزانوف أن يسير على الفور وراء محاربي كينيساري. بعد فترة من الوقت تحركت خلفه المفرزة بكامها وانتشرت مسافة فرسخين. وعلى الأرض الجافة شوهدت



آثار الفارسن الراكبين على الخيول الذين مروا من هنا مؤخرا.

لم يعد العقيد بيزانوف يتقدم الجيش بنفس شكله الأنيق السابق. في الليل تمكن بالكاد من تقادي المتمرد المندفع والتي خدشت هراوته كتفه فقط. والآن تعافي الكولونيل من الصدمة.

عندما أشرقت الشمس رأو في الأمام عند الأفق فرسان كينيساري المغادرين. وعلى مسافة معينة تبعتهم مفرزة أريستان. وأمر العقيد بيزانوف بإعادة التشكيل. الآن تحركوا عبر السهوب في تشكيل مفتوح. بيزانوف نفسه في المركز، وأبناء جانتورا على الأجنحة، وأحمد على اليمين، وأريستان على اليسار. وأغلق السلطان الحاكم باي محمد المؤخرة.

بدا أن فرسان نوريزباي لم يتعجلوا الإفلات من المطاردة، وحافظوا على مسافة ثلاثة أو أربعة فراسخ في الأمام. وعندما أمر العقيد بيزانوف بزيادة خطوة إلى الأمام، أسرعوا هم أيضا في المسير. لم يلاحظ المتعقبون المولعون بالعدو الوادي الذي يقع على الجانب الأيسر المزروع بكثافة بأشجار تشي. وبقيت ورائهم على مسافة بعيدة قافلة عسكرية مكونة من مائة عربة تحمل الغذاء والذخائر. وما إن ابتعدوا مسافة خمسة أو ستة فراسخ أخرى حتى سمعوا من خلفهم طلقات رصاص وبعد ذلك عدة انفجارات مكتومة.

بعد أن عاد بيزانوف إلى الورا رأى عربات محترقة، وسائقها القوزاق مقطعين. وقد أحرق المتمردون الذين أعدوا كميننا ما كرا للعقيد الكسول بعض براميل البارود، وأخذوا البعض الآخر معهم.

وقد حكى رئيس القافلة الذي نجا من الموت مصادفة أن المهاجمين كان يبلغون مائتي رجل بقيادة الباتير أجيباي. إنهم لا يفكرون أن يذهبوا بعيدا، ورأهم في الأفق يتجهون إلى اليسار. غير أن بيزانوف كشف خداعهم هذه المرة ولم يذهب ورائهم. وترك الحماية اللازمة مع بقايا القافلة، ثم واصل السعي وراء نوريزباي بكل ما لديه من قوة.

بقي نوريزباي مع خمسمائة مقاتل. وتوجه مائتي رجل بقيادة أجيباي للهجوم على القافلة، وهم الآن يوجدون على مسافة خمسة عشر فرسخا من الشرق. وسوف يخلد ثلاثمائة فارس للراحة في موغودجاري بعد أن استنفدت خيولهم قواها. وبعد أن يستريحوا، ويمرروا المفرزة بجوارهم سيتعين عليهم أن يضايقوه من الخلف.



وقد نجحوا في دفع مفرزة بيزانوف بعيدا إلى الرمال كما أمرهم كينيساري. وهناك في الصحراء العارية سوف يداهمم الخريف بأمطاره ورياحه المطر والرياح، وحينئذ سيعودون أدراجهم. وبعدها سيكون كينيساري طليق اليدين، وسيبكي الناس في جميع القرى بعد هذه الغارة!

في اليوم الرابع من السعي ورائهم خطرت على بال الشاب المتحمس نوريزباي فكرة متعطرة بأن يقضي بالخمسمائة فارس الذين معه على المفرزة المكونة من خمسة آلاف جندي. وكاد هذا أن يكلفه حياته، ويمنعه من الوفاء بالأمر كاملا.

كان نوريزباي سيرتكب خطأ كبيرا إن لم يكن بجانبه أجيبي المخلص والمحنك. في الفجر هاجم خمسمائة فارس بقيادةه معسكر بيزانوف. ولكن العقيد أمرهم بتشديد الحراسة، وعدم وضع البنادق في الصناديق. وقد قوبلت الكتلة الخيلية المندفعة بسرعة إلى المخيم بطلقات الرصاص فانهارت بعد أن وصلت إلى أجزاء متفرقة. وقتل منهم حوالي مائة محارب ظلوا منطرحين على الأرض في حين لم تتكبد مفرزة بيزانوف غير خسائر طفيفة. وقد أصيب نوريزباي في كتفه الأيمن وتمكن نيكولاي جوبين أن ينقذ حياته إذ أمسكه في الوقت المناسب قبل أن يسقط عن حصانه. وعلى الرغم من نوريزباي قد أفلت مطاردة بأمان لكن حتى الربيع المقبل لم يكن قادرا على المشاركة في المعارك.

ولكن الشيء الأهم هو أن أحد رجال نوريزباي من الجرحى الذين وقعوا في الأسر قال أثناء الاستجواب أن كينيساري مع جيشه الرئيسي ليس هنا وإنما في كارا تورجاي. أدرك العقيد بيزانوف أنه خسر عشرة أيام عبثا، وعاد بسرعة. وبعد مسيرة شاقة لمدة أسبوعين وصلت مفرزة بيزانوف المتعبة والمرهقة إلى المنطقة بين إرجيز وأولكياك. لقد أراد أن يتحد مع مفرزة ليبيديف وتولنجوت السلطان الحاكم أحمد الموالي له ولكن قوات كينيساري المستريحة وغير المنهكة قطعت عليه الطريق.

وفي هذا الوقت بدأت أول أمطار الخريف في التساقط. أراد كينيساري أن يتجنب معركة مفتوحة فأخذ يتنقل بين ضفتي نهر إرجيز اليميني واليسرى، ثم توجه إلى مكان ما في موغود جاري واختفي تماما عن الأنظار تماما. انسحب بيزانوف إلى أورينبورج، وفشل في الوفاء بمهمته.

وما إن وصلت مفرزة بيزانوف إلى أورسك حتى ظهر كينيساري مرة أخرى في السهوب. ومع مفرزة من ثلاثمائة وخمسين فارسا هاجم على الفور قرية السلطان الحاكم أريستان الذي أقام مخيمه الشتوي بالقرب من نهر أوي. وقد استولوا على ثلاثة آلاف ونصف ألف



رأس من الخيول، ومثل هذا العدد من الجمال، وسبعة آلاف رأس من الأغنام والكثير من الماشية. وأصبحت هذه الهجمات تحدث كل يوم تقريبا، وصارت المنطقة فقيرة ومدمرة على نحو متزايد. لم يذق الناس طعم النوم فلم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا سيقون على قيد الحياة في الغد وما إذا كانوا سيفقدون آخر شاة لديهم. ولم يعد أحد يؤمن بنوايا كينيساري الحسنة غير القليل من الناس.

وعادت المفازر المرسلتة من الحصون الحدودية كالعادة بخفي حنين. وسرعان ما تحولت الحرب إلى غارات نهب متبادلة بين السلاطين. وفي هذا الخريف وقع فقط اشتباك مفتوح مع مفرزة النقيب ليبيديف التي تلقت دعما أكبر.

كان ليبيديف الذي كان أسيرا لدى كينيساري حريصا على الانتقام بنفسه. وخرج مرة أخرى مع مفرزته من كاركارالي، واجتاز كارا أوتكيل، ثم سار في الطريق السهي القديم قاصدا أوليتاو. كان معظم أرجين، ونيمان وكيشاك من سكان هذه الأماكن لا يزالون يدمون كينيساري. ولكن كانت هناك أيضا قرى معادية بتأثير من يردن سانديبايف، وكذلك قرى من الجزء الأوسط موالية لأكوشكار كيشكنتايف. وكانت أراضيهم تقع في منطقة أرجينات وكاراكوبين وكاشيرلي، وقرى ليبيديف أن يعتمد عليهم.

وفي الطريق نهبت مفرزة ليبيديف المشتركة عدة قرى حددها لها السلاطين الحكام متهمين إياها بدعم كينيساري. وقد اطلقوا النار على المتمردين المقبوض عليهم في الحال. وارتكب الجلادون جرائم سطو وعنف.

وبدورها مارست مفازر كينيساري تحت قيادة الباتير إيمان والباتير جانايديار نفس القسوة ضد القرى التابعة للسلاطين الحكام. وفي مصب نهر ترسكان واجهوا مفرزة ليبيديف. وتبين أن القوات متساوية تقريبا - ألف رجل على كل جانب، ولكن الجنود الذين كانوا في مفرزة ليبيديف كانوا يحملون أسلحة.

لم يفكر رجال إيمان وجانايديار ولو للحظة في مواجهة الجيش النظامي في المنطقة المفتوحة، لكنهم استخدموا طريقتهم المعتادة. لقد نصب المتمردون كمينا في واد عميق مزوع بأشجار تشي الكثيفة، ومرت بجوارهم دورية ليبيديف الرئيسية، وهاجموا بشكل غير متوقع الجنود الذين لم يتمكنوا من إطلاق النار. وبدأت معركة التشابك بالأيدي والتي قتل فيها كثير من الناس من الجانبين.

عاد الجنود الذين ترجلوا عن خيولهم تدريجيا إلى طبيعتهم، ونظموا دفاعا دائريا. وأمر إيمان وجانايديار بالتراجع، واختفي المتمردون بسرعة في الوديان وأدغال أشجار تشي. بعد



حين رأوا أنهم يتجمعون على تل بعيد ولا يفكرون في الانسحاب. وبناء على أوامر من ليبيديف أقام الجنود والتولينجوت معسكرا وبدأوا في تعزيه.

وسرعان ما ظهر رجلان بالقرب المخيم، ولوحا بالناديل. واتفقوا على دفن القتلى. ومرة أخرى حفروا القبور طوال الليل، وعند الفجر دفنوا قتلى المعركة الصباحية.

لمدة شهر كامل كانت مفازر ليبيديف والباتير إيمان والباتير جانايدار تطارد بعضها البعض على طول سهوب الخريف الرطبة، وبقية خلفهم قري محترقة، ومحطمة، وتلال من المقابر الجماعية. وعندما سقطت الثلوج غادرت مفرزة ليبيديف إلى كاركارالي.

ولكن قبل ذلك قطع مائتي محارب بقيادة الباتير جانايدار ثلثمائة فرسخ في ثلاثة أيام، وهاجموا على نحو غير متوقع قرية زوجة السلطان الحاكم كونور كولدجا الأصغر سنا، ودمروها وأخذوا معهم كل الشباب الجميلات بما فيهم الجميلة زينب. لقد كان الباتير جانايدار الابن الوحيد للبك أورينباي يشحذ أسنانه منذ فترة طويلة على كونور كولدجا الذي سلب منه مرعى كيريج تاس على شاطئ يسيل، وأعطاه لقبه السلطان إبراي ابن جاكيباي. وبالإضافة إلى ذلك بفضل مكائد كونور كولدجا عين إبراي سلطانا حاكما لمنطقة أتباسار التي نشأت حديثا. والآن سوى الباتير جانايدار حسابه مع كونور كولدجا نظير جميع الإهانات التي لحقت به، ولكن مرة أخرى كان أكثر الناس تضرا هم البسطاء الأبرياء.

بعد سحق قرية السلطان الحاكم أريستان اختبأ كينيساري في جبال موغود جاري، وكان يرسل من حين لآخر المفازر السريعة للانتقام مع النشوة القرى والعشائر المعادية له. وعندما عادت مفرزة إيمان وجانايدار الموحدة من الحملة الطويلة خرج بنفسه للقائها. وكان الباتير إيمان على رأس هذه المفرزة.

قال كينيساري وهو ينظر حواليه:

- أهنئك بسلامة العودة يا أييكي!.. ولكن لماذا لا أرى صقرنا جانايدار؟- هل حدث له مكروه؟

صار كينيساري يدعو الباتير إيمان باسم الاحترام آياو باتير أو أييكي بعد الاقتحام الناجح على قلعة كوكالا غار على حدود منطقتي أورينبورج وسيبيريا. لقد استطاع إيمان باتير مع عدد من الفرسان دخول القلعة ليلا وتدمرها.

وأشار إيمان باتير بصمت إلى ذيل المفرزة. كان هناك على العربية يرقد جانايدار باتير الذي أصيب بعيار ناري في الساق خلال المعركة. ركض كينيساري تقريبا إلى هناك، وانحنى إلى وجه الباتير الجريح وقال:



- كيف حالك يا صقري؟

لكن جانايدار باتير كان فاقدًا للوعي منذ أن أصيب بالغرغرينا. خفض كينيساري رأسه. وتسرب الموالين له من التشكيل واحد تلو الآخر. إن فقدان جانايدار باتير سيكون ملموسًا بشكل خاص.

قال كينيساري:

- أحضروه إلي!

جاء إليه في هذه الليلة جميع الأطباء السحرة بالمنطقة بناءً على أوامر من كينيساري. رشوا الباتير جانايدار باللعباب، وأخرجوا الدم من الورم، وطردوا الروح الشريرة. ووقف كينيساري بجانبه طوال الليل مثل الحجر، وتابع كل ذلك بنفسه. وفي الصباح خرج من منزل اليورت.

قالت له امرأة عجوز:

- يا كيني جان، لماذا لا نعالجه بـ "أك جول"؟

نظر كينيساري لها بنظرة غائبة، وأوماً بالإيجاب:

لقد كانت طريقة قديمة ونادراً ما تستخدم. وعندما لم يكن هناك شيء يفلح في مساعدة المحارب الجريح كانوا يستدعون امرأة من عشيرة التوري. وكان عليها أن تمشي فوقه أمام الناس جميعاً. فإذا كانت المرأة مخلصاً لزوجها يشفي المحارب، أما إذا كانت قد خانته ولو لمرة واحدة فإن المحارب يموت على الفور.

لقد كان "أك جول" اختباراً للإخلاص الأنثوي أكثر من كونه وسيلة للشفاء. ولم يكن السلاطين التوريون يستخدمونها كثيراً لمعرفةم بعدادات زوجاتهم. ووافق كينيساري على ذلك لأن جميع الوسائل الأخرى قد سبق استخدامها.

تجمع أكثر من خمسة عشر سيدة من نساء التوري أمام منزل كينيساري البيضاء. وكانت بينهن شقيقته المحاربة بوباي. طلبت المرأة العجوز من تلك السيدة التي لم ترتكب خطيئة الجسد أن تمشي فوق جسد الباتير جانايدار المحتضر. ترددت السيدات، وخفضن عيونهن بخجل، واختبأت كل واحدة منهن خلف الأخرى. ولم تتقدم أي واحدة منهن إلى الأمام. وعض كينيساري شفتيه.

تنهدت امرأة مسنة وقالت:



- من المؤسف أن كنتنا كونيمجان ليست هنا!

لأول مرة رأي الناس كيف ارتجف كينيساري. لقد شعر فجأة بألم حاد في صدره وهو الذي يستطيع أن ينظر بهدوء إلى جبال الجثث، ويضحى بكل مشاعره الإنسانية الأخرى من أجل كرامته. بالطبع كانت كونيمجان ستمر من فوقه. ولكن كان قد مر عامين من دونه. فمن يدري.

رفع رأسه، ونظر بغضب إلى زوجات أبنائه وعماته. إنهن بلا شك خاطئات. فلديهن الكثير من الوسائد الحريرية والكثير من أوقات الفراغ. لقد كان خطأ كبيرا أنه وافق على طلب العجوز الشمطاء استخدام طريقة "أك جول". إنهن الآن قد ألحقن العار بعائلة أبلاي كلها أمام الشعب!

وفجأة سمعوا صوتا نقيًا يقول:

- إذا سمحتم لي فإنني سوف أمشي فوق ساق الباتير جانايدار!

هذا ما اقترحه أكبوكين، واعتقد كينيساري أنه لم يخطيء عندما زوجها لشقيقه نوريزباي. وهنا تدخلت المرأة العجوز مرة أخرى، وقالت وهي تلوى رأسها كأنها غراب يقف على الجيفة:

- لا يمكنك يا كنتنا الصغيرة!

- على الرغم من أنك متزوجة من سلطان لكنك لست من نسل التوري.

نظر كينيساري بغضب إلى المرأة العجوز، لكنها لم تتوقف وقالت:

- يا بوباي لماذا لا تحاولين؟

- كفي عن هذا الهراء! - قاطعتها بوباي التي لم تتلعثم قط في الحديث.

- حياتنا عسكرية. إننا نجلس في السرج أياما طويلة، ثم يغلبنا نوم مميت، وإذا

استغل ذلك أحد الفرسان الأذكياء، هل أقتله من أجل ذلك!

كان الجميع يعرف عن أي فارس ذكي تتحدث بوباي. لقد كان جانايدار باتير الذي كان مستلقيا على سجادة في منزل اليورت وكان ينتظر شفاء خارقا للعادة.

وفي وقت لاحق غنى الناس:

منذ الميلاد كان جانايدار محظوظا

لكنه تلقى رصاصة بالساق.



وكان عليها أن تمشي فوqه

امرأة طاهرة (كما قال الطيبيبة الساحرة).

لكنهم لم يجدوا مثل هذه في عائلة التوري.

ومنذ ذلك الحين أصبح منظرهن يثير النفور.

وقف كينيساري، ونظر إلى قدميه متفكراً. أي أبناء يمكن أن يولدوا من هؤلاء النساء؟ هل ستتحق النبوة بأن عائلة التوري ستتحول إلى مخلوقات صغيرة؟ وكيف سيسوس الأجزاء الثلاثة إذا كان عاجزاً عن إقرار النظام في عائلته؟

سأل أحدهم:

- هل توجد إناث من التوري من بين أولئك الذين جلبوا بالأمس؟

- نعم!

جلبوا ثلاث نساء أسرن خلال الغارات على القرى المعادية له ومن بينهم زينب زوجة السلطان الحاكم كونور كولدجا الأصغر سناً. وأوضحت العجوز لماذا دعتهن للحضور.

وافقت زينب التي كانت مغامراتها العاطفية معروفة في جميع أنحاء السهوب بشكل هادئ وقالت:

- دعوني أمشي فوqه!. - إن والدي وزوجي كلاهما من عائلة التوري.

لم يكن لكينيساري أو أي شخص آخر أن يعترض إذا ما أعلنت المرأة التورية نقاءها وشرعت في تنفيذ ذلك الأمر. أما زينب فقد فكرت في كل شيء بعقلها الشرير. أي باتير هذا الذي يموت بسبب أن امرأة خاطئة مشت عليه؟ وإذا ما مات يكون كينيساري قد خسر أحد ذنابه. ولكن لن يحدث شيء، كل هذا هراء. وهل الله حقاً يراقب تنورتها؟ الأ يمكن أن يغفل عنها خطاياها؟.. ولكن سيكون هناك فرح كبير إذا كان ما شفي هذا المحارب الشجاع! إن كل الشعب الكازاخي يعرف فضله. وسيكون الأمر مضحكاً حين يعلمون أن امرأة خاطئة قد تفوقت بالحيلة على كينيساري وعلى جدهم المشترك أبلاي الذي أقر قانون "أك جول"!

تعجب الناس من وقاحتها، ونظروا إلى كينيساري الذي أوماً بالإيجاب.

لم ترد الساحرة زينب أن تنكسر أمام كينيساري الرهيب الذي يصاب الناس بالرجفة لدى سماع اسمه فقط. رفعت ببطء هدب فستانها الحريري، ومع عبارة "باركني يا إلهي!" مشت بسهولة فوق جاناي دار.



ربما تكون معجزة قد حدثت بالفعل ولكن تحديدا في تلك اللحظة فتح الباتير عينيه. وعندما رأي ما يمكن أن يراه هو وحده الآن، ارتجف جانائدار حتى أنه أراد أن يقف على قدميه. وبدأت الحمرة الطبيعية تغطى خدوده الشمعية.

وبعد بضعة أيام استطاع الباتير جانائدار أن يقف ويمشي، ويضغط على ساقه المصابة. لقد زال الورم، وتماثل للشفاء تماما. لم يكن كينيساري يعرف ما الذي أسعده أكثر شفاء الباتير أم إنقاذ شرف عائلة التوري. وتعين عليه أن يكافأ زينب بالحرية نظير هذه الخدمة على الرغم من أنها زوجة ألد أعدائه. وقد وجه إليها كينيساري الدعوة للمجيء إليه ليبلغها بهذا القرار.

كان مع كينيساري في منزل تايماس، وأبيلغازي، والباتير أجيبي، ووالباتير بوخارباي، والباتير إيمان، وجيكي باتير وغيرهم. ولكنهم كانوا جميعا بالنسبة إلى زينب مجرد رجال، وقد تعاملت معهم على هذا الأساس.

قال كينيساري بجديّة:

- على الرغم من أن كونور كولدجا عدونا إلا أننا لن نسيء إلى امرأة كريمة. إننا جميعا أقرباء، وجدنا واحد. قولي لي ما هي رغباتك!

قالت زينب وهي تهز كتفها السمين بتكلف:

- وهل حقا ستحققها لي؟

- خان الكازاخ لا يتكلم مرتين!

ابتسمت زينب وقالت:

- إذا كان الأمر كذلك فإن لدي رغبة واحدة فقط يا عزيزي الخان، وشقيق زوجي.. - لا

تبعدني عن خادمك الشجاع كارا أوليك!..

كانت كلماتها كقذيفة أطلقت على حين غرة من مدفع على منزل اليورت. صمت

الجميع ولم يستطيعوا أن يعودوا إلى طبيعتهم لفترة طويلة.

- ماذا قلت؟!

لأول مرة في حياته اعتقد كينيساري أنه لم يسمع جيدا. لكنها نظرت إلى الجميع

بعيون مشرقة وصافية. كان البسطاء من الناس يعرفون أنها كل ليلة تهرع إلى جلاد

الخان وحارسه الذي أغراها بشيء ما.

- إنني أطلب منك أن تزوجني خادمك المبجل كارا أوليك.



- أي كارا أوليك؟! عبيدي!

- نعم.

استشاط كينيساري غضبا، وبدأ يتحول ببطء إلى اللون الأرجواني. ثم نظر باشمزاز خفي إلى المرأة التي أنقذت بالأمس فقط كما كان يعتقد شرف طائفة التوري كلها. وهل هناك عار أكبر من أن تتزوج امرأة من التوري بأحد الأرقاء؟

لم تفكر زينب مطلقا في التخلي عن طلبها. وقالت وهي تنظر بثبات إلى كينيساري: - إن الخان لا ينبغي أن يتكلم مرتين.. وعندما تزوجني بعبدك فإنك تكون قد انتقمت بقسوة من كونور كولدجا.

خفض كينيساري رأسه وقال:

- لك ما تريد.

هبت عاصفة من السخط حواليه لدي سماعهم ذلك. وجلس أفراد التوري منكسين رؤوسهم. ولكن البسطاء من الناس قالوا إن الخان كينيساري خال من التحيزات الطبقيّة، ويميل قلبه إلى عامة الناس. كان زينب في غاية السعادة. لكنها لم تكن تعرف أن كينيساري سينتقم منها للعار الذي ألحقته بعائلة التوري.

كشفت زينب لكينيساري تعبيراً عن امتنانها عن الدليل السابق سامين جاسوس كونور كولدجا وأوجار، وكذلك تابعيه جاكيب وساكيب. وقد نفذوا فيهم حكم الإعدام شنقاً بناء على أوامر كينيساري. وبعد شهرين كسر كارا أوليك وكأنه في نوبة غيرة فقرات عنق زوجته النبيلة. وكان هذا درس كينيساري للنساء الخائئات لطبقتهن!

حل فصل الشتاء، وأوقف كينيساري غاراته مؤقتاً. ولكن هذه المرة لم يسرح محاربيه، بل على العكس من ذلك دعا إلى الجيش كل فارس شاب قادر على حمل السلاح. وعلى الرغم من الصقيع الشديد كان يعلمهم يوميا فن الحرب محاربون أبطال من ذوي الخبرة. وللحفاظ على مثل هذا الجيش الكبير كان بحاجة إلى المال. وفرض كينيساري ضريبة إلزامية ليس فقط على القرى الخاضعة له بل أيضا على عدد من الأراضي المجاورة. وأدى ذلك إلى انفجار جديد من السخط. فقد كان عليهم أن يدفعوا ضريبة مزدوجة للملك الأبيض وسلاطينه الحكام من ناحية، ومن ناحية أخرى للخان كينيساري.



جاء عام 1844م أو عام الفأر. وبحلول الربيع امتلك كينيساري جيشا مدربا قوامه عشرين ألف جندي. بعد أن اقتنعت الحكومة أن كينيساري بعيد المنال في السهوب الكازاخية المترامية الأطراف وأن قوات المفازر العقابية المنفصلة لن تقضي عليه قررت أن تطوق منطقة عملياته بأكملها. ولهذا الغرض أرسلت وحدات عسكرية كبيرة إلى ضفتي إرجيز وتورجاي. وكانت مهمتهم هي شل حركة المتمردين من ثلاثة جهات.

وبما إن كينيساري كان يسبب كثيرا من القلق بغاراته من أوليتاو وأرجيناتا فقد أرسل الأمير جورتشاكوف تقريرا إلى المستشار نيسلرودي في منتصف العام الماضي. وقد طلب فيه الإذن بتوطين هذه المناطق بالقوزاق، وإنشاء حامية خاصة هناك من جنود فوج سيبيريا الحدودي الثاني. وافق المستشار لكن القوزاق لم يرغبوا في الانتقال إلى أوليتاو حيث كانت نيران التمرد مستعرة على أشدها. ومع ذلك تم البدء في بناء قلعة هناك، ونقلت خمسين عائلة من القوزاق إلى هناك بالقرعة، ونقلت كذلك فرقة من الجنود. والآن تم تعزيزها لتصبح عانقا خطيرا أمام المتمردين. بالإضافة إلى القوات التي جاءت من أورسك ومن ضفاف تورجاي أمر حاكم أورينبورج العسكري السلطان الحاكم أحمد جانتورين بتشكيل مجموعة من محاربي السهوب. ووعد بأنه إذا توفي المتطوع في المعركة فإنهم سيتكفلون بعائلته مدى الحياة.

وتلقت جميع القوات المعنية الأمر بالتجمع في الروافد العليا من تورجاي، وانتظار أوامر أخرى. ووفقا للتسلسل الذي تم ترتيبه سلفا خرج خمسمائة جندي تحت قيادة النقيب ليبيديف في الخامس من مايو من أورسك، وتحركوا إلى قلعة كاميشوف. وبعد أن يتحرك ليبيديف على طول نهري سيل يجب عليه أن يذهب إلى تورجاي قبل العشرين من مايو للقبض على كينيساري وإيداعه السجن. وفي الوقت نفسه كان على ميليشيا السلطان أحمد جانتورين أن تأتي أيضا إلى هنا.

وجاءت إلى نهر ساريسو مفرزة قائد المائة فالاليف الذي كانت مهمته منع كينيساري من الذهاب إلى خانات آسيا الوسطى أو إلى أراضي الجزء الأكبر وتم التخطيط لعمل تغطية واسعة من الأجنحة من جانب أورينبورج. لقد كانوا يريدون أن يحرموا كينيساري من ميزته الرئيسية المتمثلة في سعة نطاق عملياته.

وعين الجنرال جيمتشونيكوف قائدا أعلى لكل هذه المفازر وإدارة جميع العمليات. وفي أوائل مايو وصل مع موظفيه إلى قاعدة أوليتاو الأمامية التي لم تكتمل بعد، وشرع في قيادة العمليات ضد كينيساري.

في ذلك الوقت كان كينيساري يقف على شاطئ إرجيز، وعلم من خلال العديد من جواسيسه بتحرك جميع القوات الموجهة ضده. كان يدرك جيدا أنه إذا اجتمعت قوات



أورينبورج وسيبيريا في تورجاي فانه سوف يقع في الكيس. لذلك نشر الشائعات حول انسحابه، وأرسل إلى الجنرال جيمتشيوجنيكوف تقريراً كاذباً بأن قوات كينيساري الرئيسية تتقدم نحو أوليتا. قرر جيمتشيوجنيكوف أن يقابله هنا، ويخوض ضده معركة حاسمة فأمر مفرزة لبيبيديف بتغيير مسارها، والذهاب أيضاً إلى أوليتا. لذلك لم يتمكن لبيبيديف من الوصول إلى تورجاي في الوقت المناسب.

غير أن لبيبيديف قد علم من خلال بكوات تارتاركارا أن كينيساري في إرجين، وأنه تقابل في العشرين من مايو مع مفرزة السلطان أحمد عند معبر طالدي. ولكي لا يهرب كينيساري تحركت المفرزة الموحدة على عجل نحو تورجاي ولكنها لم تجد القوات السيبيرية هناك. وأصبح طريق كينيساري مفتوحاً إلى الجنوب. وأدرك الجنرال جيمتشيوجنيكوف خطأه في وقت متأخر جداً.

كانت بداية الصيف باردة وممطرة. وعاد جنود لبيبيديف إلى أورسك بخفي حنين وكواحلهم غارقة في الطين الرطب، ويجرون ورائهم المدافع الثقيلة. وفي الطريق أبلغ شخص ما النقيب لبيبيديف أن البيك بايكادام الموالي للحكومة ربما يدعم كينيساري سرا فأمر لبيبيديف بتدمير قريته.

أصبح وجه حاكم أورينبورج العسكري أوبروتشيف قاتماً من الغضب بعد أن علم كيف خدع المتمردون الجنرال جيمتشيوجنيكوف غير الحكيم. وقدم العقيد لبيبيديف إلى المحاكمة بسبب عدم مثابرتة في تعقب كينيساري وتدميره قرية بايكادام بك. وقد عين القائد العقيد ديدكوفسكي لقيادة المفرزة.

كان مصير مفرزة قائد المائة فالاليف مأساوياً. فقد وصل في الوقت المناسب إلى نهر ساريسو، ووقف هناك، وأغلق الطريق إلى الرمال. أرسل إليه كينيساري خمسمائة محارب بقيادة يرجان ابن أخيه المتوفي سارجان وتايماش المحنك الماكر. وأمرهم بعدم الدخول في معركة مع مفرزة تمتلك مدفعا، وإنما يعملون فقط على استنفاد قوتها، وجعلها تنسحب.

بعد أن رأى قائد المائة فالاليف مفرزة المتمردين الكبيرة بدأ في تعقبهم. وبدأ فرسان تايماش في التوجه نحو بلغاش، وسعى ورائهم القوزاق الذين نالوا قسطاً من الراحة مدة يومين. وقد دل فالاليف على الطريق أدلاء من عشيرة شوميك.

في اليوم الثالث قام قائد المائة فالاليف بتقييم الموقف، ثم قرر إنهاء المطاردة عديمة الجدوى. وفي تلك اللحظة ركض إليهم بعض رجال كينيساري، وفرح قائد المائة عندما أفسموا أنهم يكرهون كينيساري، وأنهم يعرفون الطريق أفضل من رجال شوميك الذين ليست لهم خبرة كبيرة بهذه الأماكن.



أقنع المنشقون قائد المائة فالاليف بالبقاء في مكانه حيث لن تجد مفرزة تايماس مكانا تذهب إليه فأمامهم صحراء بلا ماء، وسيضطرون إلى العودة عبر هذا المكان. وسيكون من الممكن التغلب على المتمردين خائري القوى المتعيين بأيد عاريتة.

استيقظ الجنود والقوزاق في الصباح، ورأوا أن العشرة أدلاء من عشيرة شوميك يسبحون في دمائهم. - ولم يجدوا أي أثر "للمنشقين". لقد جاءوا إلى فالاليف لكي يحرموه من الأدلاء.

سرعان ما ارتفعت الشمس في كبد السماء، وحينئذ أدرك فالاليف حقيقة الموقف الذي أصبح فيه. فأينما نظرا لا يجد غير السهوب الشاسعة الرتيبة بأرضها المالحة ومجاري الأنهار الجافة. ولاح السراب الخادع في الأفق، وكان من المستحيل تحديد المسار الذي جاءوا من خلاله إلى هنا. بالإضافة إلى ذلك بدأ العطش يعذب الناس والخيول أما الأدلة الذين كانوا يستطيعون من خلال أعشاش النمل أن يحددوا وجود المياه الجوفية القريبة فقد كانوا راقدين مقطوعي الحلق.

هاموا جميعا على وجوههم. وقد تمكن عشرة جنود فقط مع قائدهم المحتضر من الحمى من الوصول بعد أسبوع إلى قرية إيستي التي كانت قد نزحت إلى بريبالخاش.

لقد تعامل العقيد ديدكوفسكي الذي كان على عكس سلفه ليبيديف لا يعرف السهوب جيدا مع كينيساري برعونته. أولا لقد تغلى عن القافلة التي تتكون من عربات، واستبدلها بظهور الجمال. ونتيجة لذلك امتدت القافلة في المفرزة لمسافة ميلين وتطلب لحمايتها ما يقرب من نصف القوات.

ومرة أخرى استخدم كينيساري تكتيكه في الاستدراج بعد أن عهد إلى نوريزباي الذي تماثل للشفاء والباتير أجيباي بقيادة مفرزة ديدكوفسكي عبر السهوب. وتحرك هو نفسه مع قواته الرئيسية إلى حيث لم يكونوا ينتظرونه، وانتقل خلال يومين من إرجيز إلى توبول. ولم يتمكن السلطان الحاكم أحمد جانتورين حتى من أن يأمر رجاله بركوب الخيل.

في خلال هذه الفترة تضاعفت كراهية كينيساري للسلطان أحمد. فقد علم أن أحمد جانتورين قد رأى كونيمجان التي كانت تعيش حينئذ تحت الحراسة في أورسك وطلب منها قبل ثلاث سنوات أن تنسى كينيساري. وقال لها وهو يعدها بالحب والحماية: إذا كنت أول زوجة لكينيساري فستصبحين الأخيرة لدي! وردا على ذلك أظهرت له خنجرا حادا صغيرا.



لم يرحم رجال كينيساري أحدا. فقد قطعوا تقريبا مفرزة السلطان الحاكم بأكملها. وقتلوا أربعة سلاطين من الذين دعموا أحمد جانتورين ضد كينيساري. وتمكن عدد قليل من الناس من الفرار. وقيل ان نهر أولكياك الضحل قد ارتفع في منتصف الصيف، وأصبح لونه أحمرًا من الدم.

كانت هذه أقوى ضربه قام بها المتمردون. لم يعد العديد من البكوات والسلاطين يعولون على حماية القوات الحكومية، وبدأ وينصاعون لكينيساري مرة أخرى. وأصيب حاكم أورينبورج العسكري أوبرونشيف بالصدمة لما حدث.

ومع ذلك فقد انضمت بقايا مفرزة جانتورين التي لم يتم تجميعها بالكامل في وقت هجوم كينيساري إلى مفرزة ديدكوفسكي، وذهبوا معا للالتحاق بقوات الجنرال جيمتشوجنيكوف الذي كان ينتظرهم عند بحيرة ألكول بالقرب من تورجاي. ولكن كينيساري تمكن في هذا الوقت من نقل جميع قراه من وديان طالدي وإرجيز إلى المنحدرات الغربية لجبال موغودجاري، ومرة أخرى أفلت من الشباك التي نصبت له.

في أوائل أغسطس ظهرت فجأة وحدات كينيساري المتنقلة على حدود أورينبورج في الجزء الخلفي للقري المعادية له. وفي هذه المرة انتقم بقسوة خاصة من عشائر تورتكار وجاغالباي الذين دعموا السلطان الحاكم أحمد، وقدموا الأذلاء لمفرزة ليبيديف. ولم يرحم رجال كينيساري بريئا أو مذنبا، وسالت الدماء أنهارا. وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالات عانى الأبرياء أكثر من غيرهم. وقد سرقوا من عشيرة جاغالباي وحدها سبعمائة من الخيول وثلاثة آلاف رأس من الأغنام ومائتي رأس من الماشية.

وبعد بضعة أيام ظهرت فصائل كينيساري في قريتي ناسليدنيستي وأتامانسكايا، وهجموا على على قرية يكاترينسكايا حيث دمر المتمردون المستوطنة، واستولوا على الكثير من الأسلحة. وانتشرت شائعات عن تحرك المتمردين إلى أورينبورج وترويتسك عبر السهوب. وأصيب الناس في المستوطنات على طول حدود أورينبورج والقري الأمنة بالهلع والذعر.

وطالبت الحكومة القيصريّة مرة أخرى بأن يقضي قادة أورينبورج وأومسك على كينيساري. لكن الجنرال جيمتشوجنيكوف كان عاجزا حتى عن اكتشاف مكان القرى المتمردة. وبعد أن علم أخيرا بهجرة هذه القرى إلى موغودجاري أدرك عدم جدوى تعقبهم بقوات كبيرة، وخصص مفرزة متنقلة خاصة تتكون من مائتي وثمانين شخصا من القوزاق، ومائة وسبعين جنديا، ومدفعين خفيفين. وأمر المفرزة بالتحرك عبر جبال موغودجاري، وتطهيرها من المتمردين. وتحصن العقيد ديدكوفسكي نفسه على حدود شيت - إرجيز ليقطع على كينيساري الطرق المؤدية إلى مؤخرة القوات الحكومية.



وعندما وصلت المفرزة الخاصة المتنقلة بقيادة الجنرال جيمتسوجنيكوف إلى موغودجار اتضح أن كينيساري قد غادر إلى الروافد العليا لنهر إمبا، ولم يبق هنا سوى عدد قليل من القري تسكن في أماكن يتعذر الوصول إليها. وفي ذلك الوقت هطلت أمطار غزيرة، ولم يكن للمفرزة أي خيار سوى العودة من حيث أتت. وهكذا كما حدث في السنوات الماضية انتهت هذه الحملة دون تحقيق أي نتيجة تذكر.

ويحلول شهر ديسمبر عام 1844 م غادرت جميع القوات المخصصة لمحاربة المتمردين إلى أوليتاو، وأورينبورج أو إلى أورسك. وعلى الفور ظهر كينيساري مرة أخرى. وعلى الرغم من تساقط الثلوج فإن مفارزه المتنقلة بقيادة الأبطال جولمان، وإيمان، وجانايدار، ويرجان وناوريزباي، وجيكي باتير قد أضحت مضاجع قرى القوزاق على طول حدود أورينبورج بشكل دوري، وهاجموا قرى السلاطين الحكام وسرقوا الماشية أو ذبحوها. وأرسل عدة مفارز بقيادة الباتير أجيباي والباتير بوخاربييف والباتير كودايميندي لنفس الغرض إلى خانة كوكاند...

وفي أواخر نوفمبر أرسل كينيساري مفرزة كبيرة إلى قرى عشيرة جاباس لجمع الضريبة المقررة. ورغم علمه بموقف بيتابين الراض للانتقام الدموي من القرى المسالمة فقد وضعه على رأس المفرزة. وذهب معه نوريزباي.

في هذه المرة حدثت مأساة دموية بقيت ذكراها بين الناس مدة طويلة. كان رجال كينيساري أنفسهم يعلمون أن المشاعر متأججة إلى الحد الأقصى. وأصبح من الصعب جدا جمع الضرائب لكينيساري في القرى المتناثرة التي مزقتها سنوات الحرب الطويلة. ولكن البك جانغابيل استقبلهم بأذرع مفتوحة، بل وقدموا للمحاربين فتيات جميلات ليقضوا ليلتهم معهن. وفي الصباح تم القبض على المفرزة كاملة وتقطيعها إربا. وترأس جانغابيل المجزرة بنفسه. وبقي منهم اثنان فقط على قيد الحياة وهما نيكولاي جوبين الذي تم تسليمه لاحقا إلى السلطات القيصريّة، ونوريزباي. لقد أنقذت الباتير نوريزباي فتاة كانت نائمة معه والتي همست في أذنه في اللحظة الأخيرة أنهم جاءوا لقتله. قاد الجندي الهارب جوبين حصانه أكوز إلى نوريزباي الذي قفز من اليورتا عاريا، لكنه هو نفسه بقي ليمنع أي أحد من السعي وراءه.

طارد رجال جانغابيل نوريزباي فترة طويلة لكنه قتل ثمانية منهم في الطريق بما في ذلك كوكيرباتير ابن المامبيت. وتمكن بيتابين أيضا من الفرار إلى السهوب لكنهم أطلقوا النار عليه حتى امتلأ جسده فعليا بالرصاص والسهام.

كانت هذه بداية النهاية، وأدرك كينيساري كل شيء. إن الشعب لم يقبله. وكعلامة على الحداد رقد في فراشه ولم ينهض لمدة ثلاثة أيام. ثم قام بعد ذلك على رأس



محاربيه بمجزرة دموية في قرى جاباس. وقد نجا البك جانغابيل بمعجزة بعد أن اختبأ في كومة من الخرق.

وتخليدا لهذه المأساة لا يزال هناك اسم آخر للمنطقة وهو "جاساؤل كيرغيني" - "أي مكان موت قادة القوزاق" - وكذلك قبر وحيد على شكل تل يسمى "بيتابين دانيزي".

وهناك العديد من من مثل هذه الأماكن والأسماء في السهوب الكازاخستانية.



خاتمة

إن السهوب الكازاخية غنية بمدافنها القديمة! وإن بعضها تلال عادية، والبعض الآخر مقابر من حجر منحوت بشكل رديء، والبعض دولينات⁽²⁰⁾، أو النساء الحجرية كما يطلق عليها العلماء.

وعادة ما يكون هناك هذا تمثال حجري ضخم يقف على تلة صغيرة. وتشبه معالمة المرأة ولكن يوجد لدى البعض شوارب منغولية قديمة. ويمسك بعضهم بأيديهم المطوية أمام صدورهم كوبا، ويمسك الآخرون صولجانا. وفي بعض الأحيان يوجد بالقرب من هذا الدولن حصن صغير من الحجر الخشن. وبعد كل مائتين أو ثلاثمائة خطوة منها توجد حجارة مصقولة قليلا رباعية الأركان تسمى - بالي - حتى الدولن التالي.

يقولون أنه جلس ثلاثة أشخاص عند مقبرة سهبية على حجارة نصف مصقولة. كان الجالس في المنتصف هو كينيساري، وعلى يمينه جلس تايماس، وعلى يساره أبيلغازي. وكانت تلك هي العادة بين الكازاخ منذ زمن قاسم خان. وكان من المفترض أن يكون لدى الزعيم اثنين من المستشارين، وتسمى باسم المكان اللذان يجلسان فيه بجواره: فكان يطلق على الجالس على يمينه ميمنة، أما الجالس على يساره فيسمى ميسرة.

وكان هناك تقليد آخر لم يتغير منذ قاسم خان إلى أبلاي - فقد كان يتم تعيين السلاطين أو البكوات السهبين المؤثرين فقط في هذه المناصب الهامة، ويجب أن يكون الميمنة من أرجين، والميسرة من كيبشاك.

كان كينيساري منذ البداية يلتزم بالقوانين القديمة. فقد كان ميمنته هو تايماس من عشيرة أرجين، وميسرته أبيلغازي سلطان الكيبشاك وقريبه بالدم.

كان اليوم حارا جدا لا يتناسب مع بداية أغسطس. ولكنه أصبح باردا عندما بدأت الشمس تتجه نحو الأفق. وفي مكان ما هناك في المنعطف الأخضر من إرجيز توارت قرية كينيساري غير المرئية من هنا.

وإذا كان كينيساري في السابق لم يوصف بأنه ثرثار، فإنه في الأونة الأخيرة يمكنه أن يجلس لساعات مع مستشاريه دون أن يتحدث. ونادرا ما يشرکہم في أفكاره. وقد

20. الدولن ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ - المترجم.



فسروا هذا منذ فترة طويلة بأنه حنين إلى الزوجة والأطفال الذين انتزعوهم منه. ولكن في هذا الصيف ونتيجة للمفاوضات مع الجنرال أوبروتشيف تم تبادل أسرة كينيساري بالضباط الذين تم أسرهم. وقبل شهرين عادت كونيمجان وطفليها إلى قريتهم، ولكن مزاج كينيساري لم يتحسن.

لقد أصيب بحزن عظيم في السابق. في العام الماضي قتل الباتير بيتابين، ثم توفي أشخاص مقربون منه مثل المتحدث الشهير والقاضي عليم ياغودي، وكبير مستشاري الضرائب والنفقات سيدك خودجا. ولكن لم يكن هناك وقت للحزن، واضطر مرارا وتكرارا إلى الجلوس على الحصان.

وفي هذا العام حدث له خسائر أيضا. ففي الآونة الأخيرة تركه جولمان باتير. وبعد وفاة خصمه الخان سيرجزي أراد أن يكون مع عائلته التي نزحت مرة أخرى إلى ضفاف إليك. وقد ودعه كينيساري وداعا أخويا سلميا. وأصبحت روحه أكثر فراغا مع رحيل عشرة تالين.

وقبل بضعة أيام اختفي جوسوب - يوسف جيربروت الذي كان كينيساري صريحا معه بشكل خاص. وهذا لم يسبب للخان تلك السورة المألوفة من الغضب.

تهند كينيساري عندما علم باختفاء البولندي الهارب وقال:

- لقد كان طائرا طار إلينا مصادفة!

- على ما يبدو أن بركتنا ستجف.. أتمنى له أن يكون سعيدا شريطة أن لا ينضم إلى مواطنه بيستين.

بيسونتين- "بياتيكوبيتشني" كما يسميه الكازاخ هو الجنرال فيشنفسكي البولندي الأصل قائد جيش القوزاق السيبيري.

لقد كانوا يجلسون هنا منذ الظهيرة. وقد اعتقد كل من تايماس وأبلغازي أن كينيساري قد استدعاهما للتشاور قبل اجتماع الغد. كان على جميع الأبطال والبكوات أن يجتمعوا هنا غدا لمناقشة المسائل الهامة. لكن كينيساري تحدث فجأة عن شيء آخر.

- لقد رأيت حلما بالأمس. - كان يحضر الأرض بمقدمة حذاءه دون أن يرفع رأسه. - لقد رأيت وفاتي. وأريدكما أن تفسرا المغزى.

تبادل المستشاران النظرات، ثم التزما الصمت. وتكلم أولا تيماس حسب أقدميته في السن. وكانت كلمته مهدئة فقال:



- الحلم هو روث الثعلب يا أيها الخان الجليل. لا تأخذ هذا الحلم على محمل الجد.

هز كينيساري رأسه بالنفي، وكان من الواضح أنه لن يقدر أحد أن يقنعه بعشوائية الحلم الذي رآه.

- حلمت أننا انتقلنا من هنا إلى بلخاش. ثم استولينا على قلعة ميركي، وقد توجهت إلى جيراننا أصحاب الرفعة المنابان القييرغيزيان أورمان، وجانتي باقتراح لتوحيد القوى ضد خان كوكاند وأن ننشأ معاً دولة مشتركة.

انتعش أبيلغازي وقال:

- هذا معقول! - إن الملك الأبيض بعيد عنهم، ولقد طفح الكيل بهم من كوكاند.

سأله تايماس:

- وإذا لم يوافق المنابات؟

- إذن نأخذ مراعيهم بالقوة!

- ولكن هذا ليس عدلاً!

- وهل الملك الأبيض عادل عندما ينزع المراعي الخاصة بي؟

لقد غضب كينيساري على المنابات، وكان على استعداد أن يغرق في الدم خيام القرغيز الأبرياء الذين كان مصيرهم أسهل من مصير زملائهم من رجال القبائل. وبدأ يحكي مرة أخرى:

- لقد نظرت إلى أعين المناب النبيل أورمان ورأيت فيهم عطشاً للسلطة. إنه هو نفسه أراد أن يصبح خانا. بل وقرأت أيضاً تهديداً في عينيه. لقد كان يفكر في الثلاثة آلاف روبل الفضية والميدالية الذهبية التي وعد بها بيسنسي مقابل رأسي. ثم رأيت الباتير سوريك المقتول لأن المنابات لم يفوا بالمعاهدة التي عقدناها معهم. وكثيرون ما كانوا يأسرون رعايانا لذلك كان علينا أن نقاتلهم.

- يا الله! - رفع أبيلغازي يديه إلى السماء. - إننا لا نحتاج إلى الحرب حتى في الحلم. لقد تعب الناس منها.

قال كينيساري بحزم وهو ينظر مباشرة في عيني ميسرته:

- نعم لقد رأيت بعد ذلك معركة رهيبية! - وقد اهتزت الأرض من البكاء على الأموات..



تلاأت عيون كينيساري، وسرى الصقيع في جلود مستشاريه اللذان كانا يعرفانه جيدا.

حاول تايماس الاعتراض فقال:

- لكنه مجرد حلم!

وافق كينيساري ونظر إلى مكان ما بعيد في السهوب وقال:

- نعم إنه مجرد حلم! - لقد حدث ذلك في جبل كيكلي على ضفاف تشو. على قمته وقف جيش الماناب أورمان، وعلى قمته ميتوب وقفت أنا. وبجانب الماناب على قمة كيكلي التي تسمى أولي شيني - "ذروة القديس" - كان يقف بيشبكسكي كوش بييجي أليشرداتكا. ويهددونني بقبضة يظهرونها لي من على جبل أكثر علوا. وهناك على الجبل الجليدي تحت الغيوم رأيت بيستينين بوضوح.

تنهد تايماس بصعوبة وقال:

- ربما لن يكون الأمر هكذا بالضبط ولكن من الممكن أن يحدث أي شيء!

واصل كينيساري النظر إلى مكان ما بعيد، وكان صوته خاليا من العاطفة وقال:

- إنه مجرد حلم!

- لقد أرسلت إليكم مائة رجل مع مدفع سحري ولن يفلت منكم كينيساري الآن! قال لهم بيستينين ذلك وصوته يردد في الوديان. أنظر أنا إلى أسفل، وأرى جنودا معهم مدفع سحري. إنه مثل الساموفار وتطير منه القذائف مثل البازلاء.

مسح تايماس العرق عن جبينه وقال:

- ما تفكر فيه بالنهار تحلم به بالليل!. أتذكرون يا خاني ذلك الكتاب الذي أخذه جوسوب من الضابط الذي كنا قد أسرناه. لقد كان مكتوبا فيه أن الناس سيخترعون قريبا مثل هذا المدفع. لقد سألتهم أيضا جوسوب عن ذلك.

واصل كينيساري حديثه:

- في الليل، أضاء جبل ككلي بالنيران، وبدالي أنها ملايين. - وكان الأعداء كالنجوم في السماء، ولكن رأيت فقط وجوه المانابات أورمان وكاليجول وكوش بييجي أليشر. "أخرج إلى المعركة!" لقد صحت على أورمان لكنه ضحك والتفت إلي بأعضائه التناسلية.



استمع كل من المستشارين إلى كينيساري بقلق، دون أن يقاطعوه. لقد كانوا يعرفون أن هذا ليس حلما بسيطا. وأن مصيرهم أيضا يمكن أن يعتمد على حلم دموي غير عادي.

... لقد كان حلما. من ناحية جنود الملك الأبيض، ومن ناحية أخرى جنود خان كوكاند، ومن ناحية ثالثة محاربو المانابات أورمان، وكاليجول في قبعات بيضاء. ولكن كان أسوأ شيء هو المدفع الذي يلقي ألف قذيفة في اللحظة الواحدة. ولم أستطع أن أحول عيني عنه.. هرع نوريزباي إلى الأمام على حصانه أكاوز، ثم سقط مقطعا إلى أشلاء صغيرة. وخلفه يقتل أفضل الأبطال واحدا تلو الآخر. وحده أجيياي ينجح في الخروج من خلال حلقة الأعداء. ومن خلفه ألقى نفسي في مياه نهر كاراسو المستعرة. ويتدفق الدم مني، ويحمل الماء حصاني بعيدا عني. ويسندني باتيرمورات، وكارا أوليك من الجانبين. وساعدني الفرسان الناجون من الموت في الوصول إلى الشاطئ.

قال أبيلغازي:

- إنه أمر سيء أن تعبر الماء في الحلم.. هذا يعني أن صعوبات غير عادية تنتظرنا في المستقبل.

- ولكنكم عبرتم؟

- نعم عبرت. ولكن على الجانب الآخر من النهر ظهر على الفور جنود تيوريجيلدي قائد الماناب كاليجول. ولم يكن لهم حصر. أتذكر فقط الضحك الوحشي والزئير لأحد الأشخاص. أفتح عيني وأرى نفسي في الأسر.

وأقف وسط الأعداء المتهللين، ويصيح في الماناب كاليجول لكي أقرأ صلاة الجنازة لأنه سوف يقطع رأسي الآن. ولكنني لم أرد أن أنحي حتى لله!

تبادل المستشاران النظرات، وخفضا رأسيهما.

قال كينيساري وهو يهز كتفيه:

- لم أتذكر الله.. لقد رأيت حياتي كلها في ساعة وفاتي. لقد تذكرتكم أنتما يارفقاء السلاح، وتذكرت الأقارب، والأصدقاء. وفتحت لي فجأة ساري أركا كلها لي من الحافة إلى الحافة. وكذلك جبال كوكشيتا والزرقاء. وغنيت أغنية الوداع وأتذكر كل كلماتها.



وهاهي تلك الأغنية..

تحدث كينيساري بهدوء وهو يتمايل:

وداعا يا ساري أركا! يا أرضي الرحبة
حيث تجولنا مثل أسراب البجع.
ولكننا لم نتغلب على مشاجراتنا
وفي السهوب بياض من العظام المشتعلة.
وداعا يا ساري أركا ويا كاراتاو. وإنني
لم أتغلب على كوكاند، ولم أشفي غليلي.
وأيضا ذهبت فإن أرض الأباء
تقابلني بقبر كوركوت.

بعد الانتهاء من الغناء وضعت رأسي تحت سيف كاليجول، وشعرت بالشفرة الباردة.
وسقطت رأسي من على كتفي.

مسح تايماس العرق عن جبينه مرة أخرى وقال:

- إنكم تقصون أشياء رهيبة يا خاني. لكن الناس يقولون إن من يحلم بموته سيعيش
طويلا.

قال كينيساري بهدوء:

- الغراب يعيش أطول من الجميع ولكن من يهتم به.. انتظر فالقادم هو الأهم!

- وما عساه يكون مهما بعد ذلك. حسنا ما الذي حدث لرأسك يا كينيكي؟

لوح كينيساري بيده وقال:

- هذا غير مهم! - إنني لم أطلب منكم أن تفسروا وفاتي. لقد مت ولكنني واصلت رؤية
وسماع كل شيء. لقد بكى المخلصون لي عبر السهوب وناحوا. ولكن من كل هذا
سمعت بوضوح كلمات المغني العراف نيسانباي.

أغلق كينيساري عينيه مرة أخرى، ثم تمايل وقال:

أيها الحصان الكستنائي إنه قد أحبك كثيرا!

وقدم لك الشوفان

وحلب لك لبن الفرس



ولم تعرف أي مشروب آخر.
لقد كان على يقين أنه معك
ويبعد عنك جميع المتاعب.
فماذا حدث أيها الحصان المجنح؟
أين سيدك؟
ولما بوفاة كينيكي
علمت أنا، انطفأ النور في عيني.
أه يا إخوتي الفقراء
إننا أيتام، ولم يعد لدينا أب!
لن ننشربعدك جناح
ولن نرفع أبدا مخالبتنا.
لقد قفز الخنجر على الحجر
وانشق إلى نصفين.

فتح عينيه بصعوبة كما لو أنه قد استيقظ لتوه، ونظر إلى وجوه أقرانه المشدوهين
وقال:

- كانت هناك أغاني أخرى كثيرة.. ورأيت الكثير من الرؤوس المعروفة لي مقطوعة.
لقد كانت رؤوس محاربينا. وقد وضعوها على عربات عالية، وحملوها كهدية لخان
كوكاند. وقد رأيت على العربية الأولى رؤوس نوريزباي، وجيكي باتير، وكودايمندي،
وايمان، وأيضا خمسة عشر سلطانا، واثنين من أبنائي. ووضعوا رؤوسهم على أوتاد،
وعرضوها في السوق الرئيسية.
سأله تايماس بصوت خافت:
- وماذا عن رأسك؟..

- لم تذهب رأسي طبقا لرتبتها العالية إلى خان كوكاند. ويبدو أنهم قد ذهبوا بها إلى
بيسونتين الذي كان ينتظر في كابلالا، ومن هناك أخذوها لأبعد من ذلك. ورأيت كيف
ينظر إليها الكثير من الناس، ويتجادلون لمن تكون هذه الرأس. يقول البعض إنها رأس
لص السهوب، ويقول البعض إنها رأس زعيم الشعب، ويقول آخرون إنها رأس حفيد أبلاي
المتعطش للسلطة.



رد تايماس على كلماته مثل الصدى وقال:

- وما هورأيكم؟

نظر إليه كينيساري متفكرا، وأجاب بهدوء شديد:

- أعتقد أن كل هذا حقيقي.

ابتعد عنه تايماس في خوف وسأله وهو يتلعثم:

- وماذا حدث بعد ذلك مع رأسكم؟

- لا شيء. أتذكر، كما لو أن أرشابوك يمسكها بيد ممدودة. وقال شخص آخر يرتدي

أيضا زي جنرال ذي أزرار من الذهب. "أخيرا رأيته يا خان كينيساري!" - "ولكني رأيته
ميتا!" -

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك يأخذون رأسي إلى القيصر نيكولاي ثم يعرضونها في قصر الشتاء. إنه لأمر

مؤسف أن لا يكون جوسوب هنا. إنه وحده من كان يستطيع أن يفسر هذا الحلم. ومسح
كينيساري جبهته بكفه. - الأسوأ سيأتي بعد ذلك!..

اندهش أبيلغازي وقال:

- نعم أسوأ من ذلك!.. لقد هب إعصار دموي فوق السهوب. وبدأت العشائر والقبائل

الكاراخية تقطع بعضها البعض انتقاما لموتي، ودفاعا عن نفسها من هذا الانتقام. ورأيت
رأس الماناب توريجلدي في الحلم مقطوعة بأيد عوائل جلايري، وألبان، وسوان، ثم رأس

أورمان لأنه سرعان ما حدثت نفس المجزرة بين مانابات القيروغيز كما بين سلاطيننا.
نعم.. - وأومضت عيون كينيساري بالفخر. - لكن رؤوسهم أبقوها في الطابق السفلي.

أما رأسي فقد أظهروها!

أسوأ من ذلك؟

- هل أنتم نادمون على الدم المسفوك يا كينيساري؟

قال كينيساري بقسوة:

- إن توحيد قطيع من الذئاب البرية أسهل على من توحيد شعبي! - وإنني لست ذلك

الشخص الذي يندم على شيء فعله. ولكن يكفي هذا - من الأفضل أن تحاول أن تفسرا
حلمي إذا كان ذلك في إمكانكما. وفكرا في ما إذا كان مثل ذلك يمكن أن يحدث

في الواقع!



خفض تايماس رأسه وقال:

- ربما.. - لا يجب عليك أن تغادر ساري أركا. ويجب عليك أن تتصالح مع الملك الأبيض

يا كينيكي!

الفتت كينيساري إلى أبيلغازي وقال:

- وأنت يا ميسرة كيف تفسر هذا الحلم؟

هز أبيلغازي كتفيه، وقال:

- لا يسعني سوى تكرار نصيحة الميمنة. - إن سويوك توري ورستم يدعوانك إلى

أراضيهما بالجزء الأكبر. وعلى الرغم من أنهما أيضا من نسل أبلاي خان، وأقاربك من

الدرجة الأولى فلا يجب عليك أن تثق بهما حتى النهاية.:

- لماذا؟

- إنكم تعلمون أن سويوك توري كتب في عام الأرنب التماسا للملك الأبيض ليحصل

هو وشعبه على الجنسية الروسية. أما السلطان رستم فقد ذهب في العام الماضي بينما كنا

نحارب إلى بيسون في كابل، وأخذ منه قفطانا مخططا بالذهب تقديرا لخدماته للملك

الأبيض. وهذا لا يعني بالطبع أنهما سيخونونا، ولكننا لا يجب أن ننتظر منها شيء

سوي المراعي للماشية. وهل هناك ما يكفي من المراعي لجميع الذين يريدون أن يغادروا

معنا ساري أركا؟ سيكون من الضروري قتال كوكاند بسبب الأرض. وخوارزم وبخارى

يتقاتلون الآن لذلك كوكاند قوية، لن يمكننا التغلب عليها. ورغما عنا سنطلب

المساعدة من المانبات القيروغيز رغم الهاجس الذي جاءك في الحلم.

قال كينيساري بعدة:

- إنني سوف أهزم المانابات!

- هذا يعني أننا سنضيف المانابات إلى قائمة الأعداء الكثيرين. لا، الآن يجب علينا أن

نلجأ إلى العقل بدلا من قوة السلاح. لأن حلمك يتنبأ بالمتاعب في الواقع. وماذا سيكون لو

أن خان كوكاند، والمانابات القيروغيز، وأعدائك المحليين، قد اتفقوا ضدنا؟ فكل منهم

لديه ما يتذكره.

لم يجب كينيساري على هذا السؤال، واستغرق في تفكير عميق. ظهر القمر

منذ فترة طويلة. وساد الهدوء في السهوب، ولم يرى غير ظلال حراس الخيول من مفرزة

باتيرمورات، وعلى مقربة منهم كان كارا أوليك الأصم يتنفس بصعوبة خلف الحجر.

همس تايماس:

- نجمتي لا تزال مشرقة!



وفقا للاعتقاد الكازاخستاني إذا سقطت نجمة فإن شخصا ما حتما سيموت. ويجب على أول من يراها أن يهمس بهذه الكلمات حتى لا يصبح ضحية. وقد همس لهما أيضا كينيساري وأبيلغازي. وفجأة في مكان ما في السهوب شرعوا في الغناء. وكان من الممكن من خلال اللحن والأداء على الفور معرفة أن أحدا ما من ساري أركا يغني. كان يغني كالنسر الذهبي بأعلى صوت، ثم يقع إلى القاع كالحجر، ومرة أخرى يرتفع تحت الغيوم. استمع كينيساري وضحك بشكل مفاجيء. لقد تذكر الأسطورة عن الأغنية التي حكاها من قبل الباتير بوخارباي.

كان بوخارباي ينحدر من عشيرة تابين من الجزء الأصغر، وكان يملك قرية صغيرة، وكان صغيرا وعاريا (فقيرا) مثل الصقر. ومنذأ شبابه كان يكن كراهية شديدة لموظفي خان كوكاند. كان قد أحب فتاة من عشيرة شوميك التي ترعى بجوار عشيرة تابين في الروافد الدنيا من سير داريا. وجمع المهر بمساعدة الأقارب، ودفعه، وسرعان ما فكر في الزواج. ولكن في يوم من الأيام جاء إنكشارية خان كوكاند إلى قرية شوميك لجمع المتأخرات ولسداد الدين فأخذوا معهم عشرين من أصغر وأجمل النساء والفتيات. وكانت عروس بوخارباي واحدة منهن.

بعد ذلك انضم بوخارباي إلى سارجان وكينيساري، وقام بغارات كثيرة على ممتلكات كوكاند، ولم يرحم قط بصفة خاصة جامعي الزكاة الذين وقعوا في يديه. وذات مرة تمكن من أن ينتزع من الكوكانديين ثروة، وماشية وأسرة البك كوريش من عشيرة شكتا. وكان علي ذلك الرجل رغما عنه أن يزوجه ابنته خاصة وأن الفتاة نفسها كانت تريد ذلك

ومنذ ذلك الحين بدأ الباتير بوخارباي في الغناء، ولم يكن لدى رفاقه ألما أكثر من أن يستمعوا إلى أغانيه. كان صوته رعديا ومتصدع بعض الشيء. وإلى جانب ذلك لم يكن لديه أي سمع على الإطلاق، وكان يغنى كل الأغاني بلحن واحد. وكان عندما يغني ينسى الكلمات، فيدخل في النص كلمات اعتراضية لا معنى لها مثل «الأولاييائي» أو «خالوليليائي». وقال بوخارباي وهو يضحك أن الناس في بلادهم ليسوا موسيقيين كما في ساري أركا حيث يغني الصدى نفسه بدلا من الإنسان.

كان الجميع يعرف الأسطورة القديمة عن أغنية الطائر. لقد حلق فوق السهوب ولم يتوقف عند الجزء الأكبر، وبقي فترة قليلة فوق الجزء الأصغر ثم حلق طويلاً على ساري أركا حيث يوجد الجزء الأوسط.



بالفعل لا يوجد في أي مكان آخر مثل هذه الأغاني سوى في ساري أركا!.. تنهد كينيساري بعمق. إن ما يتوقعه يحدث بالفعل بإحساس غير مفهوم. لم تخدعه نجاحات العام الماضي. بعد ذلك مباشرة بدأت المشاحنات بين البكوات والشيوخ من أرجين، وكيبشاك، وشيكتي، وشومك بقوة متجددة. وكان الشتاء الماضي قاسيا جدا حتى أن العديد من القرى قد جاعت. وكان من غير المتوقع أن يأتي مدد جديد من المحاربين.

وكانت الضريبة الأكثر إيلاما بالنسبة له هي بناء التحصينات على ضفتي تورجاي وأوليتا. لم تكن القضية فقط في وجود القوات التي يمكنها الآن التدخل في أي لحظة في نضاله ضد السلاطين المعاديين له. كما أن المهاجرين والقوزاق لم يشغلوا مساحة كبيرة بالمقارنة مع السهوب كلها. بل كان السبب الرئيسي في ذلك هو التحكم في المسارات القديمة لتربية المواشي المتنقلة.

كان الكازاخ يقضون نصف عمرهم منذ الولادة وحتى الموت في الترحال. فما أن تبدأ الأمطار في التساقط، وتهب الرياح الباردة من الشمال حتى يزيلون آلاف القرى من أماكنها، ويبدأون مع ماشيتهم في التحرك على طول العديد من السهول الفيضية للأشهر والأنهار الصغيرة والوديان من الشمال إلى الجنوب. وكانوا يسيرون مثل الطيور المهاجرة من قرن إلى قرن في نفس المسارات المخصصة لعشائرتهم. وكانوا يعودون معا في الربيع. وهاهم قد بدأوا في بناء التحصينات تحديدا في أكثر الأماكن المفصلية على الطرق القديمة.

كانت القرى تتحرك مدة شهر أو شهر ونصف، أو شهرين من غير تعجل، أما عشرات ومئات الآلاف من الخيول والأغنام والجمال فكانت ترعى على طول الطريق. وما إن يظهر على الطريق حصن أو مدينة جديدة حتى يبدأ الرحل كالطيور الخائفة التي قابلت عقبة بشكل بشكل غير متوقع يحثون الخطى وهم في قلق واضطراب. بالنسبة للناس ربما كان من الجيد العثور على المأوى، والراحة، ولكن الماشية تحرم من الطعام يومين أو ثلاثة أيام. وبدأ الوباء، الذي لم يكن من الممكن منعه بأي وسيلة كانت.

وبعد ذلك تعلم الكازاخ إعداد الطعام مقدما، وبدأوا في الانتقال إلى تربية الماشية المستقرة. ولكن حينذاك في البداية كانت السهوب تنظر إلى هذا على أنه كارثة.

وطلب كينيساري مرة أخرى السلام من حاكم أورينبورج العسكري. وفي رسائله تخلى بالفعل عن مطالبه "الأبلاوية" السابقة في الاستقلال، وطلب فقط أن يبقوا تحت إدارته الأراضي التي لم تدرج بعد في المحافظة العامة. وكتب إلى أوبروتشيف وجورتشاكوف أنه يطلب أن تحصل جميع العشائر والقبائل الخاضعة له على المواطنة الروسية، وإذا أقاموا



له مقرا في أوليتا و فانه يتعهد بالايمان والحقيقة أن يخدم روسيا. وقد أرسل رسائله من خلال وسطاء شورمان أسات أوغلي، وباي محمد جمانشي أوغلي، وتورليبيك سلطان وضباط الاتصالات جيرن ودولغوف.

كان الجنرالان أوبروتشيف وجورتشاكوف اللذان كانا على دراية بالوضع في السهوب وكانا محبطين من فشل جيمتشوجنيكوف وديديكوفسكي في العام الماضي يميلان إلى الموافقة على مقترحاته، وإجراء تبادل للأسرى كبادرة. ولكن هنا تدخل الحاكم المطلق شخصيا.

فمنذ فترة طويلة مد القيصر نيكولاي الأول بصره إلى خانيات آسيا الوسطى، ولم يكن يريد أن يكون بينه وبينهم أي مناطق مستقلة أو عازلة. وقد كتب قبل عام بخط يده على تقرير الكونت كيسيليف عن الوضع الداخلي لقبيلة بوكيف قرارا هذا نصه: "في المملكة الواحدة لا يمكن أن تكون هناك مملكة أخرى!". وهذا في جوهره حدد سلفا السياسة تجاه كينيساري.

قطع الجنرال أوبروتشيف فجأة جميع العلاقات مع كينيساري، وأمره بنزع سلاحه. وفي مواجهة أعداء كثيرين وأقوياء كان هذا يعني فقط موتا محققا.

في ذلك الوقت كان هناك حدث آخر حسم نهائيا نتيجة القضية. لقد سمع اثنان من أكبر الإقطاعيين في السهوب من عشائر أرجين ونيمان وهما إردن سانديباي أوغلي، وأكوشكار كيشكنتاي أوغلي عن المفاوضات بين الجنرال أوبروتشيف وكينيساري. وكانا غنيين بشكل لا يصدق. فقد امتدت أراضيها من أتاباسار إلى سير داريا وشملت السهول الفيضية لأنهار كاراكوين كاشيرلي، ويسيل، وترسكان، وبعض الأراضي في كارا كنغير، وساري كنغير، وساريسو، وسفوح أرجينات، وكيشيتا، وأوليتا. وقد ألف الناس أقوالا وأغاني عن ثروتهم وقوتهم. وهذا ما غنى عنه إردين:

أبناء يسنباي يتبخثون في الفراء

أما إردن، ودوزن فيردتيان فراء الثعالب والسمور.

إنهما لا يستطيعان أن يحصيا ماشيتهما بالرؤوس

وإنما بالمئات والقطعان.

وقد تغنوا بشروة أكوشكار بلغة لا تقبل بلاغة:

إنه من جبال ألتاي ذلك الغني

الذي أخضع لإرادته كل من حوله



ويشرب من البحيرة بجوار قريته.
أربعون ألفا! الماء يغلي بالكوميس.
كم هو غني يسنباي، فكر بعقلك
ذات مرة في أورينبورج باع على الفور
ودون مساومة خمسمائة جواد مدرب كقطيع واحد.
أربعون ألفا! الماء يغلي بالكوميس.
وهناك العشرات من مثل هذه البحيرات بجواره.

كان كلاهما يشعر بالقلق إزاء المفاوضات الجارية، وعندما سمعوا أن كينيساري يطالب بمقرفي أوليتاو، غادر النوم جفونهما. إنه وحده الذي يستطيع أن يصبح منافسا جديرا في السهوب، ويدفعهما إلى الخلفية. بالنسبة لهما كانت مسألة حياة أو موت، وتصرفوا وفقا للتقاليد الإقطاعية القديمة. بعد أن دفعوا ألفا من الخيول الرائعة إلى كوش بيجي لياشكار الطشقندي كهدية لقنوه ما يجب أن يقوم به. كان لياشكار نفسه العدو اللدود لكينيساري. ذات مرة هاجمت مفرزة غير معروفة بالليل حصن أوليتاو وقتلت حاميتها والأسر التي كانت هناك. وقال الناجون إن المهاجمين كانوا يصيحون «أبلاي!.. أبلاي!...».

ناهيك عن حقيقة أن كينيساري كان على بعد مئات الأميال من هذا المكان فإنه لم يكن من المفيد له إنتهاك السلام في ذلك الوقت. فلقد حصل عليه بنفسه بشق الأنفس. ولكن من خلال جهود السلاطين المعادين له تم الإبلاغ عن هذا كأنه من أفعاله. لقد كان الذئب مذنبا أنه كان رماديا.

لم تظهر من قبل قط مثل هذه القسوة الحادة كما في هذه الغارة، ولم يعد الجنرلان أوبروتشيف ولود يجنسكي الذي حل محل محل جينز واللذان كانا يؤمنان بها يقبلان رسائل كينيساري. وكانا يعتقدان اعتقادا حازما أن الذئب الغاضب لا يمكن أن يوقفه سوى الموت أو السجن.

في نهاية شهر كوكيك - أبريل جاء ضابط الاتصال دولغوف إلى قرية كينيساري مع أمر صارم. ولم يسلم لكينيساري إلا بعد شهر ونصف. وقد جاء فيه:

1. إن جميع قرى الكازاخ التابعة لمحافظة أورينبورج، والذين يتجولون في سهوب قيرغيزستان هم جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الروسية، ويخضعون للضريبة بمقدار روبل وخمسين كوبيك من الفضة عن كل أسرة.

2. بما أن القرى القيرغيزية ستدفع الضرائب مباشرة إلى الخزينة القيصريّة فإنه يحظر جمع الزكاة منهم.
3. يتمّ نظر جميع الجرائم الخطيرة وفقا لقوانين الإمبراطورية الروسية. وتختص لجنة الحدود بنظر حالات دفع الديون التي تتجاوز مبلغ خمسين روبل.
4. يمنع منعاً باتاً منح اللجوء إلى الروس الهاربين والتتار والباشكير. ويجب تسليم مثل هؤلاء الموجودين حالياً في معسكر كينيساري إلى سلطات الإمبراطورية الروسية.
5. وبما أن كينيساري يعدّ أحد رعايا صاحب الجلالة الإمبراطور فإنه يحظر عليه أن يكون له علاقات مستقلة من جانب واحد مع الأعداء سواء كانوا أشخاصاً أو ودولاً.
6. يحظر على السلطان كينيساري من الآن فصاعداً أن يمنح نفسه أو أقربائه أو رفقائه درجات أو ورتب لم تقرها حكومة صاحب الجلالة الإمبراطور ولم يوافق عليها بمراسيم.”

ورداً على طلب كينيساري بمنحه حق استخدام المراعي في إرجيز، وتورجاي، وساريس ويسيل، ونورا كتب الجنرال لود يجنسكي: ”إننا نمنحكم الحق أنتم وعائلتكم وأقربائكم في استخدام وادي كارا كوغا من أجل الرعي حيث ستقضون به الصيف والشتاء.“ وقد أبلغه رئيس اللجنة الحدودية شفويًا عن طريق دولغوف أنه يمكنه في فصل الشتاء أن يرتحل فقط إلى الشمال من هذا الوادي، وفي الصيف يعود أدراجه. ولكن لم يكن يسمح لكينيساري أو أقاربه بأي حال من الأحوال الذهاب إلى الضفة اليسرى من أرجيز وكارجو، أو التجول إلى أعالي إرجيز وتورجاي.

لقد كان هذا شرطاً مستحيلاً، وبطبيعة الحال أشار به السلاطين الحكام المعادين للخان. غضب كينيساري غضباً شديداً لكن لم يكن لديه القوة للقتال. ومثل الذئب المطارد قضى النصف الأول من الصيف في اليورتا البيضاء الخاصة به لايعرف ماذا يفعل. وقد أطلق دولغوف واعداء بإرسال رد.

ثم هذا الهجوم غير المتوقع على أوليتاوا الذي يشكون في أنه قد قام به. والحل الوحيد هو قبول العرض المرسل إليه من خلال نوريزباي من الجزء الأكبر من سويوك توري، والنزوح إلى هناك. لقد كان يشعر بالفخ المعد له هناك، وقد أكد الحلم ذلك. وجلس كينيساري على الصخرة ونظر إلى الليل.



ولم يتوقع أحد أن يقبل كينيساري الشروط التي اقترحتها الجنرال لود يجنسكي. وسوف يتحتم عليه بعد أن فقد الدعم الشعبي الواسع أن ينسحب من الأماكن المأهولة بالسكان، وبعد ذلك سوف تتنفس سلطات أورينبورج الصعداء. أما الأمير جورتشاكوف فقد استعد بالفعل لنقله إلى أراضي الجزء الأكبر.

في ذلك الوقت كانت البوز الاستيطانية لقوات سيبيريا الحدودية في كابل وليبسي. ثم وصل إلى هناك الجنرال فيشنيفسكي - بيسون ومعه الأغوات السلاطين من مناطق كاركارالينسكي، وإياغوز، وكوكبكتي. بالإضافة إليهم وصل إلى كابل بكوات السهوب المؤثرين كوسبيك، كونانباي، باراك، سويوك توري، ورستم وغيرهم، ووجهت الدعوة إلى المانابات القييرغيز أورمان، جانتاي، وكاليجول. وقرروا عدم منح ملجأ لكينيساري وقومه، وسرعان ما أكدوا ذلك باتفاق خاص:

”في اليوم الثالث من يونيه عام 1846 م نحن سلاطين وبكوات عشائر الجزء الأكبر دولات، وألبان، وسيبان، وشراشتي، وجالير، وكذلك السلاطين الحكام لمقاطعات كاركارالين، وإياغوز وكوكبكتي الموقعون هنا في حضور رئيس اللجنة الحدود لغرب سيبيريا الميجور جنرال فيشنيفسكي قد وقعنا هذه الاتفاقية، ووضعنا عليها أختامنا، وأقسموا أنهم يعدون السلطان كينيساري قاسيموف متمردا ضد صاحب الجلالة الإمبراطور، ومثيرا للمتعاب. ولذلك فإننا نتعهد بعدم إقامة أي علاقات معه، وعدم تزويده وشعبه بالأراضي التابعة لنا سواء من أجل المراعي أو من أجل الاستقرار. وعندما ينتقل من أراضينا نتعهد بإبلاغ القيادة بجميع تحركات مفارز كينيساري.“

لم يعرف كينيساري حتى الآن كيف سيحدث كل هذا. ورتعت في رأسه أفكار عن النضال القادم. وتخيل كيف سينتقل إلى ضفاف تشو وإيلي، وإذا اضطر إلى الدفاع عن نفسه ضد القوات السيبيرية الحدودية فسيقضى فصل الشتاء في بلخاش. وهناك شبه جزيرة كمال الكبيرة والتي يبلغ طولها حوالي سبعين ميلا وعرضها خمسة عشر ميلا. وفي فصل الصيف سوف يذهب إلى أويلي آتا، وميركا، ثم يوحد الكازاخ الغاضبين، وقييرغيز مدينة سايرام، وتشو، وسير داريا ضد خان كوكاند. ولن يدع أعدائه ينعمون بالهدوء!..

قطع كينيساري الصمت فجأة، وقال:

- إذن فماذا تقترحان يا ”ميمنة“ ويا ”ميسرة“؟

قال تايماس:



من الأفضل أن نجرف القليل مما تحت أيدينا من أن نجلب من بعيد. - إن ترك ساري
أركا يعنى فراق الحلم إلى الأبد..

قال كينيساري وقد تحرك حاجباه كثيفي الشعر فوق عينيه وقال:
- إذن أنت تقترح على أكون صابرا ومتسامحا كدرويش؟

- لم يبق لنا شيء غير الصبر. وحين يصل الملك الأبيض إلى هنا فإنه سيتغلب علينا
حتى في ممتلكات كوكاند. فالروس شعب عظيم، وقوى. وأنت تعلم أنه ليس جميعهم
أرشابوك، وأوبريتش أو بيسونتين. يجب أن نتفق معهم.

سأل كينيساري بغطرسة:

- مع الرعا؟

خفض تايماس رأسه.

قال أيلغازي:

- في الأمام ينتظرنا الموت.. - وحلمكم ينبئ بذلك.

قال كينيساري بهدوء:

- كنت أعرف هذا عندما رميت حربتي لأول مره في سن الثامنة عشرة.
قال "تايماس":

- لكن هناك كثير من الناس سيذهبون معنا.

- ما هو مقدر لي ليكن مقدرًا أيضًا لشعبي.

- ولكن ماذا إذا لم يرغب الناس في مغادرة أرض أجدادهم؟

- فليأتى معنا من يريد.

كان في صوت كينيساري لا مبالاة.

في صباح اليوم التالي تجمع جميع الأبطال، والبكوات، وقادة العشائر عند القبر

السهي القديم. وقام كينيساري عن الحجر وقال بايجاز:

- لم يبق لنا خيار آخر غير الرحيل إلى إيلى وتشو.

صمت الناس، وأخذ بعضهم يطعنون الأرض بمقدمة أحتيتهم العالية.

وقف تاوكي باتير وقال:

- إن الخيول خائرة القوى، والناس قد أصابهم التعب. وعندما نصل إلى تشو سيحل فصل

الشتاء الذي يكون في أرض غريبة أسوأ من العدو. من الأفضل أن نموت في وطننا. وفي أسوأ

ال حالات لن ندفن.



وقف إيمان باتير حاد الطباع على قدميه، وقال:

- ماذا تقول يا تاوكى باتير؟! إذا كان الخان كيني يقترح هذا على شعبه فهذا يعنى أنه يعرف الطريق للخروج من الوضع الصعب. إنه يريد أن يخرجنا من فم الملك الأبيض. وليس فقط لأنه وطني أن أبقى فيه ليبتلعونى مع جلدي. إننى على استعداد للذهاب خلف خاننا مع الخمسين منزلا التابعين لي.

تحدث القادة مدة يومين. ثم قرر ثلثهم أن يذهبوا خلف كينيساري، وبقية الأغلبية في ساري أركا.

وفي يوم خريفى بارد انقسموا، وتحركوا في اتجاهات مختلفة. وساد السهوب بكاء ونحيب.

وقابلت أولئك الذين عادوا إلى ساري أركا كراهية شديدة من قبل السلاطين الحكام. وكان كونور كولدجا أشدهم غضبا. ولكنه لم يبق في منصبه فترة طويلة. وسرعان ما وصلت لجنة خاصة من أومسك للتحقيق في جرائمه التي خرجت حتى عن نطاق ذلك الوقت.

كان الضابط الشاب يسيركيجن عضوا في تلك اللجنة. وظلت زوجته كوميس في سانت بطرسبرج أما هو فقد جاء خصيصا لمنع كونور كولدجا من رشوة الموظفين ويخرج من جديد ناشفا من الماء. وقد عزل كونور كولدجا من منصبه، وقدم للمحاكمة.

مس كينيساري حصانه بالمهاميز، وتبعه أجيبياي، وبوخارباي، وجيكي باتير، وإيمان، وكوديامنتى، وناوريزباي، وتايماس، وأبيلغازى، وشقيقته المحاربة بوباي محافظين على مسافة معينة خلفه. ومن الخلف تحركت مجموعات نادرة من الرجال.

وفجأة بدأت الدومبرا تصرخ، وتبكي، وغنى صوت عجوز أجش:

وقف كينيساري غارقا في التفكير.

يودع وطنه كما ودع الحياة.

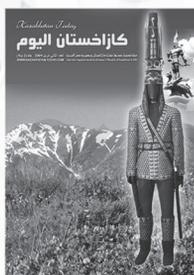
الله رحيم. - قالها ولوح بيده

وسرى أنين في كافة أرجاء المخيم..

غنى دوسكوجا هذا بشكل حزين. وبقى المغنى في ساري أركا. وكلما ابتعدت القافلة يصبح صوته أضعف. ورغم ذلك سمع مدة طويلة ممزقا للروح.

لم يتحمل كينيساري فغرز المهاميز في أجناد جواده. قفز الجواد، وحمله ليقابل حلمه.

من إصداراتنا



Kazakhstan Today
كازاخستان اليوم

التكليفات الرئاسية في كازاخستان

مؤرخة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

عدد: 550
تاريخ النشر: 2009

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

Kazakhstan Today
كازاخستان اليوم

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي
محررة: نوريه حناوي

رئيس مجلس الإدارة و رئيس التحرير
د / حسين الشافعي
المراسلات

جمهورية مصر العربية - القاهرة
114 ش جوزيف تينو - التزهة - مصر الجديدة
القاهرة - جمهورية مصر العربية
Tel.: (+202) 219 27 157 & 219 27 158
Fax.: (+202) 219 27 150
E-mail: h.elshafie57@mail.ru